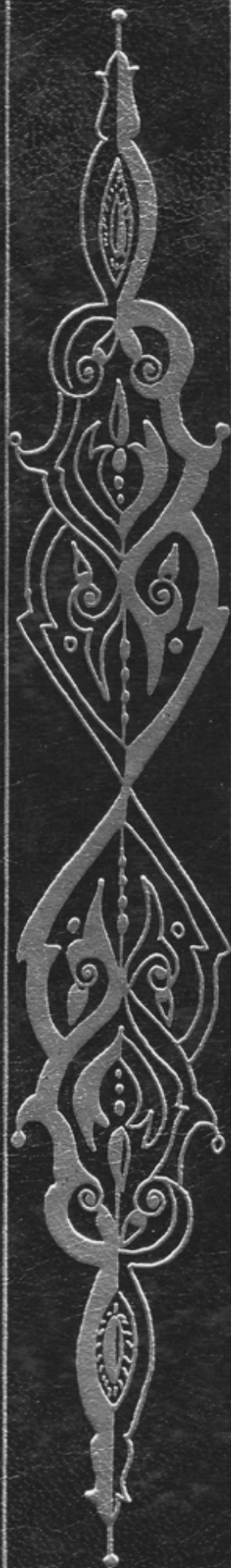


نظريّة
المعروف والاشتهار

دراسة مقارنة لأهم الأسس والفاهيم
التعلّقة بنظريّة المعرفة في الإسلام وبقبليّة
الذاهب لفلسفيّة الأخرى

الدكتور جعفر عباس حاجي

مكتبة الألفين
الكويت



نظريّة
المعروف في الأساطير



نظريّة

المعروف في الإسلام

دراسة مقارنة لأهم الأسس والمفاهيم
المتعلّقة بنظريّة المعرفة في الإسلام وبقية
المذاهب الفلسفيّة الأخرى

الدكتور جعفر عباس حاجي

مكتبة الألفين
الكويت

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

بنييد القصار - شارع نور سعيد - ص. ب. ١٦٣٧٨ - العكادسية
تلفون: ٢٥٢٢٧٩٧ - فاكس: ٢٥٢٢٧٩٧ - ب. ب. ١٦٣٧٨ - العكادسية

طباعة - نشر - توزيع - الكويت - بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة

« الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد وعلى آله وصحبه المنتجبين » .

منذ القدم والأسئلة والتساؤلات حول الوجود وماهيته أو مصدره بشكل خاص ومكونات هذا الكون الفسيح وعلاقاته بعضها مع بعض بشكل عام ، تتزايد وتتشعب كما ونوعاً ، إلى درجة ظهرت العديد من الأطر والمضامين والفلسفات المتباينة حول هذا الموضوع .

وتُشكّل المجموعة المتسقة والمنسجمة من الآراء والأفكار الفلسفية حول هذا الموضوع ، نسقاً ونظرية للمعرفة البشرية التي تُفسر على أساس أنها العلاقة الذهنية بين عقل الإنسان والموضوع الخارجي - أي العلاقة التي تكون بين قوى إدراكنا وبين الأشياء التي ندركها .

والبحث في نظرية المعرفة يشتمل على مجموعة قضايا ومسائل أساسية تتمثل في الأمور التالية :

- ما هي المعرفة الإنسانية ؟ أو ما هي طبيعة المعرفة ؟ .
- ما هي موضوعات المعرفة ؟ .
- مدى إستقلالية الحقائق والأشياء عن أذهاننا ؟ هل للواقع الموضوعي وجود خارج ذهن الإنسان أم هو فقط في الذهن ؟ .

- مدى إمكانية إدراك المعرفة أو الحقائق والأشياء ؟ هل يمكن إدراكها أم لا ؟ .

- أنواع وأشكال المعرفة البشرية .

- مصادر ومنابع المعرفة .

- وسائل وأدوات إكتساب المعرفة .

- درجات المعرفة الإنسانية .

- مقاييس وموازين المعرفة البشرية الحقيقية والصادقة .

- الحواجز والموانع التي تقف حجرة عثرة أمام إكتساب المعارف الحقيقية

واليقينية .

الإجابة على تلك التساؤلات والأمور تتباين تبعاً للمذاهب والنزعات الفلسفية والنظرات الكونية التي تعتنقها المذاهب والأفراد في المجتمع .

والمتبع للمسائل الفلسفية ، يرى أنه بالرغم من وجود جوهر المعرفة وجوداً محققاً ، إلا أن نعت المعرفة من قلة وكثرة ، أو نسبية وإطلاق ، أو فطرية واكتسابية ، هي موضع الاختلاف بين الفلاسفة منذ أقدم عصور الفلسفة الإنسانية إلى يومنا هذا . فهي تارة نسبية وأخرى مطلقة ، أو أنها فطرية فقط وتارة أخرى كلها مكتسبة مصدرها التجارب ، وعلى نفس المنوال بالنسبة لأدواتها ومصادرها ، فتارة تختص فقط في الحواس كما عند هيراقليطيس ، وأخرى الحواس مع العقل كما يرى أرسطو ، وثالثة هي البصيرة كما يرى أفلاطون ، ورابعة هي العقل وحده كمذهب ديكارت ، وتارة أخرى هي القلب والإلهام ، وأخرى الوحي و . . وهكذا .

ففي هذا الكتاب المتواضع ، يريد الكاتب أن يلقي الضوء على تلك التساؤلات والإستفسارات المتعلقة بنظرية المعرفة بشكل مبسط وموجز ، مستلهمين من نور الإسلام بمقدار فهمنا المتواضع له ، التوضيح والشرح لها .

وبالرغم من دقة وعمق موضوعات ومسائل نظرية المعرفة ، إلا أننا

حاولنا قدر الإمكان عند إعداد هذا الكتاب المتواضع ، أن نبسط المفاهيم والشرح لها ، بشكل يستطيع أكبر قدر من غير المتخصصين في قضايا الفلسفة ، المتابعة والإستيعاب لها .

وهنا أريد أن أسجل جزيل الشكر ، والإمتنان لجميع الأخوة الذين لم يبخلوا من وقتهم وجهودهم في سبيل إعداد هذا الكتاب ، وبالأخص الشيخ محمد الخاقاني والأستاذ الدكتور فؤاد زكريا رئيس قسم الفلسفة في جامعة الكويت ، والأخوة السيد محمد باقر وسليمان حيدر وإسماعيل عبد النبي الشطي .

أملاً من الله العلي العزيز ، أن يقبل هذا الجهد المتواضع خالصاً لوجهه الكريم ، ونافعاً للإسلام والمسلمين جمعاء .

الكويت - ١/٣/١٩٨٦م

جعفر عباس حاجي

الفصل الأول

نشأة الفلسفة

في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح (ع) رد « أرسطو » نشأة الفلسفة إلى اليونان ، وانحدر بها إلى « طاليس » في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد ، وتابعه في هذا الاتجاه جمهوره المحدثين من مؤرخي الفلسفة .

وفي القرن الثالث، قبل ميلاد المسيح (ع) وضع « ديوجين اللا برقي » كتاباً ضمّنه حياة مشاهير الفلاسفة ونظرياتهم ، تعرّض فيه للحديث عن تعرّض فلاسفة مصريين وشرقيين ، وأرجع نشأة الفلسفة الى تراث الشرق القديم - وهو رأي يتبناه كثير من مؤرخي الفلسفة .

والمتتبع لأدبيات الفكر الفلسفي ، يستنتج أن هناك شبه إتفاق بين كثير من المؤرخين، على أن الشرق القديم كان مهدياً للحضارة الفلسفية قبل اليونان ، حيث أبدع أهل المشرق، وأنشأوا حضارات مزدهرة يانعة ، مرتكزة على ركائز علمية ناضجة ، ودراسات نظرية دينية قيمة . فهناك تقدم ملحوظ وواضح في علم الرياضيات والميكانيكا والكيمياء وعلم الطب والكتابة ودراسات الفلك والأجرام . أما بالنسبة للمفاهيم والدراسات الفكرية النظرية ، فهناك دلالات كثيرة تؤكد أسبقية ومصداقية تقدم وأزدهار هذه العلوم .

Diogenes Laertius - Lives of Philosophers. 2 Vols. (1)

موضوعات تم بحثها بشكل تفصيلي ودقيق . فعلى سبيل المثال وليس الحصر ، توصل إخناتون إلى وحدانية الله ، وتوصلت الزرادشتية إلى الثنائية Dualism وإلى إله الخير وإله الشر ، وخير دليل على كل ذلك ، هو رسالات الأنبياء والمرسلين التي كان الشرق مهبطاً لها . فالمؤرخ التاريخي الكبير ول ديورنت يؤكد أن أصل نشأة الفلسفة كان في الشرق ، ويؤيد هذا الرأي كل من جورج سارتون ، ويول هاسون ، وأورسبيل .

فيقول « ديورنت » بأن زعم الغربيين المتمثل بأسبقية ثقافة اليونان ، وإنها كانت المعين الوحيد الذي نهل منه العقل الحديث هو زعم خاطيء ، وأنهم ستتولاهم الدهشة والاستغراب إذا عرفوا إلى أية درجة تدين علوم الغرب وآدابه وفلسفاته لتراث وحضارة مصر وبلاد الشرق . . . إلى آخر ما يقول بهذا الصدد^(١) .

أما سارتون ، فيقول في معرض تأريخه للعلاقات والارتباطات العلمية بين الغرب والشرق : « إن نور العلم قد أُنثِق في الشرق ، وأنه ما من شك في أن معارفنا العلمية نحن الغربيين - مهما يكن أمرها فانها ترد أصلاً الى الشرق^(٢) .

بالرغم من كل ذلك ، نحن لا نقصد أن ننقص من قيمة حضارة وفلسفة اليونان ودورها في تطور وبلورة كثير من المفاهيم والأفكار الفلسفية على يد فلاسفتها ومفكريها ، ونحن نعتقد بأن دورهم بلغ درجة كبيرة وساهم مساهمة فعالة وأصيلة في تطوير كثير من المفاهيم الفلسفية ، ولكن أردنا من ذلك تثبيت حقيقة دامغة عن أسبقية ودور الفلسفة الشرقية في إنماء وتطور الفلسفة بشكل عام .

(1) Will Duraut, The Story of Civilization

(2) George Sartion, The History of Science and New Humanium, 1956.

وتجدر الإشارة الى ، أنه بالرغم من هذا التطور والتقدم الحضاري والفلسفي عند اليونان ، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى نظرية متكاملة في الدين ، ولم يعرفوا نعمة « الوحي » فكان التشاؤم ديدنهم وكانت فكرة « قصر الحياة » وفنائها ، (وفناء الفردانية) فناء كاملاً مهيمنة على آرائهم وأفكارهم ومشاعرهم ، حتى إن فكرة الأساطير الغامضة ، والتصورات الخيالية المرضية كانت من سمات تفكيرهم ومشاعرهم الواضحة .

بينما نلاحظ في الشرق ، حيث توالى نزول الرسالات والوحي الإلهي على شعوب أهله الى درجة بلغ عدد المرسلين والأنبياء ما يقارب عدة آلاف نبي ومرسل حسب قول بعض المؤرخين أو علماء الدين ، هذا الجو الإلهي ، والشعور الديني ، أوجد في نفوس أهل الشرق روحاً وشعوراً من جانب ، وشريعة متكاملة منسجمة مع طبيعة حياتهم ومستواهم التكاملي الفكري والعملي من جانب آخر .

ولقد تدرج التكامل الروحي والجسدي والعملي لأهل الشرق الى أن أتمتت درجة التكامل التشريعي النظري في عصر خاتم الأنبياء والمرسلين وحبيب رب العالمين محمد (ص) ، وذلك بصورة نهائية متكاملة وشاملة ، ومن هنا كانت تعبيرات وجمل القرآن الكريم تخاطب جميع الناس من كل الفئات ، وموجهة ومرشدة لهم الطريق المستقيم ، والمنهاج الفكري والنظري القويم إلى جانب قواعد الحياة العملية « الشريعة أو الفقه » وتصور لهم الألوهية في صورتها الحقيقية النهائية المنسجمة مع طبيعة وهيئة التركيب الداخلي عند الانسان .

والمستقرىء للتاريخ ، يلاحظ بوضوح وجلاء ، أن بيئات مصر وإيران والهند والصين كانت تزدهر وتزهو بمصاييح الفلسفة ، وكانت المدارس الفلسفية وروادها وأساتذتها من الكثرة الى درجة تباينت الآراء والأفكار والنظريات الفلسفية حتى بلغ هذا التباين حداً يصعب على الانسان أن يجد

بين مفاهيمها ومضامينها الفلسفية قواسم مشتركة .

ففي ضواحي آسيا الصغرى برزت مراكز ومعاهد للمعارف العقلية والمسائل الفلسفية، إلى درجة بلغ عدد المدارس العلمية والفلسفية عدداً كبيراً جداً واكتظت بالعديد من الأساتذة والطلاب .

وفي الاسكندرية شُيِّدَتْ حوزات ومدارس فلسفية مشهورة ، كانت تشع الفلسفة ومفاهيم الحياة إلى أن استولى عليها امبراطور الروم حوالي سنة ٥٢٩ ميلادية ، ففضى على محافلها العلمية ، وهدم المعاهد ، وطرد الأساتذة وشردهم .

واستمر هذا الوضع المتسم بالتعسف والطغيان ، والاستكبار والظلم ، ومناوأة العلم والعرفان ، إلى أن برز وأزهر كوكب الاسلام الدرري ، وأشرفت الأرض والسماء بنور نبيه محمد (ص) ، فبدأت الظلمات تنجلي ، والحواجز تتكسر ، والترسبات تنحسر وتزول أمام نوره الوهاج ، فأبرز وجسد مفهوم المفاضلة على أساس التقوى والعلم والجهاد في سبيل الله فكان (ص) يخاطبهم بقول الحكيم العليم ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(١) ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ﴾^(٣) .

هذا الشعور الإيماني الفطري الذي أوجده الاسلام في نفوس الناس ، أوجد ثورة داخلية تغييرية عظيمة ، تركت آثاراً في شتى مجالات الحياة منها الجانب العلمي والحضاري ، فأُسست مدارس ومؤسسات وحوزات علمية فقهية عديدة ، وبرز علماء وفلاسفة لهم وزنهم العلمي والفقهية والفلسفي في العالم الى يومنا هذا .

وخلاصة القول مضت على الشرق ثلاثة مراحل متباينة :

(١) سورة النساء الآية ٩٥ .

(٢) سورة الزمر الآية ٩ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣ .

المرحلة الأولى : تتمثل ببروز العلم والتفكير الفلسفي

المرحلة الثانية : تقلص وإنحسار العلوم والفلسفات والمعارف بعدما كان مبتكرها .

المرحلة الثالثة : بزوغ نور الاسلام الوهاج الذي أخذ يشع نور العلم والمعرفة والايان في جميع مجالات الحياة ، مجدداً بذلك المعرفة والعلوم النظرية والعملية والانسانية والطبيعية ، مما أدى إلى إزدهار المكتبات وانتشار الكتب والمؤسسات والحوزات إلى درجة عمت معظم أركان الشرق .

ويذكر الاستاذ الشهيد والفيلسوف الإلهي الكبير مرتضى المطهري ، حول التطور النهائي في الفلسفة ، بأن الفلسفة الاسلامية اتخذت اتجاهات ومنعطفات تاريخياً وعلمياً كبيراً في العصور الأخيرة ، أي بعد القرن العاشر الاسلامي ، بدرجة ادهشت العقول وحيرت أصحاب العلم والتفكير ، فقد تم تجديد وتحديث موضوع الفلسفة على يد رجل عالم حكيم وفاضل وبطل مقدم في ميادين العلم والمعرفة ، وهو سيد نوابغ العالم ، أسوة الحكماء والمتأهلين محمد بن إبراهيم الشيرازي الملقب والمشهور بصدر الدين ، أو صدر المتأهلين ، أو ملا صدرا ، حيث أسس أساساً ، ورسم قواعد ، وطرح مفاهيم فلسفية عميقة لم يسبقه إليها أحد ، وأق باراء وأفكار ناضجة ، لم يقف على مغزاها الا ثلة قليلة من عشاق ورجال العلم والحكمة والفلسفة .

والمتطلع على أبحاثه وكتبه ومقالاته الفلسفية ، يعتقد بلا شك ولا ريب بالحقيقة التالية : إنه المؤسس والمبتكر لمسائل ومفاهيم فلسفية كثيرة^(١) .

أصالة الفكر الفلسفي في الاسلام

اختلف مؤرخو الفكر الفلسفي - قديماً وحديثاً - في تقويم أصالة الفكر الفلسفي في الاسلام وتقدير عناصر الابداع والابتكار فيه . فيرى بعضهم أن هذا الفكر مجرد عن كل مزايا التفكير الفلسفي ، ولا يوجد مذهب

(١) العلامة السيد محمد حسين الطبطبائي ، أصول الفلسفة « تعليق الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري ، مؤسسة النجف الأشرف ، الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ ، ص ١٠ .

فلسفي محكم البنيان ، أو نظرة عقلية مجردة شاملة للكون والانسان والحياة ، وأن ما عرف عنهم من فكر لا يقوى أن يقدم في صورة مذهب فلسفي متكامل متماسك بل هو « أقرب الى فلتات الطبع ، وخطرات الفكر ، والغالب عليهم الفطرة والطبع »^(١) .

ونحن لا نعتقد أن أي عالم محترم يدعي الموضوعية والنزاهة العلمية وينظر بمنظار متسع لا تحيطه جدران التشنج والتقوقع المذهبي ، يشك في إن الفلسفة الاسلامية ليست هي فقط التعبير الحقيقي والنهائي المتجدد للأمة الاسلامية ، والانقذاح المنصهر السيال لتطور هذه الأمة الخلاق خلال الدهور، بل إن الفلسفة الاسلامية تعتبر جوهر حياتهم، ومرآة تطورهم، وإنعكاس لما في باطن مجتمعهم من آمال وآلام*. ولقد شملت هذه الفلسفة آفاقاً متعددة ، واقتحمت ميادين متسعة ، ميتافيزيقية وطبيعية ، أخلاقية وسياسية ، تربوية واجتماعية ، وأقامت حضارة ذات طابع خاص ، يميزها عن غيرها من الحضارات ، ويفصلها عن غيرها من الأمم .

والفكر الفلسفي في الاسلام له أصالة وجذور على عكس ما يتناقل ويتقول على ألسن بعض الفلاسفة والمفكرين السذج ، من أن الفلسفة الاسلامية ما هي إلا صورة مشوهة من مذهب ارسطو ومفسريه ، أو هي نسخة منقولة عن مذاهب المشائية^(٢) ، أو إنها تنحومنحى التوفيق والاختيار

(١) الشهرستاني ، الحلل والنحل على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي ، مصر ١٩٢٨ - ١٩٢٢ . ١٥٧/٢ .

* وهذا سواء كان المسلمون يدركون هذه الحقيقة أم لا ، فهي موجودة ومتجسدة في تشريعاتهم ومفاهيمهم الاسلامية ، وإن لم تكن مفصلة وموضحة بشكلها الاكاديمي المتعارف عليه .

(٢) وولف تاريخ الفلسفة الوسيطة ، ص ٢٠٨ (عن مصطفى عبد الرزاق) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية القاهرة ١٩٥٩ .

وخاصة بين مدرسة افلاطون وأرسطو^(١) ، أو من يقول بأن هناك مزيجاً من أفكار أفلاطونية وأرسطوطاليسية^(٢) .

وبعد تلاشي هذه الصورة الواهية الساذجة والمزيفة عن الواقع الحقيقي ، وعن ماهية الفلسفة لاسلامية ، بدأ الكثير من المفكرين الغربيين في الآونة الأخيرة ينصفون الفلسفة الاسلامية ويندّدون باللذين أوقعوا أنفسهم بالخطأ الجسيم من خلال نظرتهم الضيقة والزاوية المحددة التي كانوا ينظرون من خلالها إلى الفلسفة الإسلامية ، أمثال : ارنست رينان ، وكرسيتان لاس ، وكونيه^(٣) .

فبعد إزالة الصورة الضبابية أمام أعين المفكرين والمؤرخين ، بدأت كتاباتهم تأخذ الطابع العلمي الموضوعي المنبثق عن نظرة شمولية منفتحة متعمقة بعض الشيء مما اتاح لهم الفرصة المناسبة لتلمس جوهر متفتحة الفلسفة الاسلامية وروحها المميزة ، وسماتها وأسسها المتباينة عن غيرها من الفلسفات .

وتجدر الاشارة الى أنه بالرغم من تباين وتمايز الفلسفة الاسلامية من حيث الجوهر والقواعد أو الاطار والمحتوى عن بقية المذاهب الفلسفية ، إلا أن ذلك لا يمنع من الاعتقاد بأن إطلاع فلاسفة المسلمين على ترجمات الكتب الفلسفية اليونانية ، والاحتكاك بهم قد ترك آثاراً إيجابية وساهم مساهمة فعالة في إيجاد روح التنافس الفلسفي والتصدي للعديد من القضايا والمسائل الفلسفة .

(١) كارادفو « ابن سينا ، ص ٨٧ ، ترجمة عادل زعير - دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٠ .

(٢) فالترز ريتشارد ، الفلسفة الاسلامية ومركزها في التفكير الانساني ، ترجمة محمد حسين توفيق - بيروت ١٩٥٨ - دار العلم .

(٣) د. ابراهيم بيومي مذكور : الفلسفة الاسلامية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٦٨ م ، ص ٢٦٣ .

تطور مفهوم الفلسفة

مقدمة :

المتأمل حق التأمل في الكون* يلاحظ أنواعاً وأشكالاً كثيرة ومتباينة من الموجودات ، وعدداً لا يحصر من الظواهر التي نعتبر نحن جزءاً من هذه المجموعة .

وفي خضم معترك الحياة يصادف الانسان كثيراً من الحالات التي يظن فيها بوجود شيء واقعي يتم على أساسه تصديق وإيمان جازم به ، ثم سرعان ما يتضح له زيف وكذب هذا الشيء . وفي المقابل توجد حالات عديدة لا يعتقد الانسان بوجود أشياء معينة ، ويعتبرها ضمن دائرة الزيف والخداع ، ولكن سرعان ما يتضح له صحتها ومصداقيتها الواقعية فيما بعد .

ونظراً لكون حب الاطلاع والمعرفة غريزة أودعها الله في أعماق نفوسنا وفي فطرتنا (ولا تبديل لفطرته) ، فإن الانسان يبذل قصارى جهده واهتمامه ، ويسعى دائماً إلى معرفة الحقيقة ، والتمييز بين الموجودات الحقيقية (الحقائق) والموجودات المتخيلة (الوهميات

* الكون Cosmos عند أهل النظر مرادف للوجود المطلق العام ، ويطلق على وجود العالم من حيث هو عالم ، لا من حيث انه حق ، أو على العالم من جهة ما هو ذو نظام محكم - والكون أيضاً هو المكون أي المؤلف الذي أخرجه الله من العدم الى الوجود .

والاعتبارات) وهنا تقع الفلسفة الحقّة مقابل الفلسفة المنكرة لأي واقع موضوعي خارج ذهن الانسان ، وذلك تماماً عكس الفيلسوف الذي يعقد بوجود الواقع الموضوعي خارج ذهن الإنسان ، وهو يعتبر بعض الإدراكات حقيقية لأنها تطابق الواقع ، ويسلم بأن بعض الادراكات لا تطابق الواقع (وهي الاعتبارات والوهميات) .

وبعد هذه المقدمة الموجزة يتبادر الى أذهاننا السؤال التالي : ما هي الفلسفة ؟ وما هو مفهوم الفلسفة ؟ هذا ما سنحاول أن نلقي عليه الضوء وعلى بعض المفاهيم والتعريفات المرتبطة بالفلسفة وذلك على النحو التالي : -

تعريف الفلسفة Definition of Philosophy

* الفلسفة في اللغة :

لفظ الفلسفة لغوياً مشتق من اليونانية ، وأصله (فيلا - صوفيا) ومعناه محب الحكمة ، وعند اليونان يطلق على الفيلسوف الحكيم ، أي محب الحكمة ، ومحبة الحكمة تعني محبة المعرفة ، ومحبة الحكمة أو المعرفة لا تعني محبتها كمحبة مجردة ، بل كمحبة تنطوي على الفضيلة . وهي بهذا تظهر عند الأغريق (اليونان) بمظهرين متباينين : (١)

١ - مظهر المعرفة والبحث والوجود

٢ - مظهر الفضيلة المتأتية من المعرفة والعمل طبقاً لها .

وكانت الفلسفة عند القدماء مشتملة على جميع العلوم ، وهي قسمان : نظري وعملي .

أ - الفلسفة النظرية : تنقسم إلى :

١ - العلم الإلهي ، وهو العلم الأعلى .

(١) د . جميل صليبا « المعجم الفلسفي » دار الكتاب اللبناني الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، الجزء الثاني ص

٢ - العلم الرياضي ، وهو العلم الأوسط .

٣ - العلم الطبيعي ، وهو العلم الأسفل .

ب - الفلسفة العملية : تنقسم الى ثلاثة أقسام :

١ - علم الأخلاق ، سياسة الرجل نفسه .

٢ - سياسة الرجل مع أهله ، أي تدبير المنزل .

٣ - سياسة المدينة والأمة والملك .

أما بالنسبة للمفاهيم والتعريفات التي تحدد معنى الفلسفة وتعرفها فهي كثيرة ومتباينة ، والمستقرىء لأدبيات الفكر الفلسفي ، يستشف بكل وضوح وجلاء هذا التباين والاختلاف الذي ترك الباحثين أمام تعريفات متباينة يستصعب في بعض الأحيان إيجاد خيط ينسجها في شكل وحدة متجانسة متماثلة .

وبالرغم من وجود هذا التباين في تعريف الفلسفة ، إلا أن هذا لا يعني البتة أنها لا تملك موضوعاً خاصاً ، بل يدلنا ذلك فقط على تعدد ينابيع الفلسفة في صميم الخبرة البشرية ، فغالبية الفلاسفة متفقون ومجمعون على ضرورة السعي نحو المعقول ، ولزوم الكشف عن معاني الأشياء ، ولكنهم مختلفون حول مصادر هذا البحث ، ومقاييسه ، وطبيعة تلك الرحلة الفلسفية التي يقوم بها الانسان في عملية إكتشاف الحقيقة .

فحينها يطرح أي باحث تساؤلات حول العلوم المختلفة ، مثل الفلك والجيولوجيا والطب والكيمياء ، يلاحظ أجوبة وتعاريف دقيقة موجزة ومحددة . فمثلاً يعرف علم الجيولوجيا ، بأنه ذلك العلم الذي يدرس من أجل التوصل الى معرفة الصخور والقشرة الأرضية وطبقاتها المختلفة والمتعددة .

وعلم الفلك : بأنه ذلك العلم الذي يدرس ويبحث عن أحوال الأجرام السماوية بقصد الوقوف على القوانين التي تتحكم بها وتسير فيها .

ولكن لو طرحنا سؤالاً ما المقصود بالفلسفة ؟ لوجدنا إجابات متباينة وصعبة وعسيرة^(١) .

ويمكننا إرجاع هذا التباين والاختلاف في ماهية الفلسفة إلى عاملين رئيسيين هما :

العامل الأول :

إن كلمة الفلسفة يختلف معناها باختلاف المذاهب الفلسفية المتباينة . فالتعريف الذي يقدمه المذهب التجريبي للفلسفة Empiricism ، يرفضه المذهب المثالي Idealism ، والتعريف الذي يقدمه الفيلسوف الهيجلي ، يرفضه الفيلسوف البرجماتي .

إضافة الى وجود مدارس ومذاهب لا تعتقد ألبتة بالمطلق The absolute مثل المذهب الوضعي Postivism . بينما المدرسة الهيجلية Hegelian School ، والمذهب الاسلامي وغيرها من المذاهب الفلسفية ترى إمكانية التوصل الى المطلق . وهناك من يعتقد بالمطلق ويثبته في الواقع ولكنه يرى أنه من الصعب أو من المستحيل التوصل اليه^(١) An Knowable .

العامل الثاني :

التأمل حق التأمل ، في تطورات الفكر الفلسفي ، يلاحظ أن الاختلاف والتباين في معنى لفظ الفلسفة ، كان واضحاً وجلياً حسب التقسيمات الفلسفية للعصور التي مرت بها الفلسفة في رحلتها الصعبة . فالتعاريف التي كانت مقبولة وسائدة في العصور اليونانية أو الوسيطة تغير الكثير من معالمها وماهيتها في العصور الحديثة .

(١) Randall and Buchler: Philosophy: An Introduction, Barnes T Nonble, (chap, one).

(٢) Arthur, C. Danto: What Philosophy, pelican Booki, p. 15- 18.

(٣) K. Marx, and F. Engels: the cerman Ideology, Moscow, progress publisher, 1964. p. 947.

فبينما كانت الفلسفة في فترة من فترات التاريخ الانساني معبرةً عن امكانية الوصول الى معرفة يقينية - والبحث والتقصي عنها يعتبر لذة عقلية ، وإنما كانت مدبرة للحياة^(١) ، وفي حقبة أخرى مثل العصور الوسطى ، كانت الفلسفة تعتبر أداة للتوفيق بين العقل والنقل ، أو الحكمة والشريعة ، - على حد تعبير ابن رشد - حيث استخدمت وجندت معظم إمكانياتها للدفاع عن العقيدة الدينية والبرهنة على مصداقية وصحة القضايا الدينية . بينما كانت السمة البارزة في فلسفة أواخر القرن الماضي ، هي بروز النزعة العلمية التي تآطرت في شكل المذهب العملي أو البرمجاتي Pragmatism الذي من أشهر أعلامها وليم جيمس W. James (١٨٤٢ - ١٩١٠) . ومن ثم ظهرت مدارس ومذاهب فلسفية أخرى كل واحد منها يسعى إلى تقديم مفهوم وتعريف للفلسفة ينسجم مع إطاره الخاص ، فبرزت الماركسية والوضعية المنطقية والتحليلية والوجودية^(١) الخ .

تطور معنى الفلسفة :

معنى الفلسفة قديماً :

تمثلت فلسفة الشرق القديم في حكمته ، وكانت تضم العلوم العملية التجريبية ، والتفكير النظري ، وهي في جملتها تستهدف خدمة الحياة العملية وتوكيد للمعتقدات الدينية .

كان الاتجاه العام للفلسفة عند اليونان هو في التفسير العام للوجود والوقوف على طبيعته ، هو استخدام التعليل المنطقي والبرهان العقلي ، ولذلك سموه بالحكمة - أي البحث عن طبائع الأشياء أو حقائق الموجودات ، وكان التفلسف بهذا المعنى يعتبر جهداً عقلياً يستهدف الكشف والتبيان عن حقائق جديدة ، أو نزوعاً عقلياً يدفع اليه الشعور بالجهل ويبعث على اللذة العقلية .

(١) د. زكريا ابراهيم ، مشكلة الفلسفة ، مكتبة مصر ١٩٧١ ، ص ٢٦ - ٦١ .

ولقد جمع أفلاطون في تعريفه للفلسفة بين الحكمة الأخلاقية التي تقوم في الارتفاع فوق أعراض الحياة ومصالح الأفراد ، وبين دراسة المعالم والمبادئ التي يقوم عليها ، ودراسة النفس الانسانية من حيث المعرفة والسلوك .

أما عند أرسطو فقد اتسع معنى الفلسفة بحيث أصبحت الفلسفة تشمل كل المعارف العقلية ، واستمر هذا الشمول والانتساع في المعنى العام للفلسفة حتى أوائل العصر الحديث حين بدأت العلوم تنفصل وتستقل بنفسها عن الفلسفة .

معنى الفلسفة في العصور الحديثة :

كان الاتجاه العام السائد في عصر النهضة Renaissance هو إحياء التراث الفلسفي اليوناني والروماني الذي كان بداية لتشييد وبناء فلسفات جديدة على أساس العقل من قبل أنصار الاتجاه العقلي Rationism وعلى أساس التجربة والملاحظة من قبل أصحاب الاتجاه التجريبي Empiricism .

فبينما كانت الفلسفات القديمة تهتم وتركز على دراسة ومعرفة الوجود بما هو وجود ، فإن الفلسفات الحديثة تبنت اتجاهات وإطاراً للبحث عن المعرفة يرتكز ويهتم بدراسة المعرفة من حيث طبيعتها ، وذلك للوقوف على حقيقة العلاقة التي تربط بين قوى الإدراك والأشياء . وكذلك اصطبغت الفلسفة الحديثة بتأثير الجدل والنقاش بين المثالية Idealism والواقعية Realism . حول الاستمولوجية - أدوات المعرفة ومصادرها - أي نظرية المعرفة - وكان الحوار والجدال كبيرين وخاصة بين المذاهب العقلية والحدسيين Rationism and Intuitionism من ناحية ، وبروز الجدل بين بعض المحدثين حول إمكانية قيام المعرفة الصحيحة أم لا ، كما كان سائداً بين أصحاب ورواد مذهب الشك Scepticism ودعاة مذهب التيقن Dogmatism من ناحية أخرى .

وفيما يلي استعراض لبعض التعريفات التي وردت في الكتب الفلسفية والتي تعكس مغزى وماهية الفلسفة عند دعائها وروادها المختلفين عبر التاريخ

الانساني .

عند افلاطون : الفلسفة هي البحث عن حقائق الموجودات ونظامها
بغية معرفة المبدع الأول .

المعلم الأول أرسطاطاليس : الفلسفة هي معرفة الكائنات وأسبابها
ومبادئها الجوهرية وعلتها الأولى . وهي العلم العام ولها الرئاسة المطلقة
على جميع العلوم .

الفلسفة عند المعلم الثاني أبو نصر الفارابي : هي العلم بالموجودات بما
هي موجودة .

ابن سينا الشيخ الرئيس : الفلسفة هي استكمال النفس الانسانية
بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة
الانسانية .

ابن رشد : الفلسفة هي النظر في الموجودات من جهة دلالتها على
الصانع .

أخوان الصفا : الفلسفة أولها محبة العلوم ، وأوسطها معرفة حقائق
الموجودات بحسب الطاقة البشرية ، وآخرها القول والعمل بما يوافق
العلم .

صدر المتألهين الشيرازي : الفلسفة استكمال النفس الانسانية بمعرفة
حقائق الموجودات على ما هي عليها والحكم بوجودها تحقيقاً بالبراهين لا
أخذاً بالظن والتقليد بقدر الوسع الانساني .

السبزواري : هي علم بأحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه من
نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية لحكمه صيرورة الانسان عالماً عقلياً مضاهياً
للعالم العيني .

عما نوئيل كانت : الفلسفة هي العلم العام لجميع العلوم .

هوبرت اسبنسر : الفلسفة هي المعرفة التامة التوحيد⁽¹⁾ .

وهناك من يعرف الفلسفة على أساس إنها : الدراسة المتعلقة بأحكام القيم . وعلى هذا الأساس تتألف من العلوم المعيارية الثلاثة وهي : الأخلاق وتبحث في قيمة الخير ، والمنطق ويبحث في قيمة الحق ، وعلم الجمال ويبحث في قيمة الجمال .

وهناك من يعتقد بأن الفلسفة أساساً هي ما بعد الطبيعة ، وما بعد الطبيعة كما حددها أرسطو هي البحث في الموجود بما هو موجود . أو هي العلم الخاص بالشروط القبلية للوجود والحق . وبالعقل وبما هو عقلي كلي ، وعلم الفكر في ذاته وفي الأشياء .

وكثير من فلاسفة الغرب المعاصرين يعرفون الفلسفة على أساس إنها : هي معرفة المبادئ الأولية التي تفسر المعرفة تفسيراً عقلياً ، كفلسفة العلوم وفلسفة الأخلاق ، وفلسفة التاريخ ، وفلسفة الحقوق ، . . . الخ . وبهذا المعنى ينسجم مع ما طرحه أرسطو من أن الفلسفة هي المعرفة والعلم بالمعنى الأعم . وهي مجموع الدراسات أو التأملات ذات الطابع العام ، التي تسعى الى رد نظام من المعرفة - أو المعرفة كلها - الى عدد صغير من المبادئ الموجهة ، وبهذا المعنى يقال فلسفة العلوم ، وفلسفة التاريخ و . . . إلخ .

ونستشف من التعريفات والمفاهيم المتعددة السابق ذكرها ، أن هناك قواسم مشتركة تقريباً بين معظم التعريفات . حيث تناسب بعضها الفلسفة النظرية والبعض الآخر يناسب وينسجم مع ماهية الفلسفة العملية .

وتأسيساً على ذلك ، يمكننا تحديد تعريف شامل وعمام للفلسفة ولو بشكل جزئي وذلك على النحو التالي :

(1) Herbert Spencer, First Principles, 2 nd Part chap. 1, p. 37.

هي علم يُبحث فيه عن أعيان أو أحوال حقائق الموجودات ومبادئها وعلتها الأولى لاستكمال النفس الانسانية من جانبي العلم والعمل بقدر الطاقة الانسانية .

وهناك مصطلحات عديدة تطلق على أبعاد وجوانب معينة من الفلسفة فمنها على سبيل المثال :

الفلسفة الأولى : Prime Philosophy

الفلسفة الأولى اصطلاح أطلقه (آرسطو) على العلم الإلهي ، وقد سماه بالفلسفة الأولى لأنه يبحث في الأسباب القصوى ، والمبادئ الأولى ، والموجودات المفارقة ، بخلاف العلم الطبيعي الذي أطلق عليه اسم الفلسفة الثانية .

أما (ابن سينا) فقد اطلق اصطلاح الفلسفة الأولى على الحكمة المتعلقة بما وجوده مستغن عن مخالطة التغير ، أي على الفلسفة التي موضوعها الموجود المطلق بما هو موجود مطلق ، وأطلق اصطلاح الفلسفة الإلهية على جزء من الفلسفة الأولى ، وهي معرفة الربوبية^(١) .

الفلسفة الدائمة :

يطلق اصطلاح الفلسفة الدائمة على القول : إن المبادئ الأساسية التي تتضمنها مذاهب الفلاسفة تؤلف تراثاً إنسانياً متصلاً بالرغم من التعارض الظاهر بينها .

قال (لافل) : إن الفلسفة التي عرضنا مبادئها الأساسية هنا لا تجدد شيئاً ، لأنها ليست سوى تفكير شخصي في المادة التي زودتنا بها الفلسفة الدائمة ، وهي (أي الفلسفة الدائمة) عمل البشرية جمعاء .

(١) عيون الحكمة ، ص ٣ من تسع رسائل في الحكمة والطبيعات .

الفلسفة الشعبية : Popular Philosophy (١)

يطلق اصطلاح الفلسفة الشعبية على مجموع الدراسات التي انتشرت في المانيا لتوكيد نزعة التحرر التي بدأ بها (فولف) ، وهي دراسات متحررة من الصورة العلمية ، ومتناسبة مع مستوى الجمهور . وأشهر ممثلي هذه الفلسفة (مندلسون) و (أنجل) و (آبت) و (سولزر) و (فيدر) .

ويطلق اصطلاح فلسفة العوام على الفلسفة المادية أو التجريبية ، أو على الفلسفة المتفقه مع الشائع والمألوف من الآراء . وفلسفة العوام عند (شيشرون) هي الفلسفه التي تبتعد عن أفلاطون وسقراط .

فلسفة الطبيعة Philosophy of nature

فلسفة الطبيعة مرادفة للفلسفة الطبيعية وتطلق عادة على المثالية الرومانسية الألمانية ونظرياتها ، ولا سيما نظريات (شيلنغ) و (هيغل) وغيرهم في الطبيعة المادية .

الفلسفة العامة : General Philosophy

الفلسفة العامة اصطلاح جديد استعمله اوغوست كومت للدلالة على المبادئ العامة التي يستند إليها العلم . وقد انتشر هذا الاصطلاح في فرنسا حتى اطلق في عام ١٩٠٧ على أحد أقسام الاجازة الفلسفية - وهو يتضمن دراسة المسائل الفلسفية التي يثيرها علم النفس ، والمنطق ، وعلم الأخلاق وعلم الجمال من دون أن تكون هذه المسائل خاصة بعلم دون آخر . من هذه المسائل : طبيعة المعرفة - المسائل المتعلقة بالله ، والعالم والروح ، والنفوس الفردية ومسألة التقدم (٢) .

فالفلسفة العامة بهذا المعنى مختلفة عن علم ما بعد الطبيعة .

(١) د. جميل صليبا . المعجم الفلسفي - دار الكتاب اللبناني - الطبعة الأولى - ١٩٧٣ - الجزء الثاني ص ١٦٢ .

(٢) نفس المصدر السابق - ص ٦٣ .

تصنيفات أو أقسام الفلسفة :

بناء على تبيان وتحديد الموضوع الرئيسي والأساسي للفلسفة على أساس بحث الموجودات المدرجة تحت مطلق الوجود ، فهي (الموجودات) تصنف تبعاً لما يلي :

أ - قدرة الانسان في الاختيار والتأثير . مثل تلك السياسات المتعلقة بتدبير الأمور والرياضيات وما إليها من أفعال الانسان .

ب - موجودات لا تتعلق بقدرة الإنسان واختياره ، كالسموات والأرض وما فيها وما عليها وما يحيط بها .

وتأسيساً على ذلك ، انقسمت الفلسفة الى قسمين رئيسيين تبعاً لانقسام العلم بانقسام المعلوم أحدهما :

أ - الفلسفة العملية :

وهي العلم بوجود يكون للانسان القدرة والاختيار والتأثير في وجوده ، وهو علم ينبغي أن يعلمه الانسان ويعمل به ، أو تعرفها النفس الانسانية بواسطة قوتها العملية التفصيلية . وغايتها الأولى تكمن في تحصيل الخير .

ب - الفلسفة النظرية :

وهي العلم بوجود لا يتعلق وجوده على قدرة واختيار وتأثير الانسان . وتعرف النفس هذه الفلسفة بواسطة قوتها النظرية التجريدية . وغايتها هي إدراك الحق في سائر الأشياء حتى تصبح النفس الانسانية كالمرآة محاذية للموجودات تنطبع فيها صورة حقائقها .

وهذا التصنيف واضح في الفكر الفلسفي عند ارسطو الذي صنف

الفلسفة الى :

أ - فلسفة نظرية واعتبر غايتها مجرد المعرفة لذاتها ، وهي تشمل العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية ، وفلسفة ما بعد الطبيعة ، واطلق عليها

بالفلسفة الأولى تمييزاً لها عن الفلسفة الثانية في الحكمة .
ب - فلسفة عملية غايتها تدبير الأفعال الانسانية ، وهي تشمل الاخلاق
والسياسة والفن .

أ - أما أفلاطون ففرق بين ثلاثة أصناف أو علوم فلسفية :
علم الجدل الذي يبحث في الانسان والمسائل المرتبطة فيما بعد الطبيعة
التي تتناول البحث في طبيعة الوجود ككل وفي المعقولات الأولى .
ب - العلم الطبيعي الذي يشمل علم الطبيعة والفلسفة الطبيعية وعلم
النفس .

ج - علم الأخلاق الذي يبحث في سلوك الانسان .

وصنف فرانسيس بيكون موضوعات الفلسفة الى ثلاثة أقسام :

أ - الفلسفة الإلهية ، موضوعها وجود الله .

ب - الفلسفة الطبيعية ، موضوعها الطبيعة .

ج - الفلسفة الانسانية ، موضوعها النفس الانسانية .

أما ديكرت فشبه الفلسفة بشجرة جذورها :
ميتافيزيقيا ، وجذعها الفيزيقيا أو الطبيعة ، وفروعها
من الجذع والساق سائر العلوم العملية الأخرى التي ترجع أخيراً إلى ثلاثة
علوم كبرى هي الطب والميكانيكا والأخلاق .

وقسم « كوله » «Kulpe» العلوم الفلسفية الى : علوم فلسفية عامة ،
وعلوم فلسفية خاصة .

يندرج تحت العلوم الفلسفية العامة ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقيا) ،
وهو مبحث الوجود أو (الأنطولوجيا) Ontology وتشمل إضافة إلى ذلك
المبحث في المعرفة أو (الأبيستمولوجيا) Epistemology وعلم المنطق الذي
يبحث في القواعد العامة التي يستقيم بها التفكير .

بينما تشمل العلوم الفلسفية الخاصة كلاً من علم الأخلاق الذي بدوره يبحث في القواعد والأسس السلوكية والأخلاقية التي ينبغي توفرها في سلوك الانسان ، وعلم الجمال الذي يبحث في موضوع المعايير التي يقوم على أسسها الأثر الفني . ويُضم هذان العلمان عادة في مبحث واحد يطلق عليه القيم أو « الأكسيولوجيا » Axiology ، وتضم ضمن العلوم الفلسفية الخاصة ، كفلسفة الأديان والتاريخ والاجتماع والتربية والقانون ، . . . الخ .

وقد صنف الفيلسوف الأمريكي المعاصر « هوكنج » William E. Hocking العلوم الفلسفية الى صنفين رئيسين هما :

أ - فلسفة نظرية تشمل الميتافيزيقيا ، ومبحث نظرية المعرفة ، ومبحث المنطق .

ب - فلسفة عملية تشمل علم الأخلاق والجمال والنفس .

ولعل أشهر التصنيفات للعلوم والمباحث الفلسفية ، وأكثرها إنتشاراً وتداولاً في كتب الفلسفة الغربية هو تقسيم الفلسفة والعلوم الى ثلاثة أقسام رئيسية على النحو التالي :

١ - مبحث الوجود أو الأنطولوجيا

ويشمل البحث في طبيعة الوجود على الاطلاق بغض النظر في تخصيصها طبيعياً أو تعليمياً ، ويبحث أيضاً الأمور التالية المتعلقة بالوجود من العرض والجوهر والعلة والمعلول ، وتمييزها عن المعدومات ، والعلة الأولى التي تنتهي سلسلة الموجودات اليها .

ب - مبحث المعرفة أو « الأبيستمولوجيا »

يبحث في أمور تتعلق فيما يطلق بنظرية المعرفة من صدق أو كذب وجود الواقع الموضوعي . أي هل أن الواقع الموضوعي حقيقة واقعية أم هي

تصورات ذهنية من نسيج الذهن فقط ، ومدى إمكانية التوصل الى المعرفة اليقينية الحقيقية ، ومصادرها ومقاييسها الخ .

ج - مبحث القيم أو « الأكسيولوجيا »

يعتبر الموضوع الذي يدرس أو يدرج ضمن بحث القيم من العلوم المعيارية التي تبحث فيما ينبغي أن يكون عليه سلوك وخلق الانسان . وتقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية هي : فلسفة الأخلاق والمنطق ، وفلسفة الجمال وهي تبحث في قضايا ومثل أو قيم مطلقة أمثال الخير والحق والجمال .

أقسام الفلسفة النظرية

تُصنف الفلسفة النظرية الى أربعة أصناف رئيسية تبعاً للعلاقة بين العلم والمعلوم ، أي وفقاً لضرورة أو عدم احتياج ذهن الانسان الى إعادة الموضوعية في خارج ذهن الانسان . فهناك أربع حالات توجد في اطار علاقة المعلوم بالعلم .

أ - لا يفتقر المعلوم الى المادة البتة ، لا في وجوده الخارجي ولا في وجوده الذهني ، وهو فوق الادراك ، والعلم به يطلق عليه الفلسفة الإلهية أو العلم الإلهي أو أنولوجيا .

ب - يفتقر المعلوم الى المادة في خارج ذهن الانسان ، أي لكي يتصورها الذهن لا بد من مقارنتها باعادة أو الواقع الموضوعي خارج الذهن . ويسمى العلم بهذا الواقع بالفلسفة السفلى أو الفلسفة الطبيعية أو العلم الأسفل .

وله عدة أقسام مثل علم الكون والآثار العلوية ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان ، والنفس . وهناك علوم فرعية لها مثل علم الطب ، وأحكام النجوم ، الكيمياء ، وعلم الخواص ، والزراعة ، والبيطرة .

ج- يفتر المعلوم الى مقارنة المادة في وجوده الخارجي فقط ، دون مقارنتها في وجوده الذهني ، حيث يمكن إدراكها وتصورها دون حاجة الى المادة ويطلق على هذا النوع من العلم بالفلسفة الوسطى والعلم الرياضي . ويندرج تحت هذا العلم والفلسفة أربعة علوم هي : علم الحساب ، والاسطرانوميا أي علم الهيئة ، والجومطرياً أي علم الهندسة ، وعلم التأليف أي علم الموسيقى .

د- لا يفتر الى المادة في وجوده الخارجي ووجوده الذهني ، ولكن أمكن أن يقارنها من الذهن . وهذا النوع من العلم يسمى بالفلسفة العليا ، والعلم الأعلى ، أو الفلسفة الأولى .

لأنه العلم بأول الأمور من الوجود وهو العلة ، وأول الأمر من العدم وهو الوجود ، ويطلق عليه أيضاً العلم الإلهي بالمعنى الأعم ، وعلم ما بعد الطبيعة .

والمتبع لتاريخ الفلسفة ، يلاحظ أن آرسطو أطلق مصطلح العلم الإلهي ، وسماه بالفلسفة الأولى ، نظراً لكونها تبحث في الأسباب القصوى ، والمبادئ الأولى ، والموجودات المقارنة ، بخلاف العلم الطبيعي الذي أطلق عليه اسم الفلسفة الثانية . بينما اطلق ابن سينا اصطلاح الفلسفة الأولى التي موضوعها الموجود المطلق بما هو موجود مطلق ، واطلق اصطلاح الفلسفة الإلهية على جزء في الفلسفة الأولى ، وهي معرفة الربوبية .

أقسام الفلسفة العملية

يرتبط مفهوم الفلسفة العملية بسلوك الانسان الفردي والأسرى والاجتماعي وعلاقته بالله الخالق العظيم . وينقسم العلم بالفلسفة العملية الى أربعة أقسام رئيسية هي : الأخلاق ، والفلسفة المنزلية ، والفلسفة المدنية ، والدين .

فلسفة الأخلاق .

هناك عدة مباحث رئيسية تدرس بعمق وشمول في الفلسفة الأخلاقية يمكن حصرها في معرفة الأصول الخلقية التي تبين للانسان مواقع الخطأ والصواب في سلوكياته وتصرفاته . أي معرفة مكارم الأخلاق ووزائلها ، ومعرفة مصادر علم الأخلاق .

الفلسفة المنزلية :

تعتبر المباحث والمعارف التي تدرس وتبحث في اطار الفلسفة المنزلية هي اللبنة الأولى لتشكيل شخصية الانسان والمجتمع . وتصنف المباحث التي تندرج تحت لواء الفلسفة المنزلية الى أربعة أصناف أو أقسام رئيسية :

- أ - علم تكوين الأسرة وتديرها .
- ب - علم الحقوق والواجبات المتبادلة بين أفراد الأسرة .
- ج - علم الاقتصاد المنزلي .
- د - علم التربية المنزلية وفيها تعرف قوانين التدبير المنزلي .

الفلسفة المدنية

تندرج تحت لواء الفلسفة المدنية مجموعة كبيرة من العلوم والمباحث المتعلقة بأمور وإدارة المجتمع عبر مسيرته الارتقائية التكاملية . ويمكننا حصر أهم هذه المباحث والعلوم على النحو التالي :

فلسفة التاريخ :

تستهدف الى دراسة وتفسير حركة التاريخ ومعرفة الأسباب والعلل التي تسير حركة التاريخ .

فلسفة الاجتماع :

تبحث في القوانين والسنن الاجتماعية التي تربط أعضاء أفراد المجتمع إلى هذه البوتقة الكبيرة وتحافظ على حقوق الأفراد والمجتمع ونموه وتكامله الاجتماعي .

فلسفة السياسة :

تبحث في نشوء الأنظمة السياسية وارتقائها وعناصرها وأنواعها وفي العلاقات بين السلطة الحاكمة وبين الأمة وفي العلاقات بين الحكومات بعضها حيال بعض .

فلسفة الحقوق :

وهي تبحث في القوانين والأنظمة التي يجب على الانسان أتباعها والسير بمقتضاها .

فلسفة التربية :

وموضوعها البحث عن مصادر المعرفة التربوية وأساليبها ومناهجها السليمة وموضوعاتها والسبل التي يمكن بواسطتها خلق جيل مهذب يرتقي إلى مقام الانسان وتبلور شخصيته وإنسانيته وتوجهه الى الاتجاه الصحيح ، وإلى الصراط المستقيم عبر مسيرته التكاملية .

فلسفة الاقتصاد :

وموضوعها البحث عن جهود الانسان المخصصة لقضاء حاجاته الطبيعية والاجتماعية - المتمثلة بالعملية الانتاجية والتوزيعية والاستهلاكية وذلك من أجل معرفة السنن والقوانين والأسس التي تحكم وتسير النشاط الانتاجي والاستهلاكي والتوزيعي في الاقتصاد .

الفصل الثاني

الأيدولوجية الإسلامية

مقدمة :

الانسان في مدرسة الأنبياء والرسول ، مدرسة التشريع الإلهي والكتب السماوية ، التي يكون القرآن الكريم أكمل بيان لها من حيث الجزئيات والكليات ، أو من حيث الأطار والشكل ، أو من حيث المحتوى والمضمون ، أو من حيث السبل والأساليب أو الأهداف والغايات . . . إلخ ، يختلف تمام الاختلاف ومن جميع الأوجه ، عن ذلك الإنسان المادي الذي يركز على مقاييس وموازين مادية بحتة في حياته الاجتماعية والفردية التي تتميز بقالب أو إطار ضيق محدود ، لا تتجاوز سعته وإمتهاده أوسع وأكبر من الفترة ما بين الولادة والممات ، أو أن كل ما يحمل في جعبته من تساؤلات واستفسارات عن الحياة والكون بشكل عام ، لا تتجاوز حدود المادة والحس والتجربة وسائر المعارف العلمية . بينما نلاحظ أن الانسان القرآني ، يحمل في كيانه وعقله وشعوره ثمة أسئلة محورية جوهرية ، تتجاوز حدود المسائل والقضايا المادية ، وتتجاوز حدود الفترة الزمنية ما بين الولادة والممات ، مما تنقل الانسان إلى أعماق بعيدة وآفاق واسعة ، تتجاوز الإدراكات الحسية أو التجربة ، فيحاول الانسان في هذه المدرسة ، أن يبحث بحثاً دقيقاً شاملاً ، بغية التوصل إلى أفضل إجابة من حيث الشمول والدقة والمصادقية لتلك التساؤلات والاسئلة الجوهرية مستهدفاً من ذلك بناء أساس محتواه الداخلي أو ترسيخ الركيزة التحتية له وذلك بغية تركيب

محتواه الخارجي ، وتشيد ابنيته الفوقية المتمثلة بذلك البناء والصرح الشامخ المترابط المنسجم مع المحتوى أو البنية التحتية له ، وذلك في فروعها وأجزائها وروافدها من زاوية ، وارتباطها وإنسجامها مع الأهداف والغايات المتوخاة والمراد تحقيقها في الدنيا والآخرة من زاوية أخرى .

والمستقرىء للأفكار والمسائل الأساسية والهامة التي تجول في خاطر وقلب الانسان ، يلاحظ بشكل واضح وجلي ، إنها تتمحور وتستقطب حول محاور أو أقطاب محدودة ، تتمثل في حقيقتها وكنهها بالأمور التالية : *

من أين أتى ؟

إلى أين يذهب ؟

أين هو الآن ؟

كيف يجب أن يكون ؟

ماذا يجب أن يعمل ؟

بناء على معرفة وإستيعاب الانسان القرآني يجيب على تلك الاستفسارات والتساؤلات من حيث الشمول والدقة المتناهية والمصادقية ، وبمقدار ما تختمر وتنتقش هذه المعارف القرآنية الانسانية الفطرية في ذهن وشعور وقلب الانسان القرآني ، يمكنه وضع وتشيد الأساس والركيزة أو البنية التحتية لمحتواه الداخلي بشكل متين وراسخ يبعث ويشع نوراً ساطعاً خارج قلب ومحتوى الانسان لينير له الطريق من أجل تشيد وبناء نظام اجتماعي واقتصادي وتربوي وسياسي ذا سمة توحيدية متماسك بشكل يضمن للانسان والمجتمع حياة ارتقائية تكاملية ، مملوءة بالسعادة والرخاء والاستقرار والتقرب إلى الله عز وجل ، محققاً بذلك أسمى أهداف وغايات الانسان ، بالأسلوب والمنهاج المنسجم مع فطرته وكيانه .

* وقد تنفرع من مجموعة هذه التساؤلات والاستفسارات العديد من الأسئلة والمباحث الثانوية التي تدور في أذهاننا ، وهي مشتقة بشكل مباشر أو غير مباشر من تلك التساؤلات السابقة .

من أجل إستيعاب ومعرفة الإجابة على السؤال الأول المتمثل في من أين أتى هذا الانسان ؟ لا بد من إدراك ومعرفة الله تعالى حق المعرفة ، وذلك من خلال النظر والتدبر في الآيات الآفاقية والأنفسية، والتدبر في آيات الله التي يعجز القلم واللسان عن تدوينها والتحدث بها ، والنظر والتدبر إلى الكون والمخلوقات وإلى النفس البشرية بما تنطوي على براهين وأدلة منطقية وعقلية فطرية ، تؤكد ربانية هذا الكون وصدوره من الخالق العليم الحكيم .

أي لا بد من وجود مثل أعلى في ذهن وشعور الانسان والمجتمع ، حتى يسير ويتحرك نحوه . والمثل الأعلى في العقيدة الاسلامية يتجسد في الله سبحانه وتعالى . وأن عقيدة التوحيد، هي التي توفر الرؤية الواضحة فكرياً وأيديولوجياً للمثل الأعلى في حياة الفرد والمجتمع . وتأسيساً على ذلك لا بد أن تجند الطاقات الفكرية والجسدية ، والعقلية والفطرية لدى الانسان في معرفة هذا المثل الأعلى الذي يعتبر محوراً وقطباً رئيسياً تتمحور وتستقطب حوله جميع الأشياء الأخرى في حياة الفرد والمجتمع .

وحتى يصبح هذا المثل الأعلى حياً ومحركاً لحياة الانسان والمجتمع في مسيرتها الارتقائية التكاملية ، لا بد من توفر حقيقي لنوع من الطاقة الروحية المتنامية المستمر والمنبثق عن ذلك المثل الأعلى . وتتجسد هذه الطاقة الروحية أو الوقود الرباني المنبثق عن الله عز وجل ، في الإيمان بعقيدة يوم القيامة والحساب من زاوية ، ومعرفة حقيقة الله وصفاته وقدراته أولاً ، والتعبد بها إنطلاقاً من قاعدة الأهلية والأحقية للعبادة الحقة - لا الخوف من النار والطمع بالجنة ثانياً -، فهي بمطابقة ذلك الرافد المتدفق الذي يغذي فروع واتجاهات النشاط الانساني في الحياة .

ولكي يعرف الى أين يذهب ؟ يجب عليه أن يعرف نقطة الرجوع ، وذلك من خلال التأملات العقلية والفطرية ، والاستقراءات المنطقية كحركة الانسان منذ انشاء نطفته الأولى الى الولادة ، مروراً بمراحل الحياة الى

المات ، وربطها بالحكمة الإلهية والأهداف والغايات المتوخاة منه في هذه الحياة وباستنطاق الآيات القرآنية المجيدة المتعلقة بحشر الأموات والبرزخ وأحوال القيامة ، من عذاب ونعيم الآخرة ، من الراحة والخلود في الجنة إلى غير ذلك من المسائل والأمور التي تبلور فكرة المعاد والرجوع إلى الله تعالى ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١) .

وهنا ينسجم المثل الأعلى - الحي القيوم - المبعث للحركة والإرتقاء ، ومع الوقود والطاقة الروحية المتنامية المستمرة والمنبثقة عنه عز وجل والمتجسدة في عقيدة المعاد ، عقيدة الحشر والامتداد - فهي في الواقع عقيدة توضح للانسان والمجتمع ، مدى الارتباط العضوي والمصيري لحياته في الدنيا والبرزخ والقيامة معاً ، وهي تؤكد لنا أن الحياة الدنيا مرتبطة أو مزرعة للآخرة ، تحصد وتُجنى فيها ثمار الأعمال ، وهي عقيدة تفرز طاقة ، وينبثق عنها نور وشعاع، ينور ويضيء شتى جوانب حياة الانسان ويبعث فيها النشاط المستمر والحركة الديناميكية المتنامية موجهاً الانسان نحو تحقيق أهدافه وغاياته المتوخاة والمتمثلة بالتكامل الفردي والاجتماعي ، والتقرب الى الله ، والفوز بالجنة وذلك تجسيداً للآية القرآنية الشريفة ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾ (٢) .

ويعتبر المثل الأعلى المتمثل في ذات الله سبحانه وتعالى منفصلاً عن الانسان ، ليس جزءاً من الانسان - وليس إفرازاً نابعاً من الانسان ، بل هو واقع عيني قائم في كل مكان وزمان . وهذا الانفصال بين الانسان والمثل الأعلى يستلزم وجود صلات وروابط تربط الانسان بمثله الأعلى . هذه الروابط والصلاة تتجسد في حبل الله المتين المتمثل في الأنبياء (ع) فدور النبوة ، يتمثل في ربط وتوصيل الأوامر والأحكام الربانية وتنفيذها كما يريد الله سبحانه وتعالى ، أي الربط بين المثل الأعلى للانسان والطاقة الروحية

(١) سورة البقرة الآية ١٥٦ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

المستمدة منه تعالى - أي المعاد والقيامة .

ونظراً لكون المجتمعات تمر بمراحل الاختلاف والابتعاد عن هذا المثل الأعلى من زاوية ، وإنهاء النبوة من زاوية أخرى ، يستلزم الأمر قيادة واعية مخلصه مسددة من الله لحمل رسالات الأنبياء واستكمال مسيرتهم الارتقائية التكاملية ، وهذه القيادة تتمثل بالإمامة . فدور الامامة دور ضروري استكمالي ينسجم ويلتئم أساساً مع دور النبوة في حياة الفرد والمجتمع^(١) .

وحتى يدرك الانسان ويرى مكانته وموقعه ، أي يعرف أين هو الآن ؟ أين منزلته من سائر الكائنات والموجودات ؟ أين مكانته في سلم الرقي والتكامل والقرب من الله ؟ لا بد أن يستوعب ويدرك الظروف الموضوعية ، أي الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والنفسية التي تحيط به ، ويعرف العوامل والمتغيرات التي تؤثر في كل منها ، ويدرك العلاقات الارتباطية المتداخلة فيما بينها . أي بتعبير آخر ، يستوعب ويدرك النظم والقوانين أو السنن والأحكام والضوابط التي تسيّر وتتحكم في مسيرة الانسان الفردية والاجتماعية في تكاملها وارتقائها الى الله عز وجل .

ولكي يجيب على الاستفسار والتساؤل عن كيف يجب أن يكون عليه ؟ أو كيف ينبغي أن يكون الانسان ؟ لا بد من البحث عن مذهب عقائدي واجتماعي وسياسي واقتصادي وتربوي وتاريخي و... إلخ منسجم وملتئم مع بعضه البعض ، وبشكل ينطوي على مفاهيم وقواعد أخلاقية روحية ، تنسجم مع فطرته وطبعه الانساني . أي بتعبير آخر ، لا بد للانسان أن يعرف الجوانب الاخلاقية ، والطباع الانسانية ويجسدها في سلوكياته وتصرفاته متخذاً بذلك مقياساً وميزاناً لسلوكياته وأفعاله المختلفة في المجتمع . والأخلاق الاسلامية لها مراتب مختلفة تعتبر مقدمة لمعرفة الله سبحانه وتعالى والتعبد بعبادته ، والأخلاق الاسلامية تتمحور وتجسد حقيقة

(١) الشهيد الامام محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية ، دار المعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان .

واحدة هي في التشبه بالله تعالى عز وجل ﴿ تخلقوا بأخلاق الله ﴾ وهي في الحقيقة مرتبة من مراتب معرفة الله وعبادته ، ولها مكانة وحب وتقدير فطري عند الانسان .

بعد أن استوعب وادرك هذا الانسان الاجابة الكاملة على تلك الاسئلة التي تدور في ذهنه وشعوره ، وبعد أن آمن بالله والاسلام والشريعة والغيب ، وعرف أنه مسؤول بحكم كونه عبداً لله تعالى عن امتثال أحكام الله عز وجل ، أصبح ملزماً بحكم العقل والمنطق أو الشعور والفتنة بالتوفيق بين سلوكياته وأفعاله في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية و . . . إلخ . وعليه أن يبني جميع مواقفه النظرية والعملية ، الفردية والاجتماعية على أسس ومفاهيم اسلامية تتجسد في التنفيذ الكامل والامتثال المطلق لأوامر وأحكام وتشريعات الله . وعليه أيضاً أن يعتقد ويؤمن إيماناً واعتقاداً جازماً بعدد من الموجودات اللامحسوسة اللامرئية ، أي بتعبير القرآن الكريم الايمان بالغيب . وبالتالي يكون قد أجاب على السؤال الأخير ماذا يجب أن يعمل ؟ .

وخلاصة القول ، أن الاجابة الشاملة والدقيقة لتلك التساؤلات والاستفسارات ، تشكل بدورها نسقاً متكاملأ من المفاهيم والأفكار والنظريات والقوانين والأحكام ، وتصبها في بوتقة واحدة ، تشكل ايدولوجية أو مدرسة أو مذهباً متميزاً ينطوي على خطط عامة لنجاة البشر من هلاك الدنيا والآخرة ، مما يُحقق بذلك غاياته وأهدافه المتمثلة في السعادة والتكامل والتقرب إلى الله عز وجل .

وهذا بدوره يشكل مذهباً تاريخياً وفلسفياً وإجتماعياً وإقتصادياً وتربوياً . . . إلخ ، يؤثر حياة الإنسان ، أو يوجهه إلى قنوات واتجاهات معينة ، يربط شتى جوانب الحياة ويقضي على كل فجوة تظهر في حياته ، مما يضيء له الطريق للتوصل إلى أهدافه .

وتشكل لنا أيضاً نظرة خاصة وفهماً متميزاً للكون والمجتمع والانسان

والعلائق المرتبطة بينها . والاختلاف أو التباين حول هذه المقولات والموضوعات هو السبب الرئيسي في تباين وإختلاف المذاهب الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية . . . إلخ في العالم .

فالخط الأول - سواء في المعرفة الاسلامية أو غيرها - الذي ينسج مختلف الأفكار والمشاعر والمفاهيم الاجتماعية والسياسية والتربوية و . . . إلخ في حياة الانسان ، هو تحديد إطار ومحتوى نظرة الانسان الى الكون والحياة والانسان والمجتمع والإله والعلائق الارتباطية المتداخلة بينهم .

وتجدر الإشارة هنا ، الى حقيقة جوهرية دامغة ، مفادها إن إمتداد وإتساع أو شمولية وعمق تلك النظرة الفلسفية الى الواقع والكون والانسان والمجتمع والإله والعلائق الارتباطية المتداخلة فيما بينهم ، تحدد نوعية وكمية الغذاء والطاقة التي يستحصلها الانسان من خلال تلك الجذور والروافد المتمثلة في ما يعرف في التشريع الاسلامي بأصول الدين المرتكزة على ركائز خمسة هي : التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والإمامة والمعاد .

ومن هنا تكمن أهمية وضرورة دراسة وبحث كل ما يتعلق بنظرية المعرفة التي تلقي بدورها الضوء على جميع القضايا والأمور أو الاستفسارات والتساؤلات التي تدور وتحوم في ذهن الانسان .

وبهذا نكون قد ألقينا بعض الضوء على ماهية ونوعية الأسئلة الجوهرية الرئيسية التي تدور وتحوم في ذهن وشعور الانسان القرآني ، والذي يحاول بدوره أن يحصل على إجابات موضوعية منطقية وإيمانية واقعية وبينا أيضاً أن هذه الأسئلة كلها تتمحور أساساً حول ما يلي : من أين أتى ؟ وإلى أين يذهب ؟ ، وأين هو الآن ، وكيف يجب أن يكون ؟ وماذا يجب أن يعمل ؟ .

وذكرنا بأن الانسان بمقدار ما يعرف ويستوعب حقيقة وأبعاد هذه المعارف والحقائق التي تفسر وتجييب على تلك الاسئلة ، وبمقدار ما تختمر

وتنتقش تلك المعارف والحقائق في ذهنه وشعوره وسلوكه ، نستطيع أن نعرف حقيقة ومضمون سعادته الواقعية الموجودة في هذا العالم ، والمتمثلة في تحقيق غايته المنشودة في التقرب الى الله بواسطة مدارج التكامل والسمو الروحي والمعنوي .

وذكرنا أيضاً ، أنه من أجل أن يعرف الاجابة على السؤال من أين أتى ؟ ومن أي مصدر بدأ ؟ يجب أن يعرف ربه . وإلى أين يذهب ؟ يستلزم فهم واستيعاب فكرة المعاد . ولتحديد موقفه أو أين هو الآن؟ ، لا بد من معرفة سنن العالم وأنظمتها وقوانينه ، إضافة الى ذلك معرفة الحقائق والمعارف التي توضح وتبين له منزلته ومكانته بين سائر الموجودات ، ولكي يعرف كيف يجب أن يكون عليه؟ ، يستلزم الأمر معرفة الأخلاق والطباع الانسانية مع تجسيدها في نفسه ، وارتكاز سلوكياته وأفعاله على أساس قاعدة الأخلاق والطباع الحميدة التي تسهل السبيل الى إرتقاء الانسان نحو التكامل الروحي والمعنوي والتقرب الى الله .

وماذا يجب أن يعمل؟ لا بد أن يخضع نفسه لسلسلة من الأوامر والأحكام الفردية والاجتماعية والايمان بالغيب .

فالانسان القرآني ، هو ذلك الانسان المفكر والمؤمن ، الذي ينظر ويستقرىء الطبيعة على أساس إنها آية ، وعلى التاريخ باعتباره مختبراً واقعياً يوضح ويوصل صحة تعاليم وأوامر ونواهي الأنبياء عليهم السلام .

فهذه المفاهيم والمعارف والحقائق الكونية والانسانية تشكل اطروحة خاصة ، وأيديولوجية متميزة ، تنطوي على أساليب وطرق وسلسلة من القيم والوجوبات والمنوعات ، وخطط عامة لنجاة البشر من الانحطاط والاضمحلال ودفعه الى الارتقاء في سلم التكامل المعنوي والروحي ، وتحقيق سعادته الحقيقية الواقعية في الدنيا والآخرة .

ومن هذه الأيديولوجية تؤسس وتنبثق مذاهب فلسفية وتاريخية وإجتماعية وإقتصادية تنطوي على مجموعة متناسقة ومنسجمة من الآراء والمفاهيم والتفاسير والتحليلات حول المسائل والقضايا الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والكونية .

ونستخلص من ذلك ، بأن الخيط الأولي الذي ينسج جميع الأفكار والمعارف والمسائل الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية هو المعرفة الانسانية المتعلقة برؤية كونية معينة ، ونظرة خاصة للانسان ، وإختيار متميز للأسلوب والسبيل في تحقيق أهدافه وغاياته في الحياة . أي نظرة الانسان للكون والحياة والمجتمع بشكل عام . إذن بعد الاتفاق على أن المعرفة الكونية والحقائق المتعلقة بها ، هي الخيط الأولي الذي نسج صورة وحقيقة الكون والحياة والانسان معاً ، ويحدد له السبيل لنجاته وتحقيق أهدافه وغاياته المنشودة في الحياة ، فان ثمة اسئلة محورية جوهرية هامة تظهر على بساط البحث والدراسة ، وهي تتركز أساساً فيما إذا كانت هذه المعارف والحقائق والمسائل حقيقة موضوعية فعلاً أم إنها من ضروب الخيال والأوهام ؟ . وهل يمكن إستيعاب وفهم هذه الحقائق والمعارف أم لا ؟ . وهل هي متأثرة وخاضعة للمحيط والبيئة الناتجة عنها ؟ أم أنها قاعدة تفكيرية حرة مستقلة بعض الشيء عن البيئة ؟ . وما هي مصادرها ؟ وما هي موضوعاتها ؟ وما هي مقاييسها ؟ وما هو مفهوم ودوافع المعرفة ؟ وما هي الحواجز والموانع التي تقف امامها ؟ وما هي درجاتها ؟ ، وهل ان المعرفة الحقيقية نسبية أم مطلقة ؟ وهل انها تتكامل وتنمو ام انها ثابتة ؟ و . . . الخ .

هذه القضايا والمسائل ، تدرس وتبحث في الفلسفة في ظل اطار ونسق من الأفكار ، يطلق عليه نظرية المعرفة ، التي هي موضوع كتابنا هذا . فنأمل ونتمنى من الله العلي القدير ، أن يوفقنا في تقديم هذه الخدمة المتواضعة ، وذلك قرابة إلى الله عز وجل .

الرؤية الكونية «الأيدولوجية»

التأمل حق التأمل ، يرى بوضوح تام وجلي ، إن البحث في المعتقدات الاسلامية ، أو الركائز والأسس الرئيسية لها ، ليس بحثاً عقلياً محضاً مقطوع الصلة بالحياة العملية ، كما يبدو للبعض ، إنما هو بحث مصيري محوري هام ، يستهدف الى معرفة مبدأ الانسانية ومصيرها ، ومعرفة خالقها والغاية المتوخاة منها ومن خلقها ، وكيفية الاتصال بذلك الخالق للتعرف على ما يحقق لها تلك الغاية ، ليتم لها رسم الطريقة المثلى لتحقيق الحياة الكريمة في الدنيا ، ونيل السعادة الابدية في الآخرة .

فهو بهذا بحث ينتهي الى استقطاب طاقات المعتقد لتوجيهها نحو العمل الذي يتفق مع النظام الحياتي العملي الذي خطته يد سيد العقلاء بغية تحقيق السعادة للبشرية في الدارين .

والمستقرىء أو المتبع للطبيعة البشرية ، يلاحظ بدون شك أو ريب ، إن انماط السلوك المختلفة، التي يقوم بها الانسان في حياته الفردية أو الإجتماعية ، في شتى مجالاتها السياسية والاقتصادية ونظائرها، تنبع من ميول ودوافع نفسية خاصة ، تبلورها تلك الادراكات الحسية والجسمية والعقلية ، وذلك في ظل ظروف زمانية ومكانية خاصة . وتخضع هذه الدوافع وال ميول التي توجه سلوكيات الانسان الى سيطرة وتبعية الإرادة والعزم والعقل الانساني . وفي نفس الوقت نلاحظ إن الارشادات

والتوجيهات العقلية في المجال العملي ، هي بدورها رهينة ومبينة على أسس وأفكار كلية ، تشكل خطأً ومنهاجاً وأطروحة كاملة شاملة للحياة الانسانية ، وذلك انطلاقاً من تعريفنا للانسان الذي هو كائن مفكر مؤمن . وهذه الأسس والركائز والتصورات الحسية والفكرية العامة والشاملة منها ، تشكل بدورها اطاراً ومحتوى وقاعدة أساسية محورية ، تحوم وتدور حولها جميع المسائل والقضايا الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الحياة ، وتحدد بدورها اطاراً ومحتوى للمشكلة الرئيسية في الحياة ، وإتجاهاً وأنواعاً للحلول المناسبة لها ، من خلال تحديد الفعاليات والسلوكيات الحياتية للانسان .

هذه الأسس والركائز الأساسية والقواعد العامة ، يطلق عليها إصطلاحاً : المفهوم العام للعالم أو النظرة الكونية .

وإختلاف وتباين الأسس والركائز أو النظرات الكونية ، هو الذي يؤدي الى الاختلافات الأساسية في الأيديولوجيات والأطروحات الانسانية . وهو بدوره يؤدي الى الاختلافات والتباينات في السلوكيات والفعاليات ، من حيث الشكل والاطار أو المحتوى والمضمون في حياة الانسان والمجتمعات .

فقيمة السلوكيات والفعاليات الانسانية مرهونة أساساً ، بالمصدر الذي تصدر منه هذه الفعاليات والسلوكيات ، وبالقاعدة أو الركيزة الفكرية المنطقية ، والنظرة الكونية الشاملة المتعمقة الواقعية لها ، وليس من مصدر الغرائز الحيوانية ، أو من خلال النظرة الكونية الساذجة المتجزئة والناقصة .

والانسان في مدرسة الأنبياء والمرسلين التي يكون القرآن الكريم أكمل بيان لها من جميع الجوانب الرئيسية في الحياة ، سواء من حيث الجنزئيات والكليات ، أو الشكل والاطار أو المحتوى والمضمون ، أو الأساليب والسياسات والأدوات ، أو الأهداف والغايات إلخ يختلف تمام

الاختلاف في معظم المواضع الشكلية والمضمونية عن الانسان الذي تربى في مدرسة العلم والتجارب فقط ، أو الحياة المادية المحدودة ما بين الولادة والممات .

فالتأمل حق التأمل ، يرى بوضوح تام وجلي ، الفروقات الجوهرية بين المحتوى والشكل الداخلي الشعوري والعقلي للانسان المتربى تربية قرآنية آلهية في مدرسة الأنبياء والمرسلين ، وبين الانسان المادي الذي تربى تربية مادية محضة في مدرسة الماديين والمفكرين الماديين بشتى أشكالها وألوانها .

فيشغل فكر وشعور الانسان الألهي القرآني نوعاً أو ثمة أسئلة حياتية محورية هامة ، يحاول جاهداً وبكل ما يمتلك من المقدمات والامكانيات المادية والروحية ، البحث عن أفضل الأجوبة لها ، من أجل ارساء القواعد وترسيخ الركائز الرئيسة لمحتواه الداخلي أو بنيته التحتية ، ومن ثم ينطلق بوضع لبنات فوقية لبناء الصرح الشامخ أو الأبنية الفوقية المترابطة والمنسجمة ما بين أجزائها وفروعها وروافدها المتعددة مع البنية التحتية لها ، وبشكل منسجم وملتمم مع الأهداف والغايات المتوخاة تحقيقها في الحياة الدنيا والآخرة .

وكما ذكرنا في السابق ، أن الأسئلة المحورية الرئيسية التي تحوم في عقل وشعور الانسان القرآني تنحصر بشكل عام في المسائل أو المحاور التالية :

من أين أتى ؟ وإلى أين يذهب ؟ وأين هو الآن ؟ وكيف يجب أن يكون ؟ وماذا يجب أن يعمل ؟

جاء في الحديث « رحم الله امرئ عرف نفسه وعلم من أين وفي أين وإلى أين » .

الأجوبة على هذه الأسئلة ، تنبثق أو تنبع أساساً من منبع رئيسي واحد ، يحدد اتجاهها وإطارها ومضمونها ، عمقاً وشمولية ، ويتمثل هذا المنبع في النظرة الكونية أو الأيديولوجية الانسانية تجاه الكون والانسان والحياة والخالق والعلائق المتداخلة بينهم .

إذن الأيديولوجية الانسانية من جانب ، ونوعية الأسس والركائز المبنية عليها من جانب آخر ، تحدد لنا شكل ومضمون الأجوبة على تلك الأسئلة . وهنا قد يتبادر إلى أذهاننا سؤال آخر ، وهو ما المقصود بالأيديولوجية ؟ وما علاقتها بالرؤية الكونية ؟ . فتأسيساً على ذلك نرى من الأهمية بمكان ، أن نبين بعض المعالم الرئيسية للأيديولوجية بشكل عام ، ومن حيث المفهوم وعلاقتها بالرؤية الكونية بشكل خاص .

تعريف الأيديولوجية ؛

الأيديولوجية هي كلمة مركبة من شقين رئيسين هما (أيده + لوجيه) ومعناه اللغوي هو علم العقيدة . مثل الفسيولوجي (علم وظائف الأعضاء) وعلم البيولوجي (علم الحياة) ، وعلم السيكولوجي (علم النفس) ، ولكن كلمة (الأيديولوجية) تطلق أيضاً على العقيدة نفسها ومحتوى التفكير .

أما المعنى الاصطلاحي لكلمة الأيديولوجية ، فلها معنيان اصطلاحيان ، أحدهما أهم من الآخر

الأول : مطلق المعنى ويقصد به النظام الفكري والعقائدي الشامل للأفكار (النظرية) أي الأفكار المبنية على الواقعيات الخارجية والتي لا ترتبط - بشكل مباشر - بسلوك الانسان ، والأفكار (العملية) أي الأفكار المتعلقة بسلوك الانسان والمحتوية على (الوجوب و) المنع (^١) .

ويطلق الحكماء على هذا النوع من المعرفة ، بالحكمة النظرية المتمثلة بتصور الوجود كما هو في الخارج .

(١) الاستاذ محمد تقي مصباح اليزدي - محاضرات في الأيديولوجية المقارنة . مؤسسة في طريق الحق قم - ايران - الطبعة الأولى ١٣٦١ هجري ، شمسي ص ٨ .

المعنى الاصطلاحي الثاني :

خصوصية المعنى ؛ يختص وفقاً للتعريف الاصطلاحي الثاني (بالنظام الفكري المحدد لشكل سلوك الانسان) .

فعندما نستعمل (أيديولوجية) في مقابل (الرؤية الكونية) فالمقصود هنا ، هو المعنى الخاص المحدد - لأن الرؤية الكونية عبارة عن (النظرة الكلية الشاملة التي تدور وتحوم حول ما هو موجود) * .

وبعض الفلاسفة يعتبر أن حد معاني اصطلاح الأيديولوجيا هو « التأمل المثالي » المجرد ، وتكوين النظريات والرؤى * .

أما إذا رجعنا إلى قاموس وبستر الانجليزي . فسنجد معاني أخرى للأيديولوجية . أحد هذه المعاني يشير إلى « منظومة من الأفكار تعني بالظواهر ، خاصة تلك التي تتعلق بالحياة الاجتماعية ، وفي الآخر أسلوب التفكير الذي يميز الفرد أو الطبقة . ويذكر قاموس وبستر معنى ثالثاً للأيديولوجية مرتكزاً على أساس : « علم المعاني » فيعرفها كأنها أصل الأفكار وطبيعتها ، وبخاصة نظام كوندياك الذي اشتق جميع الأفكار من الشعور ، بشكل رئيسي » .

ومفهوم الايديولوجية عند ماركس وانجلز ، يشمل - اضافة إلى نظرية المعرفة والسياسة والميتافيزيقيا والأخلاق والديانة أية : « صيغة من الوعي تعبر عن الاتجاهات الأساسية او الالتزامات التي تلتزمها طبقة اجتماعية .

* تجدر الإشارة هنا ، بأن مفهوم (الرؤية الكونية) يختلف عن مفهوم أو مصطلح (معرفة الكون) فمن أهم الفروقات الرئيسة بينهما هو أن (معرفة الكون) لا تشمل (معرفة الله) ومعرفة (الانسان) ، بينما تشمل (الرؤية الكونية) العلاقات بين الله و (الانسان) و (الكون) .

(1) Henry D.Aiken, The Age of Ideology, The 19 th Century philosophers Selected, p. 10.

ويرى ماركس إن الأيديولوجيات هي مجرد « إنعكاسات » أو « أصداء »
للقوى الحاسمة الأخرى التي تنجز العمل السياسي في إحداث أي تغيير
إجتماعي حقيقي .

وبناء على المعنى الاصطلاحي الأول العام ، فإن الاعتقاد (بوجود الله)
هو جزء أساسي ورئيسي من الرؤية الكونية للانسان ، وذلك لعدم تعلقه
وإرتباطه المباشر بالاعمال ، ولا يكون مفهوم الاعتقاد بوجود الله مبنياً أساساً
على قاعدة « الوجوب » أو « المنع » . أما إذا استخدمنا الاصطلاح الثاني
الخاص لمفهوم الأيديولوجية ، فإن الأيديولوجية لا تكون شاملة بل هي
خاصة . وبالتالي يصبح الاعتقاد « بوجوب عبادة الله » جزءاً رئيسياً وأساسياً
من الأيديولوجية ، نظراً لارتباطه الوثيق بالسلوك الانساني ، وإنبثاقه أساساً
عن قاعدة الوجوب ، وفي نفس الوقت لا يعتبر جزءاً من الرؤية الكونية .

ولكي يعيش الانسان حياة انسانية مشيدة على إنسانيته لا حيوانيته ، لا
بد أن تركز أفعاله وسلوكيات قاطبة ، على ركيزتين أو قاعدتين رئيسيتين
هما : النظرة الكونية الشاملة المتعمقة والواقعية ، والأيديولوجية السليمة المبنية
على أسس روحية فطرية من جانب وعلمية موضوعية واقعية من جانب
آخر ومن هنا يمكننا أن نميز الانسان عن سائر الموجودات من حيث أنه
مخلوق أو كائن مفكر مؤمن يعيش حياة إنسانية حقيقية ، يدرك ويعي تمام
الإدراك والوعي ما هي أعماله ؟ ولماذا ولأي شيء يعمل ؟ وهل أن هذه
الأعمال واجبة أم لا ؟ وما هي السبل والطرق القويمه لأداء تلك الأعمال
الواجبة ، والابتعاد عن الاعمال المنهى عنها ؟

فهذه الواجبات والممنوعات مهما كانت روافدها الفرعية ودوافعها
المتباينة ، إلا أنها منبثقة عن قاعدة مركزية أساسية تشكل الاطار العام
لسلوكننا وأفعالنا ، يُطلق عليها مصطلح الأيديولوجية ، وهي بدورها مبنية
أساساً على قاعدة الأحكام النظرية . فعلى سبيل المثال ، حينما نؤمن
بوجوب عبادة الله - هذه المعرفة العملية السلوكية مبنية أساساً على ركيزة
وأساس الحكم النظري المتمثل (إن الله هو خالق العالم والانسان والكائنات

الموجودة) فما لم يحدد ويثبت هذا الحكم الأخير، لا نستطيع الاعتقاد والايان بالحكم العملي الأول .

اذن نستخلص من ذلك - أن الايديولوجية الواقعية الصحيحة ، لا بد لها أن تشيّد وترتكز أساساً على رؤية كونية واقعية ، وهي المصدر الأول والرافد الرئيسي الذي يغذيها، والسياس المتماusk الذي يحميها من الهزات والأهوال .

ويطلق الحكم على هذا النوع من المعرفة بالحكمة العملية . وهي متمثلة في فهم واستيعاب خط سير الحياة كما ينبغي أن يكون . وإن ما ينبغي هو في الحقيقة نتيجة منطقية لـ (ما هو موجود) وعلى الأخص تلك الموجودات التي تكفل بتفسيرها وتوضيحها الفلسفة الأولية والحكمة المتعلقة بما وراء الطبيعة . (Metaphysics).

علاقة الايديولوجية بالرؤية الكونية

المتبع للأدبيات الفلسفية ، يلاحظ بوجود عدة أطروحات متعلقة بعلاقة الايديولوجية بالرؤية الكونية من أهمها ما يلي :

الأطروحة الأولى :

إن الايديولوجية هي وليدة طبيعية ذاتية للرؤية الكونية ، وإنها منبثقة عنها بصورة ذاتية ، أي أن الايديولوجية تابعة للرؤية الكونية ، عمقاً وشمولية ، وشكلاً ومضموناً .

الأطروحة الثانية :

يعتقد أنصار ومؤيدو هذه الأطروحة ، بعدم وجود علاقة متبادلة أو ارتباطية ذاتية بين الرؤية الكونية والايديولوجية . وإن أية رؤية كونية يمكنها قبول أية ايديولوجية ، تماماً مثل إختلاف أذواق الناس في إختيار لون الطعام أو الملابس أو المسكن، من دون علاقة إرتباطية مع الرؤى الكونية التي يتبناها الانسان .

الأطروحة الثالثة :

يعتقد معتنقو ومؤيدو هذه الأطروحة ، بوجود علاقة إرتباطية وثيقة بين الأيديولوجية والرؤية الكونية ، ولكن ليست علاقة ذاتية علمية على غرار العلاقة الواردة في الأطروحة الأولى ، فهي ليست من قبيل العلاقة بين المعلول وعلته التامة ، ولا من قبيل العلاقة بين المشروط وشرطه الكافي .

وإنما هي من قبيل علاقة المعلول والمشروط بعلة ناقصة شرط اللازم . أي أن الأيديولوجية محتاجة إلى الرؤية الكونية ، ولكن الرؤية الكونية وحدها غير قادرة على تعيين الأيديولوجية بشكل تلقائي ذاتي^(١) .

وبالتالي يستلزم توفر مقدمات صحيحة ، وإتباع طريقة تنظيم المقدمات واستنتاجاتها بشكل صحيح ، حتى يتسنى لنا إمكانية التوصل الى أيديولوجية سليمة وواقعية .

الأيديولوجية والرؤية الكونية في القرآن

حينما تستقرىء الآيات القرآنية الشريفة ، ونغوص في أعماق معانيها ، نستدل بوضوح تام وجلي ، مدى الارتباط الوثيق ، أو الأهمية البالغة التي تعطىها الآيات القرآنية الشريفة للربط بين الرؤية الكونية والأيديولوجية . حتى إنها تصور لنا حقيقة الانسان وماهيته . فيصف سبحانه وتعالى حال أولئك الفاقدين للأيديولوجية والرؤية الكونية الصحية بالانعام ﴿ بل هم أضل سبيلا ﴾ . فيقول تعالى : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾^(٢) ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾^(٣) وقال تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ،

(١) نفس المصدر ص ١١ .

(٢) سورة الأنفال آية ٥٥ .

(٣) سورة الأنفال آية ٢٢ .

ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴿١﴾
﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل
سبيلاً ﴾ (٥) .

هذه الآيات العظيمة تؤكد لنا ، بأن الانسان حينها لا يستفيد من النعم
الالهية والالاء الربانية التي منحها الله للانسان ، من السمع والبصر
والفؤاد ، ولا يستخدمها للأغراض والغايات المتوخاة منها ، يستعملها فيما
تستعمله الأنعام من التمتع من لذائذ البطن والفرج ، فهؤلاء مثل الأنعام
بل هم أكثر وأشد ضللاً من الأنعام ، وهم غافلون عن الحق والحقيقة .

هذه الآيات القرآنية الشريفة ، وآيات أخرى كثيرة ، تناشد الفطرة الانسانية
الأصيلة ، بالنظر إلى الكون والانسان والموجودات والتعقل بها ،
والاستماع الى القول السديد ، وذلك من أجل تبيان وترسيخ صور في ذهنه
وقلبه لحقيقة وماهية نفسه ، ومن أين جاء ؟ ، وإلى أي مبدأ وجد ؟ ، وأين
موقعه وموضعه الآن ؟ ، وأين اتجاهه ومقصده ؟ اضافة الى تبيان الواجبات
والممنوعات التي يجب أن يعمل بها ويحتمل عنها ، لكي يظفر بالسعادة الحقيقية
الأبدية . أي ضرورة إنتقاش وإختمار تلك الأيديولوجية الالهية والرؤية
الكونية الواقعية المنسجمة والمتطابقة مع الفطرة الانسانية السليمة التي فطر
الناس عليها ، في نفسه وشعوره وعقله وذلك حتى يتسنى له رؤية الحقائق
الموضوعية بشكلها المطابق للواقع .

فالانسان وفقاً لمنطق القرآن الكريم ، والأطروحة الاسلامية الشاملة ، كائن
موجود يتسم بالايمان والتفكير . أي له رؤية كونية من زاوية ، وربط هذه الرؤية
الكونية الواقعية مع الأيديولوجية المنبثقة عنها من زاوية أخرى ، أي المؤمن

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

(٢) سورة الفرقان آية ٤٤ .

بالقواعد والركائز والتصورات المنطوية تحت مضمون وإطار هذه الأيديولوجية . وبتعبير آخر ، الانسان القرآني الآلهي ، هو ذلك الانسان المفكر والمؤمن ، الذي يفكر تفكيراً منطقياً موضوعياً ، ثم يعمل وفق منهجه وایدیولوجیته الاسلامیة المنبثقة عن الرؤیة الكونیة الواقعیة الالهیة ، وذلك كأساس وإطار لجميع سلوكياته وأفعاله في سكناته وحركاته الحرة المختارة عبر مسيرته التكاملية نحو المطلق والمثل الأعلى له في الحياة .

أما الانسان الذي يعاني من قصور في قواه العقلية والشعورية المدركة ، بسبب نقص أو قصور بيولوجي ، أو بسبب الموانع والحواجز التي يضعها الطغاة ، فان مثل هذا الانسان يطلق عليه اصطلاح المستضعف ، قال تعالى : ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴾ (١) .

بينما نلاحظ أن القرآن الكريم يسمي الانسان العاقل المدرك الذي يكف نفسه عن التفكير والاستدلال والاستنباط من خلال استغلال واستخدام قواه الفطرية والشعورية أو العقلية المدركة بـ « الغافل » يقول تعالى : ﴿ والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ (٢) .

﴿ . . . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (٣) .
﴿ . . . فأغرقتناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (٤) .

أما الفئة الثالثة ، فهي الكافرة التي تتعصب لأيديولوجيات غير واقعية ، تخدم أغراضها ومآربها الشخصية والذاتية والمنبثقة عن أهوائها وأفكارها الشيطانية أو الاستكبارية . وهذه الفئة ترفض الأيديولوجية الالهية الحقيقية

(١) سورة النساء الآية ٩٨ .

(٢) سورة يونس آية ٧ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٦ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٣٦ .

الواقعية من الأساس . ويقول تعالى : ﴿... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾^(١) .

- ، ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون...﴾^(٢) .
، ﴿وما يجحد بآياتنا الا الكافرون...﴾^(٣) .
، ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون...﴾^(٤) .

وخلاصة القول ، من أجل تكوين رؤية كونية سليمة وواقعية ، والتي بدورها تشكل ايدولوجية واقعية سلمية ، لا بد أن تتصف بالخصائص والسمات التالية :

- ١ - القدرة على إلقاء الضوء والاجابة الدقيقة الشاملة للأسئلة المتعلقة بمعرفة الكون بأكمله وليس بجزء خاص منه .
- ٢ - أن تتسم تلك المعارف والحقائق المنبثقة عنها بالثبوت والصلابة والاستمرارية والخلود في الأسس والقواعد والركائز المبنية عليها ، وذلك للأطمئنان والاعتماد الكلي عليها على مر التاريخ البشري .
- ٣ - ضرورة تقديم مفاهيم وأفكار وحقائق ذات قيمة نظرية تكشف لنا عن الواقع ، وليس قيمة علمية وفنية محضة .

المواضيع الأساسية في الرؤية الكونية

المتبع للأدبيات والفلسفات المتعلقة بموضوع الرؤية الكونية ، سواء بمفهومها العام أو الخاص ، يستدل بأن هناك ثمة مسائل وموضوعات رئيسية تشكل أركان وركائز تبنى عليها تلك الأيدولوجية أو الرؤية الكونية ، بالإضافة الى بعض المواضيع الفرعية التي لها ارتباط بالموضوع ، ولكن نظراً

(١) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٢) سورة النحل آية ٨٣ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٧ .

(٤) سورة الزخرف آية ٣٠ .

لضيق المقام من زاوية ، والغرض المحدود من هذا الموضوع وعلاقته بالبحث من زاوية أخرى ، فاننا سنتحرى منهج الايجاز والاختصار متجنبين منهج التطويل والاكتثار ، وذلك بالتركيز فقط على الأركان والقواعد أو الموضوعات المرتبطة بالرؤية الكونية . ويمكننا تلخيص الموضوعات الرئيسة إلى ثلاثة موضوعات هي :

١ - معرفة الوجود .

٢ - معرفة الانسان .

٣ - معرفة السبيل أو الطريق .

أولاً : معرفة الوجود :

ففي مبحث معرفة الوجود يتناول الباحث أو الدارس عدة مسائل جوهرية هامة ، مستخدماً شتى الأساليب ومصادر المعرفة من الفطرة والحس والتجربة والاستدلال العقلي والقلب أو الالهام ، وذلك من أجل بلورة وتشكيل رؤية كونية عن الوجود وماهيته ، بغض النظر عن التفاصيل المتعلقة بخصائصه المرتبطة بعلم الفيزياء أو الكيمياء أو علم الاحياء ، بل بشكل كلي اجمالي لمعرفة الظواهر الموجودة في هذا العالم ، هل هي نتيجة لأثر تفاعلات مادية صرفة ولا تؤثر في وجودها أية قوة أخرى ليست من سنخ المادة والماديات ، كما لا تؤثر في وجود أصل المادة فيكون الوجود مساوياً للمادة لا غيره ؟ أو أن المادة تشكل جزءاً من عالم الوجود وإنها في سبيل أن توجد تحتاج إلى قوة فوق المادة^(١) .

فمن خلال معرفتنا للوجود ، نستطيع أن نؤكد معرفتنا بالله ومعرفتنا بصفاته الحميدة والمسائل الأخرى .

(١) حول النظرة الكونية - الدار الاسلامية (الدفاع عن المواقع الايديولوجية الطبعة الأولى (١٤٠ هـ - ١٩٨١ م) ص ١٣ - ١٤ .

والقرآن الكريم يؤكد لنا في مواضع متعددة ، ضرورة معرفة الوجود لمعرفة الخالق الأحد الصمد . فيقول تعالى في محكم كتابه المقدس ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض . . . ﴾ (١) ، ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ (٢) ، ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها . . . ﴾ (٣) . ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . . ﴾ (٤) .

ثانياً : معرفة الانسان :

هناك ثمة مسائل ومعارف جوهرية رئيسة ، يستلزم على الباحث عن أيديولوجية أو رؤية كونية استيعابها وإدراكها ، وذلك من أجل معرفة كنه وماهية الانسان ، وربطها بالركن الأول من الرؤية الكونية المتمثل بمعرفة الوجود . وهناك مسألة محورية رئيسة ، تتركز عليها وتدور وتحوم حولها جميع المسائل الأخرى المتعلقة بالانسان ، وهي أن حياة أي إنسان من النوع البشري ، هل هي محدودة بالعمر والفترة الزمنية التي يقضيها الانسان في هذا العالم ؟ أم أن هناك عالماً ما وراء الطبيعة والمادة ، عالم بعد الموت ، له حياة أبدية خالدة ؟ وهل الانسان مكون من المادة فقط ؟ أم من الروح والمادة ؟ فالاجابة على هذه الأسئلة تشكل قطباً وركناً رئيساً من تلك الرؤية الكونية الواقعية الشاملة المبنية على فكرة وأساس المبدأ والمعاد .

والقرآن يركز في مواضع عديدة على أهمية وضرورة النظر الى الانسان ليس فقط من واقع انسانيته وحيوانيته بل وارتباطه بالموجودات والخالق وجميع

(١) سورة الأعراف آية ١٨٥ .

(٢) سورة ق آية ٦ .

(٣) سورة الروم آية ٥٠ .

(٤) سورة العنكبوت آية ٢٠ .

مظاهر الحياة ، يغبية معرفة نفسه وحقيقتها . يقول تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم اليها ترجعون ﴾^(١) ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ﴾^(٢) .

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ﴾^(٣) .

(بل الانسان على نفسه بصيره ولو ألقى معاذيره ﴾^(٤) .

﴿ يا أيها الذين امنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد . . . ﴾^(٥) .

﴿ وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها ﴾^(٦) .

ثالثاً : معرفة السبيل

بعد أن تم معرفة الوجود ، ومعرفة خالق هذا الوجود وصفاته الحميدة ، وبعد ما استطعنا أن نعرف حقيقة وماهية الانسان من حيث أصالة الروح أم المادة ، ومبدأ المعاد، يبقى أمامنا موضوع هام يربط الانسان بآخرفته أي بين التوحيد والمعاد ، وهذا الموضوع هو السبيل أو الحلقة الوسطى التي تربط مبدأ الانسان بآخرفته ومبدأ التوحيد بالمعاد . وإختيار السير والسبيل الخاص والمستقيم في الحياة ، يستلزم معرفة السبل الأخرى، وتبيان أفضل وأقوم طريق يتسم بالأطمئنان والواقعية المنسجمة مع طبيعة الانسان .

الانسانية تحتاج الى من يوضح وينور هلا الطريق من بين السبل المتباينة والمتعددة ، يحتاج الى من يكون قد استوعب وأدرك هذا الطريق ، وهذا لا يتم الا من خلال رسالة النبوة ، وبالتالي يمكننا ربط بين مسائل وقضايا الرؤية الكونية بالأيدولوجية وبالأفكار والمبادئ العملية عن طريق النبوة التي تعرفنا المنهاج السليم والقويم الذي يربط دنيانا بأخراتنا .

(١) سورة العنكبوت آية ٥٧ .

(٢) سورة لقمان آية ٢٨ .

(٣) سورة الفجر آية ٢٧ - ٢٨ .

(٤) سورة القيامة آية ١٤ - ١٥ .

(٥) سورة الحشر آية ١٨ .

(٦) سورة البقرة آية ٢٥٩ .

ويكشف لنا القرآن المجيد أن الانسان من خلال السبل المعوجة والمنحرفة في خضم الحياة ومشاكلها ، لن يصل الى السبيل الأقوم الا بعد جهد وجهيد ، ومختصة بأولئك الذين يحبون ربهم ويلجأون اليه ويبتغون مرضاته ويريدون وجهه الحق فقط .

وهذه بعض الآيات القرآنية التي تؤكد تلك الحقيقة :

- ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾^(١) .
﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾^(٢) .
﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ﴾^(٣) .
﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾^(٤) .
﴿ فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً ﴾^(٥) .

أما الذين ينهجون السبل المعوجة والمنحرفة ، فتناهم النار والظلمات والعذاب الأليم ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾^(٦) .

ونستخلص من هذا العرض البسيط والموجز ، مدى أهمية موضوعات التوحيد والمعاد والنبوة في القرآن والدين الاسلامي حتى اعتبرها الاسلام أصول الدين ، أي الجذور العميقة والركائز المتينة والقواعد الراسخة للأيدولوجية الاسلامية ، وكيف أن هناك رابطة طبيعية ومنطقية تربط بينها بشكل تولد نسجاً ونسقاً متكامللاً للحياة التكاملية السعيدة والمطمئنة .

(١) سورة البقرة آية ١٦٥ .
(٢) سورة آل عمران آية ٣١ .
(٣) سورة المائدة آية ١٦ .
(٤) سورة لقمان آية ٢٢ .
(٥) سورة النساء آية ١٧٥ .
(٦) سورة يونس آية ٧ - ٨ .

وتجدر الإشارة هنا بهذا الصدد ، إلى أن موضوع العدل الإلهي والامامة المتفرعان من التوحيد والنبوة قد ادرجهما الشيعة كأصل من أصول المذهب ، وذلك تمييزاً لعقائدهم المذهبية عن سائر المذاهب الكلامية الأخرى ، نظراً لكونها عمودين وركيزتين من ركائز وأعمدة ذلك البناء الشامخ المتكامل .

وبناء على ذلك ، تكون المسائل الرئيسة أو الركائز الاساسية لموضوع النظرة الكونية، عبارة عن الركائز الثلاثة التالية: معرفة الوجود ، معرفة الانسان ومعرفة الطريق . فهذه المعارف والأسس عبارة عن الإطار الذي يؤثر جميع سلوكيات وأفعال الانسان ، ويحدد له مضمون وشكل المذهب الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي في حياة الانسان والمجتمع .

فاذا ثبت أن الوجود لا يساوي المادة ، وأن للكون خالقاً عظيماً أوجده ويبقيه ويربيه ، وهو ذو قدرة وعلم ورحمة مطلقة ، وثبت أن الحياة الانسانية ليست محددة بهذه الحياة الدنيوية القصيرة، بل تتبعها حياة الخلود إما في الشقاء أو في السعادة ، والتي تنتهي مقدماتها في الحياة الدنيا عبر الأعمال الاختيارية للانسان ، وثبت أن لمعرفة البرنامج الصحيح لحياة تؤمن بسعادة الدارين يوجد سبيلاً مضموناً موحى به من قبل الله تعالى، بوسيلة رسله الخاصين الى الناس جميعاً . هذه الأمور كلها اذا ثبتت ، فان لها أثرها العظيم في حياة الانسان ، وفي إعطاء النشاطات الانسانية قيمة لا توازيها مطلقاً نتائج العلوم والاكتشافات والاختراعات البشرية ، لأن النتائج العلمية التجريبية مهما كانت ، فهي محدودة ، في حين أن قيمة المعرفة التي نتحدث عنها من حيث امكان وصول الانسان الى السعادة اللانهائية الخالدة ، قيمة غير محدودة ، ولا قياس للمحدود على اللامحدود .

وهنا يمكن أن يقال أن احتمال حل هذه المسائل بالشكل الذي ننتهي معه الى هذه النتائج يبدو ضعيفاً جداً ، ولذا فانه يفقد أهمية متابعته ، إلا أننا يجب أن نلتفت الى أننا مهما افترضنا ضعف

هذا الاحتمال () فانه لن يفقد قيمته مطلقاً ، لأنه مضروب باللانهاية () توضيح ذلك أن قيمة أي إحتمال ترتبط بعاملين : أحدهما النسبة المئوية لنفس الاحتمال والآخر هو مقدار الشيء المحتمل ، وحاصل ضرب هذين العاملين يعين قيمة الاحتمال . فاذا أردنا أن نعرف أن توظيف المال في أي المشروعين أكثر رجحاناً ، فانه لا يكفي أن نحسب مدى إمكان ربح كل منهما ، بل يجب أن نلاحظ أيضاً مقدار الربح المحتمل فيهما ، فعليه لو كان إحتمال ربح أحدهما هو ١٠٪ ، والآخر ٢٠٪ ، ولكن مقدار ربح الأول كان يساوي عشرة أضعاف ربح الثاني ، رغم كون إحتمال ربح الأول نصف احتمال ربح الثاني ، فإن الأول يرجح ، لأن قيمته تعادل خمسة أضعاف الثاني ، ذلك أن $10 \times 10 = 100$ خمسة أضعاف $1 \times 20 = 20$.

والنتيجة التي نصل اليها هي : أن السعي لحل مسائل تبشر الانسان بربح غير محدود ، هو سعي قيم مهمما كانت النتائج ، وحتى لو كان الاحتمال ضعيفاً جداً ، فانه لا يمكن قياس قيمة هذه المسائل مع قيمة أي بحث علمي مهما كانت نتائج هذا البحث قطعية لا ريب فيها . وبناء على ذلك فإن اللامبالاة بالنسبة لقضية تحديد النظرة الكونية ومسائلها الأساسية والسكوت عنها ، أمر لا يقبله العقل والمنطق السليمان ، ولا يمكن تبريره . أما الانكار المسبق بلا دليل قاطع ، فهو أكثر من ذلك لا منطقية وسخافة^(١) .

ويمكننا أن نقسم الرؤية الكونية من حيث أسس المعرفة وأساليبها الى الأقسام التالية :

١ - الرؤية الكونية العلمية

هي تلك الرؤية الكونية المنبثقة عن التجارب ونتائجها العلمية

(١) اقتبسنا من كتاب حول النظرة الكونية - الدفاع عن المواقع الايديولوجية - الدار الاسلامية - الطبعة الأولى (١٤٠ هـ - ١٩٨٠ م ص ١٦ - ١٩ .

التجريبية ، وذلك من خلال جمع المعلومات ووضع افتراضات معينة وملاحظة وتمحيص هذه الافتراضات والتأكد منها بواسطة مسائل وأدوات علمية تجريبية .

٢ - الرؤية الكونية الفلسفية

هي تلك الرؤية الكونية التي تستنتج وتنبثق معالمها وماهيتها عن العمليات العقلية التي يقوم بها العقل ، باستخدام أدواته وأساليبه في اثبات حقيقة معينة ، وهي طريقة لا تعتمد على التجربة . أي هي غير تجريبية في الواقع .

٣ - الرؤية الكونية الدينية

هي الرؤية الكونية النابعة أساساً من الدين من الألهام الديني أو الوحي الإلهي .

٤ - الرؤية الكونية العرفانية

هي الرؤية الكونية المنبثقة أساساً عن القلب وصفاته مباشرة دون الاعتماد على العقل والتجربة .

فالتأمل حق التأمل ، يلاحظ بوضوح وجلاء ، أن ماهية الرؤية الكونية لا تتعلق بالمواضيع العلمية ، ولا يمكن إثباتها بالطرق العلمية التجريبية ، وذلك إنطلاقاً من ، أن لكل علم مبحثاً خاصاً ، ومحوراً خاصاً يدور البحث والدراسة حوله ، من أحكام ونظريات وقوانين تتعلق بموضوع البحث أو العلم المحدد . فعلم الفيزياء وعلم النفس وعلم الكيمياء كلها علوم ومباحث لها أحكام وقوانين خاصة تتعلق بها فقط أو أن كانت هناك علائق متبادلة بينها فالرؤية الكونية المتمثلة بالمفهوم العام عن العالم والمبدأ ، والروابط بين ظواهر هذا العالم ، هي مواضيع أساساً خارجة وبعيدة عن مجال التجربة ، ولا يمكن إخضاعها للتجربة العلمية ، وهي أساساً نظرة فلسفية لا بد أن يتم تحصيلها من خلال الأسلوب العقلي ، وليس بواسطة

الأسلوب العلمي ، وإن كان الأخير يقدم مقدمات (صغريات) للبراهين الفلسفية .

وقد يبدو لبعض الأشخاص بأن الرؤية الكونية ، يمكن تصديقها وبناءؤها وتفسيرها على أساس ما جاء به الوحي ، ونطقت به الكتب السماوية ، الأمر الذي يترتب على ذلك ، بناء نظرة كونية دينية مستقلة عن الفلسفة ، وبالتالي لا نحتاج الى فلسفة معينة لاستنتاج النظرة الكونية .

المتمعن والمتفحص لماهية النظرة الكونية ، يرى بوضوح أن الرؤية الكونية ، هي مقدمة وسابقة على الاعتماد بالوحي والرسول والكتاب المنزل ، أي إننا نحتاج الى رؤية تثبت لنا وجود الله (صاحب الوحي والرسالة والنبوة) حتى نؤمن ونعتقد بالرسالة الدينية .

اذن من الواضح أن موضوع الرؤية الكونية ، يستلزم البرهان العقلي لاثباته وتحديد معالمه وماهيته ، أي نحتاج الى نظرة فلسفية وليست علمية محضة .

وإنطلاقاً من هذه الحقيقة ، يطلب الاسلام من جميع المسلمين الاعتقاد والايان بأصول الدين عن طريق البراهين العقلية المختلفة ولا يجوز التقليد فيها . والمستقرىء للآيات القرآنية الشريفة ، يلاحظ بجلاء ووضوح تام ، مدى الاهتمام الكبير للقرآن والحرص الشديد منه على استخدام البراهين العقلية في إثبات كثير من المسائل المتعلقة بالرؤية الكونية يقول تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾^(١) مؤكداً مبدأ التوحيد ، ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾^(٢) ، مؤكداً على مبدأ المعاد . وخلاصة القول ،

(١) سورة الانبياء آية ٢٢ .

(٢) سورة ص ص ٢٧ - ٢٨ .

أن الرؤية الكونية تعتمد أساساً على الأسلوب العقلي المنطقي ، وأن الرؤية الكونية الدينية لا يمكن أن توجد مستقلة عن الفلسفة .

وتتميز النظرة الكونية والايديولوجية الاسلامية عن بقية الرؤى الكونية والايديولوجيات المختلفة بنظراتها التوحيدية في جميع موضوعاتها ومعالمها وماهيتها .

فهي مبنية على أساس وحدة جميع العالم وإنسجام وإئتلاف أجزائه وعناصره بشكل منسق ومنظم . أي أن مبدأ الخلق واحد ، ومصدر لجميع المخلوقات هو الأحد الصمد ، ولا يوجد غير إله واحد ، خلق العالم بارادته الحكيمة القيمة ، وأن جميع أجزاء الكون وحدة واحدة في التكوين والاتجاه .

﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾^(١) .

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض ، وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ﴾^(٢) .

والنظرة الكونية الاسلامية مبنية أساساً على أن الكون كل واحد يرفض التجزئة ، وأن الأجزاء فيه - قافلة متصلة الأجزاء كاتصال حلقات السلسلة الواحدة ، وكرتباط أجزاء الجهاز الواحد العاملة في ضمن نطاق ونظام منسق واتجاه وهدف واحد . وكل جزء من هذه الأجزاء ، يكتسب معناه الواقعي ويتضح واجبه ودوره من خلال فهم مكانته وموقعه في مجموع هذا التركيب . وبالتالي الأجزاء تصبح مترابطة بشكل لا يمكن فرض حذف قسم منها والابقاء على القسم الآخر ، وإنما حذف بعضها يستلزم بل هو عين حذف جميع الأجزاء ، وكذلك الابقاء على البعض هو عين الابقاء على الكل^(٣) .

(١) سورة الملك آية ٣ .

(٢) سورة الروم آية ٨ .

(٣) الأستاذ مرتضى المطهري - العدل الالهي - الدار الاسلامية للنشر - قم - ايران - ١٤٠١ هـ - ص ١٧٠ .

لقد تطرق هيجل الى موضوع أصل العضوية والذي يقصد به أن ارتباط الطبيعة بالكل مثل إرتباط الأعضاء بالجسم ، واقتبست الماركسية هذه المقولة من هيجل وسموها بأصل التأثير المتبادل ، أو أصل الارتباط العام بين الأشياء (إرتباط المتضادات) . وبالرغم من أن الماركسين يعتقدون بهذه المقولة ، ولكن عند الاثبات ، فانهم يتهربون نظراً لمحدودية المادة .

أما فلاسفة الاسلام فقد اثبتوا أن العالم وحدة واحدة لا تتجزأ ، وكانوا ينظرون الى هذا الأرتباط بشكل شبهوا العالم (بانسان كبير) * .

ونظراً لأن العالم صادر من مبدأ واحد ، ومنتجه نحو هدف وغاية واحدة ، وهو يسلك في سيره الارتقائي التكاملي سبيلاً واحداً ، فان وحدة العالم والانسجام والالتئام بين أجزائه ، هو تحصيل حاصل لتلك الرؤية الكونية الواقعية .

ومن عناصر الرؤية الكونية الاسلامية الكاملة أن لهذا العالم هدفاً وغاية ومسيرة مبنية على قواعد وأسس دقيقة ، وعلى نظام محاسبي وإنضباطي دقيق مما يضيفي على كل جزء من أجزاء هذا الكون روحاً ومعنىً وغاية منبثقة عن الخالق الحكيم العليم ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾^(١) ، ﴿ بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون ﴾^(٢) .

أما بالنسبة للرؤية أو المعرفة الانسانية ، فهي أيضاً مبنية على أساس وركيزة مبدأ التوحيد . أي أن النظرة الانسانية وفق المنظار الاسلامي ، هي نظرة إنسانية توحيدية غائبة . أي أن جميع أبناء النوع البشري متساوون في إرتباطهم بالله ، وأن ربهم هو الله الواحد الصمد ،

* أخوان الصفا لهم مثل هذه النظرة .

(١) سورة الانبياء آية ١٦ .

(٢) سورة البقرة آية ١١٦ .

وأن جميع الناس أمام الله سواسية ، وليس لأحد ميزة خاصة واهتمام وعتاية وكرامة خاصة الا بالعمل الصالح . ﴿ إن أكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ (١) ،
والعلم : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (٢) ،
والجهاد في سبيله ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً ﴾ (٣) .

وإن أبناء النوع الانساني متوحدون ومتساوون في الخلقة والتكوين الانساني . وذلك إنطلاقاً من مبدأ وحدة الخالق الحكيم العليم ، في خلق الانسان من عنصر واحد متماثل ، يسري في جميع أفراد النوع البشري بشكل متساوي في الماهية والجوهر . ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ (٤) .

وإن أفراد النوع الانساني متساوون ومتماثلون في الامكانيات المتاحة لهم من أجل التكامل والسمو . حيث أن الله سبحانه وتعالى خلق البشرية من جوهر واحد ذي طبيعة ونوعية متماثلة جبلت بيد الخالق الحكيم . وبالتالي لا يوجد في المفهوم أو المنظار الاسلامي فرد عاجز ذاتياً عن الارتقاء والسير الارتقائي في مدارج الصراط المستقيم نحو الغاية المنشودة والمتمثلة بالتكامل الروحي والتقرب الى الله عز وجل . ومن هنا كانت الدعوات الإلهية موجهة الى عامة الناس ، وإلى جميع الفئات البشرية . ﴿ وما أرسلناك الا كافة للناس ﴾ (٥) ، ﴿ وأرسلناك للناس رسولاً ﴾ (٦) .

وأن الناس أحرار من قيود الأسر ، ومن قيود العبودية لغير الله . يقول تعالى ﴿ إن الحكم الا الله ، أمر أن لا تعبدوا الاياه ذلك الدين القيم ﴾ (٧) ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ (٨) .

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) سورة الزمر آية ٩ .

(٣) سورة النساء آية ٩٥ .

(٤) سورة النساء آية ٢١ .

(٥) سورة سبأ آية ٢٨ .

(٦) سورة النساء آية ٧٩ .

(٧) سورة يوسف آية ٤٠ .

(٨) سورة الاسراء آية ٢٣ .

وأن هناك وحدة وإنسجاماً والتثاماً بين حياة الانسان ووجوده ، حيث أن حياته مركبة من الذهن والواقع ، من الفكر والعمل ، أو من الايمان والعمل ولا بد أن ينطبق الذهن مع الواقع ، والفكر مع العمل ، وألا تظهر الأزواجية في حياة الانسان وإنحرافه عن السبيل والطريق المستقيم ومن ثم ابتعاده عن الغاية المنشودة في حياته .

(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ﴿١﴾ .

وان هناك إنسجاماً وإلتزاماً بين الانسان وما يحيط به من عالم القوانين والسنن . ويعني ذلك أن القوانين والسنن والأحكام والضوابط الكونية كلها منسجمة وملتئمة مع طبيعة وماهية الفطرة البشرية النقية التي أطمسها غبار الفساد والانحراف . وأن للانسان ارادة وحرية في اختبار وتسيير الطبيعة الانسانية مع تلك القوانين والسنن ، أو التخلف والابتعاد عنها منها .

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٢)

فنستخلص من ذلك ، أن التوحيد يدعو الانسان الى السير على الطريقة الطبيعية للفطرة الانسانية والتي أودع الله في أعماقها خصائص ومقومات وغرائز ، تنسجم وتلتئم مع حركة وسير جميع أجزاء الكون ، وذلك بكونه العنصر الأساسي والأصيل الذي سخر الله له الكون والسموات والأرض .

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾ (٣) .

(١) سورة البقرة آية ٨٥ .

(٢) سورة الكهف آية ٢٩ .

(٣) سورة الحج آية ١٨ .

فهذه الرؤى الكونية والانسانية التوحيدية في الاسلام ، تعكس بلا شك انعكاسات إيجابية وتوحيدية على السبل والمناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . . أي أن المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كلها منبثقة عن الله عز وجل ومبنية على ركيزة التوحيد بكل ما لها من معنى ومضمون أو اطار وشكل .

ويمكننا تلخيص المعيار الدقيق للرؤية الكونية السليمة ، من خلال توفر السمات ، والخصائص التالية : (١) .

- ١ - امكانية إثبات الرؤية الكونية بطريقة عقلية منطقية وبرهانية استدلالية .
- ٢ - ان تتسم بنوع من القدسية والاحترام ، والتقدير للأهداف والغايات الانسانية والاجتماعية والاقتصادية ، التي تغذي الروح الانسانية ، وتدفعه إلى تفجير طاقاتها وإمكاناتها اللاحدودة نسبياً في سبيل تحقيق طموحاتها وغاياتها المتمثلة بالارتقاء والسمو والتكامل المعنوي والروحي لها .
- ٣ - القدرة على محو الأوهام والتصورات الساذجة المادية ، التي تعطي للحياة قيمة مادية محدودة ، وبأنها حياة مادية تتسم بالعبث والضياع والفراغ وسلب المعنى والمحتوى منها - ومنح الحياة معنى ومفهوماً غائياً مقدساً .
- ٤ - ان تخلق الالتزام وتحقق الشعور بالمسؤولية .

الرؤية الكونية الاسلامية :

بناء على ما ذكرنا من أشكال وأنواع الرؤى الكونية ومقوماتها وخصائصها ومعاييرها الصحيحة ، فاننا نستنتج بأن الرؤية الكونية الشاملة العميقة التي تستوعب جميع أجزاء ومسائل وأمور الكون بشكل منسجم

(١) الاستاذ مرتضى المطهري - الرؤية الكونية التوحيدية - فجر الاسلام - قم - ايزان - ١٤٠٣ هـ - ص ١٩ .

وملتئم وذات هدف وغاية تسمو بالانسان الى المقام الرفيع . ، هي تلك الرؤية الكونية الاسلامية التوحيدية الجامعة لجميع تلك الخصائص والسمات التي ذكرناها سابقاً .

ويمكن تلخيص النظرية أو الرؤية الكونية التوحيدية ، بأنها مشيئة أساساً على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً حكيماً عليماً، لو أن أركان هذا الكون مشيدة على الخير والجلود والرحمة وإيصال الموجودات الى كمالها اللائقة والمنسجمة مع طبيعتها وماهيتها . وأن للكون قطباً ومحوراً واحداً وماهيته واحدة هي منه (وإليه) ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . وأن الموجودات تتجه نحو تكاملها في ظل نظام شامل ينطوي على سنن وقوانين الهية تتحكم وتسير في المسيرة الاجتماعية والتاريخية للانسان ، وأن الانسان أفضل مخلوقات الله لما أعطاه من الشرف والتقدير والنعم والألاء الربانية ، وهو مسؤول وخليفة الله على هذا الكون الذي يعتبر مدرسة بكل معنى يختبر فيها الانسان مدى التزامه وقيامه بالدور المكلف به . فهذه المعارف هي التي تعطي للرؤية التوحيدية معنى للحياة والتزاماً ومسؤولية وقدسية وحركة ديناميكية نحو السير الارتقائي التكاملي للفرد والمجتمع . والنقطة الهامة المحورية هي الاعتقاد الجازم بأن هذه الأيديولوجية والرؤية الكونية نابغة عن الواحد الصمد الحكيم العليم ﴿ ليس كمثله شيء ﴾^(١) ، ودون أي مصلحة وهدف واحتياج لها ﴿ أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾^(٢) * ، وهو العليم القادر على كل شيء ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾^(٣) ، ﴿ وأنه على كل شيء قدير ﴾^(٤) وهو المسيطر المهيمن المتواجد

(١) سورة الشورى آية ١١ .

(٢) سورة فاطر آية ١٥ .

(٣) سورة الشورى آية ١٢ .

(٤) سورة الحج آية ٦ .

في كل مكان وكل زمان ، ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾^(١) ، وهو العليم بخفايا الأمور القلبية في الإنسان ، ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾^(٢) ، ﴿ ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ﴾^(٣) وهو مركز الكلمات ومنزه من كل نقص ، ﴿ والله الأسماء الحسنى ﴾^(٤) ، ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾^(٥) .

وخلاصة القول ، أن الرؤية الكونية الاسلامية هي رؤية كونية توحيدية بكل ما تحمل هذه الجملة من معاني ومضامين ، سواء من حيث الشمولية أو العمق ، فهي توحيدية من حيث الذات الإلهية وصفاته ، أو التوحيد العقلي والعملي .

ضرورة إحتياج الانسان الى ايدولوجية

إن ضرورة إحتياج الانسان الى ايدولوجية معينة أو الى شريعة على حد التعبير القرآني ، أمر لا مناص منه ، منذ بدء وجوده على ظهر الأرض ، ويعتبر أكثر حاجة والحاحاً منذ أن اتسعت حياته الفردية وشكلت حياة إجتماعية تنطوي على اختلافات ومصالح متباينة بين افراد المجتمع الواحد .

وهنا تفرض العقيدة أو الأيدولوجية نفسها باعتبارها ضرورة حياتية للانسان ، لا يمكن أن يستغني عنها في حياته الاجتماعية والفردية . أي أن البشرية تحتاج الى نظرية عامة ، وتخطيط شامل ، متسق الأجزاء ، تحدد فيه الأهداف والغايات ، وترسم فيه السياسات والسبل ، وتستخلص منه معايير ومقاييس موضوعية للقياس والتفاضل بين الأفراد ، وتحدد به

(١) سورة القرة آية ١١٥ .

(٢) سورة ق آية ١٦ .

(٣) سورة ق آية ١٦ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

(٥) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

مواضع الخطأ ، وتعطي المسؤوليات وتمنح السلطات ، وتضع حوافز ودوافع لتحريك الانسان نحو تحقيق أهدافه وغاياته المنشودة .

الأيدولوجية العالمية الانسانية

المتأمل حق التأمل، يستنتج من خلال الاستقراء والاستدلال للأحداث والظواهر الاجتماعية ، أن المجتمعات الانسانية بحكم اتساع رقعتها وانتشارها، وتشابك المصالح والدوافع المتعددة، وتظافر القوى الشيطانية المهيمنة على رقاب الناس في أمس الحاجة الى أيدولوجية شاملة وكاملة موحدة، وأن بشرية الغد - بحاجة الى ما يوحد اتجاهها ، ويمنحها أطراً وأهدافاً وغايات منسجمة ومشاركة ، وطرقاً وأساليباً توصلها إلى تلك الأهداف والغايات ، والى معايير ومقاييس تفاضلية انسانية موضوعية مشيدة على قاعدة الخير والشر، أي إنها في أمس الحاجة الى فلسفة، ورؤية كونية توحيدية شاملة، والى أيدولوجية واقعية كاملة .

فهل العقلية الفردية الذاتية للانسان ، قادرة على توحيد البشرية ، وإيجاد فلسفة ورؤية كونية ، وايدولوجية موحدة كاملة؟! أم أن عقول مجموع البشرية قادرة على ذلك؟ أم أننا نحتاج الى قوة وإرادة واعية مدركة لماهية الانسان وأهدافه وخصائصه وسماته الحاضرة واللاحقة منها ، لكي تخطط وتنسق وتحدد لنا حياتنا الفردية والاجتماعية .

وبناء على نوعية الاجابة على تلك الاسئلة والاستفسارات ، سواء سلباً أم ايجاباً ، فاننا نستطيع أن نحدد الاجابة تبعاً لأطارين أو نوعين من الأيدولوجيات هما :

أ - الأيدولوجية الفئوية :

وهي الأيدولوجية التي تنطوي على تخطيط وتنسيق وأهداف وغايات وسياسات وأساليب ومعايير خاصة تتعلق بفئة معينة ، وتخطبهم من أجل الانتفاء والتصديق بها . وتتسم هذه الأيدولوجية بسمات وخصائص يمكن

حصرها على النحو التالي : -

- ١ - محدودة ومتغيرة غير ثابتة .
- ٢ - تستند على قواعد وأسس جغرافية عرقية معينة .
- ٣ - نابعة ومشتقة عن الواقع التاريخي والاجتماعي ، وبالتالي لا تستطيع أن تتجاوز هذا الواقع ، بل هي أسيرة هذا الواقع ، وأن تقدمت بعض الشيء إلا انها سرعان ما تتفوق وتأطر نفسها بالواقع والظروف المحيطة بها .
- ٤ - خاضعة للأهواء والملذات الشخصية ومصالحها الذاتية .

ب - الأيديولوجية الانسانية

الأيديولوجية الانسانية هي تلك الايديولوجية التي تنطوي على خطط وسياسات وأساليب وأهداف ومقاييس ، تنظم وتنسق حياة الفرد والمجتمع ، وتخطب الفطرة الانسانية المشتركة بين عامة الناس ، أي إنها تتوغل توغلاً عمودياً وافقياً الى أن تلامس أعماق الفطرة الانسانية وتخطبها مخاطبة عليمه ومدركة بخصائصها وسماتها الذاتية التي جبلت عليها البشرية وأودعتها اليد الإلهية الحكيمة . وبالتالي كون الأيديولوجية الانسانية هي شاملة وعامة وتستوعب جميع انواع الفرد الانساني ، هو تحصيل حاصل للمقدمات التي ذكرناها . وتسم هذه الأيديولوجية بسمات وخصائص عديدة يمكن حصر أهمها فيما يلي : -

- ١ - تخاطب جميع أفراد النوع البشري ، فهي عالمية ، شاملة ، تتجاوز الأطر العرقية والقومية .
- ٢ - تستند وترتكز على أسس وقواعد راسخة لا تتغير ، لا علاقة لها بالواقع الموضوعي التاريخي والاجتماعي ، بل إنها تغير وتحول الواقع الى وضع مستهدف ومطلوب يتسم بالرقى والتكامل .
- ٣ - تنطلق من الفطرة الانسانية الثابتة التي أودعها الله سبحانه وتعالى .
وخلاصة القول ، إن الأيديولوجية الانسانية الاسلامية ، هي

الأيدولوجية الشاملة والكاملة ، التي تستوعب جميع أنواع الفرد البشري ، وذلك إنطلاقاً من مخاطبتها وارتكازها على أسس وقواعد فطرية ثابتة مشتركة بين جميع أفراد النوع البشري ، وإنها منبثقة عن الله سبحانه وتعالى العليم الحكيم بجميع خفايا الأمور وبمصلحة الانسانية جمعاء .

الفصل الثالث
نظرية المعرفة

مفهوم المعرفة

تعريف المعرفة Definition of Knowledge

هناك من يرى أن مفهوم المعرفة بديهي ، ولا يحتاج الى تعريف فقط بل لا يمكن إطلاقاً تعريفه ، لأننا حينها نبحث عن تعريف وتحديد لشيء ما فنحن نبحث عن موضح بواسطته أن (نعرف) ذلك الشيء المطلوب . اذن نحن على علم مسبق بمعنى المعرفة . أي إنها معروفة لدينا من قبل ، وبالتالي تصبح جميع التعبيرات والجمل التي تفسر أو تعبّر عن مفهوم المعرفة أو الادراك أو الوعي وأمثالها، ما هي الا شرح لفظي أو تعيين لبعض مصاديق المعرفة التي يتناولها علم من العلوم ، أو يكون القصد منه تبيان وجهة نظر أو رأي شخصي لصاحب التعريف حول المسائل المطروحة على بساط البحث .

فمعرفة الشيء، وإدراكه بالحواس أو بغيرها ، والمعرفة إدراك الأشياء وتصورها ، ولها عند القدماء عدة معان : منها إدراك الشيء باحدى الحواس ، ومنها العلم مطلقاً تصوراً كان أو تصديقاً ، ومنها إدراك البسيط سواء كان تصوراً للماهية ، أو تصديقاً بأحوالها^(١) ، . . . إلخ وبشكل

(١) د. جميل صليبا - المعجم الفلسفي - دار الكتاب اللبناني - لبنان - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٧٣ الجزء الثاني - ص ٣٩٢ .

عام ، يمكن تعريف المعرفة على أساس إنها تعني ما نتحصل عليه من معلومات يقينية وما نكونه من مدركات وتصورات حازمة عن موضوع أو شيء ما .

وتأسيساً على ذلك ، يمكن تعريفها على أساس أنها العلاقة الذهنية بين عقل الإنسان وبين موضوع خارجي . أو على أساس إنها العلاقة التي تكون بين قوى إدراكنا وبين الأشياء التي ندركها .

وبناء على ذلك ، تصبح المعرفة البشرية المكتسبة وفقاً للتعريف السابق ، تحصيل حاصل أو نتيجة لأحدى النتائج المترتبة على العمليات العقلية التي يقوم بها الانسان ، أو على التفاعل الواعي المدرك الذي يتم بين الانسان وبيئته أو ، ذلك العالم الموضوعي خارج ذهنه والمحيط به ، أو الخبرة المترتبة على هذا التفاعل . وتفسر أحياناً على أساس العمليات العقلية نفسها ، والتي يقوم بها الانسان ، بغية تشكيل أو تكوين مدركاته ومفاهيمه أو تصوراته ومعلوماته عن أشياء موضوعية خارجة عن ذهنه .

وهناك من يختصر التعريف بـ « حصول الشيء في الذهن » والآخرين يعرفونها على أساس « الاضافة والنسبة التي هي بين العالم والمعلوم » أو « حضور شيء لدى موجود مجرد » .

وفي ضوء ذلك ، يمكننا القول ، بأن المعرفة هي العملية الادراكية للأشياء أو الموضوعات التي تقع خارج الذهن البشري على حقيقتها ، أي حصول العلم بالأشياء . وتنطوي هذه العملية العقلية على عدة عمليات ، تتمثل في عمليات الادراك الحسي ، والتذكر ، والتعرف ، والتمييز بين الأشياء ، والتخيل ، والاستقراء والمقارنة ، والاستنباط والاستنتاج ، والحكم والتفكير . ومما لا شك فيه ، أن أشمل وأعمق هذه العمليات العقلية وأرفعها هي عملية التفكير التي سنتعرض لها بشيء من التفصيل والشرح المستفيض في مصادر المعرفة ، حيث يعتبر العقل مصدراً رئيسياً من مصادر المعرفة البشرية .

- والبحث في نظرية المعرفة يشتمل على مجموعة قضايا ومساائل أساسية تتمثل في التساؤلات التالية :
- ١ - ما هي المعرفة ؟ أو ما هي طبيعة المعرفة ؟
 - ٢ - ما هي موضوعات المعرفة ؟
 - ٣ - هل هناك حقائق وأشياء مستقلة عن عقولنا ؟ أي لها واقع موضوعي خارج ذهن الانسان أم لا ؟
 - ٤ - هل يمكن إدراك المعرفة أي الأشياء والحقائق أم لا ؟ .
 - ٥ - هل إن معرفتنا للحقائق والأشياء هي نسخة طبق الأصل لحقائق الأشياء أم لا ؟
 - ٦ - ماهي أنواع وأشكال المعرفة البشرية المختلفة ؟
 - ٧ - ما هي مصادر المعرفة البشرية ومنابعها وأدواتها ووسائلها ؟
 - ٨ - ما هي درجات المعرفة البشرية ؟
 - ٩ - ما هي مقاييس أو معايير المعرفة الصالحة ؟
 - ١٠ - ما هي الحواجز أو الموانع التي تقف أمام معرفة الحقائق الصادقة ؟
- تباين الأجوبة على تلك التساؤلات والاستفسارات تبعاً للمذاهب والنزعات الفلسفية التي يعتنقها الفرد أو المجتمع . وبالرغم من وجود جوهر المعرفة وجوداً محققاً ، إلا أن نعت المعرفة من قلة وكثرة ، أو نسبية وإطلاق ، أو فطرية واكتسابية ، هو الذي اختلف فيه الفلاسفة منذ أقدم عصور الفلسفة الانسانية الى يومنا هذا . فهي تارة نسبية ، وأخرى مطلقة ، وثالثة ، فطرية كلها ، ورابعة مكتسبة كلها ترتكز على التجارب . وعلى نفس المنوال بالنسبة لتعيين القوة العارفة ، وتحديد مدى اختصاصها ، فمرة هي الحواس وحدها كما عند هيراقليطيس ، وأخرى هي الحواس مع العقل كما يرى أرسطو ، وثالثة هي البصيرة كما يرى أفلاطون ، ورابعة هي العقل وحده كمذهب ديكارت ، وتارة أخرى هي القلب والالهام ، وتارة أخرى الوحي و . . . وهكذا .

سنقتصر في حديثنا في هذا البحث على القاء بعض الضوء على أهم مبادئ وعناصر نظرية المعرفة في الفلسفة الاسلامية ، وذلك بشكل مختصر وموجز قدر الامكان .

الفرق بين العلم والمعرفة :

المعرفة أوسع وأشمل من العلم ، ذلك لأن المعرفة تتضمن معارف علمية وأخرى غير علمية ، وهناك من يقول إنه من الممكن التمييز بينها على أساس قواعد المنهج وأساليب التفكير ، التي تتبّع في تحصيل المعارف . فاذا أتبع الباحث عن الحقائق الموضوعية ، فإنه يصل الى المعرفة العلمية . ويمكننا تعريف العلم كما هو وارد في قاموس ويبستر الجديد الذي يعطي تعريفين للعلم⁽¹⁾ على النحو التالي :

- العلم هو المعرفة المنسقة Systematized Knowledge التي تنشأ عن الملاحظة والدراسة والتجريب ، والتي تتم بغرض تحديد طبيعة أو أسس وأصول ما تتم دراسته .

- العلم هو فرع من فروع المعرفة أو الدراسة ، خصوصاً ذلك الفرع المتعلق بتنسيق وترسيخ الحقائق والمبادئ والمناهج بواسطة التجارب والفروض .

أما سير جيمس جينز⁽²⁾ فيعتقد بأن العلم يعلمنا كيف نعرف ، وإن الفن يعلمنا كيف نعمل .

أنواع المعرفة ومراتب الفلسفة

قراءة سريعة في الفكر الفلسفي ، يلاحظ الانسان وجود انواع وتصنيفات مختلفة للمعرفة البشرية ، وذلك طبقاً لقواعد ومقاييس مختلفة .

(1) Webster's New Twentieth century Dictionary of English language, 1960. p 1622.

(2) jeans' Sir james hopwood. The Mysterious Universe The Macmillan Co., New york 1931.

فهناك من يصنّف أو يقسّم المعرفة البشرية على أساس فطري أو مكتسب :

النوع الفطري من المعارف :

هو ذلك الصنف من المعرفة البشرية الذي يوجد في عقل ونفس الانسان بالقوة منذ ولادته، وهي مسائل وقضايا بديهية أولية قبلية Apriori

النوع الثاني ، المعرفة المكتسبة :

هو ذلك النوع من المعارف البشرية الذي يكتسبه الانسان من خلال الاكتساب والتجارب والمشاهدة، ويكون من صنع العقل . ويطلق عليه المعرفة التجريبية البعدية aposteriori أو المعرفة المكتسبة aquired knowledge .

وتندرج تحت النوع الأول من المعارف ، تلك المعارف والقضايا الأولية في الرياضيات والهندسة ، مثل الواحد نصف الاثنين ، والمساويات لثالث متساويات ، والبديهات المنطقية مثل الكل أعظم وأكبر من الجزء* ، وكذلك الأفعال الغريزية التي يقوم بها الطفل مثل اهتدائه غريزياً للشيء من باب كونه يشبع أو لا يشبع . فهذه المعارف هي فطرية منغرسه ومغروزة في ذهن ونفس الانسان بالقوة ، وهي ثابتة لا تتغير^(١) .

ومن أبرز وأشهر فلاسفة المسلمين الذين صنّفوا المعرفة تبعاً لقاعدة أو ميزان الاكتساب أو عدم الاكتساب هو الفيلسوف الاسلامي « ابن سينا » فقد قسم ابن سينا المعرفة على أساس ثلاث فئات رئيسية هي :

أ - المعرفة بالفطرة ، وهي تتمثل في الادراكات والحقائق والمبادئ الأولية

(*) هناك رأي يقول إن هذه معرفة « اصطلاحية » أي اصطلح عليها البشر ، وليست فطرية (المدرسة الوضعية والواقعية الحديثة والتحليلية ، الخ . . .) .

(١) توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

مثل الكل أكبر من الجزء ، وإن الواحد نصف الاثنين .
ب - المعرفة بالفكرة ، وهي معرفة مكتسبة وتكون بإدراك المجردات المعقدة ،
والكليات العامة ، والانتقاش بها ، ويحتاج المرء فيها الى مجهود أكبر من
مجهود النوع الأول ، ولا يدركها الا من وصل الى مرتبة العقل
المستفاد .

ج - المعرفة بالحدس Intuition هناك نوع من المعارف والحقائق لا يحتاج
الانسان الى العقل الفعال بشكل كبير ، ولا يستلزم الأمر جهود مضمّنية ،
ولا يحتاج الى تخريج وتعليم ، بل نراه كأنه يعرف كل شيء بنفسه
حدساً .

وبالتالي يطلق الحدس على اطلاع النفس المباشر على ما يمثله لها الحس
الظاهر، او الحس الباطن من صور حسية أو نفسية ، أو على كشف الذهن
على بعض الحقائق بوحى مفاجيء ، لا على سبيل القياس ، ولا على سبيل
الاستقراء او الاستنتاج ، ولكن على سبيل المشاهدة التي ينبج فيها الحق
إنبلاجاً . وله أربعة أنواع: الحدس التجريبي ، والحدس العقلي، والحدس
الكشفي ، والحدس الفلسفي أو الصوفي^(١) .

وهناك تعريفات ومضامين عديدة حول الحدس، فلكل من ابن سينا
وديكرات وكانت وشوينهادر وهنري برجسون وهنري بوانكاره وهاملتون
وتعريفات متباينة ، تتماثل في بعض جوانبها ، وتتباين في جوانب أخرى
منها .

وتجدر الاشارة الى ، أن الاستعداد الحدسي يختلف أصنافه، له
درجات متباينة ومتفاوتة بين الجنس البشري . وكذلك بالنسبة للمعرفة

(١) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ - الجزء
الأول ، ص ٤٥١ - ٤٥٤ .

بالفكرة أو بالحدس أو بالفطرة فهي متفاوتة ومتباينة بين أفراد الجنس البشري .

ويقسم الفيلسوف الاسلامي ابن رشد المعارف الانسانية على أساس صفة العمومية والخصوصية^(١) .

أ- المعارف العامة ، أو المعارف الأولى ، وهي معروفة بنفسها ، سواء بالرأي أو بالطبع .

ب- المعارف الخاصة كالتي يعرفها الانسان بالقياس العقلي أو النظري أي استنباط المجهول من المعلوم .

ومن التقسيمات المتعارف عليها في تصنيف المعارف والحقائق أو الادراكات الحقيقية اليقينية الموضوعية خارج ذهن الانسان ، التقسيم حسب موضوعها أو حسب مصدرها ووسيلة الحصول عليها .

وبالرغم من كثرة تعدد وتباين الموضوعات المتضمنة ضمن اطار المعارف البشرية ، إلا أنها يمكن تصنيفها وترتيبها أو إرجاعها وتحديدتها الى عدد معقول من التصنيفات أو الفصائل والأنواع وذلك على النحو التالي :

أولاً : معرفة الله التي تقع في قمة سلم المعارف الاسلامية وغيرها .

ثانياً : معرفة ذاته وصفاته التوحيدية .

ثالثاً : معرفة العقائد الدينية من النبوة والعدالة والامامة والمعاد .

رابعاً : معرفة الأمور الغيبية ،

خامساً : معرفة الأحكام والتشريعات الاسلامية .

سادساً : معرفة ذات الانسان وصفاته .

سابع : معرفة الطبيعة وقوانينها وسننها .

(١) عمر فروخ ، المتأخر الجديد ، في الفلسفة العربية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٠

ثامناً : معرفة سنن وقوانين التاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية . . الخ .
أما بالنسبة لتقسيم المعرفة وفقاً لمصدرها ومنبعها ، فهو عديد ومختلف
بعدد المصادر أو المنابع التي تعترف بها الفلسفة بشكل عام . منها ما يلي :
أولاً : المعرفة الحسية التجريبية ، ومصدرها الحواس والتجربة والخبرة
العملية .

ثانياً : المعرفة العقلية ، ومصدرها العقل أو الفكر البشري .
ثالثاً : المعرفة الحدسية أو الوجدانية أو الإلهامية ، ومصدرها الالهام وقلب
الانسان أو نفس الروح أو الفيض الإلهي .

رابعاً : المعرفة الوحيية ، مصدرها الوحي الإلهي الذي يلقيه عز وجل في
قلوب أنبيائه ورسله من غير حيلة ولا تعلم ولا اجتهاد من جانبهم .

وهناك من يقسم المعرفة البشرية طبقاً لوضوحها وغموضها ، أو من
حيث بساطتها وتعقيدها الى معارف :
أ - بديهية بسيطة واضحة .

ب - نظرية معقدة في عملية اكتسابها .
كما يتم تقسيم المعرفة البشرية طبقاً لصفاتها النظرية أو العملية الى :

أ - معرفة نظرية ، ويندرج تحت هذا النوع معرفتنا بالقوانين والقواعد
والأحكام الرياضية .

ب - معرفة عملية ، ويدخل تحت هذا النوع معرفتنا بالقواعد والأحكام
الشرعية والفقهية والقيم الاخلاقية الانسانية .

مراتب وفضل المعارف البشرية

تباين وتتفاوت المعارف البشرية في مراتبها وفضلها بحسب درجة فضل
موضوعها .

فالإسلام يرى من خلال نظريته في المعرفة ، أن أعلى مراتب المعرفة ،
وأسمى موضوعاتها ، وأشملها دقة ومصداقية ، وأكثرها بدهاة وأولية ،

وأفضلها ضرورة وحاجة الى الانسان ، وأعظمها فائدة وأثراً في سعادة وتكامل الانسان ، هي معرفة الله عز وجل وصفاته الذاتية من الحكمة والعلم والعدل و... إلخ . يقول الشيخ ابن سينا الفيلسوف الاسلامي عن هذا الصنف من المعرفة انها « أفضل علم بأفضل معلوم ، فانها أفضل علم أي اليقين بأفضل معلوم أي بالله تعالى » والعلم الذي يعلق عليه الغزالي الأهمية العظمى هو العلم الذي يشمل أولاً معرفة الله وأفعاله ومخلوقاته من حيث أفعاله ومخلوقاته ، لأن هذه المعرفة هي كما ثابتة للنفس ، فهي مقياس وقواعد لتصرفات وسلوكيات الانسان في الدنيا والآخرة . ثم يأتي دور معرفة مبدأ النبوة والامامة والمعاد التي لها من الأمر العظيم في سعادة الانسان ونجاحه في الحياة الدنيا والفوز بالآخرة .

أما معرفة الانسان لنفسه ، لها أهمية بالغة في الفكر الاسلامي . حيث من عرف نفسه عرف ربه . وبعد ذلك يتأتى دور معرفة الأحكام والضوابط أو القواعد والقوانين التشريعية المتعلقة بشتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتاريخية و... إلخ . وأخيراً النظر والتأمل في الطبيعة والكون والتأريخ لمعرفة حق المعرفة ، والاستفادة من سننها وقوانينها ، من اجل خدمة الفرد والمجتمع في مسيرتهما الارتقائية التكاملية التي تقربهما الى الله الواحد الصمد .

موضوعات الفلسفة

مقدمة :

المتبع لحركة ، تأريخ الفلسفة الغربية ، يستشف بكل وضوح وجلاء ، مدى التطور الذي حدث لموضوع الفلسفة من حيث الاهتمام في مباحثها الرئيسية . ويلاحظ أيضاً مدى التباين الواسع بين فلاسفة الغرب على اختلاف عصورهم ومزاجهم ونزعاتهم الفلسفية في موضوع الفلسفة ومراكز اهتمامها .

ففي الوقت الذي كان فيه فلاسفة اليونان الطبيعيون القدماء ، يعتقدون بأن موضوع الفلسفة ، يكمن في معرفة طبيعة الكون وعناصره وأصله ، فإن الفلاسفة الذين جاؤوا بعدهم في الغرب اتخذوا إطاراً ودائرة أوسع لمفهوم وموضوع الفلسفة ، مما شمل في العصر الحديث شتى أنواع الوجود والحياة والخبرة الانسانية : فأفلاطون ، وأرسطو ، وديكارت ، وكانط ، وهيغل ، وديوي ، وغيرهم اضافة الى دراسة الموضوعات الأساسية التقليدية للفلسفة خاضوا في أبحاث وميادين عديدة : كالعلم والدين والاخلاق والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون والاجتماع والتأريخ ، بشكل كَوْن كل واحد منهم ، فلسفة مميزة للكون والحياة والانسان والاله والعلائق الارتباطية المتداخلة بينهم .

لكي تتوضح الصورة بشكل واضح وجلي عن موضوع الفلسفة ، نود

أن تضرب مثلاً لتقريب الصورة الى الأذهان . | فالدراسات اللغوية تعتبر موضوعاً لدراسات علم النحو مثلاً ، مع العلم بأن علم النحو لا ينطوي على دراسة وبحث جميع صفات اللغة وعوارضها ، بل يهتم بما يعرض لأواخر الكلمة من البناء والأعراب ، رفعاً ونصباً وجرأً . فمجال دراسة علم النحو محدود بجهة خاصة من اللغة العربية ، وكذا علم الصرف بأن موضوعه اللغة العربية ، ولكنه يدرس ويبحث عن تصرفات الكلمة ومشتقاتها ، ويعرض لحروفها ما عدا الحرف الأخير . فموضوع العلوم العربية هو اللغة ، وإنما اختلفت وتباينت بالحيثيات والجهات (١) .

وبالنسبة لسائر العلوم على نفس المنوال ، فهي تتفق في أصل الموضوع ، وتباين في القيود والحيثيات ، فالعلوم الطبيعية تبحث في الوجود ، ولكن من حيث هو جسم مادي له قوانين خاصة تحدده ، والعلوم الرياضية تبحث في الوجود من حيث الشكل والاعداد (٢) .

والكيمياء تبحث في الوجود من حيث هو مادة تحتوي على عناصر ، لها تأثير خاص عند التركيب . وعلم الحياة يبحث في الوجود من حيث هو مادة حية تستهلك الطعام وتجدد بناءها . وعلم التاريخ يبحث في الانسان من حيث ماضيه وتطوراته . وعلم النفس يبحث في الانسان من حيث أنه كائن يحس ويدرك . . . وهكذا بالنسبة لسائر العلوم الأخرى التي تتفق في أصل الموضوع وتباين بالحيثيات والجهات .

أما الفلسفة فهي العلم الوحيد الذي يبحث في الوجود مجرداً عن كل قيد ، ويقطع النظر عن كونه طبيعياً أو غير طبيعي . فحينها يتكلم الفيلسوف عن الوجود ويقسمه الى واجب الوجود ويقسمه الى واجب الوجود ويمكن

(١) محمد جواد مغنية ، « فلسفات اسلامية » دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان - ١٩٧٨ م ،

١٣٩٨ هـ ، ص ٢٦٠ .

(٢) الملا صدرا في « كتاب الأسفار » الموسيقى من العلوم الرياضية .

الوجود ، فانه لا يقصد من ذلك التقسيم نوعاً خاصاً من الوجود ، إنما أراد بذلك ماهية وطبيعة الوجود بما هو . تماماً كما يفعل المهندسون عندما يبحثون في المربع أو المثلث أو المثلث وبغض النظر عن كونه من الحديد أو الخشب ، كذلك الفيلسوف حينما يبحث في الوجود يبحث بحثاً مجرداً عن كونه طبيعياً أو غير طبيعي .

ومن الأهمية بمكان ، قبل أن نتطرق الى موضوعات الفلسفة ، نوضح هذه المقولة التي تعتبر في أذهان بعض المفكرين والعامه حقيقة واضحة ، وهي مقولة فلسفية تقليدية - قديمة - تتمثل في أن الفلسفة هي أم جميع العلوم ، والمظلة الرئيسية التي يدرس في ظلها جميع العلوم الطبيعية والانسانية منها ، ولكن في وقتنا الحاضر تم تقسيم واضح وجلي لموضوع الفلسفة ، حيث تم تخصيص دراسة الفلسفة كمادة وموضوع مستقل عن بقية العلوم ، ووضع لكل نوع من أنواع الوجود موضوعاً خاصاً يتعلق بعلم مميز وخاص له ، فهناك موضوع الطبيعة وعالم الطبيعة ، وموضوع الرياضيات وعالم الرياضيات ، وموضوع النفس والاجتماع والتاريخ وعالم الاجتماع والتاريخ والنفس ، وكل واحد منهم مختص بعلمه ، وبحمل معلومات وحقائق أكثر وأدق من الفيلسوف المختص بمادة الفلسفة وفقاً للتقسيم الحديث والمتمثل عند بعض المفكرين في عملية تحليل وتركيب الألفاظ ، وتنظيم قضايا التي يستعملها العلماء ، وبتعبير آخر ، يصبح أو ينحصر دور الفيلسوف كما يرى هؤلاء الناس في عملية التبيان والتوضيح أما عملية الاستنتاج والاستخراج أو الاستنباط فيتركها الى غيره من المختصين . فمثلاً نيوتن ، يكتشف الجاذبية ، وآينشتين يستكشف النسبية ، بينما الفيلسوف يفسر ويشرح معناها ومغزاها في الحياة .

والتأمل حق التأمل ، يرى بكل وضوح وجلاء ، بطلان هذا الادعاء وعدم مصداقيته في الواقع ، حيث أن التفسير والتوضيح من شؤون اللفظ لا من شؤون العقل ومعلوم أن مهمة الفيلسوف هي عقلية محضة ، وليست

لفظية ، واذا استعمل اللفظ فانما يستعمله كوسيلة وأداة للتعبير عما يريد ، شأنه في ذلك شأن أي انسان .

إضافة الى ذلك ، إن تقسيم العلوم والعلماء وفقاً لموضوعات متباينة واختصاصات مختلفة ، لا يعني البتة إنه لم يبق للفلسفة موضوع يبحث فيه ، بل أن الحقيقة الدامغة هي أن للفلسفة وجوداً مطلقاً شاملاً يحتوي على جميع العلوم وشتى مجالاتها ، فكما أن لكل اقليم من أقاليم الدولة حاكماً يسيطر عليه ويدير شؤونه، وعلى رأس كل هذه الأقاليم رئيس واحد، فان الفلسفة يخضع لها الوجود بكامله ، فالكون بأسره موضوعه ، والكون بعظمته مجال بحث ودراسة للفلسفة . فعلى سبيل المثال ، كل عالم يبحث في جهة من جهات الكون ، بينما الفيلسوف يدرس ويبحث في أصل الكون ، هل وجد من شيء أو لا شيء ؟ وهل هو حادث أو قديم ؟ وهل وجود الكون صدفة أو بقدره قادر ؟ ومن هو هذا القادر ؟ . وبعد هذا الاستعراض المستفيض لمقدمة موضوع الفلسفة ، سنتطرق بشكل موجز ومختصر إلى أهم موضوعات الفلسفة عند الفلاسفة مع تبيان وجهة نظر الاسلام .

ويمكننا تلخيص الآراء المختلفة الواردة حول الموضوع الرئيسي للفلسفة على النحو التالي :

عند سقراط : يرى أن موضوع الفلسفة يكمن في الصلات والروابط الكلية بين الأشياء .

- عند افلاطون : يعتبر جواهر الأشياء ، أي بتعبير آخر الكائن الحقيقي من كل شيء موضوعاً للفلسفة .

- عند أرسطاطاليس : هو الوجود الأساسي من حيث هو موجود وهو جوهر الحقيقة المطلقة من كل كائن حي .

- عند الشيخ أبو علي ابن سينا : الموجود من حيث هو موجود .

- عند المعلم الثاني الفارابي : الموجودات بما هي موجودة .
- الفيلسوف الاسلامي الشهير صدر المتألهين : حقائق الموجودات .
- عند السبزواري : الموجود المطلق ، أي الموجود المرسل غير المقيد بخصوصية .
- جون لوك : الحوادث التجريبية .

وبالرغم من هذا التباين في تحديد موضوع الفلسفة عند الفلاسفة ، إلا أن هناك قاسماً مشتركاً أو شبه إتفاق بينهم وهو : إن الاهتمام الرئيسي والأساسي للفلسفة ، هو الحقائق الكبرى المطلقة التي تحيط بالانسان .

موضوعات العلم والمعرفة الانسانية في المنظور الاسلامي

المطلع على الفكر الاسلامي بشكل خاص ، ومقارنته مع بقية الأفكار والمفاهيم أو النظريات الفلسفية الأخرى بشكل عام ، يرى بكل وضوح وتأكيد إن للاسلام منطقاً ومنهجاً خاصاً متميزاً عن بقية المناهج . ولكي نعرف عمق وامتداد ومصداقية أو عقلانية وصلاحيه أي مذهب أو منهج لا بد أن ندرسه ونفهمه وفقاً لمنطقه ومنهاجه الخاص به ، لا بمنطق غيره . ولذلك سيقصر هذا الجزء من البحث ، على تبيان أهم الموضوعات والحقائق والمعارف ، التي ينادي بها الاسلام ، ويطلب من المسلمين إدراكها والوصول اليها بشكل يقيني وموضوعي جازم .

وبالرغم من تعدد وتشعب الموضوعات والحقائق والادراكات المتعلقة بشتى مجالات الحياة ، إلا أننا نستطيع تصنيفها وتبويبها وفقاً للقواعد والأسس التالية :

١ - معرفة الله عز وجل

لقد ذكرنا في باب أنواع المعارف الاسلامية ، بأن معرفة الله سبحانه وتعالى وصفاته الذاتية هي من أعلى مراتب المعرفة ، وأسمى موضوعاتها ،

وأشملها دقة ومصداقية ، وأكثرها بدهاة وأولية ، وأكثرها ضرورة وحاجة للإنسان ، وأعظمها فائدة وأثراً في سعادة وراحة وإستقرار الإنسان .

والمراد من معرفة الله أو العلم بالله ، هو المعرفة اليقينية الجازمة بذات الله تعالى - والاطلاع على دينه ، ورسالاته ومرضياته ومنهياته ، وذلك بشكل يخضع له سائر الأعضاء والجسد من العقل والشعور والحس والفؤاد ، بالخضوع والخشوع ، والإرادة والتوجه والنية الصادقة المخلصة له عز وجل ، ويجسد بهذه المعرفة الإلهية اليقينية ارادة وحكم الله عز وجل في سلوكياته وأفعاله بشكل يرضي الله ويتقرب اليه ، وكأن الله يشاهده ويراه ، وأنه تعالى موجوداً ومستحضراً في جميع سكناته وخلواته ، وحركاته الفردية والاجتماعية ، الظاهرة منها والغائبة . وفي مقام تفريق أنواع العلم والمعرفة والتصدي لطلب ما هو الأهم ، يقول العلامة العظيم الشيخ زين الدين العاملي ، الشهيد الثاني : « وليعلم مع ذلك أيضاً ، أن مجرد تعلم هذه المسائل ليس هو الفقه عند الله - تعالى . وإنما الفقه عند الله بادراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبه والخشوع ويحمل على التقوى ... (١) ... »

ويقول النبي (ص) أما علامة العلم فأربعة : العلم بالله والعلم بمحببه ، والعلم بفرائضه ، والحفظ لها حتى تؤدي « (٢) .

ويقول الامام الصادق (ع) : « أفضل العبادة ، العلم بالله والتواضع له » (٣) .

ويقول عليه السلام : « إن أعلم الناس بالله أخوفهم لله ، وأخوفهم له

(١) منية المرید/ ٥٨ .

(٢) البحار ٢/ ٢٧ - عن (تفسیر القمي) .

(٣) تحف العقول/ ١٧٢ .

أعلمهم به ، وأعلمهم به أزهدهم فيها»^(١) .

ويقول الامام علي (ع) : « أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده»^(٢) .

ويقول عز وجل في محكم كتابه المقدس : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾^(٣) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾^(٤) .

وخلاصة القول ، إن معرفة الله عز وجل معناها الوصول الى قمة الهرم ، وغاية الأمر ، وذروة السنام ، وكمال المتبغى ، فان جميع المعارف والحقائق والعلوم تؤول وتنتهي الى الله ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ﴾ المقصد الأسنى ، والغاية القصوى . وإن معرفة الله سبحانه وتعالى تحقق للبشرية أعلى مراتب الكمال والسعادة والاطمئنان في الدنيا والآخرة .

ثانياً : معرفة النفس :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٥) .

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي انفسكم أفلا تبصرون ﴾^(٦) .

أدبيات الفكر الفلسفي والاخلاقي في الاسلام ، زاخرة ومملوءة بمقولات مختلفة تتعلق بالنفس الانسانية ، وأهميتها والركيزة الأولية والأساسية للنفس في

(١) تحف العقول/ ٢٦٩ .

(٢) نهج البلاغة/ ٢٣ .

(٣) سورة ابراهيم الآية ٥٢ .

(٤) سورة محمد الآية ١٩ .

(٥) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٦) سورة الذاريات الآية ٢٠ - ٢١ .

تشييدها وبناءها وتهذيبها وتكميلها هي معرفتها كما هي حق المعرفة . وبدون معرفة حقيقية ويقينية للنفس وقيمتها الوجودية ، وطاقتها وإمكاناتها المختلفة ، ومواهبها العالية ، وإستعداداتها الباطنة ، لا نستطيع تربيتها وتقويتها أو تقويمها وإبرازها من مرحلة ما بالقوة لتلك الخصائص والسمات والمقومات الى ما بالفعل .

والمتابع لموضوع النفس وماهيتها ومقوماتها ، يستشف بوضوح تام ، وجود عدة مراحل ومراتب للمعرفة الانسانية للنفس . فبعد التأكد والتحقق بشكل يقيني جازم من وجود النفس وخصائصها ومقوماتها واستعداداتها الكامنة فيها بشكل موضوعي يقيني ، ينبغي على الانسان ان يخطو خطوة الى الامام ، للتأكيد على تلك المعارف والحقائق النفسية من خلال المعارف التجريبية والعملية ، أي بتعبير آخر ، بعد إثبات ومعرفة وجود النفس المستقلة ومباينتها للجسد ، يستلزم الأمر معرفة قدراتها وقابلياتها ومقوماتها في المجال العملي .

ولمعرفة النفس فوائد نظرية وعملية عظيمة ، تفتح آفاقاً وأبعاداً جديدة للمسيرة الارتقائية التكاملية الفردية والاجتماعية للانسان ويمكن تلخيصها على النحو التالي :

أ - معرفة عيوبها :

وهي الخطوة والركيزة الأولى في منهج الاصلاح والتهذيب .

قال الامام علي (ع) : « نظر النفس للنفس ، العناية بصلاح النفس »^(١) .

وقال (ع) : « معرفة المرء بعيوبه أنفع المعارف »^(٢) .

وقال (ع) : « جهل المرء بعيوبه من أكبر ذنوبه »^(٣)

(١) غرر الحكم/٣٢٢ .

(٢) غرر الحكم/٣١٨ .

(٣) الارشاد/١٤٢ .

وقال الامام الباقر (ع) : « وسد سبيل العجب بمعرفة النفس »^(١)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم
وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾^(٢) .
ب - معرفة إمكانياتها وقدراتها ومقوماتها الخاصة والعامه :

بواسطة وضع خطة محكمة واستراتيجية قويمه ، نستطيع إبراز وتحقيق
تلك السمات والامكانيات الهائلة والكامنة في أعماق النفس من وضع ما
بالقوة الى حال ما بالفعل . ومعرفة هذه الامكانيات والمقومات تساعدنا على
تحديد سير واتجاه مسيرتنا التكاملية في الحياة .

يقول الامام علي (ع) : « العالم من عرف قدره ، وكفى بالمرء جهلاً أن
لا يعرف قدره »^(٣) .

ج - معرفة فضائلها :

وهذه المعرفة اذا حصلت (- أي معرفة الفضائل الانسانية ، والحقائق
الحياتية ، والمعارج الأخلاقية) ، تصبح دافعاً وحافزاً أساسياً ، ووفوداً أو طاقة
لكسب الفضائل والمعالي التي توصله الى أسمى درجات التكامل مما
يحقق بذلك انسانيته الحقيقية .

« دخل رجل على رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله ، كيف الطريق
الى معرفة الحق ؟ فقال : « معرفة النفس »^(٤) .

وقال الامام علي (ع) : « الفوز الأكبر ، من ظفر بمعرفة
النفس »^(٥) .

(١) تحف العقول/٢٠٧ .

(٢) سورة التغابن الآية ١٤ .

(٣) نهج البلاغة/٣٠٤ ، عبده ١/٢١٤ .

(٤) البحار ٧/٧٢ ، عن (غوالي اللثالي) .

(٥) نهج البلاغة/٣٠٤ ، عبده ١/٢١٤ .

د - معرفة النفس تؤدي الى معرفة الله عز وجل :

إن معرفة النفس ، غاية ووسيلة بحد ذاتها ، حيث تعتبر معرفة النفس غاية العلم ، يقول الإمام علي (ع) : « غاية العلم أو المعرفة أن يعرف المرء نفسه »^(١) ، و« ومن عرف نفسه ، فقد انتهى الى غاية كل معرفة وعلم »^(٢) ، « ومعرفة النفس أنفع المعارف »^(٣) .

ويقول عز وجل في محكم كتابه المقدس : « وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون » أي ليتكاملون ويعرفون أنفسهم ويرتقون ويتقربون الى الله عز وجل ، ونظراً لكون النفس البشرية جوهرة إلهية ، ونفحة ربانية ، وهي من عالم الأمر ، وهي المرآة المتجلية فيها الصفات الرحمانية ، فمن المنطق والعقل اذا عرف الانسان نفسه ، عرف ربه وخالقه ، قال النبي (ص) : « من عرف نفسه ، فقد عرف ربه »^(٤) ، وتجلّى أمامه نور وضياء الطريق المستقيم ، والسير الباطني ، والعلم الواقعي مما ينقذه من الخيالات والأوهام التي يظنها الناس .

هـ - معرفة سائر الناس ومراتبهم :

معرفة النفس الانسانية ، تترتب عليها أمور حقيقية دامغة أهمها : إكبار بني الانسان ، وإجلال المجتمعات فبواسطة معرفة النفس الانسانية ، نستطيع معرفة أفراد النوع البشري ، وقيمهم وخصوصياتهم ، مما يترتب على ذلك ، تشييد وبناء علائق اقتصادية واجتماعية ونفسية وسياسية و... الخ ، وفقاً لمصاديق ومضامين حقيقية واقعية وارتقائية تحافظ على كرامة وحقوق الانسان وإنسانيته العظيمة . بينما فقدان المعرفة الانسانية للنفس ، يجعل الانسان في وضع يحسب أن حياته بلا هدف ولا غاية ،

(١) غرر الحكم / ٢٢٢ .

(٢) غرر الحكم / ٢٩٣ .

(٣) غرر الحكم / ٣١٩ .

(٤) البحار / ٢ / ٣٢ ، عن « مصباح الشريعة » .

وتنخفض القيم والاخلاق في نفوسهم ومصدّقاً لذلك يقول الامام علي (ع) :

« من جهل قدره ، جهل كل قدره »^(١) ، والجهل بكل قدر مبدأ لظهور الفلسفات الملحدة والمتشائمة التي تغذي عقول ونفوس الناس بالعبثية والمادية المحضّة .

والمستنطق للآيات القرآنية المجيدة ، والمتتبع للأحاديث النبوية الشريفة ، يستشف أن هناك مساحة واسعة ، وتركيزاً كبيراً على معرفة أحوال الناس والأمم ، يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ﴾^(٢) .

ويقول الامام علي (ع) : « . . . يا بني ، إنه لا بد للعاقل من أن ينظر في شأنه فليحفظ لسانه ، وليعرف أهل زمانه »^(٣) .

الامام علي «ع» : من عهده للأشتر النخعي - ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم ، وحسن خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء . . . ولكن اختبرهم بما أولوا للصالحين قبلك . فاعمد لأحسنهم كان في العامة أمراً ، وأعرفهم بالأمانة وجهاً . فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ، ولمن وليت أمره »^(٤) .

وقوله (ع) : « من جهل الناس ، استنام اليهم » .

ثالثاً : معرفة الأنبياء والأئمة (ع) أي معرفة مبدأ النبوة والامامة

لقد ذكرنا فيما سبق ، إن أسمى غاية ، بل غاية العلم والمعرفة تتمثل

(٣) امالي الطوسي ١/١٤٦ .

(١) غرر الحكم / ٢٩٠ .

(٤) نهج البلاغة / ١٠١٥ ، عبده ٢/١٠٢ ، لحن / ٤٣٧ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

في أروع صورها ، وأنبأ مقامها ، في معرفة الله سبحانه وتعالى ، أي معرفة المثل الأعلى ، والحق المطلق ، ومن أجل استمرارية هذا المثل الأعلى في حياة الفرد والأمة ، يستلزم الأمر توفر روابط وصلات موضوعية بين الانسان وخالقه ومثله الأعلى ، وإن هذه الروابط والصلات الموضوعية تتجسد في واقع الحال وعبر المسيرة التاريخية للانسان والأمة بحبل النبوة الذي يربط الانسان بمثله الأعلى . ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ (١) .

ونظراً لتوقف إرسال الأنبياء والمرسلين ، واختتامهم بخاتم الأنبياء أشرفهم منزلة ومقاماً عند الله ، النبي محمد (ص) من جهة . ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٢) ، وضرورة وجود القائد الاسلامي الذي يحافظ ، ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٣) على ذلك الحبل المتين ، ويمثل دور الأنبياء في مسيرة الانسان والأمة الارتقائية التكاملية من جهة أخرى ، استلزم الحال وجود ائمة (ع) يحملون عبء الرسالة والمسؤولية ، وهم في الواقع على قدرها ومستواها النظري والعملي .

فهذه هي بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة حول هذا الموضوع :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس أن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (٤) .
﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ (٥) .

(١) سورة الاسراء الآية ١٥ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٥ .

(٣) سورة الصف الآية ٩ .

(٤) سورة المائدة الآية ٦٧ .

(٥) سورة المائدة الآية ٥٥ .

وقال الصادق (ع) عن النبي (ص) ، قال : « إن أئمتكم قادتكم الى الله فانظروا بمن تقتدون في دينكم وصلاتكم » (١) .

وتنبثق معرفة اولياء الله من نفس مبدأ النبوة والامامة ، وهي معرفة ضرورية ومصيرية للاسلام والمسلمين ، وبالخصوص في عصرنا الحاضر بكل ما فيه من متغيرات وتحديات للاسلام والمسلمين . يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (٢) .

ومعرفة الله التي هي أسمی درجات المعارف البشرية تتم من خلال الأنبياء والرسل (ع) ، ومعرفة الأنبياء والرسل والاسلام تتم بواسطة معرفة أولياء وخلفاء الله (الامامة) ، وهذه بدورها لا تتم إلا من خلال المعرفة التامة بأهل الذكر والمجتهدين والعلماء الأكابر في عصرنا الحاضر . اذن هذه المعرفة ضرورية وأساسية لكل انسان مسلم ، يريد أن يفهم الاسلام الحقيقي ، ويجسد مفاهيمه وتعاليمه ، ويبلغ رسالاته وأهدافه ، وهي الجبل المتين القوي الذي يربطنا بالأئمة عليهم السلام وبالانبياء والرسل ثم بالله عز وجل .

يقول الرسول الأعظم (ع)

« الفقهاء أمناء الرسول » (٣) .

« رحم الله خلفائي . فليل : يا رسول الله . ومن خلفائك .

قال : « الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله » (٤) .

قال الامام علي (ع) : « العلماء حكام على الناس » (٥) .

(١) البحار ٩٩/٨٨ ، عن (كمال الدين) .

(٢) سورة الأنبياء آية ٧

(٣) البحار ١ / ٢١٦ - عن « الفوالي » .

(٤) منيه المرید / ١٠ .

(٥) غرر الحكم / ٣٢ .

قال الامام العسكري : (ع) : « . . . فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعاً لأمر مولاه ، فللعوام أن يقلدوه » (١) .

قال الامام المهدي عجل الله فرجه : « . . . وأما الحوادث الواقعة . فارجعوا فيها الى رواة حديثنا ، فانهم حجتي عليكم ، وأنا حجة الله عليهم » (٢) .

فنظراً لأهمية ودور القيادة الاجتماعية في مسيرتنا الارتقائية التكاملية ، والذي يعتبر لكل متأمل حق التأمل الدور المصيري في حياة الأمة ، وخاصة في وقتنا الحاضر ، الذي لا ملاذ لنا من صيانة وحفظ وتبليغ ديننا وقرآننا وكياننا وقيمتنا لا يتم إلا من خلال التعرف والتمسك بالقيادة والمرجعية الرشيدة المتمثلة في عصرنا الحاضر بالامام الفقهي القائد الفذ الذي يقود الأمة الاسلامية وهو صائن لنفسه ، وحافظ لدينه ، ومخالف على هواه ، ومطيع لأمر مولاه ، فمعرفة الامام وأفكاره وتبني قيادته وسلوكياته وأفكاره ومؤسساته ورموزه ، هو بلا شك ولا ريب ، معرفة للاسلام الواقعي الحقيقي والحركي الذي ينتشل الأمة الاسلامية من مستنقع الرذيلة والفساد ، الى عالم رباني صمدي ، تسمو فيه روح الفرد والأمة ، وتجسد الاسلام الحقيقي في حياته ومسيرته الارتقائية التكاملية ، مما يحقق أهدافه وغاياته المنشودة من وجوده في هذا العالم .

ولمعرفة ذلك ، يستلزم على الانسان المسلم الاطلاع والبحث والاستيعاب للقضايا والأمور التالية والتي تتعلق أساساً في معرفة أهل الذكر والأولياء والقادة الحقيقيين : (٣) .

(١) الاحتجاج ٢ / ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) كمال الدين / ٤٨٤ ، غيبة الطوسي / ١٧٧ ، الاحتجاج ٢ / ٢٨٣ .

(٣) محمد رضا الحكيمي ، محمد علي الحكيمي ، كتاب الحياة ، الجزء الثاني ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

- ١ - المرجعية ، أساسها ومسؤولياتها .
- ٢ - المرجعية ومؤهلاتها .
- ٣ - المرجعية ومنافياتها .
- ٤ - معرفة الفقيه .
- ٥ - وحدة الزعيم والقيادة والمرجعية .
- ٦ - ولاية الفقيه أو الحكومة الاسلامية .

معرفة المعاد - القيامة :

المستنطق للآيات القرآنية المجيدة ، والمتفحص للأحاديث النبوية الشريفة ، يلاحظ مدى التركيز والاهتمام الكبير من قبل الاسلام ليوم القيامة - يوم الحساب والعقاب - وإن دار الآخرة هي الحياة الأبدية فيقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه المقدس : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ ^(١) ، ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ ^(٢) ، ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ ^(٣) ، ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ ^(٤) .

أما بالنسبة للأحاديث وأقوال الأئمة (ع) فهي عديدة نذكر بعضها وذلك على النحو التالي : -

« استعدوا ليوم تشخص فيها الأبصار ، وتتدله لهوله العقول ، وتتبدل البصائر ^(٥) » .

(١) سورة البقرة الآية ٤ .

(٢) سورة اسراء الآية ٢١ .

(٣) سورة غافر الآية ٣٩ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٤ .

(٥) غرر الحكم .

- « اشغلوا أنفسكم من أمر الآخرة بما لا بد لكم منه » (١) .
 « جاهد نفسك ، واعمل للآخرة جهداً » (٢) .
 « من جعل كل همه لآخرته ، ظفر بالمأمول » (٣) .

ويستدل الانسان المسلم من الآيات القرآنية الشريفة الواردة في حكم يوم القيامة - ويوم الحساب - والدار الآخرة ، أن هذه المعرفة ركن أساسي ، أو محور رئيسي ، يوجه ويرشد الانسان في حياته عندما يتعامل مع ربه وخالقه، أو نفسه وعائلته وأفراد مجتمعه ، فالإيمان الحقيقي بهذا المبدأ أو الركن ، هو المادة التي تصبغ بها سلوكياتنا ومعاملتنا في الحياة الفردية والاجتماعية ، وهو يعتبر محركاً ومشعلاً في ظلمات الطريق ، ومزوداً لنا بالطاقة والحياة لتجسيد المثل الأعلى في مسيرتنا الارتقائية التكاملية .

وهنا ينسجم المثل الأعلى الحي القيوم والمبعث للحركة والارتقاء ، مع ذلك الوقود والطاقة الروحية المتنامية المستمرة والمنبثقة عن ذلك المثل الأعلى ، والمتمثلة في عقيدة المعاد بيوم القيامة - في عقيدة الحشر والامتداد - فهي عقيدة توضح وتبين للانسان والمجتمع مدى الارتباط العضوي والمصيري لحياة الدنيا - والبرزخ والقيامة ، وإن حياة الدنيا - مرتبطة ومزرعة للآخرة ، تحصد وتجنى فيها ثمار الأعمال ، فهي عقيدة تفرز ينبثق عنها نور وشعاع ، وطاقة ووقود ، تنير وتضيء حياة الانسان والأمة بالحركة الديناميكية المتنامية نحو تحقيق الأهداف والغايات المتوخاة والمتمثلة بالتكامل الفردي والاجتماعي ، والتقرب الى الله ، والفوز بالجنة ﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون ﴾ .

(١) غرر الحكم .

(٢) غرر الحكم . ن .

(٣) غرر الحكم .

معرفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية والطبيعة

المتبع للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، يستنتج بوضوح وجلاء ، أن هناك ساحات شاسعة وواسعة في القرآن والحديث ، غطت واحتلت فيها موضوعات متعلقة بالتاريخ والمجتمع والزمان والمكان والتربية والطبيعة من جهة ، والتركيز الكبير على الدراسة والتدبر فيها بغية التوصل الى استدلال واستنباط لقوانينها وسننها ونظرياتها وأحكامها المرتبطة بها من جهة أخرى وذلك للاستفادة منها في مسيرة الانسان الارتقائية التكاملية .

لقد جاء في القرآن الكريم نماذج كثيرة من قصص الماضين ، مع الشرح والتبيان لوقائعها وعللها الموضوعية . ومن خلال ذلك نرى أن القرآن قد دعا الناس الى التفكير في سوابق الحياة البشرية على الأرض ، وإلى التأمل فيما جرى على الغابرين ، من الأحداث والعبر ، ولم تكن دعوة القرآن تلك الا لتفهم التاريخ - بما هو ظرف للحوادث - ولمعرفة السنن التاريخية وأحكامها وقوانينها بغية التحكم والتعامل معها عبر مسيرة الانسان في الحياة .

وفيما يلي استعراض بعض من تلك الآيات القرآنية الشريفة التي تؤكد ما سبق قوله :

١ - ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (١) .

٢ - ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما

(١) سورة الروم (٣٠) : ٩ .

كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴿١﴾ .

٣ - ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ﴿٢﴾ .

٤ - ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ ﴿٣﴾ .

وفيما يلي بعض الأحاديث الشريفة حول نفس الموضوع :

١ - الامام الصادق (ع) : « إن أبي حدثني ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي (ص) : أن رسول الله (ص) - قال . . . وأغفل الناس من لم يتعظ بتغير الدنيا من حال الى حال . . . وأعلم الناس من جمع علم الناس الى علمه ﴿٤﴾ .

٢ - الامام علي (ع) . . . ولو اعتبرت بما مضى ، حفظت ما بقى ﴿٥﴾ .

٣ - الامام علي (ع) : الايمان على أربع دعائم : على الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهاد . . .

واليقين منها على أربع شعب : على تبصرة الفطنة ، وتأول الحكمة ، وموعظة العبرة ، وسنة الأولين . فمن تبصر في الفطنة ، تبينت له الحكمة ، ومن تبينت له الحكمة ، عرف العبرة ، ومن عرف العبرة ، فكأنما كان في الأولين .

٤ - الامام علي (ع) : . . . واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المشكلات بسوء الأفعال ، وذميمة الأعمال . فتذكروا في الخير والشر أحوالهم ، واحذروا أن تكونوا امثالهم . فاذا تفكرتم في تفاوت حالهم ،

(١) سورة الاعراف الآية ١٠١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٧ .

(٣) سورة النمل الآية ٦٩ .

(٤) البحار ٧٧ / ١١٢ .

(٥) نهج البلاغة / ٩٨١ ، ن عبده ٢ / ٨١ ، لح / ٤٢٣ .

فالزموا كل أمر لزمته العزة به شأنهم ، وراحت الأعداء له عنهم ، ومدت العافية فيه عليهم ، وانقادت النعمة له معهم ، ووصلت الكرامة عليه جبلهم : من الاجتناب للفرقة ، واللزوم للألفة ، والتحااض عليها ، والتواصي بها . واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم ، وأوهن منتهن : من تضاغن القلوب ، وتشاحن الصدور ، وتدابير النفوس ، وتحاذل الأيدي وتدبروا أحوال الماضيين من المؤمنين قبلكم ، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء ؟ ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء ، وأجهد العباد بلاء ، وأضيق أهل الدنيا حالاً ؟ اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب ، وجرعوهم المرار ، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة ، وقهر الغلبة : لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً الى دفاع ، حتى اذا رأى الله - سبحانه - جد الصبر منهم على الأذى في محبته ، والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً . فأبدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف . فصاروا ملوكاً حكاماً ، وأئمة أعلاماً . وقد بلغت الكرامة من الله لهم ، ما لم تذهب الامال اليه بهم . فانظروا كيف كانوا حيث كانت الاملاء مجتمعة ، والأهواء مؤتلفة ، والقلوب معتدلة والأيدي مترادفة والسيوف متناصرة ، والبصائر نافذة ، والعزائم واحدة ؟ ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين ؟ وملوكاً على رقاب العالمين ؟ فانظروا الى ما صاروا اليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة ، وتشتت الألفة ، واختلفت الكلمة والأفئدة ، وتشعبوا مختلفين ، وتفرقوا متحاربين ، قد خلع الله عنهم لباس كرامته ، وسلبهم غضارة نعمته . وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم^(١) .

٥ - الامام علي (ع) : أحي قلبك بالموعظة . . . وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين ، وسر في ديارهم

(١) نهج البلاغة / ٨٠١-١٨٠٣ ، عبده ١ / ٤١٠-٤١٢ ، لح / ٢٩٦-٢٩٧ .

وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا وعمّا انتقلوا ، وأين حلوا ونزلوا^(١) .

وهذا التفهم والمعرفة والاطلاع ، يشجع الانسان - ولا سيما الانسان الهادف - وينشطه للاتجاهات الخيرة ، والحركات الفعّالة في سبيل الحق والعدل .

وكأن الأنبياء (ع) ، يعملون لحماية الحق ونشر العدل وإصلاح المجتمعات ، معتمدين على تلك السنن التاريخية ، لأنهم كانوا على علم قاطع بتلك السنن الجارية في التاريخ وهي سنن الله التي جعلها وقدرها ، بحساب دقيق ، محكم ، منوط بالعلية والمعلولية . ومن تلك السنن أن الحق غالب وإن العاقبة للمتقين . نعم ، إن الأنبياء وأوصيائهم كانوا يقومون بأكبر النهضات والحركات التغييرية ، ويعلمون من بداية الأمر أنهم غالبون . وكان من براجمهم الوقوف بجانب المستضعفين والمحرومين في كفاح متواصل . وكانوا يضعفون الباطل ويقوون الحق بالتدرّج ، ليشقوا الطريق الى الفوز والنجاح فالعلم بتلك السنن من أقوى العوامل لتقوية النفوس وتشجيع الشعوب ، في سبيل النهضات التحريرية والحركات الهدامة والبناءة^(٢) .

معرفة الزمان :

﴿ . . . وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . . ﴾^(٣) .
فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانظروا إني معكم من المنتظرين ﴿^(٤) .

(١) نهج البلاغة / ٩٠٩ - ٩١٠ ، عبده ٢ / ٤٠ ، لح / ٣٩٢ .

(٢) كتاب الحياة - محمد رضا حكيمي ، علي حكيمي ، محمد حكيمي ، الجزء الأول ، ص ١٣٧ - ١٤٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٠ .

(٤) سورة يونس الآية ١٠٢ .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور
وذكرهم بأيام الله ان في ذلك آيات لكل صبار شكور ﴾^(١) .

قال الامام علي (ع) : (. . . . من عرف الأيام ، لم يغفل عن
الاستعداد . . .)^(٢) .

قال الامام علي (ع) : (من فهم مواعظ الزمان ، لم يسكن الى حسن
الظن بالأيام ﴾^(٣) .

من المعلوم ما لمعرفة الزمان والأيام ، واختبارها من الأهمية فالانسان
البصير النابه ، هو الذي لا يتعجب من صروف الدهر وتغيرات الأيام . غير
أننا قصدنا بهذه النظرة ، أن نشير إلى أن مفهوم الزمان الذي يستفاد من الآيات
والأحاديث ، ليس هو الزمان الفلسفي أو الفلكي ، بل الزمان النسبي .
وهو الذي يقع ظرفاً للحوادث والأحوال والأعمال ، مع ملاحظة صلته بما
يقع فيه . ويقاس بالنسبة الى الانسان وحياته وأعماله وسيره ، وفي سبيل
التكامل أو الانحطاط في هذا العالم ، والى سائر التحولات الاجتماعية
والتاريخية . فالمراد بالزمان هنا . هو الأمور الزمانية ، منتسبة الى ظروفها
الزمانية ، انتساباً بحسب الكم والكيف .

جاء في الحديث النبوي الشريف : « الليل والنهار مطيتان » . وهذا
تعبير عن الزمان من جهة صلته بالانسان وكيفية استفادة الانسان منه ، ومن
جهة الدور الذي يمكن أن يلعبه الظرف الزماني لحركة الانسان التكاملية
ولعروجه الى الله تعالى .

ومن المعلوم ، أن الميزان للزمان الطبيعي الفلكي ، هو الزمان نفسه ،

(١) سورة ابراهيم - الآية ٥ .

(٢) الكافي ٢٣/٨ .

(٣) غرر الحكم/٢٩٢ .

لأن سائر الظواهر الطبيعية تقاس به . ولكن الميزان لهذا الزمان الذي نبحت عنه ، هو أعمال الانسان وأطوار حياته المختلفة ، الفردية أو الاجتماعية في حال صلتها بالسنة الاجتماعية والتاريخية .

فلنا زمانان : زمان فلكي ، وزمان نسبي - فيما اصطللحنا عليه - وللانسان بحسبتهما عمران . عمر يقدر بالزمان الأول ، وهو الأيام التي عاشها الانسان على الأرض وعمر يقدر بالزمان الأخير ، وهو مقدار ما وفق فيه الانسان لعمل الخير أو الشر ، وحقيقة العمر هو العمر الثاني . وهو الحياة العقلية الاتجاهية لكل أحد من الناس والمجتمعات من هذه الجهة كالأفراد . فان لها عمراً طبيعياً وعمراً نسبياً ، بالمعنى الذي ذكرناه . فقد يمكن أن يمر على مجتمع قرن من الزمان في حساب الفلك بينما لا يعادل سنة بمقياس الزمان النسبي والعكس صحيح^(١) .

ومن الواضح أن الزمان النسبي هو قطعة من الزمان الطبيعي ، فيحكم عليه بأحكامه . ومن أحكام الزمان تحوله الدائم ، وكذلك التاريخ والمجتمع ، فانها أيضاً متحولان ، يسيران في عرصات التغير والصيرورة بنسب مختلفة في السرعة والبطء . فعلى هذا الأساس ، يجب على الانسان أن يكون مسائراً لزمانه وتحولاته فكراً وإقداماً ، مراقباً لميزانية تلك التحولات ، حتى يتسنى له أن يحفظ صلته بالزمان وبالمجتمع ، وأن يسير في ركب التحول مع السائرين ، من غير أن ينكص أو يتقهقر ، لأن الانسان لا يكون عضواً نافعاً لمجتمعه ، وأمته ، ووطنه ، ودينه ، إلا بتلك الصورة ، وإلا فينقطع عن زمانه وأهل زمانه ، ويتأخر عن الركب الحضاري ، ويفقد نتائج الحياة الاجتماعية ، وكذلك يفقد رسالته في تطوير القضايا البشرية بقدر ما يمكنه ويتيسر له^(١) .

(١) لقد اقتبسنا هذا الجزء كلياً من كتاب الحياة السابق ذكره .

(٢) كتاب الحياة ، محمد رضا حكيمي ، محمد حكيمي وعلي حكيمي ، مكتب نشر الثقافة الاسلامية - ايران - الطبعة الثانية ، ١٤٠٠ هـ - الجزء الأول ، ص / ٣٠٥ - ٢٠٨ .

الوجود المادي ومعرفة الكون والطبيعة

إضافة الى الساحات الشاسعة التي احتلتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، المتعلقة بالتدبر والاعتقاد بالله وصفاته الذاتية ، هناك آيات وأحاديث لا يحصر عددها ، ولا يوصف بعدها وعمقها الكبيرين ، في النظر والتمعن أو التعمق والتدبر ، أو الاستدلال والاستنباط في الطبيعة والكون ، ولقد بلغ عمق التركيز ، وامتداده الأفقي والعمودي من جانب ، وبلغت أهمية تلك الآيات وضرورتها النظرية والعملية ، الى حد لا مثيل لها في اي تشريع من التشريعات أو مذهباً من المذاهب ، حتى المذاهب التجريبية والمادية في هذا العصر الزاخر بالعلوم والفنون المرتبطة بالكون والجانب المادي له . ففي القرآن الكريم ، أو بشكل عام في الدستور والتشريع الاسلامي ، لا توجد فقط آيات متعددة في مجالات متنوعة من الكون ، بل توجد أسماء وعناوين أطلقت على العديد من السور القرآنية ، الموضوعات ، العلوم الطبيعية ، اضافة الى الشرح المستفيض نسبياً لبعض جوانبها التفصيلية . ففي القرآن المجيد سورة الأنعام والرعد ، والنحل ، والنور ، والعنكبوت ، والدخان ، والنجم ، والليل ، والضحى والزلزلة ، والنجم ، والقمر ، والحديد ، والبروج ، والفجر ، والشمس ، ... الخ .

﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها روسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يَغشى الليل والنهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحدٍ ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

(١) سورة الرعد الآية ٢ - ٤ .

﴿ والأرض مددنها وألقينا فيها روسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين * وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم * وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴿^(١) .

فهذه الآيات وآيات أخرى ، تتناول بشكل واسع وعميق ، طبيعة وماهية الكون المادي وعناصره ومكوناته وبدأته ونهايته ، وعلاقته بخالقه وصانعه ، وهناك آيات تتناول بعض القوانين والنظريات والعلائق المرتبطة بحركة الكون والعلاقة بين الوجود والعدم ، والواجب وواجب الوجود ، والجسم والمادة والجوهر ، والعلائق السببية لبعض الأحداث الكونية و... الخ .

القيم الخلقية :

لقد اعتبرت الأخلاق والقيم المتعلقة بها، مادة غنية للدراسات والأبحاث الفلسفية في الاسلام . فتحاول تلك الدراسات والأبحاث الفلسفية المتعلقة بالأخلاق إبراز نظرية الأخلاق وإطارها ومضمونها الاسلامي ، وذلك من خلال دراسة طبيعة القيم الاخلاقية ، ومصادرها ، وكيفية نشأتها وتطورها وتكاملها في الفرد والمجتمع ، وكذلك الجانب الحكمي والقياسي والالتزامي والجزائي والمسؤوليات الاخلاقية في حركة الانسان والمجتمع عبر مسيرتهما الارتقائية التكاملية .

وتتمثل الغاية والمهمة الملقاة على عاتق عالم الأخلاق أساساً في عملية تحديد وتبيان الأحكام والقوانين والسنن والضوابط التي يجب أن يطبقها البشر لتحقيق السعادة الواقعية . وبناء على ذلك تُعرّف الأخلاق ، بمجموعة أو نسق متكامل من الأحكام والقوانين والسنن التي تصبح ضرورية ولزماً على الانسان ، الأخذ بها وتطبيقها لكي يحقق السعادة الحقيقية المنشودة ، وإن

(١) سورة الحجر الآية ١٩ - ٢٢ .

تجاهله لها يؤدي بالإنسان الى الهلاك والانحطاط أو السقوط في الهاوية
ومستنقع الظلام والفساد .

ومجال الأخلاق في الاسلام يشمل جميع مجالات الحياة ، لأن المبادئ الأخلاقية
إذا كانت نسقاً وغطاً للعمل وللسلوك في الحياة ، فإن عمل الانسان لمساعدة
الآخرين بملء ارادته أخلاق ، وعمله لكسب قوته وقوت من يعوله أخلاق ،
وإيمانه بالله وعبادة له أخلاق ، وتعامله مع الزوجة والأطفال أخلاق و . . .
إلخ .

فبناء على اعتبار علم الأخلاق فرع من فروع الفلسفة ، وشعبة من
شعبها يبحث في السلوك الانساني ، والمقياس الذي تقاس به الأعمال
الخيرية والشريرة ، ليفعل الانسان ما ينبغي فعله ، ويترك ما ينبغي تركه ،
فهو يشمل شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفردية
والتربوية و . . . إلخ . وهذا المفهوم الاخلاقي في الاسلام له مصداقية
وواقعية في الآيات والأحاديث والفكر الاسلامي .

ومصداق ذلك قول الرسول (ص) ، « إنما بعثت لأتمم مكارم
الأخلاق »^(١) . فقد حصر الرسول ، واقتصر أهداف وغايات ، وحكمة
رسالته الشائخة ، والمستهدفة الى معرفة الله والنفس والتكامل والتقرب
الى الله من خلال المعرفة النظرية والعملية المتمثلة بالأخلاق إطاراً ومضموناً
لجميع أفعال وسلوكيات الانسان الموجهة نحو تلك الغايات والأهداف ،
فيقول الرسول (ص) : « الدين حسن الخلق »^(٢) ، « وأن أحسن الناس
خلقاً أحسنهم ديناً ، وقوله كذلك « الاسلام حسن الخلق »^(٣) . وقوله

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣٨/٢ .

(٢) قال الحفظ العراقي في هامش الأحياء ٥٠/٣ أخرجه المروزي في مسنده في كتاب تعظيم
قدر الصلاة من زاوية ابن العلاء بن الشخير مرسلأ .

(٣) منتخب كنز العمال في هامش مسند الامام أحمد ١٣٢/١ - كتاب الأدب المفرد للبخاري
ص ٨١ .

« حسن الخلق خلق الله الأعظم » (١) .

وقوله تعالى ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ (٢) .

والاسلام اعتبر الايمان برأ فقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین ﴾ (٣) والمعروف أن البر صفة للعمل الأخلاقي ، وهو جامع لجميع أنواع الخير . وعادة يدور البحث والنقاش في علم الأخلاق حول مسألتين رئيسيتين هما :

الأول : ما هي المهام المترتبة على الانسان من وجهة النظر الأخلاقية ؟

الثانية : ما هو الهدف أو الغاية من وراء تطبيق هذه المهام ؟

وتأسيساً على ذلك تم تقسيم الاخلاق الى قسمين رئيسيين هما :

١ - الأخلاق النظرية :

تتمثل بالدراسات والأبحاث المتعلقة بتحديد الهدف والقصد النهائي من الأخلاق .

٢ - الأخلاق العملية :

تشمل الدراسات والأبحاث المتعلقة بالمهام التي يجب أن يؤديها الانسان ، بمثابة مهام أخلاقية ، بغية تحقيق الهدف والغاية المنشودة منها في الحياة . والنسبة أو العلاقة بين الاخلاق النظرية والأخلاق العملية هي كالعلاقة أو النسبة بين المبادئ والغايات . ولذلك يجب التركيز والبحث بادىء ذي بدء ، حول الأخلاق النظرية ، بغية تحديد ومعرفة الغايات الأساسية ، ليتم فيما بعد دراسة السبل الكفيلة لمعرفة ما يجب على الانسان فعله لبلوغ السعادة ، وتحقيق اهداف والغايات المنشودة في الحياة . وبهذا

(١) التاج ٦١/٥ كتاب الأخلاق .

(٢) سورة القلم الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

الصدد تكلم الفلاسفة على طبيعة الوجدان ، والضمير ، وطبيعة الخير ، والعدل ، والواجب والمحبة ، و... الخ مما نحن في غنى عن الشرح في هذا البحث .

وخلاصة القول ، أن مواضيع المعرفة في الإسلام التي يركز عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة (ع) والفقهاء والحكماء ، هي شاملة لجميع جوانب الحياة البشرية ، فكل شيء مفيد وضروري ومساعد للانسان في مسيرته التكاملية الارتقائية الفردية والاجتماعية ، فهو مبحث وموضوع للمعرفة الانسانية ، وأن الاسلام رتب أهمية موضوعات المعرفة تبعاً لانسجام الانسان مع فطرته وتركيبته الداخلية ومع الظروف الموضوعية المحيطة به ، ومع الأهداف والغاية المنشودة منه لتحقيقها ، فاعطى الأهمية والعناية القصوى لمعرفة الخالق والرب العظيم ، ثم معرفة دستوره ومنهجه من خلال معرفة رسله وأنبيائه وأوليائه وعلمائه وحكمائه وهكذا بالنسبة لبقية موضوعات الحياة .

أدوات المعرفة الانسانية :

ليس هناك علم أو معرفة أو هدف ، من دون وجود وسائل وأدوات تستخدم لتحقيق ما يصبو إليه كل عالم أو صاحب معرفة . ونظراً لتشابه وتمائل بعض أدوات المعرفة مع مصادرها ومنابعها ، لبعض جوانبها فإننا سنقوم بشرح تفصيلي مفيد ، وذلك طبقاً للأطروحة الاسلامية ونظريته الفلسفية في المعرفة ، من دون الخوض في تفاصيلها وابعادها الدقيقة التي بدورها تستلزم بحثاً مستقلاً .

ويمكننا تلخيص أهم أدوات المعرفة الانسانية على النحو التالي :

أولاً : الحواس :

وهي البصر ، والشم ، والاذن ، والتذوق ، واللمس ، هذه أجهزة وأدوات تستخدم في نقل التصورات والمدركات المنعكسة من الواقع الموضوعي خارج الذهن البشري الى منبع التفكير ، الى العقل . يقول عز

وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾^(١) .

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾^(٢) .

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴾^(٣) .

نستدل من هذه الآيات القرآنية الشريفة ، أن الإنسان يولد وهو لا يملك أي نوع من المعرفة إلا ما بالقوة ، وقد من الله وتفضل عليه بالحواس ، ليدرّس ويفهم العالم بهذه الوساطة ، ويحقق فيها الأهداف والغايات المنشودة .

ثانياً : قوة التفكير والاستدلال :

التفكير والاستدلال ، والبراهين أو القرائن العقلية ، هي من الأدوات الهامة والأساليب الرئيسية لاكتساب المعرفة وفق منطق القرآن الكريم والمطلع على الآيات القرآنية الشريفة ، يلاحظ مدى التركيز الكبير والحث الحثيث على استخدام وإستعمال العقل وأدواته ، لادراك وإستيعاب المدركات والحقائق أو المعارف الانسانية . فيقول تعالى ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾^(٤) .

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾^(٥) .

(١) سورة ق آية ٦ - ١ .

(٢) سورة النحل آية ٧٨ .

(٣) سورة الحج آية ٤٦ .

(٤) سورة النور آية ٦١ .

(٥) سورة الملك آية ١٠ .

﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره
أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾^(١) .

قال النبي (ص) : « إنما يدرك الخير كله بالعقل ، ولا دين لمن لا عقل
له »^(٢) .

قال الامام علي (ع) : « العقل أقوى أساس »^(٣) .

« العقل حسام قاطع »^(٤)

« من تفكر أبصر »^(٤)

« الفكر مرآة صافية »^(٦) .

ثالثاً : تزكية النفس وتصفيتها من الشوائب :

من خصائص وسمات كثير من الآيات القرآنية الشريفة هي ، التركيز
والاهتمام الخاص ، والعناية الكبيرة للنفس أو القلب أو الروح ، فالآيات
القرآنية التي تتناول موضوع النفس أو القلب كمصدر للمعرفة وأداة ووسيلة
لها ، كثيرة ومتعددة .

وهناك مواضع عديدة ، توضح هذه الآيات كثيراً من الأمور والقضايا
المتعلقة بالنفس والقلب من حيث ماهيته ودوره وميكانيكة عمل القلب
في استحصال المعرفة الصادقة .

وهناك آيات كثيرة تركز على تزكية النفس وتصفيتها من الشوائب

(١) سورة النحل آية ١٢ .

(٢) تحف العقول/ ٤٤ .

(٣) غرر الحكم/ ٣١ .

(٤) غرر الحكم/ ٢٠ .

(٥) نهج البلاغة/ ٩٣٠ عبده ، ٥٤/٢ .

(٦) نهج البلاغة/ ١٠٩٠ .

والأمراض النفسية حتى اعتبر الإسلام تصفية النفس ، محوراً رئيسياً في صلب ميدان الجهاد الأكبر .

فيقول عز وجل : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴿١﴾
﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ ﴿٢﴾
﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد
أفلق من زكاتها * وقد خاب من دساها ﴾ ﴿٣﴾ .

ويقول الامام علي (ع) :
« من شرفت نفسه ، كثرت عواطفه ، من كثرت عواطفه ، كثرت
معارفه ﴾ ﴿٤﴾ .

رابعاً : التعلم والقراءة
التعلم والقراءة ، أداة من أدوات المعرفة التي يجب أن يتسلح بها
المسلمون لتقصي الحقائق وإدراك وإستيعاب المعارف الانسانية .

والمستنطق للآيات القرآنية الشريفة ، يجد أن أول سورة أنزلت على
النبي محمد (ص) هي سورة العلق التي تحاطب الرسول الأعظم (ص) ،
بالقراءة ، حيث يقول تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق
الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان
ما لم يعلم ﴾ ﴿٥﴾ .

﴿ ... قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. ﴾ ﴿٦﴾ .

(١) سورة الأنفال آية ٢٩ . .

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٣) سورة الشمس آية ٧ - ١٠ .

(٤) غرر الأحكام / ٢٧٣ .

(٥) سورة العلق ١ - ٥ .

(٦) سورة الزمر الآية ٩ .

عن النبي (ص) :

إنه خرج (ص)، فإذا في المسجد مجلسان : مجلس يتفقهون ، ومجلس يدعون الله ويسألونه . فقال : كلا المجلسين الى خير . أما هؤلاء فيدعون الله ، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل . هؤلاء أفضل ، بالتعليم أرسلت ثم قعد معهم»^(١) .

قال الامام الكاظم (ع) : في حديث طويل ، قال : « . . لا نجاة إلا بالطاعة ، والطاعة بالعلم ، والعلم بالتعلم ، والتعلم بالعقل يعتقد . ولا علم الا من عالم رباني»^(٢) .

خامساً : آثار الأولين الماضين :

لقد قدم لنا القرآن نماذج عديدة للمعطيات التاريخية ، وحدثنا عن الماضي في جلّ مساحاته لكي يبين للانسان أهمية متابعة ودراسة آثار الآخرين والماضين سواء العلمية أو الاجتماعية . ويعتبر الاسلام آثار الماضين وسيلة وأداة لمعرفة الحقائق والمعارف الانسانية . فيقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ . . . فهل ينظرون الا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾^(١) .
﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة اللذين من قبلهم ﴾^(٤) .

(١) منيد المرید / ١٣ .

(٢) الوسائل / ١٨ / ٨ .

(٣) الكافي / ٨ / ١٧٢ .

(٤) سورة فاطر آية ٤٣ .

(٥) سورة يوسف آية ١٠٩ .

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ (١) .

قال الامام علي (ع) :

« . . . من عرف الايام ، لم يغفل عن الاستعداد » (٢) .

« . . . ولو اعتبرت بما مضى ، حفظت ما بقي . . . » (٣) .

« أحي قلبك بالموعظة ، . . . وأعرض عليه أخبار الماضين . وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين . وسر في ديارهم وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا وعما انتقلوا ، وأين حلوا ونزلوا . . . » (٤) .

دوافع المعرفة :

لأي عمل أو حركة أو سكون في حياة الانسان ، لا بد من وجود بواعث ودوافع وراء ذلك .

ومن هنا وجدت الضرورة والحاجة لدفع الانسان إلى تحصيل المعارف والحقائق الانسانية . فيا ترى ما هي هذه الدوافع والعوامل ؟ أهي داخلية أم خارجية ؟ أو هل هناك أصلاً دوافع وعوامل وراء ذلك أم لا ؟ هذا ما سنحاول أن نلقي الضوء عليه في الصفحات التالية .

من البديهي عند الانسان الواعي المدرك ، أن وراء بحثه ودراسته التي يستهدف منها التوصل إلى معارف انسانية ، دوافع وعوامل معينة ، منها دوافع وبواعث داخلية وأخرى خارجية .

(١) سورة النحل آية ٦٩ .

(٢) الكافي ٢٣/٨ .

(٣) نهج البلاغة / ٩٨١ ، عبده ٨١/٢ .

(٤) نهج البلاغة / ٩٠٩ - ٩١٠ ، عبده ٤٠/٢ .

أولاً الدوافع الداخلية

إنطلاقاً من الدوافع الداخلية ، يعتبر طلب المعرفة والبحث عنها ، وحب الأطلاع على الحقائق والأمور بشكل عام ، هي من الميول الطبيعية الفطرية عند الانسان . وهي مستقلة عن الوضع الموضوعي الخارجي . أي أن الدافع نابع من مصدر دفين في أعماق الفطرة الانسانية التي فطرهم الله عليها ، وهي مثل الغرائز الجنسية والسبعية والحيوانية المخبأة في باطن وفطرة الانسان .

ثانياً : الدوافع الخارجية :

هناك دوافع وعوامل خارجية (خارجه عن الفطرة والنفس) وهي متنوعة ومتبانية ، تدفع الانسان وتحثه على تحصيل مزيد من العلم والمعرفة . ويمكننا تلخيص هذه العوامل وتصنيفها على النحو التالي :

أ - دافع الترغيب لتحسين المعيشة

فهذا الدافع يشجع الانسان ، على كشف القوانين والنظريات والأساليب والطرق ، التي تحقق للبشرية أكبر منفعة بأقل تكلفة ممكنة . فدافع تحسين المعيشة يدفع الانسان ويحثه على التعرف على حقائق ومعارف جديدة تخدمه في حياته ، وتحقيق أهدافه وغاياته المنشودة في الحياة .

ب - دافع الخوف والترهيب

هو دافع يشجع ويحث الانسان الى بذل جهود خاصة ، لتحصيل معارف وحقائق تفسر له مجهول يخافه ويتجنب شره . فدافع الخوف من المجهول والكوارث المنسوبة اليه سواء الاجتماعية أو السياسية ، يعتبر دافعاً قوياً لفئات من الناس لكي يحصلوا على مزيد من المعارف والحقائق المرتبطة به .

قال النبي (ص) : « ... ألا وإن أعقل الناس ، عبد عرف ربه

فأطاعه ، وعرف عدوه فعصاه» (١) .

قال الامام الصادق (ع) : قال رسول الله (ص) : « من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرفه ينكره » (٢) .

الامام علي (ع) : « لا يصبر للحق الا من يعرف فضله » (٣) .

جـ - دافع السيطر والتفاخر :

هناك فئات من الأفراد يكون الدافع والهاجس الرئيسي لهم في تحصيل وطلب مزيد من المعرفة ، هو التفاخر وحب الظهور والسيطرة على الآخرين ، وهو أرذل وأحط الدوافع في قاموس البشرية .

وتجدر الاشارة الى ، أن الدافع الغريزي والفطري هو الأساس ، وهو ينبوع الدفاق الذي فجر لذة خاصة في نفس الانسان ، تستتبعه جهود فكرية وجسدية ، وتضحيات وآمال كبيرة ، تتعدى في بعض الأحيان لذة الجنس والأكل والمشرب والملبس ، فهي بلا شك عند العقول النيرة ، والنفوس المنفتحة تتعدى كل الغرائز واللذات المنبثقة عنها :

وفي حقيقة الأمر ، أن هذه الغريزة بقوتها وحجمها الكبيرين (غريزة حب الاطلاع والبحث وطلب المعرفة والحقيقة) هي التي شكلت وشيدت الصرح الرفيع ، والبنيان المشيد للفلسفة والعلم ، وركزت دعائمها وأسسها منذ القدم .

والاسلام لا ينكر دور العوامل والدوافع الخارجية في خلق ويجاد باعث وإحساس لتحصيل مزيد من العلم والمعرفة ، ولكنه يضع هذه العوامل في حجمها ومكانها الطبيعي الواقعي .

(١) البحار ١٧٩/٧٧ ، عن كتاب « اعلام الدين » .

(٢) أمالي الصدوق / ٤٣٩ .

(٣) غرر الحكم / ٣٤٩ .

وخلص القول ، إن الدافع الرئيسي والمحوري للمعرفة من وجهة نظر الاسلام ، هو الدافع الغريزي الفطري ، الذي يوجد جواً وحالة شعورية وفكرية ، تدفع الانسان الى اكتساب المعرفة ، وحل المسائل ، والأمور المتعلقة بها ، مثل ماهية فطرة الانسان ورؤيته الكونية والانسانية والاجتماعية ، وذلك بغية تحقيق حياة إنسانية ، تتجلى فيها إنسانية وروح الانسان . إضافة إلى ذلك ، هناك إعتبار لدافع الخوف والرعب من حياة مجهولة مملوءة بالشقاء الأبدي ، أو دافع اكتساب معارف معينة لتحسين حياته والسيطرة على الطبيعة والمشاكل فيها ، ولكن لا يعطيها حجماً وموضعاً يتجاوز حجمها وموضعها الطبيعيين في قاموس وسنة حياة البشرية .

الفصل الرابع

إمكان المعرفة

أول ما يتبادر إلى ذهن الانسان المفكر ، هو هل أن الانسان قادر على ادراك حقائق الأشياء ؟ وإلى أي مدى يمكن كشف وتحديد التصديقية الموضوعية للمعرفة ؟

وتجدر الاشارة هنا ، إلى أن المسلك والمنهاج الوحيد أمام الانسانية ، لاكتشاف وإستكناه الواقع ، والكشف عنه وعن أسرار العالم ، هو تلك الحصيلة الزاخرة من المعارف والعلوم التي يمتلكها الانسان ، ولذا يستلزم الأمر ، التحقق والتساؤل قبل كل شيء ، عما اذا كان هذا المسلك أو المنهاج المتبع موصولاً حقاً إلى الغاية المنشودة ، وعما إذا كانت الانسانية قادرة على الوصول إلى الواقع الموضوعي ، أو هل تطابق الادراكات والمفاهيم الحقيقية كما هي في الواقع الموضوعي خارج الذهن الانساني ممكن أم لا ؟

قبل أن نتطرق بشيء من التفصيل والاستفاضة بالأراء والأفكار الفلسفية الواردة في المذاهب الفلسفية المتباينة ، نرى من الضروري أن نجيب على سؤال آخر هام متعلق بالادراكات والأشياء ، وهو هل هناك حقائق وأشياء مستقلة عن عقولنا أم لا ؟

هل هناك حقائق وأشياء مستقلة عن عقولنا أم لا ؟

يقول صدر المتألهين - الملا صدرا الشيرازي - في كتابه الفلسفي المشهور

(الأسفار) إن الفلاسفة اختلفوا في الوجود هل هو كلي أو جزئي ؟ وفي إنه واجب أو ممكن ؟ وفي إنه عرض أو جوهر ؟ أو ليس بعرض ولا جوهر ؟ وهل أن الموجودات الخاصة نفس الماهيات أم هي زائدة ؟ ، بل اختلفوا في أن الوجود موجود أو معدوم ، أو ليس بموجود ولا بمعدوم ؟ ما أعجب حال الوجود اختلف فيه العقلاء بعد اتفاقهم على أنه أظهر الأشياء ، وأعرفها عند العقل ولذا قال بعض الفلاسفة عن الوجود : (١)

مفهومه من أظهر الأشياء وكنهه في غاية الخفاء

وللوجود عند الفلاسفة أنحاء شتى ، منها الوجود الخارجي ، ومنها الوجود الذهني ، ومنها الوجود الفني كالشعر والألحان والتصوير ، ولكل واحد من هذه الوجودات خواص وأثار لا تترتب على غيره ، مثلاً- وجود الحرب في الخارج يترتب عليه الهلاك والدمار ، وتصورها في الذهن يبعث الخوف والرعب ، وتصويرها باللفظ والألحان والرسم يخلق فينا احساساً خاصاً (٢) .

ففي خضم هذه المجموعة الكبيرة من الظواهر والموجودات المتعددة والمختلفة في الأشكال والأنواع التي نحن نعد جزءاً منها ، يقف الانسان حائراً أمام مواقف متباينة ومتعددة من التساؤلات والاستفسارات التي تدور وتحوم في أذهاننا عن تلك الادراكات والأشياء ، حيث يرى الانسان تارة وجود مدركات وأشياء في الواقع يحس بها ويضيف اليها صفة اليقين

(١) صدر الدين محمد الشيرازي المعروف بملا صدرا أو صدر المتألهين ، كتاب الأسفار - الجزء الأول ، فصل : مساومة الوجود للشيء .

(٢) لقد ذكر العلامة الحلي في شرح التجريد : أن الوجود الذهني والوجود الخارجي حقيقتان ، أما في اللفظ والكتابة فمجازيان ، لأن الشيء غير موجود فيها حقيقة ، ولكن حين دلا على الوجود وعبرا عنه قيل على سبيل لمجاز : أن الشيء موجود فيها .
شرح التجريد للعلامة الحلي ، طبعه العرفان - جيداً .

والصدق ، ثم سرعان ما يتضح له زيف وخداع هذه الأشياء ، وإن ليس لها مصداقية وواقع موضوعي البتة .

وهناك حالات يمر بها الإنسان ، فتظهر صور أشياء وحقائق في ذهنه ، وهو متيقن من كذبها وعدم صحتها ، ثم سرعان ما يكشف له العلم بصحتها ومصداقيتها من حيث واقعها ووجودها الموضوعي الخارجي . فالمدارس والفلسفات التي تتناول هذا الموضوع عديدة ومتباينة . ويمكننا حصر هذه الآراء والأفكار في مدرستين رئيسيتين هما :

المدرسة الأولى : مدرسة السفسطائيين والشكاكين : Sophist, Scepticism.

السفسطائيون ينكرون أساساً أي واقع موضوعي خارج ذهن الانسان . ويعتبرون جميع الادراكات والمفاهيم والحقائق الذهنية ، ما هي الا شكل ولون من ألوان وأشكال الفكر الخالص الذي ليس لها وجود أو مصداقية واقعية خارج الذهن .

وينقسم السفسطائيون الى ثلاثة أقسام رئيسية هي :

أ - اللأدرية : Agnosticism

وهي نزعة سفسطائية يونانية كان لها أتباع في صدر الدولة العباسية ، وهي قائمة على الشك في كل شيء ، والاعتقاد بعدم امكانية معرفة شيء ما عن العالم والطبيعة . وبالتالي لا توجد معرفة أساساً حتى نعتبرها واقعاً موضوعياً أم إنها غير موضوعي .

وترتكز هذه النزعة على أن السبيل والطريق الوحيد للحصول على معارف إنسانية ، هو مصدر أو طريق الخواس ، التي تعتبر شهادتها متهمة وغير أمينة لأنها تخدعنا أحياناً . وبالتالي لا توجد ثقة وإعتبار لمعارف يتوغل في ثناياها الشك والخداع.

ب - المدرسة العنادية : Alternatire

هم فئة من الفلاسفة الذين يعاندون ويدعون إنهم جازمون بأن لا

موجود أصلاً . والحقائق في نظر هؤلاء عبارة عن سراب يحسبه الظمآن ماء ، أو إنها أوهام وخيالات ، كالنقوش على الماء ، لا وجود لها البتة .

جـ - العندية :

وهم القائلون بأن الحقائق والأشياء المدركة عند الانسان ما هي إلا توابع للاعتقادات دون العكس (تعريفات الجرجاني) .

والسفسطائية مرت بثلاثة مراحل رئيسية هي :

المرحلة الأولى - مرحلة الشك :

كانت تتسم هذه المرحلة بسمة المنازعات السياسية والمشاجرات القانونية وكان أسلوب المناظرة والمجادلة هو السائد والرائج آنذاك . ولقد دفع هذا الوضع من الاستغراق والتمحور في المناظرة والمجادلة في نهاية المطاف الى عدم تبني أو إعتقاد بعقيدة معينة ثابتة . وباستمرار هذا الوضع ساق أنصار هذا المذهب الى اعتبار الحقائق تابعة لفكر الانسان . وينقل عن أساتذة هذا المذهب قولهم « الانسان هو مقياس كل شيء » بقطع النظر عن فكرة عدم وجود أية حقائق إطلاقاً .

وقول (جورجياس (Gorgias) حوالي ٤٨٣ - ٣٨٥ ق . م) السفسطائي

المشهور هو خير دليل ، حيث يقول إنه ليس هناك وجود لأي واقع ، وإذا كان موجوداً فهو غير قابل للمعرفة ، وإذا مكنت معرفته ، فلا يمكن أن يعرف للآخرين . وهذا الشيء يقع تحت موضوع الشك المطلق في الفلسفة

Absolut Doubt أو الشك الهدام . Destructive Doubt

المرحلة الثانية :

مع بداية النهضة الأوروبية وظهر الاكتشافات العلمية الخطيرة ، أمثال اكتشافات كوبرنيكوس وغاليليو وغيرها من النظريات والحقائق العلمية ، التي اسدلت الستار عن زيف وكذب العديد من النظريات والحقائق العلمية والاجتماعية والسياسية التي كانت تخدم أغراض وأهداف الكنيسة في القرون

الوسطى من جهة وبسبب الطوق والسياج الحديدي الذي أحيط بدائرة ونوعية المعارف العلمية والاجتماعية من قبل الكنيسة من جهة ثانية ، أوجدت تياراً من الشك والريبة في جميع المعارف العلمية والانسانية في تلك الحقبة . فانطلاقاً من إنكشاف بطلان وزيف أهم النظريات العلمية والانسانية ، أوجد شك عارماً في بقية المعارف والحقائق الأخرى . وإستمر هذا الوضع من الشك والظن في حقيقة وقيمة المعارف والادراكات الانسانية ، إلى ظهور « ديكارت » الملقب بأبي الفلسفة الحديثة ، فطرح إطروحات فلسفية عديدة ، تثبت وجود الجسم الذي له خاصية ذاتية ، تتمثل في الامتداد ، وهي من الأفكار الفطرية عنده ، واعتبار الوزن والشكل والحركة من ضواحي أولية للأجسام .

المرحلة الثالثة :

أخذت افكار وآراء ديكارت تتعرض للدراسة والبحث والانتقاد ، فظهر الفيلسوف الحسي (باركلي) و(دفيد هيوم) وغيرهم ، من اعتبر أن طريق المعرفة منحصر في الحس والتجربة الحسية فقط ، ففسر دفيد هيوم أصل تعاقب الظواهر وإرتباطه بعاداتنا الذهنية ، واعتبر وجود أي شيء قابلاً للشك من وجهة النظر الفلسفية ما عدا الظواهر الذهنية ، وبهذا بدأت مرحلة ثالثة من مذهب الشك في الفلسفة الغربية .

المدرسة الثانية ، هي المدرسة الفلسفية التجريبية والعقلية **Empirism and Rationalism**

رواد وأنصار هذه المدرسة يعتقدون ويؤمنون إيماناً وإعتقاداً جازماً ، ويسلمون تسليماً مطلقاً بوجود أشياء وحقائق معينة ، خارج ذهن الانسان . وبالتالي تعتبر بعض الادراكات والمفاهيم هي حقيقة واقعية تطابق الواقع ، ولها واقعية ومصداقية يقينية ، وأن هناك بعض الادراكات والمفاهيم لا تطابق الواقع وليس لها مصداقية حقيقية يقينية ، بل هي نوع من الأوهام والاعتبارات .

ومن وجهة نظر هذه المدرسة الفلسفية ، تنقسم الادراكات والمفاهيم
الذهنية الى ثلاث فئات رئيسية هي :

أ- الحقائق :

وهي تلك المفاهيم التي لها مصداقية واقعية يقينية في خارج ذهن
الانسان .

ب - الاعتبارات :

وهي المفاهيم التي ليس لها مصداق واقعي في الخارج ، ولكن العقل
يعتبر لها مصداقاً . أي أن العقل يضيف عليها صفة المصداقية والواقعية ، في
الوضع الذي ليس لها واقع حقيقي خارج الذهن البشري ، ولتقريب
الصورة أو الفكرة الى الأذهان نضرب مثلاً توضيحياً للتمييز بين الادراكات
الحقيقية الواقعية والادراكات الاعتبارية ، فعلى سبيل المثال ، لو شكل ألف
جندي فوجاً من الجيش ، فإن كل جندي يعتبر جزءاً من هذا الفوج ، أما
الفوج فهو عبارة عن مجموعة الجنود . ونسبة كل فرد إلى المجموع هي نسبة
الجزء الى الكل . ونحن ندرك كل فرد من هؤلاء ولنا أحكام مختلفة حول
الأفراد ، وندرك أيضاً مجموع الأفراد الذي أطلقنا عليه اسم (الفوج) ولنا
أحكام معينة بحقه^(١) .

فإدراكنا للأفراد إدراك واقعي حقيقي ، لأن له مصداق واقعي
خارجي ، أما إدراكنا للمجموع فهو إعتباري ، لأن المجموع لا مصداق له
في الخارج ، والذي له تحقق ومصداقية في الخارج هو كل فرد من الأفراد
وليس المجموع .

جـ - الوهميات :

وهي الإدراكات والمفاهيم التي لا مصداق لها إطلاقاً في الخارج وهي

(١) العلامة السيد محمد حسين الطبطبائي ، اسس الفلسفة والمذهب الواقعي تعليق الاستاذ الشهيد
مرتضى المطهري ، دار التعارف للمطبوعات بيروت ، لبنان ، الجزء الأول ، ص ٤٥ .

باطلة من أساسها مثل قصور الغول والعنقاء والحظر وأمثالها . وتسعى الفلسفة بموازينها ومقاييسها الدقيقة الى الفصل بين الادراكات والمفاهيم الحقيقية عن الفئتين الأخرتين .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن كثيراً من الفلاسفة والعلماء ، قد زلت أقدامهم ، عندما حاولوا دراسة أو الفصل بين هذين القسمين من الادراكات والمفاهيم ، حتى حاول بعض علماء الغرب المحدثين الى دراسة العقل ، وماهية الانسان ، وكيفية فصل مخلوقات الذهن عن الحقائق التي لها واقع خارجي ، ولكن زلت أقدامهم ، وانحرف بعضهم ، فمنهم من تبني السفسطة القائلة بأن جميع الادراكات والمفاهيم هي مخلوقة الذهن الانساني ، دون أن يكون لها واقع خارجي في حين إنتهى البعض الآخر إلى اختيار « أسلوب الشك » « Scepticism » . ومدرسة الفلسفة الاسلامية ترى وتعتقد إعتقاداً جازماً ، بوجود حقائق أو إدراكات ومفاهيم خارج الذهن الانساني ، وإن لها مصداقية وواقعية يقينية ، وهي تشاطر رأي المدرسة العقلية والتجريبية في هذا المجال ، وتخالف رأي المدرسة السفسطائية والشكية .

امكان المعرفة :

والآن نأتي الى الاجابة على السؤال الذي طرحناه في مستهل حديثنا عن إمكانية المعرفة - أي هل أن المعرفة يمكن التوصل إليها أم لا ؟

هناك في واقع الأمر ، عدة مذاهب ومدارس فلسفية لها وجهات نظر وأطروحات متباينة حول الموضوع ، سنحاول في هذه العجالة أن نستعرض بشكل سريع وموجز أهم هذه المدارس والفلسفات مع تبيان وتوضيح الموقف الفلسفي لفلاسفة المسلمين تجاه هذه القضية الهامة .

المتطلع للفكر الفلسفي ، يستشف بأن المذاهب الفلسفية انقسمت آراؤها وأفكارها بشكل واضح وجلي ، فمنها من تبنت النزعة الدوجماتيقية Dogmalism في الطرف الأقصى ، وأخرى نزعت الى نزعة الشك التام في

الطرف الأقصى المضاد . وبناء على ذلك ، تصنف المذاهب الفلسفية تجاه هذه القضية الى مدرستين أو مذهبين رئيسيين هما :

أولاً : المدرسة المنكرة لامكان المعرفة

وهي المدرسة السفسطائية والشكية ، والقول بنسبية المعرفة .

ثانياً :

المدرسة أو المذاهب القائلة بامكان المعرفة ، وتندرج تحت هذا اللواء كل من المذهب العقلي بنزعاته المتباينة من مثاليه وتجريبية وواقعية وحسية ، والمدرسة الكانتية النقدية والحديثة ، والمدرسة الوجدانية عند برجسون والوجوديين وغيرها .

أولاً : المذاهب المنكرة لامكان المعرفة

أ - المدرسة أو المذهب السفسطائي والشكي :

في القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت موجة من السفسطة Soplism ، وراجت فيه الجدل Argumentation في ميادين عديدة ، منها الخطابة والمحامات ، وتضاربت فيه آراء الفلاسفة ، مما خلق تياراً وجواً من الشك والشبهات حول قيمة وإمكانية المعرفة ، مما ترتب على ذلك ، إنكار الحقائق والمعارف وبالتالي العالم وجميع الأسس والركائز والمقاييس الفكرية للانسان ، إلى درجة انكار المحسوسات والبدييات أيضاً .

وقد ألف « غورغياس » ، أحد رواد المدرسة السفسطائية كتاباً سماه « اللاوجود » وحاول في كتابه هذا أن يبرهن ويستدل عدة قضايا ومسائل أهمها :

- التأكيد على عدم وجود شيء في العالم .

- وإذا كان يوجد شيء ، فالانسان بما يملك من طاقات وإمكانات قاصر على ادراك واستيعاب هذا الشيء .

- واذا فرضنا أن انساناً ما أدركه ، فلن يستطيع أن يبلغه لغيره .

وحاول بيرون الذي يعتبر من الرواد البارزين والمبشرين المعروفين للمذهب الشكي ، أن يبين عشر حجج وأدلة على ضرورة الشك المطلق . فكل قضية في نظرة تحتل قولين ، ويمكن إيجابها وسلبها بقوة متعادلة .

ويحسن بنا أن نستعرض مجموعة من الحجج والأدلة التي أوردها سكستوس اميريكوس في كتابه ، « الجمل الفورونية » (ضد المعلمين) ، ويمكن تصنيف هذا الحجج والأدلة الى ثلاثة أصناف (١) :

أ - حجج تتعلق بالذات التي تحكم .

ب - حجج تتعلق بالموضوع الذي نحكم عليه .

ج - حجج ترتبط بالذات والموضوع معاً .

أولاً : الحجج المرتبطة بالذات التي تحكم

الادراكات الانسانية تتوقف وتعتمد على البنية التركيبية للأعضاء . فنلاحظ على سبيل المثال تباين ادراك الحيوانات للحقائق أو الأشياء تبعاً للون العيون اذا ما كانت حمراء أو شاحبة اللون ، أو مائلة الى البياض . وعلى نفس المنوال بالنسبة لحاسة التذوق والشم سواء بالنسبة لدرجة قوتها أو إستيعابها وتشخيصها للأشياء .

ونفس الشيء نجده عند الانسان ، فهناك أشخاص تتصف أجهزة حواسهم بالقوة ، وأخرى بالضعف ، حيث أن بعضهم ذو حاسة شم قوية ، وبصر نافذ والبعض ضعيف السمع والبصر وهكذا .

إضافة الى ذلك ، يوجد تباين واضح للانطباعات لموضوع واحد باختلاف الحواس فعلى سبيل المثال وليس الحصر : يصبح العسل اللذيذ

(١) د. عبد الرحمن بدوي - مدخل جديد الى الفلسفة ، وكالة المطبوعات الكونية ١٩٧٤ ، ص

المذاق ، مؤذ على الأبصار ، ونفس الحال بالنسبة للعطور التي تريح وتلذد الشم بينما كريبه المذاق .

وهناك أيضاً ظاهرة أخرى تتسم بها الحواس ، وهي إنها تنقل إنطباعات متباينة تبعاً للظروف المحيطة بها . ففي حال اليقظة والنوم ، أو حالة إصابة الانسان بمرض الصفراء ، . . . إلخ ، فان الادراكات التي تنطبع في الأذهان في حالة النوم تتباين عن تلك في حالة اليقظة ، وبالتالي من الصعوبة الحكم على مصداقية وصحة أي واحد منها .

ثانياً : الحجج المرتبطة بالموضوع الذي نحكم عليه

هناك حالات وظواهر يتباين فيها الادراك تبعاً للموضوع أو الحالة التي هي عليها عند تشغيل عملية الادراك . فعلى سبيل المثال حبات الرمال المبعثرة والمشتتة ، تبدو للعيان خشنة ، بينما عندما تتجمع وتتراكم هذه الحبات في شكل تلال وكومات تصبح رخوة للحواس ، وسحالة الفضة تبدو سوداء لو أخذت مفردة ، لكنها في شكل الكتلة تبدو صفراء اللون .

وتتباين الأشياء في أذهاننا تبعاً لكونها مألوفة أو غريبة بالنسبة لنا : فالأشياء أو الحالات النادرة عادة تثير فينا الدهشة ، بينما الحالات الاعتيادية تبدو لنا عادية . وبالتالي من الصعوبة بمكان ، التمييز بين طبيعة هذه أو تلك .

ثالثاً : الحجج المرتبطة بالذات والموضوع معاً

توجد أو تندرج تحت هذا النوع من الحجج شواهد وظواهر عديدة ، نوجز أهمها على النحو التالي :

- النظر الى النجوم وهي في السماء تضيء وكأنها نقطة صغيرة في الأصل ، بينما الواقع والحقيقة هي كبيرة عدة ملايين من المرات من الكره الأرضية ، ولكن بسبب بعد المسافة ، تبدو لنا وفي أذهاننا صغيرة ، ولكما اقتربت

المسافة من تلك النقطة الصغيرة المضيئة ، كلما يكبر حجمها في أذهاننا .

- عندما نضع خشبة مستقيمة في الماء ، فانها تبدو لنا مكسورة .
- تبدو لأذهاننا السفينة وهي من بعيد ، صغيرة الحجم وثابتة ، ومن قريب تبدو كبيرة ومتحركة .

- وضوء المصباح يبدو مظلماً في الشمس ، ولامعاً مضيئاً في الظلمة .
- وهناك من يرى أن الأشياء هي نسبة بالنسبة لموقعها من الشخص فاليمين نسبي الى اليسار والعكس بالعكس . وهناك من يرى تباين الادراكات والانطباعات تبعاً لتغاير العادات والقوانين والأعراف المتباينة عند الشعوب المختلفة .

وتشدد حدة الانتقادات الموجهة الى الحواس والمعارف والانسانية ، الى حد إنكار العمليات الحسابية البسيطة والى درجة يرونها مستحيلة .

ويرون أنه من المستحيل طرح ٥ من ١ مثلاً ، لأننا لو قلنا ٥-١= ٤ ، فإن الوحدات التي تؤلف العدد ٥ تبقى بدون تغيير ولم يحدث فيها أي طرح . فلنكني يتناول الطرح العدد ٥ ، فلا بد من رفع الوحدة من كل واحدة من الوحدات الخمس التي يتألف منها العدد ٥ . لكننا في هذه الحالة لا نكون قد طرحنا ١ من ٥ ، بل ابعدنا العدد ٥ .

واستنتج من ذلك ، بأن أجهزة الحواس تخطيء وتخدع الانسان في مواضيع كثيرة ، وتنقل لنا معلومات وادراكات مغايرة للحقيقة الموضوعية خارج الذهن البشري ، مما يوجد في نفوسنا حالة عدم الاعتماد والاطمئنان اليها في عملية تحصيل المعارف الانسانية ، بسبب حالة الشك والريب في عمليتها الادراكية .

دعونا نتعرف الآن الى مدى مصداقية وصحة هذه المقولة ، المتمثلة بأن الحواس تخدع الانسان وتنقل للذهن معلومات وحقائق خاطئة . هل الخطأ والانحراف واقع في نفس أجهزة الحواس ؟ أم أن التفسير والتحليل الذهني

للمعلومات والادراكات المنقولة بواسطة الحواس ، هو الذي يخذعنا أو يطبع اذهاننا إنطباعات مغايرة لما هي في الواقع الموضوعي خارج الذهن ؟ .

ففي حالة رؤية الأشياء من بعيد بأحجام صغيرة ، تدخل في الواقع ضمن الأخطاء التي تكمن في الادراكات التي نكتسبها عن طريق المشاهدة . بينما في حالة مشاهدة الخشبة المستقيمة متعرجة في الماء ، وهي في الواقع غير مكسورة ، تقع ضمن ظاهرة الانكسار التي تحصل عن إنكسار الأشعة في الماء ، لذلك تبدو الصورة المتكونة من هذه الأشعة مكسورة لنا .

وبالرغم من أن تلك الأمثلة التي ذكرناها تختص بالرؤية ، إلا أن هناك شواهد عديدة ومتنوعة تختص ببقية الحواس كالشم والذوق والسمع ارجو مراجعة المثل بحيث يأتي بطريقة مفهومة فمثلاً إننا نشعر بمرارة المادة الموجودة في معجون الأسنان ، بعد غسل أسناننا إذا تناولنا مادة حلوة ، بالرغم من إننا لتناولنا هذه المادة الحلوة قبل استعمال المعجون لوجدناها حلوة المذاق والطعم

اذن نحن نتساءل هل هذه الادراكات خاطئة بطبيعتها ، أي هل أن الخطأ في حاسة البصر والشم والتذوق . . . إلخ ؟ أم في التفسير الذهني لهذه الشواهد ؟

الحقيقة هي أن أعيننا أو حاسة الذوق عندنا في الأمثلة السابقة ، لم ترتكب أي خطأ . ففي مثال السراب ، أي عندما ننظر من بعد فإن ما يتراءى للنظر ، هو انعكاس للنور من على سطح مضيء بجسم اللون الأزرق في أعيننا ، وبما لا شك فيه أن هناك نوراً موجوداً وله انعكاسات ، مما جسد لنا من بعيد لوناً أزرقاً فهذا الشيء له واقع ، أما الخطأ يكمن في أن ذهن الانسان (السراب يراه غير العطشان) يتصور ذلك النور ماء . وفي حال رؤية النقطة المضيئة الصغيرة في الفضاء ، والتي يعادل حجمها ملايين المرات من حجم الكرة الأرضية فإن حاسة النظر لم تخطأ في الواقع في تصوير وإدراك تلك النقطة المضيئة الصغيرة ، فهي تراها تماماً كما هي في الواقع الموضوعي الخارج عن ذهن الانسان ، ولكن نظراً لكونها بعيدة ، فإننا

نتصور إنها صغيرة ، حيث لو أن معلومات إضافية تتوفر لدى هذا الانسان ، لأدرك واستوعب حقيقة ذلك الواقع الموضوعي بالشكل الموجود في الخارج . . أي بذلك الحجم الكبير جداً . وبذلك نستنتج بأن الخطأ الذي يقع أو ترتكبه حاسة من الحواس الخمسة ، كالنظر والذوق في مثالينا السابقين ، لا يكمن في مشاهداتنا وتذوقنا ، بل في واقع الحال هو حصيلة التفسير الخاطيء للحس دون الحس نفسه . وبذلك فإن ما يحصل عليه الحس في جميع هذه الحالات يعتبر واقعاً وليس خطأ ، والخطأ يكون ناتجاً من تفسيرنا الخاطيء للصورة التي نشاهدها أو للمادة التي نتذوقها . ففي حالة الخشبة المستقيمة التي تُرى إنها منكسرة في الماء فمهما حاولنا التدقيق والتأكد من صحة النظر ، وبذلك بفحص النظر فحصاً جيداً وتنظيفه تنظيفاً جيداً ، فإننا ما زلنا نرى تلك الخشبة المستقيمة منكسرة في الماء ، لأن الخطأ لا يكمن أساساً في الحس البصري ، بل يكمن أساساً بالتفسير الذهني للظاهرة .

وبناء على ذلك ، لا يتم علاج الخطأ هنا على أساس نقصان وقصور البصر أو العين ، بل يجب البحث والتركيز على ميدان الذهن في عملية التفسير والتحليل للحالات والظواهر موضع البحث والدراسة . أو بتعبير آخر يستلزم الأمر النظر الى الذهن وإصلاحه قبل أي شيء آخر . وهذا العلاج أو الاصلاح للدراكات الخاطئة الناشئة من الحواس ، يمكن أن يتم بشكل أو آخر بواسطة أدوات الحس الأخرى . فعلى سبيل المثال ، يقال أن ملكة سبأ المعروفة ببلقيس عندما جاءت للقاء سليمان (ع) ، أشاروا اليها بضرورة الدخول في القصر الزجاجي الشفاف ، فعندما أرادت الدخول ، تصورت إنه ماء، وإن عليها أن تعبر من الماء اعتقاداً منها بأن هذا الأمر يدخل ضمن عادات وتقاليد يجب الالتزام بها من قبل الشخصيات (بروتوكولات سياسية) ، وذلك من خلال المرور على الماء أولاً ، لذلك لملت أطراف ثوبها لكي لا تبتل بالماء ، لكنها أحسّت بأنها إرتكبت خطأ ، إذ لا وجود للماء هناك . حيث أن بصرها أي عينيها رأت سطحاً أشبه بسطح الماء ، فاعتبر

ذهنها ذلك السطح ماء ، ولكن عندما استخدمت رجلها حاسة أخرى (اللمس) تأكدت لها وهم وزيف وجود الماء ، ولم تشاهد ماء ، وعلى الفور قام ذهنها بتغيير استدلاله واستنتاجه بعد أن حصل له اليقين أن الذي رآته بصورة ماء كان في الواقع من زجاج .

وتأسيساً على ذلك ، يمكن القول بإمكانية إصلاح وعلاج الأخطاء التي يرتكبها الذهن للمدركات أو الحقائق التي مصدرها الرئيسي هو الحس والتجربة ، بواسطة الاستعانة والرجوع الى حواس أخرى . ففي مثال الخشبة المكسورة، نستطيع إصلاح هذا الخطأ من خلال ادخال اليد في الماء ولمس الخشبة للتأكد من إستقامتها ودحض بطلان العين للوضع الانكساري للخشبة .

والحقيقة هي أن الانسان يخطأ في تفسيره للادراكات المكتسبة بواسطة الحس والمشاهدة ، ومن هنا يجب اكتشاف سبيل تجنب الوقوع في الأخطاء وان الذين يتصورون إنه يمكن من خلال تركيب الادراكات الحسية الحد من أخطاء الذهن في تفسيره للصور ، فهم خاطئون^(١) .

وخلاصة القول ، أن الانسان يستطيع بواسطة النظر والمشاهدة العينية أن يحصل على إدراكات وحقائق قطعية وبينه من عالم العين ، وإنه في بعض الأحيان - وليس على الدوام - يخطأ في تفسيره لهذه الحقائق والادراكات ، ولذا يستلزم الأمر ، البحث عن طرق وسبل قويمه للحد من تلك الأخطاء التي يرتكبها ذهن الانسان اثناء تفسيره للصورة التي يحصل عليها بواسطة الحواس . وتجدر الاشارة الى حقيقة هامة ، مفادها أنه ليس صحيحاً دائماً أن السبيل الوحيد لاكتشاف الخطأ في الحواس ، هو الاستعانة بحاسة

(١) سلسلة من محاضرات آية الله الشهيد الدكتور بهشتي ، أخطاء الذهن ، مجلة التوحيد العدد الرابع - السنة الأولى - رمضان ، شوال ١٤٠٣ هـ ص ٨١ .

أخرى أو حاستين آخريتين . ففي الحالات التي يستصعب فيها ادراك حسي غير قابل للتقويم أو الاختيار بواسطة حاسة أخرى مثل النظر الى لوحة خضراء أمامنا ، وحينما نسأل عن لونها ، نجيب بأنها خضراء دون شك أو ريب ، ومهما تقدمنا الى الامام أو رجعنا الى الخلف ، فإن السبيل الوحيد هو النظر أي حاسة البصر في عملية الادراك ، لهذه الحقيقة أو المعرفة ، ولا نملك طريقاً أو سبيلاً آخر لذلك .

بينما حقيقة اللون الأخضر ، تتجلى فقط للشخص الملم بمعارف فيزيائية معينه ، ويعرف بأن لون الأخضر أصلاً لا وجود له . إذ أن اللون الأخضر ما هو الا عبارة عن حد معين من أشعة النور ، إذا ما تغيرت كمية ونسبة النور فان اللون سيتغير أيضاً .

ولذلك في الواقع الموضوعي ليس هناك الا مقدار أشعة النور التي تشع على السطح . فعندما ترتفع الأشعة أو تنخفض ، فأنا ندرك أو نحصل على اللون الأخضر أو الأحمر أو بقية الألوان الأخرى .

وبلغة فلاسفة الفيزياء أو الفيزيائيين ، الألوان ما هي الا كفيات ناتجة عن الكميات ، وأن هذه الكفيات ليست أصلاً ، حيث أن الكمية العديدة لأشعة النور ، تشكل مصدراً ومنشأ لرؤيتنا للون الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق إلخ .

وتجدر الاشارة هنا ، إلى أن هذه المعرفة الفيزيائية لا تغير من الادراك المنعكس من اللون الأخضر في اذهاننا ، حيث أن لون اللوحة يبقى اخضراً ، لأنه عبارة عن كيفية متجسمة على سطح اللوحة ، تتراءى لأذهاننا باللون الأخضر . ذلك تفسيراً للظاهرة موضع النظر والبحث . ولكن القضية هنا ترجع الى كيفية ناشئة عن تداخل عدد معين من أشعة النور مع حاسة البصر ، بحيث لو قيل لنا أن لوحة ما لا تنطوي على مقدار معين من أشعة النور التي تعكس وتجسّم اللون الأزرق مثلاً ، فاننا لا نشك في هذا القول .

وهنا نلاحظ أن العبارة تغيرت بينما الموضوع واحد ، واللوحة لوحة خضراء اللون .

ومن الأهمية بمكان ، القول بأن هذه التحقيقات والأبحاث والنتائج الظاهرية والحقيقية المرتبطة بالموضوع تجرنا من مبادئ اليقين الى عالم الشك . حيث أن المبادئ اليقينية هي يقينية صادقة وحقيقية وثابتة باقية ، حتى لو كان الحس يخطأ في بعض الأحيان في عملية نقل الصورة والادراك الى الذهن ، فاننا بواسطة حواس أخرى يمكننا أن نكتسب في بعض الأحيان حقيقة يقينية ، وفي بعض الأحيان كما هو الحال في اللوحة الخضراء التي لا تترك أي شك في نفوسنا من إننا استخدمنا اللون الأخضر في تلوين اللوحة ، قد لا نستطيع بالمشاهدة العينية اكتساب حقائق وادراكات حقيقية يقينية وذلك بواسطة حواس أخرى . أو بتعبير آخر فاننا نستطيع الحصول على ادراكات غير حقيقية وواضحة وقابلة للثقة سواء في حالة الاستعانة بحاسة أخرى لاثبات صحة أو بطلان الادراكات الحسية لحاسة ما أو في حالة عدم توفر مثل هذه الامكانية .

وبناء على ذلك ، فاننا نعتقد في (بحث المعرفة) ، أن للتجربة الحسية أهمية وفائدة كبيرة ضمن إطار وحدود معينة ، وأن الشيء الذي يستخدم في التجربة الحسية والعينية لمعرفة الخطأ أو أخطاء الذهن ، لا يتمثل بالحس ، بل بقدرة الذهن على التحليل والتركيب . فالذهن هو الذي يدخل ويربط بين ادراك حسي سابق وادراك حسي جديد ، ثم يياشر بعملية التحليل والتركيب ، ويقول أنني أخطأت في المرة السابقة ، ثم يبدأ بالبحث للتعرف على منشأ الخطأ ومكانه . وبالتالي نستنتج أن الحس ليس الا أداة للذهن ، لأن القدر الأكبر من هذه المعارف يقع في دائرة ونطاق الذهن .

وكذلك نحن ندرك الحرارة والبرودة بحاسة اللمس . فلو فرضنا أن احدى يدينا كانت حارة والأخرى باردة ثم غمسناهما معاً في ماء دافئ ، فسوف نشعر باحدى يدينا أن الماء بارد ، وبالأخرى نحس به أنه حار . وهكذا

توجد أخطاء كثيرة في تفسير الحس للظواهر والأشياء الخارجية ولقد ذكرت في الكتب الفلسفية والعلمية أكثر من ثمانمائة خطأ للحواس .

وبالتالي التمسك بمقولة أن حواسنا التي هي أقوى وأفضل الوسائل والأدوات التي تستعين بها في المعرفة العلمية بالواقع الخارجي ، تخطيء كثيراً ، يؤدي الى الاعتقاد بفكرة التشكيك في وجود الواقع الموضوعي خارج الذهن ، ويؤدي أيضاً الى عدم الاعتماد على الحواس في نظرية المعرفة .

ونحن بحكم المنطق والعقل ، نرى أن هذا القول مردود من الأصل . ونعتقد بأن الادعاء بعدم وقوع الأخطاء غير وارد البتة ، حيث إننا لا ندعي بأن جميع معلوماتنا وإدراكاتنا أو أن كل ما نفهمه هو صحيح وصادق ، والفلسفة أيضاً لا تدعي هذا الشيء لنفسها ، إنما تقول الفلسفة أن لدينا - في الجملة - واقعاً موضوعياً خارجاً عن ذهننا وذواتنا ، ويمكن للعقل الاستدلالي والفطرة الانسانية استدلال وإثبات ذلك الواقع الخارجي ، حيث إننا لو لم نثبت ما استطعنا أن ننظم أو نرتب آثاراً منتظمة منظمة على الموضوعات ، فلم نفكر في الأكل بعد الجوع مباشرة ، ولم نبتعد عن الأخطار عند احساسنا بها مباشرة و... إلخ .

« قال الديصاني للصادق (ع) : « وقد علمت أنا لا نقبل الا ما أدركناه بأبصارنا ، أو سمعناه بأذاننا ، أو ذقناه بأفواهنا أو شممناه بأنوفنا ، أو لمسناه ببشرتنا . فقال أبو عبد الله (ع) : « ذكرت الحواس الخمس وهي لا تنفع في الاستنباط الا بدليل ، كما لا تقطع الظلمة بغير مصباح »^(١) قال الامام علي (ع) : « ليست الرؤية مع الأبصار ، فقد تكذب العيون أهلها ، ولا يغش العقل من استنصحه »^(٢) .

(١) الارشاد/٢١٤ .

(٢) نهج البلاغة/١٢٢٣ .

وهناك حجة دامغة أخرى من وجهة نظر الشكاكين والمثاليين، تتمثل في حجة الأحلام التي تعتبر وسيلة ممتازة عندهم لتبرير الشك . وتجدر الإشارة الى ، أن حجة الأحلام قديمة ومألوفة ، في تأريخ الفلسفة ، إستخدمها تيتانوس في مناظرته مع سقراط ، فيقول الأول للآخر :^(١) .

« سقراط : كيف يمكنك أن تحدد ما اذا كنا في هذه اللحظة نياماً. وكل أفكارنا حلم، أو إيقاظاً. يتحدث كل منا الى الآخر عن وعي ؟ »
« تيتانوس : الحق إنني لست أدري ياسقراط . كيف أرجح أحد الأمرين على الآخر » .

« سقراط : وهكذا ترى أن من الممكن بسهولة إثارة الشك حول حقيقة الحس ما دام هناك شك ، حتى فيما اذا كنا أيقاظاً أو نياماً . ولما كان وقتنا مقسماً بالتساوي بين النوم واليقظة ، فان النفس تؤكد في كل من مجالي الوجود هذين ، أن الأفكار الحاضرة في أذهاننا في تلك اللحظة صحيحة، فتؤكد صحة أحدهما في أحد تصفي حياتنا ، وصحة الآخر في النصف الآخر، ويكون لدينا نفس القدر من الثقة بالأمرين معاً^(٢) .

ويقول الفيلسوف المعاصر شوبنهاور : ينبغي أن نعترف بأن العالم في واحد من أوجهه على الأقل مشابه للحلم ، بل يمكن أن يدرج مع الحلم في فئة واحدة . ذلك لأن فاعلية المخ التي تخلق بحلال النوم عالماً تام الموضوعية مدركاً بل ملموساً، ولا بد أن يكون لها دور مماثل في تشكيل عالم اليقظة الموضوعي^(٣) .

(١) د. فؤاد ذكريا - نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للانسان - مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) تيتانوس ، ١٥٨ .

(٣) Schopenhauer: The World as wil and Reprejentation (Trans, by E.F.J . payne). The Falcon's/Wing press, Colorado, 1958. Vol. 11.p.4.

وبناء على ذلك ، استخدمت حجة الأحلام لاثبات أن « افتراض وجود الأجسام الخارجية ليس ضرورياً لأحداث أفكارنا » وما يحدث في الأحلام يستدل منها إنه من الممكن أن تصبح جميع أفكارنا في غنى عن أجسام وموضوعات خارجية عن اذهاننا ، وبالتالي ليس من الضروري إفتراض أجسام وموضوعات خارجية لأحداث أفكار في أذهاننا ، ما دام هناك حالات تحدث في اذهاننا أفكاراً دون وجود واقع أو أجسام خارجية^(١) .

وفي حقيقة الأمر ، إذا كان هناك بعض الإدراكات غير حقيقية ، مما يوجد فينا نوعاً من الشك والريبة اتجاهها ، ليس دليلاً وحجة منطقية دامغة ، يستدل منها الحكم على جميع أفكارنا وإدراكاتنا بانها كاذبة وغير صحيحة ، وبالتالي لا يوجد واقع موضوعي خارج أذهننا . ونحن نتصور هذه الحالة ، بالوضع الذي لو كان لدينا عدد من العملات بعضها زائف وبعضها من الذهب الخاص ، وأن الوضع بحد ذاته يستصعب علينا التمييز والتفريق بينهما على نحو جازم وقاطع . فهذه الحالة توجد في نفوسنا شكاً في قيمة أية واحدة منها اذا ما أردنا إستعمالها في حياتنا .

والنظرة المنطقية المفتحة تؤكد لنا ، أن هذا الوضع لا يعدو أن يكون قصوراً وعجزاً في التمييز والتفرقة بين الصحيح والمزيف - وإنه ليس من الحكمة والمنطق السليم التشكيك في قيمة الذهب ذاته ، حيث لو استطعنا بواسطة موازين ومقاييس معينة من فصل العملة المزيفة عن الصحيحة ، فإن حالة الشك والريبة الملازمة لإدراكاتنا ومعارفنا تزول وتنمحي من أذهاننا ، وبالتالي نجزم جزماً قاطعاً بأن هناك حقيقة موضوعية خارج أذهاننا ، تتمثل في مثالنا وجود عملات ذهبية نقية صحيحة .

A Treatise Concerning The Principles of Human Knowledge (Works , edited by (١) Fraser) Oxford U.P. 1901, Vol . 1, Part I, Section 8.

وتجدر الإشارة هنا ، الى أن هدفنا من هذا الاستعراض السريع ليس هو تقديم بحث استقرائي شامل نستقصي جميع أوجه وأبعاد الموضوع ، بل الهدف والغاية الرئيسية المنشودة من هذا الجزء من البحث ، هو إلقاء الضوء على بعض الأخطاء الذهنية التي تفسر على أساس إنها أخطاء في الحواس مما أصبح قاعدة إنطلاق للفلاسفة إلى الشك والريبة في ادراكتنا ، وبالتالي بالواقع الموضوعي الخارج عن أذهاننا. ولذلك سوف لا نطيل في الرد على هذه الانتقادات أو السهام الحادة الموجهة الى الحس والتجربة ، بل سنقتصر فقط على رد منطقي واحد ، نعتقد أنه كفيلا على الأقل بزعزعة فكرة الشك ورفض الواقع الموضوعي .

فالرد المنطقي السليم والحاسم للفكرة ، تتمثل في أن التمييز بين حياة اليقظة والحلم ، أو أن الحياة عبارة عن حلم متصل ، مما يستصعب التمييز والتفريق القاطع بين ما هو حلم وما هو يقظة ، هو أن لفظي الحلم والواقع أو اليقظة هما لفظان متضامنان يستحيل تصور وادراك أحدهما بمعزل عن الآخر . فمن الصعب بل من المستحيل لغوياً وشعورياً وفكرياً ، التحدث أو التفكير والاستشعار بالحلم والكذب والخداع والزيغ بلا واقع من اليقظة والصدق والصحيح والحقيقية .

وعلى نفس المنوال نلاحظ بالنسبة للخيرات والشرور ، ففي الفكر والمنطق الفلسفي الاسلامي ليس الخير والشر فئتين متميزين ومنفصلتين عن بعضهما كما تتميز الجمادات من النباتات أو النباتات من الحيوانات ، وأن لكل منهما صف خاص . والصحيح هو إنها مخلوطان مع بعضهما ، ولا يقبلان التفكك أو الانفصال . فأينما يوجد في الطبيعة شر فهناك خير ، وأينما يوجد خير ، يوجد أيضاً شر فهماً قد عجزنا في الطبيعة وركبا بشكل يتميز عن التركيب الكيمياوي ، حيث انها تركيب من نوع أعمق وأدق وأشمل ، إلا هو تركيب الوجود والعدم . وأن هناك سلسلة من الأمور

الوجودية، متولدة من أمور عدمية من قبيل الجهل والعجز والفقير^(١).

هذه هي الحقيقة الدامغة البسيطة التي غابت عن أذهان كثير من الفلاسفة في العصور القديمة والمعاصرة .

وخلاصة القول ، إنه بمجرد التحدث والكلام عن الحلم والكذب أو الزيف والبطلان ، يعني ذلك أن لدينا من المقاييس والمعايير التي نستطيع بواسطتها التمييز والتفرقة بين هذه الحالات وحالات أخرى ، والتي تتمثل باليقظة والواقع والصدق والصحيح .

إذن الحكمة والمنطق يفرضان على عقل وشعور وحس الانسان ، إنه اذا تحدث عن الخداع والكذب والزيف من حيث وجودهما ، « اذن » فالحقيقة موجودة أو أنا أحلم . « اذن ، فالواقع موجود ، وأن هذا شيئاً كاذباً » اذن هناك شيء صادق وصحيح .

إذن الموضوع والحقيقة ليست في شك وإرتياب الانسان للمدركات والمعارف التي تنطبع في أذهانه ، بل هو في المقياس والميزان الذي يميز ويفرق بين الحقيقة والكذب ، والوجود والعدم ، والحلم واليقظة . وهذا ما سنحاول إن شاء الله البحث فيه بشكل مسهب عندما نستعرض مقاييس وموازين الحقيقة الموضوعية خارج أذهاننا .

مدى مصداقية كون الشيء الواحد حقيقة وخطأ ؟

يوجد في قاموس الفكر النظري والعملي للانسان معاني وكلمات متقابلة ، ولها مضامين عكسية مقابلة . فنلاحظ إستخدام الصدق في مقابل الكذب ، والعدل في مقابل الظلم ، والنجاح في مقابل الفشل ، والصحيح في مقابل الغلط ، والحقيقة في مقابل الخطأ .

(١) الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري ، العدل الإلهي - ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني - الدار الاسلامية للنشر ١٤٠١هـ . ص ١٦٣ .

ولقد اختمرت هذه المفاهيم والكلمات في نفوس ومشاعر الناس ،
وإنتقشت في عقولهم ، بشكل لا يقبل الشك في وجود وحضور هذه المعاني
والأفكار بشكل فردي وليس ازدواجي . أو بتعبير آخر لا يمكن الجمع بين
حقيقة وخطأ ، أو صدق وكذب في فترة زمنية واحدة فهذه الأفكار والمعاني
معاً في ذهن ونفس الانسان ، فهي إما أن تكون حقائق صحيحة أو أن
تكون مخطئة وكاذبة ، إما أن تكون في فترة وزمان معينين صحيحة وحقيقة ،
وفي فترة وزمان آخرين خطأ وكذب ، هذا غير وارد وليس صحيحاً بمنظور
الفكر الفلسفي القديم .

ولتوضيح هذه الفكرة وتقريبها الى الأذهان بشكل أدق وأوضح ،
نستشهد ببعض الأمثلة والشواهد التي تصادفنا في حياتنا اليومية . فمثلاً :
« الأرض تدور حول الشمس » ، « الأجسام تتمدد بالحرارة وتقلص
بالبرودة » ، الماء يتجمد بانخفاض الحرارة » ، « أرسطو تلميذ افلاطون »
فهذه الأفكار والحقائق إما أن تكون صادقة أو كاذبة ، ولا يمكن زج احتمال
ثالث بينهما .

والمتتبع لتأريخ العلوم والفلسفة ، يلاحظ أن في الآونة الأخيرة، ظهرت
افكار ومفاهيم فلسفية ، أخذت طابع الانتشار والتأثير على العلوم والفلسفة
والفكر الانساني بشكل عام ، وذلك على يد مجموعة من العلماء والفلاسفة
المحدثين ، وتبلورت بشكل مذهبي كقاعدة أساسية لبناء الصرح الفلسفي
لقيمة وأهمية الحقائق والمعرفة ، فعلى يد علماء وفلاسفة مذاهب المادية
الديالكتيكية القائلة بوحدة الضدين ، أي امكانية جمع الأضداد والنقائص في
فكرة أو حقيقة واحدة ، فزعموا أن الحقيقة والخطأ أو الصحيح والغلط أو
الصدق والكذب ليسا مختلفين اختلافاً كبيراً . وإنما من الجائز أن يكون
شيء واحداً حقيقياً أو صحيحاً وصادقاً ، وفي نفس الوقت مخطئاً أو غلطاً
وكاذباً بالنسبة له .

نظرة فلاسفة الاسلام لهذا الموضوع :

النظرة الاستقرائية المفتحة البعيدة عن التشنج والتقوقع المذهبي ،
تؤكد لنا زيف وبطلان هذه النظرية أو المقولة المادية الديالكتيكية .
فنحن نعتقد كل الاعتقاد ، بمصداقية وصحة عدم إجتماع وتصالح
النقيضين أو الضدين معاً في نفس الوقت . ونعتقد إنه أمر فطري ، لا يحتاج
إلى دليل حسي أو عقلي ، حتى الطفل الصغير يستشعر هذه الحقيقة ،
ويتعامل وينسجم معها في حياته اليومية .

وإضافة إلى ذلك ، هناك ثمة أسئلة جوهرية ومحورية حول هذا الفكر
الفلسفي لهؤلاء الأفراد ، تطرح نفسها بشكل قوي ، وهي تتمثل فيما اذا
كانت هذه الفكرة - فكرة إجتماع وتصالح النقيضين والضدين معاً في نفس
الوقت - صحيحة من وجهة نظرهم ، هل هم مستعدون لقبول فكرة أن
فلسفتهم ومنطقهم على حق وباطل ، أو صادق وكاذب ، أو صحيح وخطأ في
نفس الوقت ؟

ثانياً :

إن هذه الفكرة غير صحيحة وغير يقينية البتة ، وذلك تبعاً لمنطقهم ،
حيث أنه وفقاً لمنظورهم المنطقي لا بد أن تحمل هذه الفكرة في طياتها
إحتمال صحتها وخطئها أو صدقها وكذبها . وبالتالي تصبح هذه المقولة في
موقع الشك والريبة ، لأنها تحمل في طياتها شيئين متناقضين ومتضادين ، هما
صدق وكذب أو صحة وخطأ الفكرة .

ثالثاً

تأسيساً على هذه المقولة ، سوف تنهار مصداقية جميع الفرضيات
والنظريات العلمية . لأن قيمة وأهمية العلوم والنظريات والفرضيات
العلمية ، تكمن في احتمال صدقها . وبالتالي التعامل معها وفقاً لهذه
القاعدة ، أم إفتراض إن صدقها وكذبها أو صحتها وخطأها يجتمعان معاً في

نفس الوقت ، فهو هدم لكيان ، وزعزعة لأركان وركائز جميع العلوم والمعارف العلمية والانسانية ، وقضاء تام على وظيفتها التفسيرية والتحليلية والتنبؤية .

ب - المدرسة المثالية : Idealism School

يطلق اسم المثالية بوجه عام على النزعة الفلسفية التي تقوم على رد كل وجود الى الفكر بأوسع معانيه . وهي بهذا المعنى مقابل للواقعية الوجودية (Realisme ontology) ابتدأت المثالية ودورها الأول في المصطلح الفلسفي على يد أفلاطون ، حين طرح نظريته الخاصة في العقل والعلم الانساني والمتمثلة « بنظرية المثل الافلاطونية » ولذلك يعتبر افلاطون فيلسوفاً مثالياً ، ولكن مثاليته تختلف تماماً عن المثالية الجديدة ، فهو لم ينكر الحقائق المحسوسة ، أو تجريد الادراكات الحسية عن الحقائق الموضوعية المستقلة عن مجال التصور والادراك ، بل كان يعتقد اعتقاداً جازماً ويقينياً بموضوعية الاحساس والمفاهيم أو الادراكات ، بل إنه ذهب أبعد من ذلك ، حيث إفترض موضوعية الادراكات العقلية التي تعتبر درجة أكبر وأعلى من الادراكات الحسية .

أما باركلي مبشر ورائد المذهب المثالي الحديث ، وغيره من أنصار هذا المذهب ، يرون بعدم امكانية الانسان معرفة العالم وقوانينه ، ولا يؤمنون بقيمة المعرفة أو الادراكات والمفاهيم ، ولا يعترفون بالحقيقة الموضوعية ، بل يعتبرون أن العالم مملوء بأشياء قائمة بذاتها ، ولن يتوصل العلم أبداً الى معرفتها .

ويعتبر الفيلسوف الألماني المشهور « هيغل » الروح المطلق مفكراً يوجد افكاره دائماً في ذهنه حسب النظام الثلاثي : الأطروحة Theses الطباق Untitheses ، والتركيب Synthes وكل موجودات العالم إنما هي أفكار ، والعالم الطبيعي هو نفسه المثل المطلق ، الذي تغرب عن نفسه ولم يتركب معه ، ومن هذا التركيب يوجد الانسان المتكامل ، فيعود مرة أخرى الى المثل المطلق بصورة مجتمع ودولة . ويعتقد هيغل إن القوانين المسيطرة على

العالم ، هي نفسها القوانين المنطقية المسيطرة على الظواهر الذهنية ، وبناء على ذلك اعتبرت مثاليته مثالية خالصة ومحضة .

ج - المذهب النسبي Relative Doctrine

المقصود بنسبية المعرفة Relativity of Knowledge إن المعرفة الانسانية نسبة بين الذات العارفة والموضوع المعروف ، وأن العقل الانساني لا يحيط بكل شيء ، وإذا أحاط ببعض جوانب الأشياء صبها في هياكله وقوابله الخاصة .

اذن المذهب النسبي يعتقد بمقولة وجود إدراكات ومفاهيم وحقائق ، ويؤمن بإمكانية وصول الانسان الى هذه الحقائق والمعارف الموضوعية خارج ذهن الانسان ، ولكن يرى بأن هذه المعرفة والحقائق التي يستطيع أن يظفر بها الفكر الانساني بما لديه من مقومات وامكانيات وطاقات معينة ، هي معارف وحقائق نسبية بمعنى إنها ليست حقيقة خالصة من الشوائب الذاتية والمطلقة Essence of Subject and absolute ، بل هي عبارة عن توليفة ومزيج من الناحية الموضوعية للشيء ، والناحية الذاتية للفكر المدرك ، فلا يمكن الفصل بين حقيقة موضوعية Objective Facts or Truth. في التفكير عن الناحية الذاتية Subjective .

والمتبع للنظريات والمفاهيم الواردة في المذاهب النسبية في الفلسفة ، يلاحظ وجود اتجاهين رئيسين في النسبية يختلفان في جوانب عديدة : منها في المعنى النسبي وحدود النسبية في العلوم البشرية ، احدهما الاتجاه النسبي في الفلسفة «يمثله عمانوئيل كانت» والآخر الاتجاه النسبي الذاتي لعدة من الفلاسفة الماديين المحدثين الذي مهد للنسبية التطورية التي نادى بها المادية الديالكتيكية Materialistic Dialective

د - المادية الماركسية :

المادية الفلسفية الماركسية على مبدأ القائل : إنه من الممكن تماماً معرفة

العالم وقوانينه ، وأن هناك واقعاً وحقيقة موضوعية خارج الذهن الانساني ، وأن إمكانية الوصول إلى المعرفة أو الحقائق ممكن من خلال العمل والتجربة ، وهي معرفة ذات قيمة ، ولها معاني حقيقية موضوعية ، وأن ليس في العالم أشياء لا يمكن معرفتها ، وإنما فيه أشياء لا تزال مجهولة وستكشف وتصبح معروفة بوسائل العلم والعمل .

هـ - المذهب العقلي :

يعتبر ديكارت من الأقطاب الرئيسية للفلسفة العقلية الحديثة ويعتبر مؤسس النهضة الفلسفية في أوروبا .

وبعد ما آمن ديكارت بالقضية البديهية الصادقة التي لا تقبل الشك والريب ، أي بعد إيمانه الجازم والصادق من الناحية الذاتية ، أخذ في اثبات الواقع الموضوعي فرتب الأفكار الانسانية الى ثلاثة اصناف رئيسية هي : (١) .

الأولى : أفكار غريزية أو فطرية ، وهي الأفكار الطبيعية في الانسان التي تبدو في غاية الوضوح والجلاء كفكرة : الله والحركة والامتداد والنفس .

الثانية : أفكار غامضة تحدث في الفكر بمناسبة حركات واردة على الحواس من الخارج ، وليست لها أصالة في الفكر الانساني .

الثالثة : أفكار مختلفة ، وهي الأفكار التي يصطفها الانسان ويركبها من أفكاره الأخرى ، كصوره إنسان له رأسان .

و - المذهب الاسلامي :

خلق الله الانسان مفطوراً على النطق والتفكير ، مستعداً لاستيعاب وتحصيل المعارف ، وذلك بما أعطى من قوة عاقلة مفكرة يمتاز بها عن بقية الكائنات والموجودات .

(١) الامام محمد باقر الصدر ، « فلسفتنا » دار التعارف للمطبوعات - بيروت - الطبعة العاشرة

١٩٨٠ م . ص ١١٣ .

فالانسان وفقاً للمنظور الفلسفي الاسلامي حينما يولد يكون خالي النفس من أية فكرة أو علم فعلى ، سوى ذلك الاستعداد الفطري «Innate» ﴿والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾^(١) ومع نموه ونشأته يصبح له القدرة على النظر والسمع والذوق والشم واللمس للأشياء والقضايا المحيطة به ، فيتأثر ويؤثر بها بشكل مناسب ، مما يترتب على ذلك تفاعل وإنشغال النفس التي كانت خالية وفاقدة للموضوع والعلم ، بمواضيع وعلوم نطلق عليها العلم الحسي ، والمتمثل باحساس النفس بالأشياء التي تنالها الحواس الخمس : (الباصرة ، السامعة ، الشامة ، الذائقة ، اللامسة) . وفي الحقيقة يعتبر العلم الحس أول درجات العلم والممون الرئيسي الأولي ورأس المال لجميع العلوم والمعارف التي يحصل عليها الانسان والحيوانات التي لها مثل هذه الحواس .

ب - ومع نمو وترقي إدراك وشعور الطفل ، يبدأ بترتيب وتصنيف تلك المحسوسات والمعارف التي حصل عليها عن طريق الحواس ، فينسب بعضها الى بعض من حيث الحجم والطول واللون والشكل و . . . ويؤلف بعضها من بعض تأليفاً قد لا يكون له وجوداً في الخارج ، كتأليفه لصور الأشياء التي يسمع بها ولا يراها ، فيتخيل البلدة التي لم يرها مؤلفه من الصور الذهنية المعروفة عنده من مشاهداته للبلدان وهذا هو « العلم الخيالي » يحصل عليه الانسان بقوة (الخيال) وقد يشاركه فيه بعض الحيوانات .

ج - وبتوسيع وامتداد أفق ادراك وفهم الانسان بالمحسوسات والمعارف ، يبدأ بادراك واستيعاب المعاني الجزئية التي لا مادة لها ولا مقدار : مثل الحالات الشعورية والنفسية التي يستشعر بها الانسان مثل حب الوالدين ، وبغض الأعداء ، وخوف الخائف ، وحزن الثاقل ، وفرح

(١) سورة النحل الآية ٧٨ .

المستبشر . . . وهذا هو (العلم البوهمي) يحصل عليه الانسان كغيره من الحيوانات بقوة (الوهم) .

د- في هذه المرحلة من النمو والأرتقاء الفكري والشعوري تجاه المحسوسات والمعارف ، يبدأ الانسان باستخدام قوة العقل والفكر التي تتسم باللامحدودية في هذه المرحلة وتبدأ قوة العقل بعدة وظائف وعمليات ذهنية هامة ، تتمثل في تجميع وترتيب وتصنيف المحسوسات والادراكات والمعارف الحسية والخيالية والوهمية ، ثم فرزها بشكل دقيق ورفيع ، يتم من خلالها التمييز بين المدركات أو المعارف والحقائق الصحيحة والفاصلة منها ، وينتزع المعاني الكلية من الجزئيات التي أدركها وتعقلها ويقيس بعضها على بعض ، وينتقل من معلوم إلى آخر ، ويستنتج ويحكم ، ويتصرف بحدود قدرته العقلية والفكرية^(١) .

وهذه المرحلة هي مرحلة التصديق والاعتقاد الجازم بوجود حقائق أو مدركات ومعارف موضوعية خارج ذهن الانسان ، وإن الانسان لديه من الطاقات والمقومات التي تسهم في إدراكها والتوصل إليها ، كما هي في الواقع الخارجي .

والمنطق القرآني ، يقر بوجود حقائق وادراكات ومعارف موضوعية خارج ذهن الانسان ، ويؤكد ويدعو الانسان الى معرفة تلك الحقائق ، منها تلك المعارف المتمثلة بذات الله تعالى والعالم والانسان والتاريخ أو الموجودات المحيطة بالانسان بشكل عام .

والمستنطق للآيات القرآنية الشريفة ، يلاحظ بكل وضوح وجلاء ، كثرة الدعوات المكررة والحثيثة ، والتأكيدات اليقينية بالنسبة للمعارف والحقائق الموضوعية وإمكانية التوصل إليها بعد معرفة الطريق والمنهاج القويم والصحيح .

(١) الشيخ محمد رضا المظفر - المنطق ، دار المعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان ، ١٩٨٢ ص ١٢ .

وما قصة آدم عليه السلام في استحقاقه وتعليمه لجميع العلوم والأسماء هي بحد ذاتها نوع من الإحاطة بشيء من علم الله تعالى ، الذي هو عين الحقيقة التي لا يحيطون بشيء منها إلا بما شاء سبحانه وتعالى :

فسورة البقرة الآية ٣١ ، تؤكد لنا حقيقة وامكانية معرفة الانسان للعلوم والحقائق الموضوعية الواقعة في خارج ذهن الانسان . فيقول عز وجل ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ يطلب الله سبحانه وتعالى من الانسان، النظر والمتابعة أو الاستقراء والتدبر للأحداث التاريخية، لكي يستوعب ويدرك الحقائق والعبر . ولولا وجود حقائق ثابتة وموضوعية خارج ذهن الانسان ويستطيع الانسان الوصول اليها لما كانت مثل هذه الدعوات الحثيثة منه عز وجل فيقول :

﴿ افلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير ﴾^(٢) .

- ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾^(١) .
- ﴿ افلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾^(٢) .
- ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به . . . ﴾^(٣) .
- ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾^(٤) .
- ﴿ بل الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾^(٥) .

(١) سورة البقرة - الآية ٣١ .

(٢) سورة يوسف - الآية ١٠٩ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٠ .

(٤) سورة الحج الآية ٤٦ .

(٥) سورة النمل الآية ٤٠ .

(٦) سورة العنكبوت الآية ٤٩ .

(٧) سورة النجم الآية ٢٨ .

وخلص القول ، إن السوفسطائيين (Sophism) والمثاليين (Idealism) ينكرون أية قيمة للمعلومات ، لأنه حسب دعواهم ومزاعمهم لا يوجد واقع موضوعي خارج أذهاننا وذواتنا حتى تطابقها إدراكاتنا أو لا تطابقها ، وإنه وفي الواقع لا معنى للحقيقة والخطأ إطلاقاً .

أما المشككون (Scepticism) لهم رأي آخر ، فهم لا ينكرون الواقع الموضوعي خارج أذهننا وذواتنا ، ولكنهم ينكرون القيمة التصديقية اليقينية للعلوم والادراكات ، ويزعمون بإمكانية ادراك الحقائق والأشياء الخارجية التي لها كيفية خاصة ، ولكن ندركها بشكل آخر ، يتلاءم وينسجم مع قوانا المدركة ، ويتناسب مع الظروف الزمكانية ، ونحن لا نعلم كون معلوماتنا وادراكاتنا حقيقة أم خاطئة ، ولا نملك مقاييساً وموازيناً للتمييز الدقيق والصحيح بين الحقيقة والخطأ .

وظهرت في الأونة الأخيرة من تأريخ الفلسفة مذاهب أخرى ، تتفق بالنسبة لهذه المسألة مع مذهب المشككين مع اختلافات جزئية ، منها مذهب النقد للفيلسوف الألماني كانت (Crticisme) ومذهب البراجماتزم (Pragmatism) « النفعية » للفيلسوف الأمريكي وليام جيمس .

وأخيراً وليس آخر ، هناك مذاهب فلسفية يطلق عليها أصحاب الجزم واليقين ، نظراً لكونهم يعتقدون ويرون بأن للمعرفة أو الحقائق والادراكات واقع موضوعي خارج الذهن والذات الإنسانية ، ولها قيمة قطعية يقينية لا تقبل التردد في إنطباقها مع الواقع .

وتصنف هذه الفئة الى صنفين أو قسمين رئيسيين هما :

١ - اتباع الفلسفة الأولى (الميتافيزيقية ، (Mataphisics) ومن جملتهم افلاطون وأرسطو واتباعها من اليونانيين القدماء وجميع الفلاسفة المسلمين وديكارت ولينتس واسبينوزا وفلاسفة آخرون من الأوربيين المحدثين . فتعتقد هذه الفئة بالحقيقة المطلقة ، وترى أن الواقعيات

تنعكس (في الجملة) في أفكارنا كما هي عليه في الواقع الموضوعي خارج أذهاننا وذواتنا ، دون أن نتصرف فيها أذهاننا ، أو أن يضاف عليها لوناً منها .

٢ - فئة النسبيين (Relativism) وهؤلاء هم القائلون بالحقائق النسبية والمدرسة الديالكتية المادية (Materialism- dialectic) هي ضمن هذا المذهب فهي أيضاً ترى وتعتقد بنسبية الحقائق . وهي مأخوذة من النسبيين .

حيث أن حدوث بعض الأخطاء في مواضع معينة ، لا يعني ذلك عدم كاشفية العلم بواسطة الحواس ، أو لا يدعو الى سلب الاعتقاد من كل المعلومات والحقائق المسلمة والادراكات الفطرية . ولا يبرر ذلك أن تنكر جميع الواقعيات الخارجية التي توصلنا اليها بواسطة العلم . بل أن هذا الادراك الخاطيء نفسه دليل على وجود سلسلة من الحقائق المسلمة ، التي جعلناها مقياساً وعرفنا الخطأ عن طريقها ، وألا لا معنى لادراكنا للخطأ ، لأنه لا يمكن تصحيح الخطأ بخطأ آخر .

وإضافة إلى كل ذلك ، لم نشاهد يوماً في حياة المثالي الذي ينكر جميع الحقائق ، أن أغلق عينيه ، ومشى في الطريق ، أو عندما تصادفه بئراً في طريقه لم يتعد عنها .

الفصل الخامس

مصادر المعرفة الانسانية

المذهب الحسي والتجريبي

يرى المذهب الحسي (Sensualisme) بأن جميع معارفنا وادراكاتنا ناشئة عن الاحساسات ، وأن المعقول هو المحسوس . وهذا المذهب في الواقع يعتبر صورة من صور المذاهب التجزئية في الفلسفة .

والمتبع لتأريخ الفكر الفلسفي ، يجد أن هذا المصدر (الحسي) للمعرفة كان يعرف عند الاغريق وفلاسفة الاسلام بعلم الطبيعة ، وهو يشمل كل محيط المعقولات الكامنة في العالم المحس ، وهو ينقسم اليوم بطبيعته الى قسمين رئيسيين هما :

أولاً : فلسفة الطبيعة ، وهي لا تزال جزءاً من المحيط الفلسفي .

ثانياً : علوم الطبيعة ، وهي التي انفصلت عن الفلسفة منذ عهد النهضة الأوربية ، وأصبح لها كيان مستقل يؤلف معرفة خاصة .

والفلاسفة الأولون كانوا مهتمين اهتماماً كبيراً بالحس كمصدر للمعرفة ، ودراساتهم وأبحاثهم الفلسفية المتعلقة بوظيفة وأهمية الحواس في المعرفة معروفة ومتنوعة . فالمذهب السفسطائي هو من أوائل المذاهب الفلسفية ، التي أبرزت الفردية في نظرية المعرفة ، وارتكزت إرتكازاً أساسياً على الحس كمصدر رئيسي وعمون وحيد للمعارف والادراكات الانسانية ، وكان المذهب السفسطائي يعتقد بأن المعرفة كلها آتية عن طريق الحواس عند الانسان .

التجربة : Experiment Experience

لهذا اللفظ عند الفلاسفة معنيان ، أحدهما عام ، والآخر خاص (١) .

أ - المعنى العام .

التجربة هي الاختبار الذي يوسع فهم الفرد ويغنيه ، والمجرب هو الذي جربته الأمور وأحكمته . فان كسرت الرء وجعلته فاعلاً كان معناه : من عرف الأمور وجربها . وبهذا المعنى قال المتنبي :
« ليت الحوادث باعتني الذي اخذت مني بحلمي الذي أعطت
وتجريبي » .

التجربة أيضاً هي التغيرات النافعة التي تحصل للمكاتبنا ، والمكاسب التي تحصل لنفوسنا بتأثير التمرين ، أو هي التقدم العقلي الذي تكسبنا إياه الحياة .

والتجربة بهذا المعنى قسمان : تجربة الفرد ، وتجربة النوع ، وهذه الأخيرة هي التي تنتقل إلينا بالتربية ، واللغة ، والتقليد ، أو بالوراثة النفسية والفيزيولوجية ، ولا يطلق لفظ التجربة إلا على التغيرات النافعة . أما التغيرات الأخرى كالنسيان ، وعدم المبالاة ، وفساد الاخلاق ، فلا تسمى تجارب .

وفي نظرية المعرفة ، يطلق لفظ التجربة على المعارف الصحيحة التي يكتسبها العقل بتمرين ملكاته المختلفة ، لا باعتبار هذه المعارف داخلية في طبيعة العقل ، بل باعتبارها مستمدة من خارجه ، والفلاسفة يفرقون بين التجربة الخارجية (بطريق الادراك الحسي) ، والتجربة الداخلية (بطريق الشعور) .

(١) د. جميل صليبا « المعجم الفلسفي » دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ١٩٧١ ، الجزء الأول بيروت - لبنان ، ص - ٢٤٣ - ٢٤٦ .

ب - المعنى الخاص .

التجربة هي أن يلاحظ العالم ظواهر الطبيعة في شروط معينة يهيؤها بنفسه ، ويتصرف فيها بإرادته . ففي كل تجربة ملاحظة ، ألا إن الفرق الوحيد بينها هو أن الملاحظ يشاهد الظاهرة كما هي في الطبيعة ، في حين أن المجرب يشاهدها في ظروف يهيؤها بنفسه ، وغايته من ذلك الوصول الى قانون يعلل به حوادث الطبيعة .

وقد اختلف العلماء في حقيقة التجربة . فقال بعضهم إنها مضادة للملاحظة بمعنى إنها تقتضي تدخل العالم في حدوث الظاهرة ، في حين أن الملاحظة لا تقتضي ذلك . وقال بعضهم إن من تمام التجربة أن يقصد بها تحقيق نظرية أو فرضية أو توليد فكرة ، وليس ذلك من شرط الملاحظة^(١) .

والتجريبي (Expérimental) هو المنسوب الى التجريب ، تقول : الطريقة التجريبية expérimentale Méthode أي الطريقة المشتملة على الملاحظة والتصنيف ، والفرض والتجريب والتحقيق . ونقول أيضاً : العلوم التجريبية ؛ (Sciences expérimentales) أي العلوم التي تعتمد على التجريب ، فالطب التجريبي (Médecine expérimentale) مقابل للطب السريري (Clinique) لأن الأول يعتمد على التجريب ، والثاني على الملاحظة . وعلم النفس التجريبي (Psychologie expérimentale) مقابل لعلم النفس النظري (Rationnelle) أو الاستبطاني (Introspective)

فهناك العديد من المذاهب الفلسفية التي تركز على التجربة والحس كمصدر رئيسي أو وحيد في نظرية المعرفة ، منها :

المدرسة الرواقية : وهي تعتبر من المدارس والمذاهب الفلسفية التي تشيد بنائها وهيكلها الفلسفي في نظرية المعرفة على أساس الحواس . فهي

(١) جون استيوارت ميل Stuart Mil . كتاب المنطق - الجزء الثالث ، الفصل السابع .

تعتقد اعتقاداً جازماً و يقينياً ، بأن الأفكار والحقائق أو المدركات الانسانية التي تلوح عليها صفة العمومية ليس لها منشأ أو منبع سوى الأحاسيس .

أما الأبيقوريون : لهم اطروحة متميزة من حيث درجة التركيز والشدة على الحواس ، فهم يعتقدون بأن المنشأ أو المصدر الرئيسي والأول لجميع ادراكاتنا ومعارفنا هو الاحساس ، فيما يرى ابيقور - جميع العلوم ، لا تتحقق الا بفضل الانطباعات (Impressions) في النفس .

أما المذهب التجريبي الحديث New Expericism : فهو يبدو - في معالمة ومضامينه المطروحة - أشد صراحة وجرأة ، فهو يعلن بكل صراحة ووضوح وجلاء ، إن الحواس الخمس هي المصدر الرئيس والممون الوحيد الذي يمد الذهن البشري بالتصورات والمعاني (المعارف والادراكات) ، وأن القوة الذهنية هي القوة العاكسة للاحاساسات المختلفة في الذهن . وليس للذهن الا احتواء الاحساسات التي يتلقفها عن طريق تلك الحواس ، ومن ثم يحولها إلى تصورات تحتزنها أذهاننا ، وتتصرف بها من خلال عملية التركيب والتجزئة .

والمستقرىء لتأريخ الفكر الفلسفي بشكل عام ، وتاريخ الفكر التجريبي والحس الحديث بشكل خاص ، يستشف ان الحركة الفلسفية في القرون الأخيرة ، ركزت وبلورت ظاهرة الاعتماد والتركيز على التجربة والحس في تشييد أسس وبناء هيكل وصرح نظرية المعرفة .

فمن رواد البحث العلمي التجريبي الذين ركزوا في أبحاثهم ودراساتهم وفي اطرحهم الفلسفية على الملاحظة والمشاهدة والاختبار هو روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٤) القسيس الانجليزي المشهور^(١) .

(1) Randall: Philosophy: An Introduction P. 184.

وتجدر الإشارة هنا ، أن من العوامل الرئيسية التي ساعدت بروز هذا المذهب ، هو دور الاختراعات والابتكارات الجديدة في العلوم الطبيعية .

غير إن الفيلسوف الانجليزي المادي توماس هوبز T.Hobbes كان هو أيضاً من الأوائل الذين مهدوا لظهور المذهب التجريبي في انجلترا فيما بعد . وهناك من يرى أن نظريته في الفلسفة لم تكن تجريبية صرفه . بينما الفيلسوف الانجليزي المشهور جون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) هو الذي شيد بناء وصرح النظرية التجريبية الحديثة . حيث وضع لها صورتها الأخيرة الدقيقة .

وجون لوك أنكر وجود الأفكار والمبادئ الفطرية في ميدان العلم النظري ، وميدان الاخلاق على السواء . ولذلك تبني جون لوك مبدأ المعارضة الشديدة لنظرية ديكرت الفطرية ، إنطلاقاً من رفضه وعدم ايمانه بوجود شيء فطري البتة : لا المبادئ ولا الأفكار المؤلفة منها ، ولا القواعد العقلية ، اذ إنه يرى بأن النفس توجد في حالة وشكل صحيفة بيضاء (Tabula Rasa) ناصعة ، كأنها لوحة من الشمع خالية من أي طابع يميزها عن مثيلاتها . أي أن العقل ليس فيه شيء سابق على التجربة (Apriori) ، وإنما التجربة هي التي تخط على هذه الصفحة البيضاء سطورها ، وبالتالي تتكون افكارنا ومعارفنا عن الجوهر والعلية والزمان والمكان والعدد واللامتناهي^(١) .

وبعد هذه الدراسات والأبحاث الفلسفية التي تناولها جون لوك عن المعرفة ونظريتها والتي دونها في كتابه تحت عنوان (مقالة في التفكير الانساني) ، أخذت نظريته وأفكاره تبرز وتنتشر ، مما إنساق معها جملة من الفلاسفة إلى أبعد حدودها ، حتى انتهت الى فلسفات خطيرة جداً كفلسفة (باركلي) ، (ودافيد هيوم) . وهناك فلاسفة كثيرون فيما بعد تبناوا النزعة التجريبية في الفلسفة .

(1) J. Locke: Essay Concerning Human Understanding. BK. N. ch. I.

وفي فرنسا برزت النزعة التجريبية على يد كونديك (١٧١٥ - ١٧٨٠). وفي اتجاه التجريبية سارت الوضعية التي شيدها وأنشأها أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧). وفي ألمانيا ظهرت الفلسفة النقدية التجريبية على يد رتشرد أفيناريوس (١٨٤٣ - ١٨٩٦) ، ومن أتباعها أويجن دورنج (١٨٣٣ - ١٩٨١) وأدنست ماخ (١٨٣٦ - ١٩١٦) .

أما جون لوك فقد قسم المعرفة البشرية الى الأقسام التالية :

أولاً :

المعرفة الوجدانية : وهي المعرفة التي لا يستلزم الفكر الى عمون أو مشاهدة للحصول عليها . كمعرفتنا بأن الجزء أصغر من الكل ، أو الواحد نصف الاثنين . ويعتقد بأنها معرفة حقيقية ذات قيمة كاملة من الناحية الفلسفية .

ثانياً :

المعرفة التأملية : وهي معارف يستقيها الانسان بواسطة أو بالاستعانة بالمعلومات والأفكار والحقائق السابقة ، كمعرفتنا بأن مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين . ويعتقد بأن لها قيمة فلسفية كاملة يمكن التوصل اليها بواسطة الاستدلال الصحيح .

ثالثاً :

المعرفة الناشئة من وقوع الحس على المعنى المعلوم .

يعتقد بأن هذا النوع من المعرفة (الحسية) لا قيمة لها فلسفياً . وإن كانت معتبرة في مقياس الحياة ، العملية ، وبناء على ذلك لم يؤمن موضوعياً بجميع خواص المادة المدركة بالحس ، بل اعتبر بعضها خواصاً حقيقية موضوعية كالشكل والامتداد والحركة ، واعتبر بعضها الاخر انفعالاً ذاتياً كاللون والطعم والرائحة وما اليها من صفات .

والتأمل حق التأمل ، في نظرية المعرفة عند جون لوك ، وبالخصوص في

ذلك الجانب الذي صنف المعارف إلى ثلاثة أصناف ، وبالطريقة التي حلل
وقدم ماهيتها ومحتواها الفلسفي ، يستشف من إن الإدراكات البشرية بما
فيها المعارف البديهية الأولية - كمبدأ عدم التناقض والسببية وغيرها من
المبادئ الأولية الأساسية ، مصدرها الرئيسي والوحيد هو الحس والتجربة .
ويرى بأن الحس في نظريته ليس ذا قيمة فلسفية قاطعة ، وأن النتيجة
الطبيعية لذلك هي الشك المطلق في قيمة كل معرفة إنسانية ، لأنها ليست
في حقيقتها ونواتها الأساسية ، إلا ادراكاً حسيماً تم الحصول عليه بالتجربة
الظاهرة أو الباطنية .

أما الفيلسوف كوندياك (١٧١٥ - ١٧٨٠) ، الممثل للفلسفة الحسية
المحضة في العصر الحديث ، يؤكد أن جميع أفكارنا بل جميع معارفنا ليس
لها الا منبع واحد وهو ينبوع الاحساس ، وإن العقل ذاته يمكن شرحه على
هذا الاساس أيضاً . حتى ملكة التأمل التي قال بها (لوك) فكوندياك
يرفضها ، ولا يرى بين معرفة الحيوان ومعرفة الانسان من فارق ، إلا من
حيث الدرجة ، لأن مصدر المعرفة عند كليهما هو الحس ، والصور العليا
للنشاط العقلي ليست في نظره ، إلا احساس متحول (Sensatiion
transformec) .

أما دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) فإنه يضيف الى ذلك المبدأ الصلة بين
الأحاسيس ، ويطلق عليها مبدأ (تداعي الفكر) المتمثل بتدرج العقل في
فكرة العلة الى فكرة المعلول ، أي إن مبدأ العلية كما يراه (دافيد هيوم) ما
هو الا عادة ذاتية من عادات عقل الانسان .

أما جون استيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) فهو القائل بأن ليس لدينا
معرفة غير معرفة الظواهر وإن معرفتنا بالظواهر هي معرفة نسبية وليست
مطلقة . ولسنا نعرف الماهية الباطنة ولا الطريقة الحقيقية لحدوث الواقع .
وكل ما نعرفه هو علاقات الوقائع بعضها ببعض على شكل التسلسل
(المتتالي) أو التشابه .

ولقد قام (جون استيوارت ميل) بدراسة واختبار نظرية (تداعي الفكر) عند (دفيد هيوم) ثم بلورها وقومها وخطى بها خطوات متقدمة مما ووسّع نطاق ومساحة تطبيق هذا المبدأ ، إلى درجة وضع تحت رأيه هذا المبدأ أكثر أمثلة مبدأ العلية ، وأعلنها بأنها ناشئة من تداعي الفكر وليس من مبدأ العلية .

أما المدرسة الوضعية الممثلة في دائرة فيينا، ومؤسسها مورتس أشلك (١٩٨٢ - ١٩٣٦) ، فهي تستند وترتكز على التجربة أيضاً باعتبارها وسيلة ومنبع وحيد لمعرفة وإدراك الواقع ، وهي ترفض وجود أية معرفة قبلية Aprori وبالتالي لا تعتقد هذه المدرسة قضايا ومسائل المينافيزيقيا هي أمور فاقدة المعنى والمضمون . وبالرغم من ذلك ، إلا إنهم يقرون بوجود المنطق والرياضة المستقلين عن التجربة ، ولكن في نفس الوقت تعتقد بانها قضايا خالية من المضمون ، ولا تؤكد واقعا ، إنما هي مجرد تحصيلات حاصلة Tautologies ، وانها مجرد مواصفات لغوية Convention of language .

أما الماركسية فهي في واقع الحال تبنت النظرية الحسية التجريبية في تحليل الادراك البشري تمشياً مع رأيها في الشعور البشري وإنه انعكاس للواقع الموضوعي ، فهم يعتقدون بأن كل ادراك يرجع الى انعكاس لواقع معين ، وإن هذا الانعكاس لا يحصل الا بواسطة الاحساس أما الأشياء أو الحقائق والمدركات التي تخرج عن إطار وحيز الانعكاسات الحسية فهي لا يمكن ادراكها والوصول اليها . وهي تنفي أي اتجاه للشك والمثالية ، وتؤكد المكان معرفة العالم بشكل تام . فيقول لينين : « لكي يكون الشخص مادياً يجب ان يعترف بالحقيقة العينية التي تبديها الحواس »^(١) . وبالنسبة للحواس يقول فلاسفة وعلماء المادية الماركسية : « إن الاحساس والادراك ، والتصور ، والفكر ، أمور لا يمكننا رؤيتها أو سماعها أو شمها أو

(١) مؤلفات لينين ج ١٤ ص ١٢٠ .

لمسها . . . « لا يمكن أن نرى الفكر في زمان أو مكان ، وحتى من خلال أحدث المجاهر ، كما لا يمكن قياسها طولياً ولا وزناً ، وأن الفكرة لا تتمتع بخصائص فيزيائية كتلك الخصائص التي تتمتع بها الأجسام المادية (١) .

وهم يطلقون على الإدراك عدة معاني منها ان :

- الإدراك هو حالة باطنة للمادة .
- الإدراك هو انعكاس عالم الخارج في المخ .
- الإدراك هو رد فعل المخ في قبال التأثيرات المادية للعالم .
- الإدراك هو المنتج الأعلى للطبيعة والذي يحصل في مرحلة خاصة من التطور التكاملي .
- الإدراك هو الطبيعة التي تعي نفسها في ذهن الانسان .

وتتم معرفة الإدراكات أو الحقائق في الفلسفة الماركسية في خطوتين

هما :

الأولى : مرحلة الاحساس :

وهي مرحلة تكريس الوقائع في الذهن بواسطة أعضاء الحواس التي تستطيع التقاطها بشكل مباشر كالسمع والشم والذوق واللمس وتبرزها خاصية الانعكاس الفيزيائي الموجودة في كل الاجسام التي تتبدل القوة الفيزيوكيماوية الى قوة عصبية ، ورد الفعل هذا الذي يبديه الجهاز العصبي والمخ تجاه التحريكات الخارجية هو الاحساس نفسه ؟ (٢) .

الثانية : العقل :

أي قيام العقل بدور تحليل هذه الوقائع المعكوسة من قبل الحواس ،

(١) كتاب المادية الديالكتيكية ، تأليف جماعة من الأساتذة السوفيت ، طبعة دمشق ، ص

١٣٢ .

(٢) نظرية المعرفة - بين الفلسفة الماركسية والفلسفة الاسلامية - الدار الاسلامية ١٤٠١هـ -

١٩٨١ م ص ٨ - ١٩ .

ومقارنتها ، ومقابلة بعضها مع بعض فنتيجة التجريد والتعميم (بمعنى أن خصائص الإدراكات الحسية التي تحددها بحدود زمانية ومكانية ، كلها تحذف من البين لتحصل منها بالتالي صورة ونسخة كلية هي بنفسها انعكاس من الاحساس). فالاحساس - اذن - هو الانعكاس المباشر للعالم المادي ، والمفهوم الفعلي الذي يكون نظرية عقلية أو منطقية أو امتلاك فكرة مجردة عنها ، هو الانعكاس غير المباشر له .

وبناء على الأطروحة الفلسفية الماركسية ، فإن اكتساب المعرفة يتم بواسطة خطوتين : هما خطوة الأحاسيس ، وخطوة المعرفة العقلية النظرية ، وإن هاتين الخطوتين ، تؤلفان وحدة لا تتجزأ ولا تنفصل أي وحدة دياكتيكية بين النظرية والتطبيق وذلك بناء على عدم وجود معرفة عقلية بشكل منعزل ومنفصل عن التجربة الحسية ، وإن الشرط الأساسي لاكتساب المعرفة الصحيحة من هاتين المرحلتين هو التطبيق . أي النشاط العملي ، وبدون التطبيق تصبح النظرية ميتة (١) .

وخلاصة القول . إن نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية تضع التطبيق في المقام الأول ، فهي ترى إن اكتساب الناس للمعرفة يجب أن لا يفصل بأية درجة كانت عن التطبيق وترى الماركسية إن الديالكتيك قانون عام وشامل للمادة وللأفكار والمعارف .

وفي الواقع ، هناك مذاهب فلسفية مختلفة ، تستند أو تعتمد في عملية الحصول على المعارف المختلفة على منبع أو مصدر وحيد هو الاحساس والتجربة ، وبالتالي تبني نظرياتها في المعرفة على أساس أن جميع أنواع المعارف الممكن الحصول عليها مستقاة من المشاهدة والتجربة . فمن خلال الملاحظة والتمحيص والنظر إلى الجزئيات وبواسطة أداة الحس والمشاهدة ومع التكرار إلى أن يحصل لدينا حكم عام لجميع الجزئيات التي لاحظناها ،

(١) عرض موجز للمادية الديالكتيكية ص ١٧٣ - ١٧٤ .

نحصل على معرفة تجريبية معينة . ويطلق على هذه الطريقة في الاصطلاح المنطقي ، الطريقة الاستقرائية (Inductive Method) وهي : تتبع الجزئيات للحكم على كليتها .

وتأسيساً على ذلك ، يكون الانسان المجرد عن التجارب بمختلف ألوانها وأشكالها ، فاقداً لأي نوع من الحقائق والمعارف ، مهما كانت صادقة و يقينية ، ولذا لا يحمل الانسان في طياته حينما يولد أي نوع من المعارف أو الحقائق الفطرية ، ويبدأ بناء وتشيد المعارف والحقائق من خلال عملية الوعي والادراك العملي تبعاً للتجارب وتنوعها التي يمر بها الإنسان في مسيرته الاجتماعية . وبالتالي لا يؤمن التجريبيون ولا يعترفون بأي نوع من المعارف العقلية الضرورية السابقة على ميدان التجربة .

وبناء على الاطار العام والمضمون الخاص للمذهب التجريبي الحسي في نظرية المعرفة كما ذكرنا خطوطها ومعالمها الرئيسية نستنتج ما يلي :

أولاً : هذه النظرية تحجم المعارف البشرية وتحدها في اطار ضيق ، محصور في ميدان التجربة، وبالتالي تصبح جميع المعارف مثل الحقائق والأفكار المتعلقة فيما وراء الطبيعة « الميتافيزيقا » لا أصالة ولا جذور لها . بل يعتبرها من العبث البحث خارج ميدان التجربة ، وذلك عكس ما يرى ويعتقد به المذهب العقلي .

ثانياً : إن عملية تركيب أو تشيد فكرة أو حقيقة معينة تبعاً لنظرية المعرفة في المدرسة التجريبية تسير من الخاص الى العام (Form Particular to General) أي من الجزئيات والحدود الضيقة للتجربة الى القوانين والأحكام والقواعد الكلية العامة . أي من حقيقة جزئية الى حقيقة كلية عامة ، وأن جميع أرصدة الانسان من القوانين العامة والقواعد والأحكام الكلية ، هي حصيلة التجارب من خلال الارتقاء من استقرارات جزئية الى حقائق وأحكام موضوعية عامة .

وهذه العملية بحد ذاتها تماماً هي عكس نظرية المعرفة في المذهب

العقلي الذي يعتقد بأن سير الفكر دائماً من العام الى الخاص From General to Particular. وهي مبدأ استدلالى Decuctive Method.

نقد المذهب التجريبي

حينما يستقرىء الانسان بكل موضوعية بعيداً كل البعد عن أي نوع من التشنجات النفسية والفكرية أو التوقع والانكماش المذهبي للأفكار والمبادئ والأسس التي يرتكز عليها المذهب التجريبي في نظريته الفلسفية في المعرفة ، وخاصة ذلك الارتكاز الرئيسي المتمثل في أن الحس والتجربة هما المصدر والمون الرئيسي الوحيد لجميع أشكال وأنواع المعارف الانسانية ، يرى بكل وضوح وجلاء تام ، ثغرات ونقاط سوداء ، وتناقضات صريحة تمس أهم الركائز التي يرتكز عليها . وفيما يلي عرض موجز وسريع لا هم هذه الانتقادات الموجه الى نظرية المعرفة في المذهب الحسي والتجريبي * .

أولاً : أول ما يتبادر الى ذهن الناقد الموضوعي لهذه النظرية ، هو منطق أصل الركيزة أو الفكرة بأن التجربة مقياس ومصدر رئيسي ووحيد للمعرفة . فالتساؤل المطروح هنا يتمثل في أن : هل هذه الركيزة أو القاعدة أو الحكم المتمثل في المقولة السابقة ، هي معرفة أولية يتم الحصول عليها بدون حاجة الى تجربة أو مشاهدة سابقة ، أم إنها قاعدة وفكرة ليست لها علاقة أو إرتباط بالمعارف والادراكات الضرورية كسائر المعارف والحقائق الانسانية الأخرى .

فاذا كان الجواب بالنسبة للتساؤل الأول بالاجاب positive . أي أن هذه الركيزة أو القاعدة هي فكرة وحكم أولي فطري ، لا يستلزم مشاهدة وتجربة ، أو بتعبير آخر وأدق هي فكرة ومعرفة سابقة عن المشاهدة والتجربة (apriori) ، اذا كان كذلك ، فإن الركيزة والقاعدة الأولية الأساسية للمذهب

* لمزيد من التفصيل والشرح المستفيض للانتقادات الموجه الى المذهب التجريبي انظر الى «الشيخ محمد محمد طاهر آل شبير الخاقاني» ، نقد المذهب التجريبي - مكتبة المنهل - الكويت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

الحسي والتجريبي ، قد أنهارت أعمدها وكيانها من الأساس وحينها يهتز ويتخلل أهم ركن وقاعدة لأي بناء أو صرح فلسفي ، فانه من الطبيعي أن تهتز الهياكل الفوقية من الأبنية والطوابق الفكرية المبنية عليها . وبهذا يكون بطلان وزيف المذهب التجريبي أمر لا مناص منه وحقيقة وجود معارف وحقائق إنسانية ، فطرية وضرورية مستقلة عن التجربة .

أما إذا كان الجواب بالنفي Negative answer بالنسبة للشق الثاني من التساؤل . فإن هذه القاعدة أو الركيذة (التجربة هي المقياس الأساسي لتمييز الحقيقة) تحتاج إلى تجربة سابقة . وهذا يعني إننا لا ندرك في بداية الأمر ، أن التجربة مقياس منطقي مضمون ، تحمل في طياتها بذور الصدق والصحة واليقين . فكيف يمكن البرهنة في صحتها ومصداقيتها ، واعتبارها ميزاناً ومقياساً للتجربة ، ما دامت هي غير مضمونة من حيث الصدق والتيقن بعد .

ثانياً: لا نستطيع الاعتماد أو الارتكاز على هذه النظرية ، حيث أن كل ما تفعله الحواس هو إنها تدرك المحسوسات مما يلمس أو يذاق ، أو يسمع أو يرى أو يشم . أما سوى ذلك من حصر أسباب المعرفة بالتجربة أو نفي وجود مصادر ومنابع أخرى للمعرفة ، فهي خارجة عن نطاق وإمكانات هذه النظرية .

ثالثاً: كل ما يستطيع المذهب التجريبي الذي يستند ويرتكز على التجربة والحس كمرتكز ومحور رئيسي وحيد للمعرفة بالنسبة للمادة ، هو الكشف والاستبيان لنا عن ظواهر المادة وأعراضها والصفات والخصائص التي تتسم بها ، أما بالنسبة لماهية وذات أو جوهر المادة التي تعرضه تلك الظواهر والصفات - فهي لا تدرك بالحواس . فمثلاً حينما ننظر الى وردة جميلة ذات رائحة حلوة ، فاننا نراها بالعين المجردة ، ونشم رائحتها ، ونلمس أعضائها ، ونتذوق بطعمها ، فاننا في جميع الأحوال والظواهر لا

نلتمس ولا نجس بجوهرها وذاتها التي تلتقي جميع هذه الظواهر عنده ، ولكن ندرك جوهرها وذاتها في الواقع من خلال البراهين العقلية المرتكزة والمبنية على معارف وحقائق بديهية أولية .

وإنطلاقاً من هذه الحقيقة والحجة الدامغة ضدهم ، أنكر عدد كبير من التجريبيين الحسنيين وجود المادة .

رابعاً : حينما نلقي نظرة فاحصة الى أشكال وأنواع الظواهر والقضايا التي تصادف الانسان في حياته العملية أو الفكرية ، نجد أن هناك ثمة قضايا وظواهر تقع في نطاق فوق مستوى العقل البشري من حيث الاستيعاب والادراك لها ، وذلك نظراً لقصور ونقصان بعض المعلومات والحقائق الأساسية للعملية الادراكية . ومن هنا لا يستطيع العقل أن يحكم باستحالة حدوثها ، أو بالأحرى لا يستطيع الانسان انكارها ورفضها ألبتة ، وكل ما يستطيع الانسان أن يقوله هو إنها فوق مستوى استيعاب العقل البشري . فمثلاً وجود إنسان على المريخ ، أو إمكانية تصادم عدة كواكب بعضها ببعض ، أو إمكانية طيران الانسان في الهواء ، .. إلخ ، فهذه الظواهر والقضايا لا تتعارض ولا تتصادم مع العقل البشري ، بل هي فوق مستوى استيعاب العقل ، بسبب ضعف الإمكانيات والطاقات أو قصور الحقائق والمعلومات عنه وبالتالي يكون الحكم المنطقي الصحيح تجاه مثل هذه القضايا ، هو أنه بالرغم من صعوبة استيعابها ، إلا إنها ممكن أن تحدث في المستقبل .

بينما هناك بعض القضايا والظواهر في حياة الانسان تتم بسمة الاستحالة الأبدية ، وهي أساساً ضد العقل والمنطق السليم أساساً . فمثلاً إن الجزء أكبر من الكل ، أو وجود مربع له خمس زوايا أو خمسة أضلاع . أو مثلث له أربع زوايا ، أو أربعة أضلاع ، أو أن وجود الشيء وعدم وجوده في نفس الوقت ممكن و... إلخ فمثل هذه القضايا والظواهر جميعها لم تتحقق ولم تقم عليها تجربة فلو كانت التجربة هي

المصدر والمنبع الرئيسي الوحيد للمعارف لما صح لنا أن نحكم على مثل هذه القضايا حكم الاستحالة في حدوثها ، ولما صح لنا التمييز بين الطائفتين الأولى والثانية من القضايا والظواهر ، لأن مفهوم ومغزى التجربة فيها على حد سواء . وبالرغم من كل ذلك ، فإن الانسان الذي يملك البصيرة النافذة والنظرة المفتحة ، يرى بكل وضوح وجلاء الفرق والتباين الواضح بين هاتين الطائفتين من القضايا ، وإن لم تقع ، ولكن حدوثها جائز ويمكن ذاتياً ، بينما القضايا والظواهر التي تقع في نطاق الطائفة الثانية ، فهي ليست معدومة ، بل مستحيل حدوثها ووجودها بشكل مطلق قطعي يقيني .

هذا الحكم الجازم اليقيني الصادق باستحالة حدوث مثل تلك القضايا والظواهر ، لا يمكن تفسيره وتحليله الا على أساس وركيزة أطروحة أو نظرية المذهب العقلي ، المستندة على ركيزة وجود معارف بديهية أولية مستقلة عن التجربة لا تستلزم براهين وأدلة في صحتها ومصداقيتها .

اذن موقف التجريبيين ، إما الاعتراف باستحالة حدوث ظواهر وأشياء معينة - كما وردت الأمثلة من الطائفة الثانية - وإما إنكار مفهوم الاستحالة من القضايا والأشياء جميعاً .

فاذا كان الموقف الأول ايجابياً ، أي هناك إقرار باستحالة حدوث ظواهر وأشياء معينة ، فانهم في هذه الحالة يؤمنوا بأفكار ومعارف عقلية قبلية مستقلة عن التجربة ، لأن عدم ظهور شيء من التجربة لا يعني استحالة .

أما إذا أنكروا مفهوم الاستحالة بالنسبة للقضايا والظواهر التي تقع في نطاق ضد العقل وليس فوق العقل ، فإن إمكانية التمييز بين الطائفة الأولى من الأفكار (فوق مستوى العقل) والطائفة الثانية (ضد العقل) مستحيل وغير ممكن ، وبالتالي يسقط مبدأ عدم الاستحالة ، مما يعني ذلك ، الأقرار

بمبدأ تناقض الأشياء . أي وجود الشيء وعدمه ، أو صدق القضية وكذبها في لحظة زمانية ومكانية واحدة . يعني ذلك الحكم على جميع المعارف والحقائق والادراكات المنبثقة عن التجارب والاختبارات تارة بصدقها ، وتارة أخرى باحتمال كذبها في آن واحد ، وهذا بحد ذاته يعني الشك والريب في النتائج المستخلصة من التجارب والمشاهدات الحسية ، مما يوجد حالة تتسم بالبعد عن الجزم أو الصدق واليقين بأية حقيقة أو نتيجة علمية مستدلة أو مستنبطة من ميدان التجربة والاختبار .

وصدق هذه المقولة الأخيرة يؤدي إلى إهتزاز وخلخلة الأركان والركائز الرئيسية التي تقف وتشيد عليها المعارف العلمية التجريبية ، وبالتالي زعزعة الثقة والاطمئنان بقيمة المعارف كلها ومن بينها المعارف العلمية ، ومن السهام الحادة التي سددها (كانت) إلى مذهب (دافيد هيوم) التجريبي ، هو أن الارتياحية هي ثمرة التجريبية .

خامساً : المتأمل حق التأمل ، لتلك الأسس والركائز التي تشيد عليها نظرية المعرفة في المذهب التجريبي ، يرى أن التجريبيين عاجزون عن اثبات مبدأ العلية ، كفكرة تصديقية يقينية ، تماماً كما عجز المذهب الحسي عن تبيان وتحليل ماهية العلية كفكرة قصورية .

والواضح أن مظاهر التعاقب المتتالي بين ظواهر معينة ، لا يمكن تبيانها وتعليلها من خلال التجربة . فمثلاً ظاهرة تبخر الماء وغليانه عند درجة حرارة معينة ، وضغط معين ، أو تجميده عند درجة حرارة محددة ، هي من صميم توضيح وتبيان التجربة والمشاهدة ، أما سببها إحدى الظاهرتين للأخرى ، والضرورة القائمة بينهما ، فهي بعيدة كل البعد عن مجال وميدان التجربة ، حيث لا تستطيع التجربة إستكشافها وإستبيانها ، مهما تكررت التجربة ، ومهما كانت أدواتها وأجهزتها المستخدمة تتسم بغاية الدقة والتقدم .

وكما ذكرنا في السابق ، إن أنهار مبدأ العلية أو السببية في الفلسفة والعلم ، يعني إنبهار وهدم جميع الركائز والقواعد الأساسية للعلوم الطبيعية . حيث أن جميع الحقائق والمعارف والنظريات في العلوم الطبيعية التجريبية ترتكز على أسس وقواعد عقلية محضة ، تتمثل بالمعارف والحقائق العقلية الأولية البديهية والسابقة عن أية تجربة عملية ، والتي يقرها ويؤمن بها العقل بصورة تلقائية ذاتية ، دون حاجة إلى قرائن أو أدلة وبراهين معينة .

وتتمثل هذه المعارف البديهية الأولية بالمبادئ التالية :

- أ - مبدأ العلية The Causal Principle : بمعنى امتناع الصدفة .
- ب - مبدأ الإنسجام The harmony Principle بين العلة والمعلول أو السبب والمسبب ، وهذا يعني أن الظواهر والقضايا المتماثلة في الحقيقة لا بد أن تكون مستندة ومرتكزة على علة مشتركة A Common Cause .
- ج - مبدأ عدم التناقض Non - Controduction Principle يعني الحكم باستحالة صدق وكذب أو نفي وإثبات قضية ما في آن واحد .

سادساً : التجربة لا تشمل جميع مكونات وجزئيات الأشياء موضع البحث والدراسة ، بل تؤخذ عينة محدودة فقط ، لذلك لا نستطيع الاستنتاج أو الاستدلال بحكم كلي من التجربة الجزئية ، من حيث تشمل النتيجة جميع جزئيات المادة ، بمعزل عن حكم منطق العقل . وبناء على ذلك ، لا يمكن الاعتماد والتعويل على التجربة في حكم التعميم . يقول أنيشين : إن بناء أية نظرية أو مذهب ، إنما هو عمل العقل . أما التجربة فإنها تؤكد وتبرر النظرية العقلية .

موقف الاسلام من الأحاسيس والتجربة كمصدر للمعرفة

المتبع والمستنطق للآيات القرآنية المجيدة والأحاديث النبوية الشريفة والى آراء وأفكار فلاسفة المسلمين ، يرى بكل وضوح وجلاء ، إن المذهب

الفلسفي في الاسلام أعطى عناية خاصة ، وتركيزاً كبيراً مميزاً للحواس ، واعتبرها مصدراً ومنبعاً يمول المعرفة البشرية لنوع ودرجة معينة من المعارف والحقائق وإن كان يعتبره من أدنى مراتب المصادر التي تشتق منها المعرفة .

فالمتبع للآيات القرآنية الشريفة ، يلاحظ مدى العناية الفائقة والتركيز الكبير الذي أعطى القرآن لموضوع البحث والنظر أو الاستطلاع والتفكير والتدبر في مسائل وقضايا الطبيعة بغية إستكشاف وإستنتاج السنن والقوانين والنظريات العلمية الكونية المرتبطة بحركة الكون أو التغيرات والتفاعلات التي تحدث بين أجزائه من جهة ، ومدى الأثر السلبي والايجابي الذي تتركه هذه التفاعلات على حياة الانسان أي - علاقة الانسان بالطبيعة - وذلك بغية التعامل مع الطبيعة بطريقة تمكننا من الاستفادة منها وإخضاعها لسيطرة الانسان من جهة والتجنب من الآثار أو الدمار والأضرار الناتجة من قصور الانسان في فهمه وسيطرته على الطبيعة من جهة أخرى .

فالقرآن المجيد يخاطب الانسان في مواضع ومناسبات عديدة ، ويحثه بشتى الأساليب الترغيبية والترهيبية في البحث والاستطلاع والنظر الى مجمل مجالات الطبيعة باستخدام جميع حواسه من اللمس ، والنظر ، والشم ، والتذوق ، والسمع . . . الخ فيقول تعالى في محكم كتابه المقدس : ﴿ .. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (١) .

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ (٢) .
﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت *
وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (٣) .

(١) سورة النحل الآية ٧٨ .

(٢) سورة الاسراء الآية (١٧) .

(٣) سورة الغاشية الآية (١٧ - ٢٠) .

﴿ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ (١) .
 ﴿ وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً .. ﴾ (٢) .
 ﴿ فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾ (٣) .
 ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ (٤) .
 ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم
 يؤمنون ﴾ (٥) .

هذه بعض الآيات القرآنية الشريفة التي تخاطب وتحث المسلمين
 والبشرية بضرورة شكر نعمة الله واستخدام هذه النعم والآلاء الربانية في
 مواضعها المناسبة ، فتدعو الى استخدام الأحاسيس أي الحواس قاطبة من
 السمع والبصر والذوق والشم في النظر والبحث والتدبر ، وذلك تأكيداً على
 إنها أداة ومصدر للمعرفة الانسانية .

ويطلق الفلاسفة والمفسرون على الآيات المتعلقة بالطبيعة بمصطلح
 الآيات الآفاقية ، استناداً على الآية الشريفة لتالية : ﴿ سنريهم آياتنا في
 الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ﴾ (٦) .

هذا هو المنهج التجريبي المستند على الحواس والعقل الذي رسمه الله
 تعالى للبشرية ، وفسره على لسان رسله واثمته (ع) ، وتداوله العلماء
 والمفسرون والفلاسفة الاسلاميون في الشرح والتفصيل والتأطير والتنظير ،
 هذا هو المنهاج الذي يطلبه منا الاسلام أن ننتهجه لكسب العلم والمعرفة .
 فيلفت العقول الى التعمق واستخدام أجهزة الحواس في النظر العميق

(١) سورة ق الآية (٦) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٩) .

(٣) سورة الروم الآية (٥٠) .

(٤) سورة يونس الآية (١٠١) .

(٥) سورة الانعام الآية (٩٩) .

(٦) سورة فصلت الآية (٥٣) .

والتدبر في الكائنات من أرضي وسماوي ، نباتي ومعدني ، حيواني وإنساني .
ثم يبسط الأمر في الحقائق الانسانية الى الأحوال الروحية والجسمية ،
والفردية والاجتماعية والحاضرة والتاريخية ، وغير ذلك من السنن والنواميس
أو الأحكام والضوابط في التاريخ والاجتماع والتربية والاقتصاد ، فيدعو إلى
النظر والبحث في كل ذلك نظراً لكونها أعيان خارجية ، وحقائق موضوعية
ملموسة ، ومظاهر ساكنة ناطقة .

والمتتبع للسنة النبوية الشريفة ، وأبواب المناظرات الفكرية والفلسفية
التي دارت بين الأنبياء والأئمة (ع) من جهة ، وأصحاب المدارس والمذاهب
والأديان المختلفة ، من جهة أخرى ، يستشف بكل وضوح وجلاء دور
وأهمية المنهج الحسي التجريبي في عملية التفكير للحصول على حقائق وأفكار
ومعارف عقلية موضوعية يقينية . سنقتصر هنا فقط بذكر بعض الأحاديث
النبوية الشريفة ، وبعض الخطب العظيمة في نهج البلاغة المتعلقة بموضوع
إستخدام المنهج الحسي التجريبي في الحصول على معارف إنسانية :

قال الامام علي (ع) : « العقل عقلان ، عقل الطبع ، وعقل التجربة
وكلاهما يؤدي الى المنفعة »^(١) .

قال (ع) : « لولا التجارب عميت المذاهب »^(٢) .

وقال (ع) : « وفي التجارب علم مستأنف »^(٣)

وقال (ع) : « من فقد حساً فقد علماً ما » .

الامام علي (ع) : في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان : ولو
فكروا في عظيم القدرة ، وجسيم النعمة ، لرجعوا الى الطريق ، وخافوا
عذاب الحريق . ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة . ألا ينظرون الى

(١) البحار ٦/٧٨ ، من « مطالب السؤل » .

(٢) الارشاد / ١٤٣ .

(٣) الكافي ٢٢/٨ .

صغير ما خلق ، كيف أحكم خلقه.، واتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر .

أنظروا الى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها وصبت على رزقها ، تنقل الحبة الى جحرها ، وتعددها في مستقرها ، تجمع في حرها لبردها ، وفي ردها لصدرها ، مكفولة برزقها ، مرزوقة بوقفها ، لا يغفلها المنان ، ولا يجرمها الديان ، ولو في الصفاً اليابس ، والحجر الجامس ، ولو فكرت في مجاري اكلها ، وفي علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ، فتعالى الذي أقامها على قوائمها ، وبنائها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر . ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة الا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة ، لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حي ، وما الجليل واللطيف ، والثقيل والخفيف والقوي والضعيف ، في خلقه الا سواء^(١) .

ويقول الامام علي (ع) في خلقه السماء والكون: . . . وكذلك السماء والهواء ، والرياح والماء ، فانظر الى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار وتفجر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرق هذه اللغات ، والألسن المختلفات ، فالويل لمن أنكر المقدر، وجحد المدبر . زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع ، ولا لاختلاف صورهم صانع . ولم يلجؤوا الى حجة فيما ادعوا ، ولا تحقيق لما ادعوا ، وهل يكون بناء من غير بان ، أو جنانية من غير جان^(٢) .

(١) نهج البلاغة / ٧٣٦ ، لح / ٢٧٠ .

(٢) نهج البلاغة / ٧٣٧ ، لح / ٢٧١ .

أما ما ذكر بالنسبة للفلاسفة المسلمين ، فإن البحث سيطول اذا عرضنا آراء وأفكار جميع الفلاسفة الاسلاميين ، ولذلك سنقتصر على ذكر بعض آراء وأفكار بعض فلاسفة المسلمين وذلك بشكل مختصر وموجز .

يرى الفيلسوف والمفكر الاسلامي الشهيد ، أن الحس أو الإدراك الحسي أحد مصدرين رئيسيين للمعرفة ، « وهو مشترك بين الانسان والحيوان ولا مؤونة فيه ولا صعوبة ، وهو يدرك المحسوسات المادية الجزئية دائمة التغير التي لها صورة في المخيلة ، والتي هي أقرب الى الانسان منها الى حقائق الأشياء والمعرفة الناشئة عن الإدراك الحسي غير ثابتة ، نظراً لعدم ثبات موضوعها من حيث الكم ومن حيث الكيف . . . فالجزئيات المادية المتغير منهجها ، مستند الى الحس والمخيلة ، ولا يصح فيما يتعلق بها أو بالأشياء الطبيعية بوجه عام أن تستعمل « الفحص التعليمي » أعني المنهج الرياضي الاستنباطي »^(١) . . أما المصدر الرئيسي الثاني عند الفيلسوف الكندي هو العقل .

أما الفيلسوف الاسلامي الفارابي فهو يؤكد ويركز على أهمية ودور الحواس في اكتساب المعارف فيقول : « . . . وإدراك الحواس إنما يكون للجزئيات ، وعن الجزئيات تحصل الكلّيات ، والكلّيات هي التجارب على الحقيقة . . . ، وأهم هذه التجارب أوائل المعارف ومبادئ اليرهان . وليس العقل شيئاً غير التجارب وكلما كانت هذه التجارب أكثر كانت النفس أتم عقلاً » . . . وإن المعرفة الانسانية تحصل عندما تدخل قوى عقلية ونفسية متعددة على المحسوسات والمعلومات الحسية ، ويلخص ذلك في بعض رسائله بالنص التالي : « وقد يظن أن العقل تحصل فيه صورة أشياء عند مباشرة الحس للمحسوسات بلا توسط ، وليس الأمر كذلك ، بل

(١) رسائل الكندي الفلسفية ، تقديم وتحقيق وإخراج . محمود عبد الهادي ابوريدة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٠ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

بينها وسائط ، وهو أن الحس يباشر المحسوسات فتحصل صورها فيه ،
ويؤديها الى الحس المشترك ، حتى تحصل فيه ، فيؤدي الحس المشترك تلك
(الصور) الى التخيل والتخيل الى قوة التمييز ليعمل التمييز فيها تهذيباً
وتنقيحاً ويؤديها منفتحة الى العقل .

وهكذا فالمعرفة إنما تكون بأن تقع الحواس على المحسوسات فتنتزع
صورها ثم تتعاقب عليها قوى النفس المختلفة واحدة بعد أخرى لتقوم
بتنقيتها من الشوائب وتصفيتها من علائقها الحسية وعوارضها المشخصة حتى
تبلغ بها مرتبة التجريد الخالص^(١) .

ويذكر عن محي الدين ابن العربي في الجزء الأول من كتاب الفتوحات
المكية بهذا الصدد « إن الانسان إنما يدرك المعارف كلها بإحدى القوى
الخمس الحسية ، وهي : الشم ، والطعم ، واللمس ، والسمع ،
والبصر أما القوى الخيالية فانها لا تضبط الا ما أعطاه الحس ، إما
على صورة ما أعطاها، وإما على ما أعطاه الفكر من حملة بعض المحسوسات
على بعض »^(٢) .

والمتبع لأفكار وآراء فلاسفة المسلمين يلاحظ أن الغالبية العظمى بل
أن لم يكن جميعهم تقريباً يعتقدون ويجزمون بأن الحس أحد مصادر أو منابع
المعرفة البشرية ، ويعتبرونه إن المدركات الحسية مواد أولية وعناصر ممهدة
لعمليات عقلية تصديقية أعلى .

والتأمل حق التأمل ، يستشف بكل وضوح وجلاء ، أن فلاسفة

(١) كما نقله محمد عبد الرحمن مرجب، من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية - منشورات
عويدات ، بيروت ، لبنان ١٩٧٠ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) كما نقله : محمد غلاب ، المعرفة عند مفكري المسلمين ، القاهرة : الدار المصرية للتأليف
والترجمة ، ١٩٦٦ ص ٣٤٨ .

ومفكري الاسلام لم يبالغوا في قيمة ودور الحس كمصدر ومنبع يمون العقل في استدلال واستنتاج المعارف البشرية ، بل أعطوا هذا المصدر حجمه الطبيعي ودوره الواقعي الموضوعي في نظرية المعرفة . إضافة الى ذلك بحثوا جميع أبعاد هذا المصدر وبينوا مزايا وسلبيات أو حدود وإطار هذا المصدر .

فعلى سبيل المثال يذكر أبو حامد الغزالي جوانب عجز الحس ويبين أخطائه وتناقضاته ، فيقول في كتابه معيار العلم :

« والنفس في أول الفطرة ، أشد إذعانا وانقيادا للقبول من الحكم والحس والوهم ، لأنها سبقا في أول الفطرة الى النفس ، وفاتحاهما بالاحتكام عليها ، فألفت إحتكامهما ، وأنست بهما ، قبل أن أدركها الحاكم العقلي ، فاشتد عليها العظام عن مألوفها ، والانقياد لما هو كالغريب من مناسبة جبلتها ، فلا تزال تخالف حاكم العقل وتكذبه ، وتوافق حاكم الحس والوهم وتصدقهما الى أن تضبط بالحيلة التي سنشرحها . . . »^(١) .

وإن أردت أن تعرف مصداق ما نقوله بخصوص هذين الحاكمين واختلافهما ، فانظر الى حاكم الحس ، كيف اذا نظرت الى الشمس ، عليها بأنها في عرض مجر .

وفي الكواكب بأنها كالمدنانير المنثورة على بساط أزرق ، وفي الظل الواقع على الأرض للأشخاص بأنه واقف ، بل على شكل الصبي في مبدأ نشأته بأنه واقف^(٢) .

وإنما لبطء الحس من هذا الجنس تكثر ، فلا نطمع في استقصائها واقتنع بهذه النبذة اليسيرة من أنبائه لنطلع بها على اغوائه^(٣) .

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، معيار العلم « تحقيق د. سليمان بنا » القاهرة - دار المعارف المصرية ١٩٦١ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر السابق .

وموقف الفلسفة الاسلامية من الحس والتجربة يغير موقف التجريبيين والحسين والعقلين ، من حيث أنه في المنظور الفلسفي في نظرية المعرفة عند المسلمين لا يعتبر الحس أو التجربة مقياساً ومصدراً رئيسياً وحيداً ، بل يعتبر أحد المصادر التي تُستقى منها نوع معين من المعارف الانسانية ، ولا يعمل الاسلام التجربة والحس كما يفعله العقليون من المذاهب الفلسفية الوضعية .

ونعتقد أن من الأسباب الرئيسية التي لا ترى المدرسة العقلية التجربة والحس ، مصدر أو منبع المعرفة البشرية ، هي تلك الأخطاء والأغلاط الكبيرة التي تقع فيها أجهزة الحواس عند الانسان . ولقد استعرضنا بأسهاب مقولة وقوع الأخطاء في الحواس الانسانية عندما تطرقنا الى موضع المذهب الشكي في المعرفة .

خلاصة القول ، ان المنهج الاسلامي في نظرية المعرفة لا ينكر حقيقة وأهمية دور التجربة والملاحظة العلمية في بناء واكتساب معارف معينة ، بل إستناداً الى الآيات القرآنية المجيدة والأحاديث النبوية الشريفة ، وتفسير فلاسفة الاسلام نرى بوضوح تام موقع ودور المنهج التجريبي في نظرية المعرفة . لكن هناك ثمة حقائق وأمور يجب تبيانها واستيعابها من قبل المفكرين الاسلاميين ، يمكن تلخيصها على النحو التالي :

أولاً : المنهج الاسلامي في نظرية المعرفة لا يحد أو يقرب جميع مجالات المعرفة الانسانية في قالب التجربة ، وأن هذا المنهج صحيح ومفيد في إطار ونطاق حدوده المتمثلة في التجربة ، ولكن كما ذكرنا هناك أقسام وأنواع أخرى من معارف أو إدراكات وحقائق خارج نطاق وإطار التجربة ، وإنها تتواجد أساساً وبشكل محض - ضمن نطاق التحليل والتركيب والتفسير كما ذكرنا في السابق . فعلى سبيل المثال ، المعارف والحقائق في العلوم الرياضية والعلوم الفلسفية تقع خارج نطاق وحدود التجربة ، وتتواجد في

قالب أو إطار عملية التركيب والتحليل والتفسير ، والمتأمل حق التأمل ، يلاحظ بكل وضوح وجلاء إن أغلب إدراكاتنا ومعارفنا تقع خارج نطاق التجربة والملاحظة .

ثانياً : مهما كانت النتائج المستخلصة من التجربة تتسم بالدقة والموضوعية ، فإننا لا نصل الى نتيجة حتمية مطلقة لاستنتاجاتنا ، نظراً لكون اليقين والجزم مهما بلغا الى درجة رفيعة من الدقة والمصداقية فانهما لا يصلان - عادة - إلى مئة بالمئة .

ثالثاً : وبافتراض أن النتائج المستخلصة من التجربة قد حققت اليقين والحتمية ، فإننا ما زلنا أمام مشكلة فلسفية أخرى ، وهي أن هذه الاستنتاجات اليقينية ليست بالضرورة شاملة ، أي أنها في بعض الأحيان لها شمولية في النطاق الخاص بها .

فإذا قمنا بتكرار تجربة معينة عدة مرات في مكان ما لنفترض على سطح الأرض ، فإن النتائج والحقائق اليقينية الصادقة المنبثقة عنها لا تتجاوز ظروف سطح الأرض ، وليس لدينا أي دليل فلسفي علمي ، يؤكد لنا صحة وتشابه نتيجة هذه التجربة في الفضاء أو على سطح القمر مثلاً . وبتعبير آخر ، حتى لو حصلنا على معارف ونتائج حقيقية يقينية مئة بالمئة ، وإن كانت تتسم بالشمولية والعمومية والحتمية ، فإنها تنحصر في نطاق الكره الأرضية ، حيث هناك احتمال استنتاج معارف وحقائق متباينة ومغايرة إذا ما قمنا بنفس التجربة في مكان آخر (سطح القمر مثلاً) . ونطلق على هذا الامر اسم (النسبية) Relative .

المتبع والمستوعب لمصادر المعرفة في نظرية المعرفة في الاسلام ، يستشف بوضوح ، أن للمنهج التجريبي الذي يعتبر أحد منابع ومصادر المعرفة في الاسلام ، قواعد أصول خاصة به ، يمكن تلخيصها على النحو التالي^(١) .

(١) الشهيد آية الله الدكتور بهشتي « المعرفة بلغة الفطرة - مجلة التوحيد العدد السادس - السنة الأولى ١٤٠٤ هـ - طهران - ايران ص ٨٨ - ٩٤ .

١ - عالم الطبيعة والمادة هما في حالة حركة مستمرة وفي حالة تغير مستمر .

والمتبع للآيات القرآنية المجيدة والأحاديث النبوية الشريفة يلاحظ بكل وضوح وجللاء ، مدى تأكيد ومصداقية تلك المقولة في الدين الاسلامي . والقرآن يؤكد ويركز على هذا الجانب من جهة ، وفلاسفة الاسلام الذين بحثوا في هذا المجال يؤكدون لنا هذه الحقيقة منذ النشأة الأولى التي تكونت فيها الأجرام والسماوات والأرضين، ومنذ بداية جوهرية مستمرة . ومقولة حركة وتغير عالم الطبيعة بشكل دائم ومستمر ، تولد منها أشياء مختلفة ، هي أمر طبيعي وفلسفي تم اثباته بمنهجية علمية موضوعية وفلسفية في كتب علماء المسلمين . وملا صدرا الشيرازي (صدر المتألهين) له بحث فلسفي مستفيض في الجزء الثالث من كتابه الأسفار يمكن الرجوع اليه للاستفادة والاستفاضة من هذا الموضوع^(١) .

٢ - وجود قوانين ثابتة تسود هذا التطور والتغير :

القوانين والأحكام أو السنن والضوابط التي تتحكم وتسير هذا العالم المتطور المتحرك والمتغير هي قوانين وسنن ثابتة لا تتغير ، نظراً لكونها مرتبطة بجوهر الأشياء والحياة . يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾^(٢) و ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾^(٣) .

وقول النبي ابراهيم (ع) : « أن الله يأتي بالشمس من المشرق الى المغرب » بعدها يخاطب المشركين ، ويطلب منهم أن يأتوا بالشمس من

(١) صدر الدين محمد الشيرازي « الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة » شركة دار

المعارف الاسلامية ١٣٨٣ هـ .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٦٢) .

(٣) سورة الفتح الآية (٢٣) .

المغرب اذا كانوا صادقين في ادعاءاتهم ، خير دليل على وجود قانون ثابت يتجسد في إرادة الله ، وإن النبي ابراهيم (ع) يستند اليه في معرفته لله .

وإن هناك بعض القوانين والأحكام التي تتغير مع الزمن والمكان وهي متعلقة بالاطار والشكل العام للحياة والكون ، وليس بالأصل والجوهر .

٣ - وحدة النظام الكوني :

النظرة الفلسفية في الاسلام تؤكد وجود نظام موحد منسق متكامل وداتي متأصل يحكم الكون ، وما يقوله القرآن الكريم على لسان الملائكة : ﴿ وما منا الا له مقام معلوم ﴾ صادق في حق كل الموجودات ، وكل شيء له مكان خاص ، وفرض كونه في غير مكانه يساوي تخلية عن ذاته وهو غير ممكن . فمثلاً فمن الممكن أن نؤخر أو نقدم في طابور من الحافلات ، أما طابور الاعداد فلا يمكن فيه ذلك فرتبه العدد (٥) تأتي بعد العدد (٤) ولا يمكن أن تأتي قبل ذلك ، وليس هناك رتبة لعدد قبل العدد (٤) سوى رتبة العدد (٣) وحتى لو أطلقنا عليها اسم الخمسة فاننا نكون قد غيرنا الاسم ويستحيل علينا تغيير الواقع والحقيقة^(١) .

(١) العلامة السيد محمد حسين الططباتي « تعليق الشهيد مرتضى المطهري » أصول الفلسفة وطريقة معرفة الحقيقة - المقالة الثامنة والتاسعة الجزء الثاني .

الفصل السادس

العقل : Reason, intelligence, intellect

يعتبر العقل مصدراً رئيسياً وهاماً من بين المصادر والمنابع التي تزودنا بمعارف وحقائق إنسانية عن الكون والانسان والاله عز وجل والعلاقات الارتباطية بينها .

ويطلق على المذهب الذي يستند على العقل كمصدر أساسي ورئيسي في تشييد وبناء نظريته في المعرفة، بالمذهب العقلي Rationalism or intellectualism وينطوي تحت لواء هذا المذهب العديد من المذاهب العقلية المتفرقة التي تتفق في الأصول الرئيسية بشكل عام وتباين في الفروع والتفصيلات الى مستويات متعددة .

وللعقل معانٍ عديدة يمكن ذكرها على النحو التالي :

العقل في اللغة :

العقل في اللغة هو الحجر والنهي ، وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة ، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل ، كما يمنع العقال الناقة من الشرود .

ويطلق الجمهور العقل على ثلاثة أوجه^(١) :

(١) معيار العلم الغزالي ، ص ١٦٢ .

الأول : يرجع إلى وقار الانسان وهيئته ويكون حده انه هيئة محموده للانسان في كلامه واختياره وحركاته وسكناته .

والثاني : يراد به ما يكتسبه الانسان بالتجارب من الأحكام الكلية ، فيكون حده أنه معان مجتمعة في الذهن تكون مقدمات تستنبط بها الأغراض والمصالح .

والثالث : يراد به صحة الفطرة الأولى في الانسان ، فيكون حده إنه قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها ، وكما لها ونقصانها .
أما الفلاسفة فانهم يطلقون العقل على المعاني التالية :

١ - أول هذه المعاني قولهم : أن العقل « جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها ^(١) ورسومها » وهذا الجوهر « ليس مركباً من قوة قابلة للفساد ^(٢) .
وانما هو « مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله » (تعريفات الجرجاني) وهذا القول بجوهرية العقل موجود في أكثر كتب الفلاسفة ، فالفارابي يقول أن القوة العاقلة « جوهر بسيط مقارن للمادة ، يبقى بعد موت البدن ، وهو جوهر أحدي ، وهو الانسان على الحقيقة ^(٣) .

٢ - وثاني هذه المعاني قولهم أن العقل قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني ، وتأليف القضايا والأقيسة . والفرق بينه وبين الحس أن العقل يستطيع أن يجرد الصورة عن المادة ، وعن لواحق المادة ، أما الحس فإنه لا يستطيع ذلك . فالعقل اذن قوة تجريد ، تنتزع الصور من المادة ، وتدرك المعاني الكلية كالجوهر والعرض ، والعلة والمعلول ، والغاية والوسيلة ، والخير والشر الخ . ولهذا القوة عند فلاسفة الاسلام عدة مراتب : ^(٤)

(١) الكندي - رسالة في حدود الأشياء ورسومها .

(٢) ابن سينا ، الاشارات ، ص ١٧٨ .

(٣) عيون المسائل ٦٤ .

(٤) د. جميل صليبا « المعجم الفلسفي » دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ١٩٧١ ، بيروت ، ص ٨٥ - ٨٨ .

أولاًها : مرتبة العقل الهولاني (Intelligence material) وهو الاستعداد المحض لادراك المعقولات « وإنما نُسبَ إلى الهولاني لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهولاني الأولى الخالية في حد ذاتها من الصور لها ». (تعريفات الجرجاني) والعقل الهولاني مرادف للعقل بالقوة Intellecten Puissance وهو العقل الذي يشبه الصفحة البيضاء التي لم ينقش عليها شيء بالفعل .
وثانيها : مرتبة العقل بالملكة (Intelligence- Habitude) ، وهو العلم بالضروريات ، واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات .

وثالثها : مرتبة العقل بالفعل (Intelligence en acte) ، وهو أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد ، لكنها لا تشاهدها بالفعل (تعريفات الجرجاني) .

ورابعها : مرتبة العقل المستفاد (Intelligence acquise) « وهو أن تكون النظريات حاضرة عند العقل لا تغيب عنه » . وفوق العقل الانساني عندهم عقل مفارق ، هو العقل الفعال (Intelligence active) الذي تفيض عنه الصور على عالم الكون والفساد ، فتكون موجودة فيه من حيث هي فاعلة ، أما في عالم الكون والفساد فهي لا توجد الا من جهة الانفعال ، واذا أصبح العقل الانساني شديد الاتصال بالعقل الفعال كأنه يعرف كل شيء من نفسه سمي العقل القدسي (Intellect saint) وهذا كله يذكرنا بقول (أرسطو) : أن العقل الفاعل (Intellect agent) هو العقل الذي يجرد المعاني أو الصور الكلية من لواحقها الحسية الجزئية ، في حين أن العقل المنفعل (Intellectpassif) هو الذي تنطبع فيه هذه الصور .

٣ - والمعنى الثالث للعقل هو إنه « قوة الاصابة في الحكم » أي تمييز الحق من الباطل ، والخير من الشر ، والحسن من القبيح^(١) . وهذا

(١) ديكارت ، مقالة الطريقة ، القسم الأول ، ص ١ ، ترجمة نفس مؤلف المرجع السابق .

التمييز لا يحصل عن قياس وفكر . بل يحصل مباشرة وبالطبع . ويقول أن القاعدة الأولى لطريقته هي « أن لا يتلقى على الاطلاق شيئاً على إنه حق » ما لم يتبين بدهاة العقل انه كذلك ، فالعقل اذن بهذا المعنى مضاد للهوى ، لأن الهوى يمنع المرء من اصابة الحكم .

٤ - والمعنى الرابع للعقل هو القول : إنه قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية ، وهذه المعرفة مختلفة عن المعرفة الدينية المستندة الى الوحي والايان .

قال ابن خلدون : « إن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً على صنفين : صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عن وضعه . والأول هو العلوم الحكمية والفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركة البشرية الى موضوعاتها ومسائلها ، وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها ، حتى يقف نظره ويبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر . والثاني هو العلوم النقلية الوضعية - وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي . ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق الفروع من مسائلها بالأصول » ومعنى ذلك أن موضوع الدين مشتمل على الحقائق التي أوحى بها الله ، أما موضوع العلم فهو مشتمل على الحقائق التي يستطيع الانسان أن يحصلها بعقله الطبيعي دون معونة خارجية . ولهذا العقل الطبيعي عند ابن خلدون ثلاث درجات : أولاها درجة العقل التمييزي ، وثانيها درجة العقل التجريبي وثالثها درجة العقل النظري .

٥ - والمعنى الخامس للعقل هو القول انه مجموع المبادئ القبلية (apriori) المنظمة للمعرفة كمبدأ عدم التناقض ، ومبدأ السببية ومبدأ الغائية .

(١) ابن خلدون - المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، ص ٧٩٧ .

وتتميز هذه المبادئ بضرورتها وكليتها واستقلالها عن التجربة . قال (لينيز) : ويتميز الانسان عن الحيوان بادراكه للحقائق الضرورية والأبدية ، فهي التي تولد فيه العقل والعلم ، وتسمو به الى معرفة ذاته ، ومعرفة الله (Monadologic 29) وقد انتشر هذا المعنى في الفلسفة الحديثة بتأثير (كانت) حتى أصبح الفلاسفة يقولون : إن ادراك العالم لا يتم بما يحصل للعقل من مدركات تجريبية فحسب ، بل يتم بما لديه من معانٍ فطرية ، فاذا قال الفلاسفة التجريبيون : لا يوجد في العقل شيء لم يكن قبل في التجربة والحس ، صحح الفلاسفة العقليون هذا القول باضافة قيد واحد عليه وهو قولهم : الا العقل نفسه . ومعنى ذلك أن المبادئ والمعاني الأولية التي يكشف عنها الفكر موجودة في العقل قبل إتصاله بالحس ، وإن العقل الغريزي ليس صفحة بيضاء لم تنقش بنقش ، وإنما هو ذورسوم فطرية تنظم معطيات التجربة . وبعض المعاني الكلية كمعنى الكمال واللانهاية ملازمة للعقل لا تفارقه ، وبعضها الآخر كمعنى الزمان والمكان والعلة والوحدة حاصل للعقل بواسطة الفكر . والفرق بين العقل والفكر أن العقل مجموع المبادئ الضرورية والمعاني الكلية التي تنظم المعرفة ، على حين أن الفكر حركة النفس في المعقولات من المطالب الى المبادئ تارة ، ومن المبادئ الى المطالب اخرى . أما الفرق بين العقل والاستدلال فهو أن العقل نور يدرك المبادئ الضرورية بذاته ، إدراكاً حدسياً مباشراً . على حين إن الاستدلال هو النظر في شروط إنطباق هذه المبادئ على موضوعات الفكر لاستخراج النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة .

٦ - والمعنى السادس للعقل هو القول انه الملكة التي يحصل بها للنفس علم مباشر بالحقائق المطلقة . وإذا قلنا بوحدة العقل وموضوعه ، دل العقل حينئذ على المطلق نفسه . فكأن هذا العقل شيء مستقل عنا ، ونحن نتلقاه من الخارج كما نستنشق الهواء المحيط بنا ، وكل واحد منا .

والمذهب العقلي : (Intellectualisme) هو القول : أن كل ما هو موجود فهو

مردود الى مباديء عقلية ، وهو مذهب ديكارت ، واسبينوزا ، وليبنيز ، وفولف ، وهيغل ، ويطلق بوجه خاص على النظرية التي ترجع « الحكم الى الذهن لا الى الارادة ، فلا تفسح المجال للظواهر الوجدانية ولا الارادية في الأعمال الذهنية » . وهو بهذا المعنى مقابل للمذهب الارادي (Volontarisme) الذي يجعل تأثير الارادة في الحياة النفسية أعظم من تأثير العقل .

-
- * انظر الى : د. المعجم الفلسفي .
 - * لمزيد من التفصيل انظر المرجع السابق الذي اعتمدنا عليه بشكل كلي في نقل التعريفات المتعلقة بالعقل ومرادفاته .

المذاهب العقلية في التاريخ :

أولاً : المذاهب القديمة

عندما بدأ مفكرو الأغريق الطبيعيون الأوائل في القرن السادس قبل المسيح (ع) ، التفكير والبحث في اكتشاف واستيعاب ماهية وخصوصية المادة الأولى التي نشأ منها الكون ، كانوا يعتقدون بأن الفلسفة في مبدأ أمرها استمرار للفكرة الدارجة في عمومها . وإنما تصل الانسان بغتة بلا توفير مقدمات الى الشرح الكامل للكون ، ودون طرح استفسارات وتساؤلات تتعلق بمدى امكانية وقدرة العقل البشري في استيعاب وادراك ذلك ، وبتعبير آخر ، إن قيمة المعرفة لم تكن لها وجود فعلي في أذهانهم .

وفي عهد بارمينيدس ، وهيراقليطيس ، بدأت الفكرة تتبلور وتختمر الى أن تباينت طبيعة المحسّات عن طبيعة المعقولات ، وبالتالي وضع حدود وأطر لكل منهما .

وتجدر الاشارة الى أن ، هؤلاء الفلاسفة الأقدمون لم يقصدوا البتة من أن المعرفة العقلية هي ذلك الشعاع أو الاشعاع الفكري المحض ، وذلك بسبب أن التمييز الدقيق والعميق بين المحسوسات والمعقولات لم يبلغ حداً حتى يكشف لنا تلك المبادئ والأصول الأولية ، بل اعتبروا عمل العقل من مدركات الحواس . وهذا بدوره يعني أن الأصل في المعرفة وفقاً لاطروحتهم الفلسفية هو المعرفة الحسية ، وإن المعرفة العقلية نابعة ومشتقة عنها ودون إضافة أو حذف .

وبظهور تلك الأفكار والمبادئ المرتبطة بالعقل ودوره وماهيته على يد افلاطون وأرسطو ، أخذت القضايا والأمور والمسائل العقلية المرتبطة بالمذهب العقلي في الفلسفة تتبلور وتتكشف كثير من جوانبها الغامضة .

وكان الأقدمون من الفلاسفة العقلين يعتقدون بأن العقل أداة ومصدر للمعرفة ، ينطوي على مقومات وامكانيات لها القدرة الكافية في إستنباط واستخراج أو تحصيل الحقيقة المطلقة ، واعتبروه منشأ أرفع وأسمى من المحسّات ، وإنه ملكة منعزلة عن عالم الحس وإن العالم المذكور عاجز عن شرحها وتعليلها كل العجز ، وأنها لا تخضع في مقاييسها للتجربة والملاحظة الحسية .

والتأمل حق التأمل ، يلاحظ بكل وضوح وجلاء أن المذهب العقلي كما طرحه افلاطون وأرسطو أو غيرهم من الفلاسفة ، يتمحور أو يتمركز أساساً حول مركز أو محور رئيسي ، يرتبط بالعقل أساساً كملكة سامية بعيدة كل البعد عن التجربة والاختبار الحسيين ، الأمر الذي يجعلنا دائماً مرتبطين ومتصلين بشكل مباشر بالمطلق ، الذي هو فطري (Innate) لدى عامة الناس .

* ففي المعجم الفلسفي يعرف الفطرة على النحو التالي :

الفطري (Innate) هو المنسوب إلى الفطرة ، وهو مقابل للمكتسب (Acquis) .
والفطرة هي الجبلة التي يكون عليها كل موجود في أول خلقه . قال تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ لا تبديل لخلق الله ﴿ وفي الحديث الشريف : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » . ومعنى ذلك أن المولود يولد على السلامة خلقاً وطبعاً وهيئة ، وليس فيها إيمان ، ولا كفر ، ولا إنكار ، ولا معرفة ، لأنه لو كان مفطوراً على إحدى هذه الحالات لما انتقل عنها أبداً . وقيل إن الفطرة هي الإسلام ، أو البداية التي بدأ الله خلقه عليها ، أو ما أخذه الله على ذرية آدم من الميثاق . ومهما يكن من أمر فإن الفطرة هي الجبلة الأصلية ، أو الطبيعة الأولى التي يكون عليها المولود في وقت ولادته . قال ابن سينا : « ومعنى الفطرة أن يتوهم الإنسان نفسه حصل في الدنيا دفعه ، وهو بالغ العقل ، لكنه لم يسمع رأياً ، ولم يعتقد مذهباً ، ولم يعاشر أمه ، ولم يعرف سياسة ، لكنه شاهد المحسوسات ، وأخذ

والحقيقة وفقاً للأطروحة العقلية في نظرية المعرفة تتمثل في الجواهر الثابتة الصالحة التي لا يدركها الا العقل وحده وأن هذه المعرفة اليقينية الصادقة والحقيقية يمكن أن تحدّ بأنها هي المطابقة بين العقل العارف والموضوع المعروف ، وهي حقيقة يقينية تصديقية صحيحة لا تحمل في طياتها أو ثناياها أية تشويه أو زيف للحقيقة التي تناوّلها .

ثانياً : المذهب العقلي التقليدي

يستخلص من منطق أرسطو ولينيز أن في العقل المبدئين الرئيسيين التاليين :

- ١ - مبدأ الذاتية : الذي يتطلب أن حد البرهان متى وضع يجب أن يبقى « هو هو » طول عملية التفكير .
- ٢ - مبدأ لينيز « السبب الكافي » يتضمن هذا المبدأ أن لكل شيء في الطبيعة قابل للشرح ، وأنه لا يوجد شيء يتعذر على الفكر التغلغل فيه . وينقسم هذا المبدأ الى قسمين رئيسيين هما :

أ - مبدأ العلية .

ب - مبدأ الغائية .

منها الخيالات ، ثم يعرض على ذهنه شيئاً ويشكك فيه ، فان امكنه الشك ، فالفطرة لا تشهد به ، وان لم يمكنه الشك فهو ما توجهه الفطرة . وليس كل ما توجهه فطرة الانسان بصادق ، بل كثير منها كاذب ، انما الصادق فطرة القوة التي تسمى عقلاً « (النجاة ص ٩٦ - ٩٧) ، وقال ايضاً : « والفطرة الانسانية ، في الأكثر غير كافية في التمييز » بين أصناف التصديقات فهي اذن قد تكون سليمة ، وقد تكون غير سليمة ، فاذا كانت سليمة سميت عقلاً .

وقال ايضاً : « فيقال عقل لمحة الفطرة الأولى في الانسان » (رسالة الحدود) فالفطرة السليمة اذن هي العقل ، وهي عند (ديكارت) استعداد لاصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل .

والفطرية (Inneité) هي الصفة التي تميز الفطري عن غيره . والفطريات قسم من ال

المقدمات اليقينية الضرورية ، وهي قريبة من الأوليات .

ولشرح أية ظاهرة من ظواهر الحياة والكون ، لا بد من إنتهاج منهجين أو طريقتين هما : العلية والغائية .

وتضاف الى هذه المبادئ بعض الأفكار والأدراكات التالية : المطلق ، الضروري ، اللامشروط ، اللامتناهي ، الكامل ، الجوهر ، العلة ، الغاية ، ومفاهيم الزمان والمكان ، وغيرها من القضايا التي تندرج تحت مقولات الوجود عند أرسطو .

وتجدر الاشارة هنا الى ، أن المذهب العقلي التقليدي بدأ في اغريقا مع سقراط الذي كان يستهدف الى تحديد وتعريف مفاهيم كل شيء . وكانت هذه المفاهيم عنده تعبر عن الجوهر « اللامتغير » بين الأعراض المتغيرة في الأشياء . وكانت هذه الجواهر الثابتة تمثل الاساس . والقاعدة التي ابني عليها سقراط العلم ، هي بنفسها أصبحت تمثل « المثل » عند أفلاطون ، أي النماذج العقلية لكل موجود ، وهي توجد في عالم منفصل عن المحسوسات والعقل يصل الى معرفة المثل بواسطة عملية التذكر أي « الحدس الفوري المباشر » الذي يشبه تذكراً يستيقظ في نفوسنا .

ويطلق على هذه العملية بنظرية الاستذكار الافلاطونية . وهي النظرية القائلة بأن الادراك عملية استذكار للمعارف والمعلومات السابقة المخترنة والمخبوءة في النفس الانسانية ، التي كانت موجودة بصورة مستقلة عن البدن قبل وجوده ، ونظراً لكون وجود النفس بشكل مجرد عن المادة ومتحرر عن قيودها وحدودها بشكل كامل ومطلق ، فان الفرصة كانت مؤاتية لها لاستيعاب والاتصال بالمثل - أي بالحقائق المجردة عن المادة ، وحين اضطرت الى الهبوط من عالمها المجرد للاتصال بالبدن والارتباط به في دنيا المادة ، فقدت كثيراً من المعلومات والحقائق الثابتة التي تعلمتها واستوعبتها في عالمها المجرد ، وذهلت عنها ذهولاً تاماً ، ولكنها تبدأ باسترجاع معلوماتها وادراكاتها عن طريق الاحساس بالمعاني الخاصة والأشياء الجزئية ، نظراً لكون تلك

المعاني الخاصة والأشياء الجزئية انعكاسات وظلال لتلك الممثل والحقائق الأزلية الخالدة في العالم الذي كانت تعيش النفس فيه .

والمتبع للانتقادات الموجهة لنظرية الاستذكار عند افلاطون ، يستشف بوضوح مدى خطأ هاتين القضيتين . ونحن لسنا بصدد استعراض هذه الانتقادات ولكن يمكن الرجوع إليها في كتب الفلسفة^(١) .

ووفقاً لنظرية افلاطون في الفلسفة لا يكون هناك دور أساسي ورئيسي للدراكات الحسية ، وليس للحس أي تأثير في ظهور المفاهيم والمعارف العقلية ، واقصى ما ينسب لها من فعالية ودور هو من أن لها تأثير في اعداد وتهيئة النفس لتذكر الادراكات العقلية . وبناء على ذلك ، يكون العقل واصالته في المعرفة واضحاً ومستقلاً ومستغنياً عن الحواس في إدراك التصورات الكلية ، وإن كان محتاجاً للحس في عملية تذكر واعداد .

وخلاصة القول ، ترتكز نظرية افلاطون في المعرفة على الركائز والأسس التالية :

- ١ - وجود روح الانسان منفصلة عن البدن قبل تعلقها به ، وذلك في عالم فوق الطبيعة .
- ٢ - ان روح الانسان في ذلك العالم فوق الطبيعة قد عرفت واستوعبت جميع الحقائق المجردة .
- ٣ - دور الحواس ووظيفتها هي التذكر والاعداد للنفس في عملية الادراك والحصول على المعارف والحقائق .
- ٤ - اية ماهية تتحقق في عالمنا المادي لها مجرد في عالم ما وراء الطبيعة ، تتصف بجميع كمالات تلك الماهية ، وإن كل فرد من الأفراد المادية يعتبر في الواقع ظلاً لذلك الفرد المجرّد .

(١) راجع الامام محمد باقر الصدر : فلسفتنا ، دار التعارف للمطبوعات - بيروت لبنان - الطبعة العاشرة ١٩٨٠ ، ص ٦٠ - ٦١ .

وبناء على هذه الركائز والأسس شيد أفلاطون نظريته في المعرفة والتي تبلورت في أن أدراك الكليات وتصور المفاهيم العقلية ما هو الا عملية تذكريه لتلك الادراكات التي أدركتها واستوعبتها الروح الانسانية قبل تعلقها بالبدن بالنسبة للحقائق المجردة (المثل) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن هذه الركائز والأسس قابلة للنقاش « والرفض » ونحن في واقع الأمر لسنا هنا بصدد استعراض الانتقادات الموجهة الى نظرية المثل عند افلاطون ، ولكن يمكن للقارئ الرجوع الى العديد من كتب الفلسفة التي تناقش هذا الموضوع .

ويتبلور مفاهيم وأفكار المذهب العقلي ، أخذ يتسع وينتشر بين أوساط كثير من الفلاسفة وذلك من عصر الاغريق الى العصور الوسيطة مروراً بالعصر الفلسفي الاسلامي ، فقد حاول فلاسفة الاسلام تهذيبها وتأطيرها باطار إسلامي ، وصولاً الى المفكرين المسيحيين الذين تفرقوا إضراباً وشيعاً متعددة : فاعتنق القديس أوجوستان رأى افلاطون ، وتلمذ القديس توماس الأكويني على أرسطو وأخذ يروج آرائه حتى سادت أوروبا في تلك الحقبة سيادة تامة ، ولا سيما بعد ان منحها عقلية ابن رشد ونبوغه بعداً آخر^(١) .

وإذا تجاوزنا العصور الوسيطة وعصر النهضة الى العصر الحديث ووضعنا الحق في نضابه بازاء مفكريه ، لقلنا بكل موضوعية إن من أسطع المفكرين المحدثين الذين مثلوا المذهب العقلي التقليدي على الاطلاق هو ديكارت ، الذي يعتقد بأن العقل له قدرة وامكانية على ادراك واستيعاب جواهر الأشياء والحقائق المطلقة ، لكون الخالق هو الذي أودع هذه

(١) د . محمد غلاب ، المعرفة عند مفكري الاسلام - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر - ص ٦٥٠ .

الحقائق في نفوسنا ، وبما أن الخالق لا يمكن أن يخدعنا فقد وجب أن تكون وديعته هي النور الطبيعي الذي يكشف لنا الحقيقة .

وتتلخص نظريته في الاعتقاد بوجود منبعين للتصورات احدهما : الاحساس ويتمثل فيما نتحسس ونرى ونتذوق ونسمع كل من الحرارة والنور والطعم والصوت على التوالي . والآخر الفطرة : بمعنى أن الذهن البشري يملك معان وتصورات لم تنبثق عن الحس وإنما هي ثابتة في صميم الفطرة ، فالنفس تستنبط من ذاتها . وتتمثل التصورات الفطرية في نظرية ديكارت العقلية في فكرة (الله والنفس والامتداد والحركة) .

وتأسيساً على ذلك ، يعتبر الحس مصدراً لفهم التصورات والأفكار البسيطة ، ولكنه ليس هو السبب والمصدر الوحيد لها ، بل هناك الفطرة التي تبعث في الذهن طائفة من التصورات .

ولقد اضطرت المذهب العقلي الى تبني فكرة الأفكار الفطرية ، بسبب عدم امكانية تفسير مجموعة من المعاني والتصورات البعيدة عن الحس ، والتي ليس لها ارتباط مباشر به . وبالتالي هناك انتقادات كثيرة موجهة الى هذه المدرسة الفلسفية ، يمكن الرجوع اليها في الكتب الفلسفية^(١) .

ثالثاً : المذهب العقلي والنسبية الكانتيه

الشك عند هيوم له فضل كبير في ايقاظ امانويل كنت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) من سباته الدجماتي ، والقيام بثورة في نظرية المعرفة نظير الثورة التي احدثها كوبرنيكوسي (١٤٧٣ - ١٥٤٣) في علم الفلك كما تقول الفلسفة الغربية . فالمفكرون والفلاسفة الى عهد قريب من كانت كانوا يعتقدون بأن المعرفة التصديقية الحقيقية اليقينية ممكنة ، وكانوا يقرون بأن العقل يتطابق

(١) مدخل الى فلسفة ديكارت - سلسلة المكتبة الفلسفية رقم ٥ - منشورات عويدات .

مع الأشياء مما يحصل منها على معرفة صادقة أمينة لا يحدث فيها - أثناء عملية العرفان - أدنى تشويه . فلما جاء (كانت) طرح اطروحته المشهورة : بأن العقل هو نفسه الذي يفرض قوانينه على الأشياء ، وأنه في الواقع لم تكن لدينا حقاً أية معرفة قبل التجربة ، وبتعبير آخر ، إن التجربة سبابة ومتقدمة على المعرفة من حيث الزمان والمكان ، ولكن العقل البشري في هذه التجربة ذاتها يفرض على الانفعالات الحسية بعض الصور المقدمة منطقياً على التجربة والتي هي عناصر عامة ضرورية للمعرفة . وبالتالي تبعاً لهذه الأطروحة لا يمكن تواجد معرفة حقيقية الا باجتماع العنصرين التاليين وهما ؛ مادة المعرفة الآتية من الأشياء عن طريق اجهزة الحواس ، وصورتها الآتية من العقل . وتتألف هذه الصورة السابقة على التجربة من ثلاثة أنواع : أولها صور الاحساس وهي المكان والزمان ، وثانيهما صور الفهم وهي المفاهيم التي يدعوها كانت « بالمقولات » والتي تستخدم في ربط الظواهر وتوحيدها ، وثالثها أفكار العقل الذي هو ملكة المبادئ التي ، بفضلها يعيد العقل قواعد الفهم الى الوحدة . ولكن الى جانب هذا الاستعمال المنطقي توجد للعقل وظيفة اخرى خاصة به ، وهي التي تسمح له بمتابعة التوحيد الى ما وراء كل تجربة ممكنة وبالصعود نحو المطلق ، وبها يسوّغ فكرة النفس ، وفكرة الكون ، وفكرة الاله التي هي المثل الأعلى للعقل الخالص .

وكل هذه الأفكار حقيقية عندما لا تعبر الا عن الحاجة الذاتية الى وحدة العقل البشري ، ولكنها تكون وهمية عندما تتحول الى حقائق موضوعية ، ويأتي ذلك انها صورة بلا مادة . وقد أعلن كانت إنه لا توجد معرفة موضوعية الا باجتماع المادة والصورة كما أسلفنا . وينجم عن ذلك أن تكون معرفة الميتافيزيقا التقليدية أي الموجود في ذاته ، أو العلة الأولى ، أو العلة الغائية غير ممكنة^(١) .

(١) د . محمد غلاب ، المعرفة عند مفكري المسلمين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر - ص ٦٨ .

ويعتقد كانت وأنصار المذهب النسبي ان الحقائق ممكنة ولكنها نسبية وموضوعية ، بمعنى إنها ليست حقيقة مطلقة وخالصة من الشوائب الذاتية ، بل هي مزيج من الناحية الموضوعية للشيء ، والناحية الذاتية للفكر المدرك ، فلا يمكن أن تُفصل الحقيقة الموضوعية في التفكير عن الناحية الذاتية حيث تبدو عارية من كل اضافة أجنبية .

والمتتبع للمذاهب الفلسفية النسبية ، يلاحظ وجود اتجاهين رئيسيين ، يختلفان في معنى ومغزى النسبية من حيث الحدود التي تؤطر بها العلوم الانسانية احدهما : الاتجاه النسبي في فلسفة « عمانوئيل كانت » . والآخر الاتجاه النسبي الذاتي لمجموعة من الفلاسفة الماديين المحدثين الذي مهد للنسبية التطورية التي نادى بها المادية الديالكتيكية .

وتتلخص نسبية كانت في أن الحكم العقلي عنده قسمان :

أحدهما الحكم التحليلي ، وهو الحكم الذي يستعمله العقل لأجل التوضيح فحسب ، كما في قولنا : الجسم ممتد ، والمثلث ذو اضلاع ثلاثة ، الدور هنا دور تفسيري وتوضيحي فقط .

والآخر الحكم التركيبي : وهو الذي يزيد محموله شيئاً جديداً على الموضوع ، كما في قولنا : الجسم ثقيل و $8 = 4 + 4$. من الاضافة نحصل على معرفة جديدة لم تكن معروفة من قبل . وهذه الأحكام التركيبية بدورها تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما :

١- الأحكام الأولية ، وهي ثابتة لدى العقل قبل التجربة ، كالأحكام الرياضية نظير قولنا : الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين .
٢- الأحكام الثانوية ، وهي أحكام ثابتة في العقل بعد التجربة نظير الحكم بأن ضوء الشمس يسخن الحجر وان كل جسم له وزن .

وتأسيساً على ذلك ، تتلخص نظرية المعرفة عند « عمانوئيل كانت » على أساس التقسيمات الثلاثة التالية للمعرفة :

أ - الرياضيات : الأحكام العقلية فيها كلها أحكام تركيبية أولية سابقة على التجربة ، لأنها تعالج موضوعات فطرية في النفس البشرية . فالهندسة تختص بالمكان والحساب موضوعه العدد .

ب - الطبيعيات : أحكامها تركيبية ثانوية لأنها تركز على دراسة وبحث الظواهر الموضوعية للطبيعة ، وهذه الظواهر تدرك بالتجربة . وبالتالي نلاحظ أن « كانت » في أطروحته يتفق مع « باركلي » في أن الذهن لا يدرك من الطبيعة الا ظواهرها وأن المادة ليست موضوعاً للدراك والتجربة ، ولكنه يختلف عنه من ناحية أخرى . فهو لا يعتبر ذلك دليلاً على عدم وجود المادة ومبرراً لنفيها فلسفياً كما زعم باركلي .

ويريد عمانوئيل كانت بهذا، أن يقول إننا لا نستطيع بالحواس أن نعرف الأشياء كما هي في ذاتها . وليس في هذا انكار لحقيقة موضوعات التجربة ، فهي موجودة ولكننا لا نعرف منها غير الظواهر التي تبدو عليها . وهنا يميز (كنت) بين الظاهرة وبين المظهر . ومذهبه يحول كل معرفة الى ظاهرة ، لا إلى مظهر . والمعيار للموضوعية هو الكلية والضرورة .

ولقد وضع « عمانوئيل كانت » في أطروحته الفلسفية حداً فاصلاً بين (الشيء في ذاته) و(الشيء لذاتنا) . فالشيء في ذاته هو الواقع الخارجي دون أي اضافة من ذاتنا اليه .

وهذا الواقع المجرد عن الاضافة الذاتية لا يقبل المعرفة ، لأن المعرفة ذاتية وعقلية في صورتها . أما الشيء لذاتنا فهو مزيج مركب، من الموضوع التجريبي والصورة الفطرية القبلية التي تتحد معه في الذهن . ولهذا تكون النسبية مفروضة على كل حقيقة تمثل في ادراكاتنا للأشياء الخارجية ، بمعنى أن إدراكنا يدلنا على حقيقة الشيء لذاتنا ، لا على حقيقة الشيء في ذاته (١) .

(١) الامام محمد باقر الصدر : فلسفتنا . دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان - الطبعة العاشرة - السنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م . ص ١٤٤ - ١٥٠ .

ج - المثالية الميتافيزيقية : يقول (كانت) بأن التوصل أو إمكانية الوصول الى معرفة موضوعات الميتافيزيقا عن طريق العقل مستحيل ، ولا يمكن أن توجد فيها معرفة عقلية صحيحة ، لا على أساس الأحكام التركيبية الثانوية . وبناء على ذلك تم إلغاء الميتافيزيقا من اطروحته .

والخلاصة ، أن أطروحة (عمانوئيل كانت) في الفلسفة ، تتميز بعنصرين رئيسيين : أحدهما يأتي من الأشياء وهو « مادة » المعرفة ، والآخر يأتي من العقل وهو سابق على التجربة ، وهذه هي « صورة » المعرفة . وينكر (كنت) النزعة التجريبية التي تنكر كل شكل صوري ، وترى في العقل مجرد قابل وعنده أن العقل هو الذي يفرض قوانينه على الأشياء ، وهذه القوانين هي : (١) .

أ - الشكول القبلية للحساسية ، وهي الزمان والمكان .

ب - والمقولات الاثنا عشر للذهن والتي تتمثل في الأمور التالية :

١ - الكم وتندرج فيه الأمور أو المقولات التالية : الوحدة ، الكثرة ، والشمول .

٢ - الكيف ويشمل : الواقع ، السلب ، والتحديد .

٣ - الاضافة وتنطوي على : الجوهر والعرض ، العلة والمعلول ،

والتبادل .

٤ - الجهة وتحتوي على : الامكان ، الوجود ، والضرورة .

وتبعاً لأطروحته فان المعرفة نسبية ، اذ لا يستطيع الانسان أن يعرف الأشياء في ذاتها noumeenes ، وإنما يعرف فقط الظواهر Phenomenes . أي الأشياء كما تظهر من خلال هذه الشكول . وعلاقتها ، والتي هي قبلية apriori وكلية Universelles وهي شروط أساسية لكل معرفة ممكنة . وبالرغم من كون المعرفة نسبية الا أنه موضوعي وصادق لا من حيث إنه مطابق

(١) د. عبد الرحمن بدوي - مدخل جديد الى الفلسفة - وكالة الكويت للمطبوعات ١٩٧٤م
ص ١٢٣ - ١٢٧ .

للشيء في ذاته - فالشيء في ذاته لا يمكن بلوغه ، بل بمعنى أن العلم يتفق مع القوانين الكلية للذهن . والحقيقة تحد اذن لا بمادتها ، أي بمضمونها ، بل بشكلها أي بطابعها الكلي ؟

رابعاً : المذهب العقلي الحديث

نظراً للاكتشافات العلمية المختلفة التي ادعى بها علماء غربيون نظير التفسير المادي للادراك وباعتبار محتواه عملية مادية يتفاعل فيها الجهاز العصبي المدرك والشيء الموضوعي ، كالهضم الذي تحققه عملية تفاعل خاص بين الجهاز الهاضم والمواد الغذائية ، وإن الاحساس لا يعدو أن يكون رمزاً ، يحدد كلفيته ونوعيته طبيعة الجهاز العصبي . فبناء على هذه المعلومات ظهرت مدارس فكرية فلسفية اصطبغت بالصبغة النسبية على جميع الحقائق التي تبدو للانسان . والحقيقة بمنظور هذه المدرسة ما هي الا ما تقتضيه ظروف الادراك وشرائطه . ونظراً لكون هذه الظروف والشرائط المتعلقة بها تختلف في الأفراد والحالات المتباينة ، تكون الحقيقة حقيقة نسبية بالنسبة لكل مجال وفقاً لشرائطه وظروفه الخاصة ، والحقيقة ليست هناك مطابقة الفكرة للواقع ، حتى تعتبرها مطلقة بالنسبة لجميع الأحوال والأشخاص . وهذا عكس اطروحة المذهب العقلي التقليدي المتمثلة في أن العقل البشري يستطيع ادراك الحقيقة المطلقة . أي انطباق الفكرة للواقع الموضوعي خارج الذهن البشري .

وهناك ثمة مدارس فكرية فلسفية ارتكزت على هذه القاعدة الأصولية في تشيد وبناء فلسفتها منها :

- ١ - السلوكية التي تفسر علم النفس على أساس علم الفسلجة .
- ٢ - مذهب التحليل النفسي عند فرويد .
- ٣ - المادية التاريخية التي تحدد آراء الماركسية في علم التاريخ . وهناك مدارس عديدة أخرى ، تبنى على أساس عوامل ايدولوجية بحثة وأخرى عوامل اجتماعية محضه ولكن أهم هذه المدارس هي ما يلي :

المدرسة السلوكية : Behaviourism

السلوكية : اسم مشتق من السلوك Behaviour ، ويطلق على النظرية التي وضعها « واطسون » الأمريكي ١٩١٢ ، أثر اطلاعه على تجارب « بخترف » ، « وبافلوف » في دراسة الأفعال المنعكسة الشرطية . وهي تفسر سلوك الحيوان والانسان بارجاعه الى ردود فعل ناشئة عن تأثير الأسباب الخارجية . وفي حقيقة الأمر تعتبر السلوكية طريقة علمية ومذهب فلسفي معاً في قاموس الفكر الفلسفي الغربي .

فهي طريقة علمية : على أساس أنها تنتهج منهاج العلوم الطبيعية في تطبيق المنهج التجريبي . وتقتصر موضوعات علم النفس على دراسة السلوك دراسة موضوعية ، باعتباره استجابة فيسيولوجية لمنبهات خارجية ، أو نتيجة تأثير متبادل بين الكائن الحي وبيئته .

ومذهب فلسفي ، ينكر قيمة الاستبطان والشعور والعقل والغيب وبالأحرى جميع القضايا والموضوعات خارج إطار أو نطاق التجربة أو الحس التجريبي . ويرد جميع العمليات الذهنية ، إلى حركات جسمانية معتمدة على المنبهات الشرطية القائمة على تجارب « بافلوف » كسند ودليل لها . في حين يؤمن بالاحتمية والتطور ، ويرجع السلوك الى مجرد التكيف الآلي ، ويجعل الظواهر النفسية ظواهر ثانوية ناشئة عن أسباب مادية .

وبناء على ذلك ، تصبح أية محاولة لوضع نظرية للمعرفة في ضوء السلوكية هذه ، الى تبني موقف سلبي تجاه قيمة المعرفة ، والى عدم الاعتراف بقيمتها الموضوعية ، وبالتالي يصبح كل بحث عن صحة هذه الفكرة العلمية أو هذا المذهب الفلسفي أو ذلك الرأي الاجتماعي عبثاً لا مبرر له ، لأن كل فكرة مهما كان طابعها أو مجالها العلمي أو الفلسفي أو الاجتماعي ، لا تعبر عن شيء سوى حالات خاصة تحدث في أجسام أصحاب الفكرة أنفسهم .

المدرسة التحليلية عند فرويد :

المتبع لنظرية التحليل النفسي عند « سيجموند فرويد » العالم النفساني السويدي المشهور ، يلاحظ أن هناك مساحات كبيرة تلتقي فيها الأفكار والنتائج المستخلصة من الدراسات والأبحاث السلوكية مع النتائج والأفكار المتمخضة عن نظرية التحليل لفرويد بالنسبة لنظرية المعرفة .

وتتلخص نظرية سيجموند فرويد في عدم إنكار العقل والشعور ولكنه يقسمه الى فئتين هما :

أ - الشعور Consciousness

وينطوي على مجموعة من الأفكار والمشاعر والعواطف والرغبات التي نحس بها في نفوسنا .

ب - اللاشعور Un conscious

وينطوي على مجموعة من الأفكار والمشاعر اللاشعورية في العقل ، نظير الشهوات والغرائر المكبوتة أو المخترنة في باطن الانسان أي وراء شعورنا ، وهي عميقة الأغوار في باطن الانسان ، ولا يمكن السيطرة والتحكم في نشاطها في العملية التكوينية والتطورية .

وإن جميع مكونات وعناصر الشعور تستند وتعتمد على المكونات والعناصر المخترنة في باطن الانسان وفي اللاشعوره ، وأن أعمال الانسان الشعورية هي ظل وإنعكاس واقعي لتلك العناصر المخبوءة في اللاشعور من الغرائر والشهوات والدوافع ، فالشعور أقي بواسطة اللاشعور وهو الذي يشكل ويحدد اطار ومحتوى الشعور مما يترتب على ذلك سيطرة تامة وتحكم كامل على أفكار وسلوك وأفعال الانسان . وأن الشهوات الغريزية وبالأخص الغريزة الجنسية، هي الأساس الحقيقي لما نعتقد بصحته ، وليست عمليات الاستدلال والاستنباط التي تهدينا الى النتائج المفروضة علينا سلفاً من قبل شهواتنا وغرائرنا التي تعتبر البنية

التحتية والقاعدة الأساسية التي ترتكر عليها الأبنية الفوقية من السلوكيات والأفعال الظاهرة .

وتأسيساً على ذلك ، نستنتج أن المذهب التحليلي في نظرية المعرفة يرى بأن الفكر ليس أداة لتصوير الواقع والحدس بالحقيقة ، بل وظيفته الرئيسية والأساسية تكمن في التعبير عن متطلبات اللاشعور ، مما يترتب على ذلك ، تبني النتائج المستخلصة من افرازات وتفاعلات الشهوات والغرائز المخترنة في الأعماق، مادام دور العقل ووظيفته حالة طبيعية في خدمة غرائزنا .

فليس هناك ما يدعو للأعتقاد، بأن العقل يعكس الحقيقة الموضوعية ، لأن من الجائز أن تكون الحقيقة على خلاف رغباتنا اللاشعورية التي تتحكم في عقلنا .

المادية التاريخية Historical Matevielisme

تجسد المادية التاريخية في المقولة التالية : إن الوقائع التاريخية والظواهر الاجتماعية والنفسية والسياسية كلها تنشأ عن أسباب إقتصادية تتمثل في التناقض بين ادوات وشكل الانتاج من جهة ، وتوزيع الانتاج من جهة ثانية كما قال « كارل ماركس » في مقدمة كتابه : نقد الاقتصاد السياسي الصادر عام ١٨٥٩ « أن بنية المجتمع الاقتصادية هي الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه بنيته الفوقانية ، أعني البنية القضائية ، والسياسية والتربوية ، والاجتماعية ، فكل صورة من صور الوعي الاجتماعي مطابقة لهذا الأساس ، وكل حركة من الحركات الاجتماعية والسياسية والروحية تابعة لنمط الانتاج الاقتصادي » .

فالشروط الاقتصادية هي البنية التحتانية التي تشيد عليها جميع البنى الروحية والاجتماعية المسماة بالفوقانية .

وتأسيساً على أطروحة كارل ماركس التي لخصناها في السطور السابقة ، تؤكد لنا أن المادية التاريخية تربط المعرفة الانسانية عموماً بالوضع الاقتصادي

(١) كارل ماركس « نقد الاقتصاد السياسي ، ١٨٥٩ .

بوصفها جزءاً من الكيان الاجتماعي المنبثق عن البنية التحتية المتمثلة في الأساس الاقتصادي ، ولذلك تعتقد بأن المعرفة الانسانية ليست وليدة النشاط الوظيفي للدماغ فحسب ، وإنما يكمن سببها الأصيل في الوضع والعامل الاقتصادي . ففكر الانسان إنعكاس وظل عقلي للأوضاع الاقتصادية وما ينبثق عنها من علاقات متعددة ومتنوعة تنسجم وتلتئم من حيث النمو والتطور والعمق والأبعاد مع تلك الأوضاع والعوامل والعلاقات الاقتصادية .

ونستخلص من استعراضنا للمدارس أو المذاهب الفلسفية العقلية الحديثة ، أن المدرسة السلوكية تصور لنا الفكر باعتباره حالة مادية تحدث في جسم المفكر بأسباب مادية كما تحدث حالة ضغط الدم فيه وتأسيساً على ذلك تنتهي بتجريده من قيمته الموضوعية .

والنظرية التحليلية لفرويد تنطوي على عناصر اللاشعور من الغرائز والشهوات والرغبات، ودور العقل هو دور تفسيري للغرائز والشهوات وهي تحتل مقام الاقتصاد في النظرية المادية التاريخية .

العقل في الاسلام

مقدمة :

بالرغم من الطابع الديني الروحي للفلسفة الاسلامية ، إلا أن اعتراف جميع فلاسفة المسلمين وعلمائهم تقريباً بالعقل كمصدر من مصادر المعرفة ، وهذا مع اختلافهم وتباينهم في درجة أهميته أو التعويل عليه في تفسير الحياة ، حقيقة دامغة واضحة لا تحتاج الى دليل واثبات ، فبواسطة العقل وما ينطوي على إمكانيات وطاقات متمثلة بالمعارف والحقائق البديهية الضرورية الفطرية ، نستطيع تفسير مشكلة الألوهية والانسان . فواجب الوجود عقل محض يعقل ذاته بذاته ، فهو عاقل ومعقول في آن واحد^(١) . وعنه صدر العقل الأول ، فهو أول شيء خلقه الله ، وفي سلسلة متلاحقة صدرت العقول الأخرى التي تدبر شؤون السماء ، فيما عدا العقل العاشر ، أو العقل الفعال ، الذي برعى شؤون الأرض^(٢) . والعقل عند ابن سينا قوة من قوى النفس ، يسمى الناطقة . وهو ضربان ، عملي يسوس البدن ، وينظم السلوك ، ونظري يختص بالادراك والمعرفة ، فهو الذي يتقبل المدركات الحسية ، ويستخلص منها المعاني الكلية بعون من العقل الفعال . وفي وسع العقل البشري أن يسمو الى مرتبة يستطيع أن يتصل فيها مباشرة

(١) الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ١٠ .

(٢) ابن سينا ، الإلهيات ، ص ٤٠٠ - ٤٠٨ .

بالعقول المفارقة، فتتكشف له المعقولات دفعة ، ويخلص الى عالم القدس واللذة العليا ، وهذه هي السعادة التي ليست وراءها سعادة^(١) .

وبالعقل نعلل ونبرهن ، وبه نكشف الحقائق والادراكات التصديقية العلمية فهو باب من أبواب المعرفة ، وليست المعارف كلها في منزلة واحدة ، بل منها ما يستنبطه العقل ويستخلصه من التجربة .

والعقل عند فلاسفة المسلمين يعتبر نبزاً يضئ ويشع نوره ليهدي الانسان في مسيرته عبر ظلمات الحياة ويعتبر هادياً وموجهاً للفكر الحقيقي الذي يستنتج الحقائق والادراكات الصائبة اليقينية من تجارب وملاحظات عديدة الى أن يقدم قانوناً علمياً ، وبواسطته يستطيع الانسان التمييز بين العلم والادراك الحقيقي من الخيال الفارغ ، وبمكـم باستحالة التناقض ، وبقيح الشر والظلم ، وهو الوسيلة الرئيسية لادراك المعقولات ولادراك نفسه .

فالاسلام يعتبر العقل مصدراً من مصادر المعرفة الرئيسية والأساسية في تحصيل المعرفة الانسانية عن الكون والانسان والحياة والله عز وجل .

يقول الرسول الأعظم (ص) : « إنما يدرك الخير كله بالعقل ، ولا دين لمن لا عقل له »^(٢) وقوله (ص) : « لكل شيء آلة وعدة ، وآلة المؤمن وعدته العقل . ولكل شيء مطية ، ومطية المرء العقل . ولكل شيء غاية ، وغاية العباداة العقل . ولكل قوم راع ، وراعي العابدين العقل . ولكل تاجر بضاعة ، وبضاعة المجتهدين العقل ، ولكل خراب عمارة ، وعماره الآخر العقل ، لكل سفر فسطاط يلجأون إليه ، وفسطاط المسلمين العقل »^(٣) .

(١) ابن سينا : الاشارات ، ص ١٩٠ - ١٩٨ .

(٢) تحف العقول / ٤٤ .

(٣) البحار ١ / ٩٥ ، عن « كنز الفوائد » .

ومن الأهمية بمكان ، أن نشير إلى سلطان وأهمية ودور العقل ومكانته عند الامام علي (ع) مع العلم بأنه ليس في كلامه ما يشعر بتقسيم العقول الى عشرة ، وبأن النفس العاقلة واحدة في جميع البشر ، أو متعددة بتعدد الأفراد ، كما جاء في كلام الفلاسفة وبحوثهم ، اجل إنه قسم العقل الى فطري ، وهو علم الضروريات ، والاستعداد لتفهم النظريات ، والى مستفاد ، وهو الذي ينمو بالدراسة والتجربة ، قال :

رأيت العقل عقليين فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مطبوع اذا لم يك مسموع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

ويستفاد من هذا الكلام انه (ع) أراد الترغيب في العلم وطلبه ، وأن العقل يزكو بالمعارف واكتساب الخبرات ، وأن الفطرة بمجرد ما لا تجدي نفعاً . ومن أقواله وأقوال الأئمة (ع) في مدح أو أهمية ومكانة العقل ما يلي :

قال الامام علي (ع) : « العقل أقوى أساس »^(١) .

وقوله (ع) : اعقلوا الخبر اذا سمعته عقل رعاية لا عقل رواية ، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل »^(٢) .

ويعتبر العقل في الوحي الاسلامي وفكره ومنطقه من طليعة الفضائل والمواهب التي زود الله بها الانسان ، وفضله على الخلق ، ونال به العناية الكبرى ، والحظوظ البالغة من الله عز وجل .

الامام علي (ع) : قال لابنه الحسن - يا بني ، إن أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق »^(٣) .

(١) غرر الحكم / ٣١ .

(٢) نهج البلاغة / ١١٣٠ .

(٣) نهج البلاغة / ١١٠٤ .

الامام علي (ع) : « العقول أئمة الأفكار ، والأفكار أئمة القلوب ، والقلوب أئمة الحواس ، والحواس أئمة الأعضاء »^(١) .

الامام علي (ع) : « العقل مصلح كل أمر »^(٢) .

قال الرسول الأعظم (ص) : « ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل ، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل ، وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل ، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل . . . »^(٣) .

والاسلام يمجّد العقل ، وأطراه منذ البداية ، وأوضح أنه الرائد الأمين ، والمرشد الحكيم للانسان ، والحكم الفصل بين الحق والباطل ، والعدل والضلال ، والخير والشر .

والمستنطق للآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة (ع) ، يلاحظ بكل وضوح وجلاء مدى التركيز والأهمية والاهتمام البالغ في منح وإبراز العقل كمصدر هام للمعرفة . ويستشف منها مدى الاعتماد الكبير على العقل أو التأمل والاستدلال والنقد والتمحيص والاستبصار في تدبير وإدارة حياة الانسان النظرية والعملية . والحق إن القرآن وآياته الحكيمة لعب دوراً كبيراً وجوهرياً في إثارة النزعة العقلية في الفكر الاسلامي .

ويلاحظ المستنطق للآيات الحكيمة بكل وضوح وجلاء ، أن النهج القرآني، مستند ومرتكز أساساً على التدبّر والتبصّر ، وأسس قوامها، العقل والفكر ، ومن أهم مقوماتها ومستلزماته نبذ وترك الجحود والتقليد ، أو التقوقع والتزمت . وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تحث وتدعو

(١) مستدرك النهج/ ١٧٦ .

(٢) غرر الحكم/ ٣٠ .

(٣) البحار/ ١/ ٩١ عن « المحاسن » .

البشرية جميعاً الى تحكيم العقل ، وتزدرى أزدراء شديداً باللذين لا يحكمون عقولهم في الأمور والقضايا الفكرية أو الاجتماعية والتربوية . . . الخ .

فيقول عز وجل :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾^(١) .

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾^(٢) .

﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات

والنور ﴾^(٣) .

﴿ وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾^(٤)

وقوله تعالى : ﴿ . . . وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا

تعقلون ﴾^(٥)

﴿ . . . لبث فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾^(٦)

﴿ . . . وما عند الله خيرٌ وأبقى أفلا تعقلون ﴾^(٧) .

وفي القرآن عشرات الآيات القرآنية الشريفة ، التي تحترم وتمتدح ذوي العقول والمفكرين ، وتنعتهم بنعوت عطرة كريمة ، لاستخدامهم وشكرهم على هذه النعمة الإلهية المقدسة فيقول عز وجل :

﴿ . . إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾^(٨)

﴿ وذكرى لأولي الألباب ﴾^(٩)

﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾^(١٠) .

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي

(٦) سورة يونس الآية ١٦ .

(٧) سورة القصص الآية ٦٠ .

(٨) سورة الرعد الآية ١٩ .

(٩) سورة غافر الآية ٥٤ .

(١٠) سورة الزمر الآية ١٨ .

(١) سورة يوسف آية ١٠٨

(٢) سورة فاطر آية ٢٨ .

(٣) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٤) سورة البقرة الآية ٤٤ .

(٥) سورة آل عمران الآية ٦٥ .

الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴿١﴾ .

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآيتنا فأقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ ﴿٤﴾ .

أما كتب الأحاديث ، فهي مملوءة بمئات الروايات المرتبطة بالعقل من حيث أهميته ودوره في حياة الانسان . منها ما يلي :

النبي (ص) : « فكرة ساعة خير من عبادة سنة » ﴿٥﴾ .

الامام علي (ع) : « طول الفكر يحمّد العواقب ، ويستدرّك فساد الأمور » ﴿٦﴾ .

الامام علي (ع) : « في وصيته للحسين (ع) : أي بني الفكرة تورث نوراً والغفلة ظلمة ... » ﴿٧﴾ .

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سورة الجاثية آية ١٣ .

(٣) سورة النحل آية ١٠ - ١١ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٧٦ .

(٥) البحار ٧١ / ٣٢٦ .

(٦) غرر الحكم ٢٠٩ .

(٧) تحف العقول / ٦٥ .

الامام العسكري «ع» : « ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة وإنما العبادة كثرة التفكير في أمر الله »^(١) .
الامام علي «ع» : « من تفكر أبصر »^(٢) .

والذين يجمدون نعمة العقل ، ولا يستعملونه فيما خلق له ومن أجله ، ويغفلون عن آيات الله يضعهم الاسلام موضع التحقير والازدراء . فيقول عز وجل : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾^(٣) .

وتعطيل العقل يؤدي بالانسان وفقاً للمنطق القرآني إلى مستوى الحيوانات بل أضل سبيلاً . يقول تعالى : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾^(٥) .

ويوتخ الاسلام ، ويلقى اللوم والتقريع على الجامدين المتحجرين ، الذين الغوا وجمدوا عقولهم وقلدوا آباءهم تقليداً أعمى ، وضلوا على كفرهم وضلالهم ، وهؤلاء يتبعون الظن والوهم ، ويحرفون الحقائق . يقول تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾^(٦) .

(١) تحف العقول / ٣٦٢ .

(٢) نهج البلاغة / ٩٣٠ ، عبده ٥٤/٢ .

(٣) سورة يوسف آية ١٠٥ .

(٤) سورة الأنفال آية (٢٢) .

(٥) سورة الأعراف الآية (١٧٩)

(٦) سورة البقرة الآية (١٧٠) .

وقوله تعالى: ﴿... إن يتبعون إلا الظن وإذ هم لا يخرصون﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ (٢).

ويعتقد الاسلام بأن العقل حجة دامغة ، ودليلاً قاطعاً ، ويطلب المسلمون النظر والتفكير والاطلاع والاستقراء في هذا الكون مستخدمين العقل في ذلك ، ويطلب أيضاً بضرورة العناية به ، وتنمية مواهبه ، والحفاظ عليه من الأمراض والكدورات النفسية ، فالمستنطق للآيات القرآنية الشريفة ، يلاحظ إنه ما تكاد سورة من سور القرآن إلا وفيها الكثير من الارشادات والتوجيهات والدعوات لاستخدام العقل في التفكير والاستدلال والاستنتاج وتحصيل المعارف الكونية .

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تؤكد لنا ضرورة استخدام العقل في الاستدلال والاستنباط ، حتى الى درجة يخاطب القرآن عقل الانسان وشعوره وكيانه الى ضرورة الاعتقاد والتمسك بالمبادئ الأولية الأساسية ، أي العقائد الاسلامية المتمثلة بأصول الدين من التوحيد والنبوة والعدل والامامة والمعاد ، من خلال الاجتهاد الفردي ، أي التعقل والتفكر فيقول عز وجل :

﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ﴾ (٣) .
﴿ ومن نعمه ننكسه في الخلق أفلا يعقلون ﴾ (٤) .
﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ (٥) .

(١) سورة يونس آية ٦٦ .

(٢) سورة يونس الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

(٤) سورة يس آية ٦٨ .

(٥) سورة الحج آية ٤٦ .

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾^(١) .

قال الامام الكاظم (ع) : يا هشام . إن ضوء الجسد في عينه . فإن كان البصر مضيئاً إستضاء الجسد كله . وإن ضوء الروح العقل ، فاذا كان عالماً بربه أبصر دينه وإن كان جاهلاً بربه لم يتم له دين (٢) .

قال الامام الباقر (ع) عن النبي (ص) : « لم يعبد الله عز وجل بشيء أفضل من العقل ، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال » (٣) .

إضافة الى ذلك ، يلاحظ المستنطق للآيات القرآنية الشريفة ، تركيزاً كبيراً على طرح موضوعات أو أفكار ومسائل فلسفية وعلمية أو أخلاقية وتربوية ، من جانب ، ودعوة العقل للبت فيها والبحث عن حقيقتها وماهيتها ، وإتخاذ موقف سليم ازاءها من جانب آخر . فمنها مسائل الحياة والموت والخالق والنار والجنة والنظام والانسجام في الكون وعلم الله وأرادته وصفاته إلخ . فهناك آيات قرآنية عديدة تشير الى الدليل الغائي Teleological Argument والدليل الكوني Cosmological Argument .

فيقول عز وجل : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً * والجبال أوتاداً * وخلقناكم أزواجاً ﴾^(٤) .

﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير ﴾^(٥) .

(١) سورة الرعد آية ٤ .

(٢) تحف العقول / ٢٩٢ .

(٣) الخصال / ٤٣٣ .

(٤) سورة النبا آية ٦ ، ٧ - ٧٨ .

(٥) سورة الأحقاف آية ٣٣ .

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم ،
فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (١) .

نظرية المعرفة في الاسلام (نظرية الانتزاع)

الانسان موجود أو كائن مؤمن مفكر له ذهن ينطوي على مقومات وإمكانيات مختلفة ، يستطيع بواسطتها إقامة نوعين رئيسيين من العلاقات :
علاقة مع العالم العيني ويسمى (العلم ، الإدراك ، المعرفة) ، وعلاقة بين
ذهنه وتصوراته المختلفة يسمى بـ (معرفة الذهن لنفسه) .

وتتشكل العلاقات الحسية بين الانسان والعلم العيني الموضوعي خارج
الذهن ، بواسطة إستخدام أدوات وأجهزة الحواس ، وفقاً للأسلوب
والعمل التالي : -

أ - الأعمال الفيزياوية :

وهي الأعمال الناتجة من إستخدام أجهزة الحواس من البصر والأذن
والذوق، والتي تترك آثاراً معينة على الأعصاب، وتم نقلها الى المراكز الرئيسية
في الدماغ .

ب - أعمال تفوق وتتجاوز الأعمال الفيزياوية :

وهي تتمثل في إدراك الآثار الحسية وتفسيرها ، وهي أعمال لها واقع
منفصل عن العلاقة الفيزياوية . فهي في الواقع تتجاوز طاقات وإمكانيات
العقل الفيزياوي . فمثلاً إمكانية إستيعاب والنظر بواسطة العين الصغيرة
التي لا تتجاوز مساحتها عن عشرين سم الى أشياء وأحجام تفوق مئات
المرات حجم العين ومساحتها ، فنشاهد قصور وأبنية ذات الأحجام
والمساحات الكبيرة جداً بواسطة أشياء صغيرة جداً .

فكيف نستطيع رؤية القصور والأبنية التي تفوق حجمها ومساحتها حجم

(١) سورة المرسلات الآية (٢٠ ٢٣٨) .

العين ؟ وكيف نستوعب سعتها وامتدادها؟

التأمل حق التأمل ، لا يشك في أن إدراك هذه الأحجام والمساحات الكبيرة (التي تتجاوز حجمها ومساحتها حجم العين) ، ليس لها ارتباط او علاقة بتلك الصور (سواء الصور الموجودة في الفضاء أي الواقع الخارجي أو التي في أعيننا) ، أو الصور التي تتكون في سلسلة الأعصاب والتي تتجه فيما بعد الى المركز البصري في الدماغ والأماكن الأخرى .

ولو قمنا بإجراء دراسة أو بحث مستفيض ودقيق لسير هذه الصورة من الناحية المادية والفيزيائية ، لاستنتجنا وجود علاقات غير متناسبة بين أي جزء من الصور من حيث الحجم - مع حجم القصر أو الفضاء في العالم الخارجي .

اذن كيف يحصل هذا الادراك للحجم الكبير في ذهن الانسان ؟
الجواب على ذلك يكمن في ماهية أو مغزى ودور عملية التفسير والتحليل والتركيب للذهن بعد حصولها على المعلومات أو الادراكات المنقولة عن طريق الحواس إليه ، ليستنتج من تلك العملية مغزى الأحجام الكبيرة .

فهذه الادراكات والمعلومات أو الصور الذهنية، تشكل أحياناً وسيلة للتعرف على الأشياء العينية الموضوعية خارج الذهن البشري ، وفي أحيان أخرى تحصل على معلومات حول بعض الأشياء والحقائق من دون الاستعانة والإتكال على أية وسيلة كانت . وبتعبير آخر أن الصورة الذهنية هنا لا تصبح وسيلة للحصول على تلك المعلومات أو الادراكات ، مثال تلك الحقائق والمعلومات أو الادراكات التي تمتلكها حول أذهاننا . ولو قمنا بدراسة مستفيضة وفحص دقيق لاستوعبنا وتأكدنا بأننا منشغلون بالتفكير وندرك هنا الأمر بكل وضوح وجلاء من دون الاتكال أو الاستعانة بأية واسطة أو وسيلة .

ويطلق على تلك المعلومات والادراكات أو الحقائق التي يحصل عليها

الذهن البشري من دون اللجوء الى واسطة أو أجهزة الحواس المتعارف عليها ، اسم الإدراك والعلم الحضورى ، والذي عبارة عن حضور الأشياء نفسها عند المفكر أو العالم كعلمنا بذواتنا وبالأمور القائمة بها .

ويطلق على تلك المعلومات والإدراكات المستندة أساساً على معلومات وإدراكات تنقل بواسطة الحواس الى الذهن ثم تدرك ، بالعلم الحسولي والاكسابي ، وهو عبارة عن حصول صورة الشيء عند المدرك ، أو بتعبير آخر هو العلم الذي يكتسب عن طريق تكوين صورة في الذهن ، أو العمل الحاصل عن وساطة صورة ذهنية .

وهناك من يقسم الإدراكات أو المشاهدات الى مشاهدات ظاهرية ومشاهدات باطنية : (١) .

المشاهدات الظاهرية : بواسطة الحواس الظاهرية مثل العين والأذن والأنف و . . الخ نرى ونسمع ونشم بها .

والمشاهدات الباطنية : توجد في الحياة جملة من المشاهدات تشبه المشاهدات الظاهرية ، يطلق عليها بالمشاهدات الباطنية مثلاً : عندما يقول شخص ما . إن قلبي يؤلمني ، أو يقول إنني سعيد أو حزين ، من البديهي إننا لم نتحسس بهذا الألم بواسطة الحواس الخمس ، بل بواسطة سلسلة من الأعصاب الداخلية التي تنقل الألم ، ولكن الأعصاب - في الحقيقة - لا تشعر الإنسان بالألم ، بل توجد حالة مؤلمة في الإنسان ، فيشعر معها بالألم . ونفس الشيء بالنسبة لحالة الحزن والسعادة ، فإننا لا نستطيع معرفة حالات السعادة والحزن عن طريق العين أو الأذن أو الأنف أو الجلد ، إذن عن أي طريقة ؟ هل يملك الإنسان جملة من الأعصاب تمنحه إمكانية معرفة السعادة والحزن أو العطف أو الحقد ؟ وبالتالي كيف نستطيع معرفة وإدراك حالاتنا

(١) الشهيد آية الله بهشتي : المعرفة بلغة الفطرة - الحلقة السادسة . مجلة التوحيد - العدد السادس - المنة الأولى - محرم ، صفر ١٤٠٤ هـ . ق طهران - إيران - ص ٨٣ - ٨٤ .

الروحية أو النفسية والعاطفية ؟ هل بواسطة تدخل الأعصاب والجسم أم بواسطة شيء آخر ؟

المتفق عليه ، أن هذه الادراكات الشعورية الروحية تم الحصول عليها بنفس الطريقة التي تم الحصول على المعارف والادراكات الظاهرية من حيث غياب عملية التحليل والتركيب والتفسير ، فهي اذن من هذا المنطق والاساس متشابهة .

وهناك من يقسم الحواس الظاهرة الى خمسة أقسام وهي : البصر والسمع واللمس والشم والطعم ، ويقسم الحواس الباطنية أيضاً الى خمسة أقسام هي : الخيال ، الحس المشترك ، الوهم والمحافظة والمخيلة^(١) .

وهناك من يقسم تصورات الانسان على أساس :

أ - تصورات بسيطة :

كمعاني اللذة ، والألم ، والرائحة ، والصوت ، والوجود ، والوحدة ، والحرارة ، والبياض . . إلخ .

ب - تصورات مركبة :

وهي تصورات منبثقة من عملية تركيب وجمع بين مجموعة من التصورات البسيطة . كتصورنا بوجود (جبل من تراب) ، ووجود (قطعة من الذهب) ، وبتركيب هذين المفهومين نحصل على مفهوم مركب يتمثل بوجود وتصور في ذهننا (جبل من الذهب) .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى وجود تباين واختلاف بين الفلاسفة في إدراك ومعرفة هذه التصورات البسيطة والمركبة ، ومدى مصداقيتها والتصديق بها . ونحن في واقع الأمر لسنا بصدد شرح واستعراض الآراء والمفاهيم المتباينة

(١) محمد جواد مغنية ، فلسفات الاسلامية ، دار التعارف للمطبوعات - بيروت ، لبنان ١٩٧٨ م - ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

لهم ، ولذلك نكتفي عند هذا الحد ، لكي ننتقل الى تبيان الادراك ومراحله ، ومن ثم نطرح نظرية الانتزاع في المذهب الفلسفي في الاسلام .

الادراك ومراحله في نظر فلاسفة المسلمين .

للقدماء المتأخرين اعتقاد خاص ، مفاده أن الادراكات الانسانية للخارج لها مراحل معينة تتمثل في الثلاث التالية : مرحلة الحس - مرحلة الخيال - مرحلة التعقل^(١) .

مرحلة الحس :

تبدأ هذه المرحلة باستخدام أدوات وأجهزة حسية تتمثل بالحواس الخمسة ، التي تنقل لنا بواسطتها صور الأشياء الخارجية ، وتعكسها في أذهاننا عندما يتم الاتصال بين أية حاسة من الحواس والأشياء الموضوعية الخارجة عن ذهن الانسان . فبواسطة حاسة أو جهاز العين يتم النظر والتأمل في واقع موضوعي ، أو في شيء من الأشياء التي يقع عليها النظر ، فتعكس صورة هذه الأشياء في ذهن الانسان ، وهذه الصورة هي بنفسها الحالة الخاصة التي يشاهدها الانسان في ذاته حضوراً ووجداناً ، وهذا ما يطلق عليه مصطلح المشاهدة ، وهكذا بالنسبة لبقية الحواس الأخرى .

مرحلة الخيال :

بعد إنتهاء مهمة أجهزة الحواس ، وبعد نقل أو إنعكاس الشيء أو الواقع الموضوعي خارج ذهن الإنسان الى داخل ذهنه ، فإن آثاراً معينة تترك في الذهن ، وبتعبير القدماء إنه بعد إبراز وظهور الصورة الحسية في الحاسة تبرز صورة أخرى في قوة أخرى ، وهي التي يطلق عليها مصطلح الخيال أو الحافظة ، وبزوال وغياب الصورة الحسية المنقولة أو المنعكسة بواسطة الحواس ، تظهر صورة الخيال وتبقى على حالها بصورة يستطيع الانسان

(١) أسس الفلسفة والمذهب الواقعي - العلامة السيد محمد حسين الطبطبائي دار التعارف للمطبوعات ١٩٨١ م - ص ١١٠ - ١١٣ - المقالة الثالثة .

استحضارها في أي وقت يشاء ، وبهذه الوسيلة فهو يتصور الشيء الخارجي .

والصورة الخيالية شبيهة تماماً بالصورة المحسوسة مع بعض الفروقات التي يمكن تمثيلها على النحو التالي :

- ١ - الصورة الحسية أوضح في الغالب من الصورة الخيالية .
- ٢ - لمشاهدة الأشياء وتصورها تصوراً كاملاً ، أي تصورها من جميع أبعادها وجوانبها وملابساتها، يستلزم الأمر توجيه النظر الى مكان معين وزاوية محددة وملابسات مشخصة، أي توجيه البصر الى اليسار أو اليمين، وأمام ووراء الشيء المراد تصوره . بينما تخيل صورة الشيء بعد تكرار النظر اليه بواسطة حاسة البصر من جميع أبعاده وزواياه المحددة ، لا يستلزم الأمر في تخيلها الى الالتفات وتوجيه البصر الى مكان معين وزاوية محددة ، وملابسات شخصية ، بل كل ما يستلزم الأمر هو تجسيد الصورة في مخيلته وأمامه .
- ٣ - الادراكات الخيالية لا تستلزم ضرورة وجود الواقع الموضوعي أو الشيء الخارج عن الذهن الانساني . بينما الادراكات الحسية المتصورة والمنعكسة في الذهن لا يتم ذلك الا عن طريق اتصال قوى الحواس بالخارج ، وبمجرد زوال وانقطاع هذا الاتصال ينقطع ويزول ذلك الادراك الحسي المرتبط به ، وتأسيساً على ذلك ، لا يمكن للانسان ان يشاهد حجم إنسان غير موجود أمامه أو لا يقع بصره عليه ، ولا يستطيع شم رائحة أو سماع صوت دون إستحضارهما أمامه ، بينما يستطيع تخيل جميع هذه الأشياء وتصورها في ذهنه وفي أي وقت يشاء دون لزوم حضور ووجود تلك الأشياء الخارجة عن ذهن الانسان .

مرحلة التعقل :

يَسم الادراك الخيالي بالجزئية ، أي إنه ينحصر في فرد واحد ولا يتجاوز أكثر من ذلك ، بينما العقل وذهن الانسان له امكانيات أو طاقات

وقدرات معينة تسمح له بجمع هذه الصورة الجزئية وتفسيرها وتركيبها ثم صياغتها على شكل معنى عام كلي ، ينطبق هذا المعنى العام على أفراد كثيرين ، فهو بعد ادراكه من قبل مجموعة من الأفراد تظهر صفات مختصة بكل فرد من أفراد المجموعة إضافة الى صفات مشتركة بينهم أي إنه يرى شيئاً في فرد ثم يشاهد بنفسه في فرد آخر وثالث ، ورابع و . . . ومشاهدة هذا الشيء في أفراد متعددين تهيم الذهن ليكوّن ويبلور ذلك الشيء في صورة كلية ومعنى عام ينطبق إنطباقاً كلياً على أفراد عديدين داخل المجموعة . وهذا اللون من التصور يطلق عليه بمصطلح التعقل أو التصور الكلي .-

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن هذه الأنواع والألوان الثلاثة من الإدراكات هي من خصوصيات الانسان ، يتصف بها ويدركها في نفسه بالعلم الحضوري .

والمتتبع لآراء وأفكار فلاسفة المسلمين وحتى فلاسفة اليونان ، فإنه يلاحظ إنهم كانوا يرون بأن القوة العاقلة فقط هي التي تدرك الكليات باعتبارها وكونها مجردة من المادة . وتأسيساً على ذلك ، حصرت جميع أبحاثهم ودراساتهم حول تجرد النفس ، واستندت على أساس هذه المقولة : (القوة العاقلة فقط هي التي تدرك الكليات وهي مجردة من المادة ولكن حدثت ثورة عظيمة على يد الفيلسوف الإسلامي المشهور صدر المتألهين الشيرازي . فهو يعتقد بأن قوى الخيال وكل القوى الباطنة مجردة من المادة ، وقام باثبات ذلك عن طريق إثبات عدم تطابق خواص هذه مع الخواص العامة للمادة^(١) .

ويقسم صدر المتألهين الشيرازي الوجود الى عدة أقسام على النحو التالي : (٢) .

(١) لمزيد من التفصيل انظر - صدر المتألهين الشيرازي - كتاب الأسفار الأربعة .

(٢) نقتبس من مقالة للعلامة السيد محمد حسين الطبطبائي - إطلالة على حياة صدر الدين الشيرازي ومنهجة الفلسفي ، مجلة الفجر - العدد الثاني السنة الأولى ، ص ١٨٩ - ١٩٢ .

١ - تقسيم الوجود الى خارجي وذهني :
فصل الحديث في هذا البحث حول حقيقة العلوم التصورية والتصديقية
كما أوضح مسألة حصول الماهيات والمفاهيم في الذهن وطريقة تحققها
ووجودها .

٢ - تقسيم الوجود الى مستقل ورابط :
ضمن هذا البحث تصنف الموجودات الى صنفين متميزين ، كما يفرز
الوجود الرابط : ووجود النسبة ، الذي ليس له أي لون من الاستقلال
لا على مستوى الذات ، ولا على مستوى الآثار والأحكام ، عن الوجود
المستقل ونستخلص من هذا التقسيم في جملة ما يستخلص من نتائج
مثمرة ، أن تكون الوجودات الامكانية بالنسبة للوجود الواجب روابط
ونسب ليس لها أي لون من الاستقلال في نفسها وآثارها ، وكل ما
يشاهد فيها من مظاهر الاستقلال فهي تعود في الواقع للوجود الواجب .

٣ - ينقسم الوجود الى نفسه ولغيره :

الوجود النفسي والغيري . وبهذا التقسيم تمتاز حقيقة ومفهوم الوجود
وصفاته عما سواها .

ولم يعهد البحث المستقل لهذه المسائل الثلاث قبل صدر المتألهين .

٤ - تقسيم الوجود الى ممكن وواجب :

يتناول خواص الواجب والممكن على نهج الاستقصاء في هذا التقسيم .

٥ - بحث الماهية :

يمثل هذا البحث في الحقيقة إدامة لبحث الممكن ، ويدور الحديث فيه
حول تقسيمات الماهية وخواصها . وقد عكف صدر المتألهين في خاتمة
هذا البحث على دراسة مشبعة لمفهوم « أرباب الأنواع » .

- تقسيم الوجود الى الواحد والكثرة وأقسامهما وخواصهما .

٧ - تقسيم الوجود الى العلة والمعلول ، وأقسامهما وخواصهما .

٨ - تقسيم الوجود الى ما بالقوة وما بالفعل :

تصنف الموجودات عبر هذا التقسيم الى صنفين : الموجود بالفعل وهو موجود كامل وتام من ناحية موجوديته ، وآثاره الوجودية ظاهرة وثابتة ، نظير الفرد الكامل من الانسان الذي هو إنسان بالضرورة ، والذي تبدو من خلاله آثار الانسانية ، والموجود بالقوة ، وهو يحمل امكان موجودية خاصة ، ولم تظهر بعد الآثار الضرورية لهذه الموجودية ، نظير وجود الانسان في النطفة « مادة النطفة » حيث انه نطفة بالفعل ، إلا أنه إنسان بالقوة ، وليس له بالفعل الآثار الضرورية للانسان .

لقد حسب الفلاسفة السالفون خروج الشيء من القوة الى الفعلية على نحوين :

الأول : الخروج الدفعي ، نظير تبدل أحد من جواهر العناصر بعنصر آخر ، مثل تحول النار الى هواء ، حيث تنتفي صورته العنصرية دفعة وتحل محلها صورة عنصر آخر .

الثاني : الخروج التدريجي وهو الذي يحصل عن طريق الحركة ، نظير انتقال عرض - من جوهر ما - الى عرض آخر ، كالانتقال التدريجي من كيفية الى كيفية أخرى ، أو من وضع الى وضع آخر ، أو من مكان الى مكان آخر . وفي المحصلة تنحصر الحركة بأربعة مقولات عرضية هي : الكيف ، والكم ، والوضع ، والايين .

إلا أن صدر المتألهين رفض فكرة التبدل الدفعي للجواهر المادية من صورة الى صورة أخرى (مبدأ الكون والفساد) ،

وعن طريق البراهين التي أقامها . وعد أمثال هذه التحولات من مقولة الحركة فائت بالنتيجة وقوع الحركة في الجوهر .

ومتيجة النظرية أعلاه هي أن كل موجود مادي يقع تحت قانون الحركة

من زاويتي صورته الجوهرية وأعراضه . وإن كل موجد ثابت فهو مجرد وعاء من المادة والقوة .

ووفق سياق هذه النظرية يضحى تقسيم الوجود الى بالقوة وبالفعل مساوياً لتقسيم عالم الوجود إلى قسمين :

والوجود السيال والوجود الثابت . وأن كل وجود مادي ذي قوة وإمكان سيال وواقع تحت قانون الحركة ، وأن كل وجود غير مادي ، حيث لا مجال لأي وجه من القوة والامكان فيه ، هو وجود ثابت ولا حركة فيه . ويشكل عالم المادة بجميع أسسه الجوهرية والعرضية تياراً هائلاً من الحركة يشبه النهر العظيم الذي تستمر فيه حركة الماء الجاري ولا يظل رهن مكان واحد في لحظتين متواليتين .

من هنا صرح صدر المتألهين في أبحاثه بالقول :

فللطبيعة امتدادان^(١) وهذا صريح في إنه يرى أفراد الأنواع الجسمانية محدودة بأربعة أبعاد (الطول ، العرض ، العمق ، الزمان) . وكل واحد - من هذه الأجسام النوعية ينقسم بحسب انقسامات الزمان ويتكاثر ويتفرق . وتحفظ وحدة هذه الأجسام نفوسها المجردة أو أرباب الأنواع .

تقع هذه الحركة بين نقطتي القوة والفعل أو المادة والتجرد . ويحمل عالم المادة بواسطة هذه الحركة باستمرار أجزاء من عالمه الناقص واللامتكامل ليبلغ بها عالم التجرد . وهو يحمل في الواقع مصنعاً لصنع العناصر المجردة ، فبدوران عجلة هذا المعمل ينضج المواد الأولية عن طريق الحركة ليصل بها الى مرحلة التجرد ، وبعد التجريد الكامل ومفارقة المادة ، يعكف على تنضيج مواد أخرى ، وهكذا . . .

عبر هذا المسلك نفسه ذهب صدر المتألهين الى اعتبار النفوس جسمانية

(١) صدر المتألهين الشيرازي - كتاب الأسفار - الأبيعة ج ٣ ، ص ١١٤٠ .

الحدوث ، يعني : إن النفس في أول حدوثها كانت جزء من عين البدن المادي ، ثم أخذت بالتدرج تتلمس التجرد عن طريق الحركة الجوهرية ، لتنتهي الى مفارقة البدن في نهاية المطاف .

٩ - تقسيم الوجود الى حادث وقديم :

أحصيت خلال هذا البحث أقسام التقدم والتأخر والمعية الحاصلة في عالم الوجود ، ثم عطف على بيان حقيقة الحدوث والقدم وأقسامها . وقد ذهب الفلاسفة السالفون الى أن العالم حادث ذاتي، ينتهي الى الواجب تعالى بحكم كون أرجاء العالم معلولاً لمبدأ الابداع، وفي النهاية يكون ذات العالم ووجوده مسبوقين بوجود الواجب . وفي نفس الوقت افترضوا الزمان غير متناه . وكانوا يرون أن « اللاتناهي الزماني » لموجود ممكن لا يتناقى مع كونه معلولاً ، وذلك لأن المعلولية نتيجة الامكان والحاجة ، وليست خصوصية للحادث الزماني . من هنا اكتفى الفلاسفة بصدد تفسير العالم بالحدوث الذاتي .

غير إن صدر المتألهين حصل على نجاح بهذا الاتجاه من خلال اثباته لوقوع الحركة في جوهر العالم المادي . فأثبت أن لعالم المادة حدوثاً زمانياً أيضاً . وذلك لأنه عن طريق تحلل الحركة والتحول التدريجي في قلب العالم فسوف يكون العالم ، على أي فرض إفترضناه « كلاً أو بعضاً » مسبوقاً بالعدم الزماني .

نظرية الانتزاع :

وبعد هذا التقديم الموجز ، يمكن أن نستخلص نظرية الانتزاع عند المسلمين وذلك على النحو التالي :

تقسيم التصورات الذهنية الى قسمين رئيسيين هما :

أ - تصورات أولية .

ب - تصورات ثانوية .

تعتبر التصورات الأولية هي الركيزة والأساس الأولي لتصورات الذهن البشري . فبواسطة التجربة والملاحظة والاختبار ، وباستخدام أجهزة وأدوات الحس من العين والأذن والأنف والجلد . . . إلخ ، نستطيع تصور الحرارة واللون والحلاوة والرائحة إلى . . . إلخ المنقولة إلينا بواسطة أجهزة اللمس والبصر والذوق والشم والسمع فهذه الأجهزة هي التي تلتقط وتنقل إلى أذهاننا صور هذه الأشياء ، وبالتالي يدركها العقل . فهذه الإدراكات والتصورات الذهنية أو المعلومات والحقائق والمعاني للموجودات والأشياء التي تقع في خارج الذهن البشري ولها واقع موضوعي ، تشكل مادة أساسية ، وقاعدة أولية لتصورات وتصديقات وحقائق من نوع آخر يقوم الذهن البشري ببنائها وتشبيدها بشكل إبتداعي إبتكاري إنتزاعي ، يطلق عليها التصورات الثانوية .

فالذهن البشري الذي ينطوي وفقاً للنظرية العقلية والاسلامية على معارف أولية كضرورة بديهية . والمقصود بكلمة ضرورة بديهية هنا أن النفس تضطر إلى التصديق والإذعان بقضية معينة دون أن تطالب بدليل أو تبرهن على صحتها ، بل تجد من طبيعتها ضرورة الايمان والتصديق بها إيماناً وتصديقاً غنياً عن كل بينة أو إثبات .

إذن هناك مدركات بديهية مستقلة وسابقة على جميع تجاربنا ، ندركها بالبداهة ، ونتصرف على أساسها من دون حاجة إلى أثباتها أو إلى بينة أو قرينة أو حس أو تجربة ، فهي المقياس الأساسي لكل ما نستنتجه من العمليات التجريبية ، وهي الركيزة الرئيسية والأساسية لجميع محاور تفكيرنا ونقاشنا في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والعلمية .

ومن هذه المدركات الأولية الرئيسية :

١ - قانون العلية ، القائم على أن لكل ظاهرة وحادثة سبباً وراءها ، وأنه لا شيء من الظواهر الكونية والطبيعية يوجد دون سبب .

٢ - قانون التناسب والتناسق بين الأسباب والتتائج ، والعلل والمعلولات ، والأسباب والمسببات ، وبين المؤثرات والآثار والظواهرات .

٣ - قانون عدم التناقض ، القاضي باستحالة اجتماع الوجود والعدم في شيء واحد وفي وقت قريب واحد ، وعدم صدق الايجاب والسلب معاً بالنسبة لشيء واحد وفي زمان ومكان واحد . وبتعبير آخر ، لا يمكن أن يوجد الشيء ولا يوجد في آن واحد ، ويعبر عنه في صيغته الرمزية ألا يمكن أن تكون أ ولا أ في آن واحد .

والشرط الأساسي لاستحالة التناقض في المنظور الفلسفي ، يتمثل أساساً في وحدة ظروف كل من النفي والايجاب أو الوجود والعدم ، إذ ليس كل نفي يناقض الإثبات ، ولا كل عدم يناقض الوجود . مثلاً : عدم شروق الشمس في الكويت لا يناقض شروقها في بلد إسلامي آخر ، وعدم سقوط الأمطار في بلادنا لا يناقض سقوط الأمطار في بلاد آخر . وهكذا تتمثل وحدة ظروف أطراف الأشياء المتناقضة تبعاً للأطروحة الفلسفية الميتافيزيقية باجتماع الوحدات الثمانية التالية :

- ١ - وحدة المكان .
- ٢ - وحدة الزمان .
- ٣ - وحدة الموضوع .
- ٤ - وحدة المحمول .
- ٥ - وحدة الشرط .
- ٦ - وحدة الاضافة .
- ٧ - وحدة الجزء والكل .
- ٨ - وحدة القوة والفعل .

حينما تكتمل وتجتمع هذه الوحدات الثمانية يحصل لدينا وحدة الظروف التي يستحيل فيها التناقض من النفي والاثبات أو الوجود والعدم في نفس الوقت . وفي حقيقة الأمر ، لا يوجد بين ذات النفي وذات الايجاب بصرف

النظر عن وحدة ظروفها وشروطها أي تناقض أو إستحالة ، وإنما يوجب التناقض والاستحالة في وضع وحدة تلك الظروف والشروط . فالشيء الواحد مع إكتمال وتوافر تلك الظروف والشروط لا يمكن أن يكون موجوداً في حال عدمه ، ولا يمكن إثباته في حال نفيه .

فمثلاً القول بأن الشجرة مثمرة في الربيع وغير مثمرة في الشتاء ، ذهب الطالب إلى قاعة المحاضرات في تاريخ كذا ، ولم يذهب الى هناك بتاريخ كذا ، فلا تناقض هنا نظراً لاختلاف الزمان أو المكان وهكذا بالنسبة للوحدات الثمانية الباقية .

٤ - هناك بعض القضايا الأساسية التي يدعن لها العقل دون أن يطلب أي برهان أو دليل مثل : الكل أكبر من جزئته . العدم لا يمكن أن يكون علة لشيء ما ، التسلسل الممتنع . . . إلخ .

فهذه المبادئ والأسس العقلية التي يستند إليها المذهب العقلي واضحة وصادقة يقينية لوضوحها وصدقها الذاتي Self Evident فهي لا تحتاج إلى دليل أو برهان ، وكل ما تستطيع التجربة أن تفعله ، هو أن توضحها لا أن تبرهن عليها . ولهذا أطلق الفلاسفة العقلليون على معرفة المبادئ والأسس العامة التي نحصل عليها بدون مساعدة التجربة والملاحظة الخارجية ، اسم المعرفة الأولية أو العقلية apriori في مقابل المعرفة التجريبية البعدية التي نحصل عليها بواسطة الحس والملاحظة أو التجربة aposteriori ولو سلبت هذه المعرفة البديهية الأولية من الذهن البشري لما استطعنا الحكم والتعميم والتوصل الى معرفة نظرية تصديقية مطلقاً .

فبواسطة مصادر المعرفة الحسية التي أدواتها الحواس ، تنقل الى الذهن معارف أو إدراكات وتصورات معينة ، ثم يقوم الذهن الانساني بما ينطوي على إمكانيات وطاقات معينة ، تتمثل بتلك المعارف الأولية الضرورية ، بعملية إبتكار أو إنشاء معارف ثانوية عليها ، بأن يقوم الذهن بانتزاع وتوليد

معارف ومفاهيم جديدة من تلك المعاني الأولية ، وهذه المعاني والحقائق الجديدة هي خارجة عن طاقة الحس وإن كانت مستنبطة ومستخرجة من المعاني التي يقدمها الحس الى الذهن والفكر^(١) .

فعلى سبيل المثال ، نستطيع تفسير عملية الادراك العقلي والتوصل الى معارف وحقائق حقيقية ويقينية تصديقية وفقاً لنظرية الانتزاع أو المذهب العقلي عند المسلمين على النحو التالي : هل الجسم أم الأعصاب وسائل لنقل الألم ؟ أم بواسطة المشاهدات الباطنية ؟! أو بواسطة أي شيء ؟ وهل أن نيوتن حينما اكتشف قانون الجذب كان ذلك من خلال نظرة واحدة إلى عملية سقوط التفاحة من الشجرة ، أم عدة نظرات ؟ أو تم ذلك عن طريق الادراكات والمعلومات المستقاة من الحواس ونظائرها ثم التأمل والتمعن فيها ودراستها وتحليلها ، ومن ثم تركيبها والحصول بعد عملية التحليل والتركيب على النتيجة التالية : وهي أن رابطة وعلاقة معينة تقوم بين الأجسام المادية ، تجذب الواحدة نحو الأخرى ، ثم اكتشف جزءاً من قانون الجذب AT traction law ، بعد ذلك كشف قانونين . أولهما : قانون الانجذاب نحو المركز ، وثانيهما : قانون الانفلات من المركز وتم في النهاية إكتشاف معادلة قانون الجذب بمثابة معادلة فيزيائية علمية ؟

والانسان - عادة - غير قادر على إكتساب جزء معين من الادراكات بالمشاهدات الظاهرية والباطنية ونظائرها ، لأن اكتسابها وادراكها يستلزم التفكير ، وبتعبير أدق وأفضل يحتاج إلى عملية تحليل وتركيب إدراكات ومعلومات النوع الأول « الصادرة من الحواس » والاستنتاج منها .

وبتعبير المرحوم الحاج ملاهادي السبزواري : (الفكر حركة الى المبادئ ، ومن المبادئ إلى المراد) .

(١) الامام محمد باقر الصدر - فلسفتنا - دار التعارف للمطبوعات - بيروت لبنان - الطبعة العاشرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ٦٨ - ٧٠ .

وحيثما نواجه سؤالاً معيناً ، نلجأ إلى التحليل والتركيب لإيجاد الجواب الشافي له . وبتعبير آخر نلجأ الى العناصر الأساسية فنختار - مثلاً - سلسلة من العناصر الأساسية للدراك ، ثم نضع الواحدة الى جانب الأخرى ونرتبها ترتيباً معيناً ، بغية التوصل إلى نتيجة معقولة . أي إننا نتحرك من المبادئ والعناصر الأولية للدراك نحو الهدف المطلوب بحركة فكرية ، وبعبارة أخرى القيام بالتفكير أي التحليل والتركيب بغية إستنتاج إدراكات وحقائق من نوع آخر .

والتأمل حق التأمل ، يستشف بكل وضوح وجلاء ، وبدون أي شك أو ريب ، إن تكامل وتطور العلوم والمعارف البشرية يتوقف بدرجة كبيرة على الفكر . أي إستخدام قوة التحليل والتركيب ، وإستنتاج إدراكات النوع الثاني . وإن القراءة العابرة والسطحية حول عوالم الوجود ، وإن كانت تتميز بالتحقيق والبحث العلمي العميق حولها كتلك التي يمارسها العلماء في مختلف العلوم مثل علماء الهيئة والفلك أو علماء الأرض أو علماء الحياة ، أو علماء النفس وغيرهم ، لا تتجاوز في الواقع قراءة لغلاف الكتاب دون التوغل في ثنايا صفحاته أو القيام بالتحليل والتركيب والتفسير والإستنتاج . فهي في حقيقة الأمر ، لا تجدي شيئاً ، ولا يفهم الانسان منها شيئاً . وعلى عكس القراءة المتواجدة في ذهن الانسان ، أو التفكير الذي يعني حركة الفكر في المعلومات التي وجدت في الذهن مسبقاً . فالتفكير كالسباحة التي تتلاعب بالانسان ، هنا وهناك ، فلا بد من توافر معلومات مسبقة ، ليتمكن الانسان من التفكير فيها ، ولا بد من وجود ماء ليتمكن الانسان من السباحة فيه .

وبناء على ذلك نستنتج بعض الحقائق التالية :

- تصبح نتائج الميتافيزيقا والرياضيات نتائج قطعية في الغالب دون النتائج العلمية في الطبيعيات . نظراً لعدم إحتياج الأسس الأولية الى تجربة كما هو الحال بالنسبة للطبيعيات التي عادة ما تكون ناقصة وقاصرة عن كشف جميع الشروط .

- وإن المبادئ العقلية الضرورية البديهية هي الركيزة الأولى والأساس العام لجميع الحقائق العلمية .

٢ - مصداقية وقيمة النظريات والنتائج المستخلصة من التجارب العلمية موقوفة ومستندة أساساً على مدى دقتها في تطبيق تلك المبادئ البديهية العقلية الأولية . وبالتالي لا يمكن إطلاق صفة العلمية والموضوعية المطلقة للنتائج والنظريات ، إلا إذا أستوعبت التجربة كل إمكانيات المسألة ، وبلغت من الدقة المتناهية في تطبيق تلك المبادئ الأولية الضرورية .

٣ - تركز هذه النظرية في تفسير وإدراك القضايا والمسائل الميتافيزيقية على تطبيق تلك المبادئ الضرورية الأولية البديهية ، ولكن بشكل مستقل عن التجربة . فعلى سبيل المثال ، حينما يحاول المفكر إثبات العلة الأولى للعالم ، يستخدم العقل بما ينطوي على تلك المبادئ الأولية فيطبّقها على هذه المسألة ، بموجبها يضع نظريته الايجابية أو السلبية ، ونظراً لكون المسألة غير تجريبية ، فالتطبيق هنا يحصل في العقل ، أي من خلال عملية تفكير وإستنباط وإستدلال عقلي بحث وبصورة مستقلة تماماً عن التجربة .

وبناء على ذلك ، تتباين مسائل الميتافيزيقا وتختلف عن العلوم الطبيعية في مجالات عديدة ، وهذا لا يمنع من إن إستنتاج نظرية فلسفية أو ميتافيزيقية من المبادئ الأولية الضرورية في بعض الأحيان يتوقف على التجربة أيضاً ، مما يؤكد أن قيمة ودرجة النظرية الفلسفية متماثلة للنظريات العلمية .

٤ - المعرفة التصديقية وليست المعرفة التصويرية هي التي تكشف لنا عن حقائق وإدراكات موضوعية للتصورات ، وإنها لها واقع موضوعي خارج الذهن ، ولها صورة في أذهاننا .

قال الامام الصادق (ع) : في حديث الأهليلة . . . أما إذا أبيت إلا

الجهالة وزعمت أن الأشياء لا تدرك إلا بالحواس ، فإنني أخبرك أنه ليس للحواس دلالة على الأشياء ، ولا فيها معرفة إلا بالقلب ، فانه دليلها ومعرفة الأشياء التي تدعي أن القلب لا يعرفها إلا بها . . . إنك تعلم أنه ربما ذهبت الحواس أو بعضها ، ودبر القلب للأشياء التي فيها المضرة والمنفعة من الأمور العلانية والخفية ، فأمر بها ونهى ، فنفذ فيها أمره ، صحح فيها قضاؤه . . . ألسنت تعلم أن القلب يبقى بعد ذهاب الحواس (١) .

وقال الامام الصادق (ع) : أخبرني هل تحدث نفسك من تجارة أو صناعة أو بناء أو تقدير شيء وتأمر به إذا أحكمت تقديره في ظنك قال : نعم قال (ع) : فهل أشركت قلبك في ذلك الفكر شيئاً من حواسك ؟ قال : لا . قال (ع) أفلا تعلم أن الذي أخبرك به قلبك حق ؟ قال : اليقين هو . . . (٢) .

وإن هذه المعرفة التصديقية مضمونة بمقدار إرتكازها على المبادئ البديهية والضرورية . وإن الصورة الذهنية التي نكوها عن واقع موضوعي معين فيها ناحيتان : فهي من ناحية صورة الشيء ووجوده الخاص في ذهنه ، فهي تختلف عن الواقع الموضوعي إختلافاً أساسياً - من حيث : عدم تمتعها بالخصائص الموجودة في الواقع الموضوعي ، كفقدان الفعالية والنشاط الموجود في ذلك الواقع الموضوعي . فالصورة الذهنية التي نكوها عن المادة أو الشمس أو الحرارة مهما كانت دقيقة ومفصلة فهي لا تتماثل ولا تتساوى بنفس الأدوار الفعالة التي يقوم بها الواقع الموضوعي لتلك الذهنية في الخارج .

وبلغة الفلاسفة يوجد تباين وإختلاف جوهري وكبير بين الماهية والوجود .

(١) البحار ٥٥/٦١ .

(٢) البحار ٦٢/٦١ .

ونستخلص من ذلك ، إن الأحكام والإدراكات العقلية التي يتم التوصل إليها عن طريق العقل بأسلوب الابتداع أو الانتزاع تتسم بالخصائص والسمات التالية :

- ١ - تتسم بالشمول دون التجزئة والتخصص فيها ، فعلى سبيل المثال ، إذا اعتبرنا بقبح وذم الرذيلة ، فهنا يحكم العقل بالشمول دون تخصيص هذا القبح للرذيلة سواء كانت صادرة من شخص صغير أو كبير ، في عصر قديم أو معاصر ، في مكان معين أو آخر ، وإذا كانت الحادثة تستلزم وجود سبب موجد لها فلا فرق بين حادثة صغيرة لرمي كرة السلة أو وجود كرة الأرض ، أو وجود الكون والحركة فيه .
- ٢ - الأحكام الصادرة من العقل قطعية ثابتة وجازمة لا تقبل الريب أو الشك . . . فالحكم بقبح الكذب والظلم والقتل بدون سبب أو حسن التضحية ، وجمال الأدب والصدق والأمانة والاحترام ، أحكام يقبلها العقل دون ريب أو شك عند بني الانسان مهما كانت جنسياتهم ومعتقداتهم وثقافتهم . والشخص أو الفئة التي ترتاب فيها ، فهي في واقع الحال تحاول التخلص والفرار منها بتغيير موضوعاتها ، وبالتالي يصبح الشيء الذي تغير هو موضوع الحكم العقلي وليس الحكم نفسه . فمثلا الذي يغير معنى الكذب والظلم ليساوي بمعنى العدل والصدق ، هو الذي يقول بحسن الكذب والظلم . وهذه الأحكام والإدراكات الصادرة من العقل لا تتطور ولا تتبدل بتطور وتغير الأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفسيولوجية أو . . . إلخ لأنها تكشف عن الحقائق التصديقية اليقينية في خارج ذهن الإنسان .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى ملحوظة هامة مفادها : إن بعض مفكرين وفلاسفة الإسلام أمثال أبي القاسم الأصفهاني والامام الغزالي وغيرهما قد أشاروا في بحوثهم ودراساتهم الفلسفية إلى محدودية وقصور العقل في إدراك مجموعة متنوعة من الإدراكات

والحقائق مثل الأمور والقضايا الغيبية أو الدينية والخلقية أو الألوهية والنبوة والروح والآخرة وأمور العقيدة ، وبصورة عامة أعمال العبادات ، والأمر باتباع الحسن وترك القبيح . وإن العقل لا يملك القدرة والإمكانات في الحكم بقبح الظلم وحسن العدل ، ولا يستطيع الهداية اليهما لوحده « لو تخلى عما تواضع الناس عليه من عرف وعادة ، وعما تتابع وروده عن لسان الرسل والأنبياء ، فليس هذان الحكمان مثلاً مثل الاثنان أكبر من الواحد ، أو السلب والإيجاب لا يصدقان في حالة واحدة ، واذن فمناط التحسين والتقبيح أمر وراء العقل ، ولذلك أن الحسن والقبح شرعيان لا عقليان »^(١) .

بينما نلاحظ أن المعتزلة أشادوا بالعقل ، ورفعوا من شأنه إلى آخر درجة ، وأسرفوا في تمكثهم به ، وغالى أهل الظاهر في جمودهم على ظاهر النص ، فوقف الامامية وكثير من الأشاعرة موقفاً وسطاً بين الفريقين والتزموا تأويل ظاهر للكتاب والسنة مخالف لبديهة العقل ، وأعرض المعتزلة عن هذه المحاولة^(٢) . ولقد ذكر الدكتور توفيق الطويل في كتابه « أسس الفلسفة » .

« إن إصطناع العقل قد طوح بفرق المتكلمين حتى أدى ببعضها إلى الشطط ، من ذلك أن بعض الخوارج ، وهم يشبهون المعتزلة العقليين في المسائل ، قد رفضوا أن تكون السنن المأثورة مرجعاً للأحكام . . . بل غالت إحدى فرق الخوارج غلواً أدى بها إلى الطعن في بعض سور القرآن فالميمونة أنكرت سورة يوسف (ع) . . . لأنها قصة عشق . . . وإلى مثل هذا الشطط ذهب بعض المعتزلة ، فأروا أن الآيات التي حملت على خصوم النبي

(١) د. سليمان دنيا « الامام الغزالي » معيار العلم ، القاهرة : دار المعارف المصرية ، ١٩٦١ -

ص ٥ .

(٢) الشيخ محمد جواد مغنية ، فلسفات الاسلامية ، دار التعارف للمطبوعات بيروت - لبنان

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ص ٤٢٢ .

مثل « تبت يد أبي لهب » لا يعقل أن تكون من القرآن ، لأنها لا تتمشى مع قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ »^(١) .

ويقول الراغب الأصفهاني - في هذا الصدد - في كتابه « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين »

« واعلم أن العقل بنفسه قليل الغناء ، لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها ، نحو أن يعلم جملة حسن إعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطي الجميل ، وحسن إستعمال العدالة وملازمة العفة ، ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك في شيء شيء ، والشرع يعرف كليات الأشياء ويبين ما الذي يجب أن يعتقد في شيء شيء ، وما الذي هو معدله في شيء ولا يعرفنا العقل مثلاً أن لحم الخنزير والدم والخمر محرم . . . فإن أشباه ذلك لا سبيل اليها إلا بالشرع . فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة - والدال على مصالح الدنيا والآخرة ، ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل »^(٢) .

وخلاصة القول ، أن المستقرىء أو المستوعب لنظرية الانتزاع ، يستطيع أن يكون لنفسه إطاراً فلسفياً متكاملأ متناسقأ مع البرهان والتجربة ، ومفسراً لجميع المفردات التصورية بشكل متماسك ومنسجم مع الإطار الاجمالي الكلي لفلسفته .

وانطلاقاً من هذه النظرية ، نستطيع أن نستوعب كثيراً من القضايا والموضوعات الفلسفية الدقيقة التي تستخدم في القضايا العلمية والحياتية للانسان . فتأسيساً على ذلك ، يمكننا إدراك وإستيعاب كيفية إنبثاق

(١) د. توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، دار النهضة ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ١٩٦٧ ، ص ٢٨٩ .

(٢) كما نقله : مصطفى عبد الرزاق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ ، ص ٨٣ .

مفاهيم العلة والمعلول ، والجوهر والعرض ، والوجود والوحدة ، ... الخ
في الذهن البشري .

فهذه المفاهيم والمعاني أو الحقائق كلها إنتزاعية منبثقة ومبتكرة أو متولدة
من الذهن البشري على ضوء المعاني المحسوسة المنتقلة عن طريق أجهزة
الحواس عند الانسان ، فعلى سبيل المثال نحن ندرك ونحس بغليان الماء
حين تصل درجة حرارته مائة تحت ضغط جوي معين ، وبتكرار إدراكنا
وإحساسنا بهاتين الظاهرتين - ظاهرتي الغليان والحرارة - عدة آلاف من
المرات دون إدراكنا وإحساسنا بعلية الحرارة للغليان مطلقاً ، وإثنا الذهن
البشري حينها تصل له هذه الاحساسات والادراكات الأولية يقوم بعملية
إبتكارية إنشائية ينتزع مفهوم العلية من هاتين الظاهرتين^(١) .

- أن إنكشاف وتحصيل المعرفة أو الحقائق والموجودات في الإنسان بشكل
مباشر ودون واسطة لأي جهاز من أجهزة أو أدوات المعرفة كالعقل
والاحساس ، هو مجال العلم الحضورى في الأشخاص العادين المنطلقة
من النفس الإنسانية وقواها وأفعالها وإنفعالاتها .
- إن القضايا المنطقية تدرك عن طريق العقل فقط .
- أن القضايا الفلسفية والأحكام الكلية تعرف وتدرك أساساً بوساطة
العقل ، وإن كانت أجهزة الحس تغذى وتنقل معارف وصور شرطية
لازمة لتصوير الموضوع وإستنتاج تلك القضايا الفلسفية الكلية .
- إن إستيعاب وإدراك القضايا الغيبية (الميتافيزيقيا) أي الأمور غير المادية ،
لا يتم إثباتها ومعرفة ماهيتها والتصديق بها إلا من خلال العقل
وأدواته .
- أن القضايا الجزئية المنبثقة عن أجهزة الحس والادراك الحسى عند

(١) الامام محمد باقر الصدر - فلسفتنا - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٧٠ - ص ٦٦ -

الانسان ، هي بالرغم من إنها أمور حسية ، إلا إنها تحتاج الى أصول العقل لكي تثبت واقعيته ووجودها الموضوعي الخارجي .

وفي نهاية الأمر ، نختصر القول ، بأن القضايا والمدركات المكتسبة لا نملك الحكم عليها إلا بعد إجراء عملية إستدلال وإستنباط أو إستنتاج فكري ، نحصل بواسطتها على معارف تصديقية نذعن لها ونسلم بها ، وذلك إستناداً على المعارف الأولية الذاتية التصديق والادراك ودون حاجة إلى برهان أو دليل . وبناء على ذلك ، تصبح جميع معارفنا النظرية سواء كان مصدرها الحس أو التجربة أو سواهما ، تستنبط وتستنتج ، أو تنبثق وتنتزع من المعارف العقلية القبليية التي تدرك ببداهة العقل ، وذلك من خلال العملية التفكيرية .

الفصل السابع

القلب Heart

مقدمة :

بادئ ذي بدء ، وقبل أن نخوض ونستعرض الأمور والقضايا المتعلقة بالقلب وماهيته ومدى مصداقيته كمصدر للمعرفة الانسانية من منظور الإسلام ، دعونا نتجول ونتأمل في المقولات والجمل التي طرحتها مجموعة كبيرة من الفلاسفة والمفكرين حول هذا العضو الصنوبري الشكل .

يقول الامام الغزالي : « إن نفسه عادت الى الصحة والاعتدال بنور قذفه الله تعالى في الصدر » (المنقذ من الضلال) .

وقوله : « إذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وتكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الفذة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية »^(١) .

ويقول الصوفيون : إن القلب موضع المعرفة ، وهو علم المعارف وعلم الأسرار^(٢) . إنه علم المكاشفة والمشاهدة ، كذلك هو علم الحقائق والخواطر ، علم الباطن والإشارة ، علم الورع^(٣) .

(١) الامام الغزالي ، إحياء علوم الدين ، الجزء الثالث ، ص ١٨ .

(٢) الرسالة القشيرية ، نقلًا عن أبو العلاء عفيفي (كتاب المهرجان لابن سينا) ، ص ٤٤٣ .

(٣) من هنا تسمية الحلاج بهذا اللقب ، إنه حلاج الأسرار .

إنه علم وكشف نوراني لدين يقذفه الله في القلب فينكشف للصوفي وينقدح في قلبه إنقادحاً .

من ذلك علم الخضر: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾^(١)، وكذلك علم موسى ، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾^(٢) . والعلم اللدن عند ابن سينا هو « سريان نور الإلهام »^(٣) .

ويقول باسكال : « إننا لا ندرك الحقيقة بالاستدلال العقلي وحده بل ندركها بالقلب أيضاً ، وكذلك معرفتنا بالمبادئ الأولى ، فهي لا تتم إلا بهذا النوع الثاني من الإدراك ، ومن الواجب على العقل أن يرجع إلى إدراكات القلب والغريزة ، وإن يبنى عليها نظرة وإستدلال »^(٤) .

ويرى برجسون : « أن العقل أداة العلم ، أما الوجدان Intuition فهو أداة الفيلسوف ، إذ أن العقل لا يدرك إلا الصفّ والمنفصل والكم ، والعدد و . . . إلخ وبالجملة المادة . بخلاف هذا تماماً الوجدان : إنه يضعنا فوراً في عمق الواقع ويجعلنا نشهد الصيرورة الخالقة »^(٥) .

وهناك في الواقع مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية المجيدة والأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول موضوع القلب من صفاته وماهيته وأهميته أو دوره في الحياة ، فسوف نذكر بعضها في مواضع أخرى .

وهناك مجموعة كبيرة أخرى من الفلاسفة والمفكرين المعاصرين الذين يرون دور القلب وأهميته في إكتساب المعارف اليقينية من أمثال الكسيس

(١) سورة الكهف - آية ٦٥ .

(٢) سورة النساء - آية ١٦٤ .

(٣) العلم اللدن ، ص ٢٠٢ .

(٤) خواطر باسكال ، ص ٤٥٩ من طبعه بروتشويك .

(٥) برجسون ، المدخل الى الميتافيزيقيا .

كارل الفيلسوف والعالم الفرنسي المشهور ، وكذلك رواد ودعاة المدرسة
العرفانية وغيرهم .

مقابل ذلك ، هناك مذاهب فلسفية عديدة لا تعطي أي إهتمام أو دور
للقلب كمصدر للمعرفة الإنسانية من أمثال المذهب الحسي والتجريبي
وبعض المذاهب العقلية ، والمذهب الوجودي والبرجماتي والواقعي
والماركسي . . . إلخ .

وبعد هذه المقدمة المختصرة نود أن نبين بكل وضوح وجلاء ، الموقف
الفلسفي الإسلامي للقلب كمصدر من مصادر أو منابع المعرفة الإنسانية .
وذلك من منطلق معين يتسم بتحديد وتعريف القلب من جانب لفظي
وإصطلاحي وقرآني ، ثم ننطلق بشرح الأدلة والبراهين التي تثبت لنا أن
القلب مصدر من مصادر المعرفة ، ونود أيضاً استيضاح كيفية حصول المعرفة
اليقينية للقلب .

تعريف القلب :

إن للقلب معنيين : الأول . هو عبارة عن ذلك الجسم أو العضو المادي الصنوبري الشكل ، المودع في الجانب الأيسر من الصدر يستقبل الدم من الأوردة ويدفعه في الشرايين ، وهذا المعنى من القلب مشترك بين الإنسان وسائر أنواع الحيوانات .

المعنى الثاني : وهو عبارة عن لطيفه ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق . وهي حقيقة الإنسان التي يسميها الحكماء بالنفس الناطقة أو العقل، ويعبر عنها تارة بالقلب وتارة بالنفس وتارة بالروح وتارة أخرى بالإنسان . وهو يعتبر ذلك الجانب العاقل والعارف والمدرك والمفكر في الإنسان ، الذي تتم المعرفة ويحصل الايمان ، ويتعلق كل تكليف شرعي وكل مسؤولية(*) .

وقلب الشيء لبه وباطنه^(١) : وهو ضد ظاهره، والظاهر لا يدل على الباطن دائماً ، لأن الإنسان قد يخفي ما في نفسه ، فيكون مطمئناً في

* وإذا أطلق القلب على مجموع الأحاسيس والعواطف دل على معنى مقابل لمعنى العقل ، قال : (لاروشفوكولد) : يظن الإنسان انه خير ، وهو في الحقيقة مسير . إذا وجه عقله إلى هدف معين ، دعاه قلبه إلى غيره (ر : كتاب الحكم XLii ، للأروشفوكولد ، وراجع أيضاً : الفصل الرابع من كتاب الطبائع والسجاياء للأبروير ، وعنوانه : القلب) .

(١) د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ ص ١٩٩ .

الظاهر ، مضطرباً في الباطن ، او بالعكس .

والقلب عند بعض الفلاسفة مركز القوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة .
وقد يطلق لفظ القلب على الشعور بالعطف ، أو الحنان ، أو الرحمة أو
المحبة ، أو غيرها من الأحوال الوجدانية ، ومن الأمثال السائرة قولهم ، من
القلب إلى القلب ، وقولهم : لبعض القلوب عيون ، وقولهم : القلب
مصحف البصر .

معنى القلب في القرآن :

التأمل حق التأمل ، والمتبحر في أعماق النفس البشرية من خلال
إستنطاق تلك الآيات الشريفة ، وإستقراء المعارف العلمية والأحاديث
النبوية الشريفة ، يستنتج أن للإنسان وجوداً حقيقياً متكاملًا واحداً له آلاف
الأبعاد الوجودية الفرعية الأخرى .

فالشواهد والقرائن الواردة في مواضع عديدة في كتاب الله المقدس ،
تؤكد أن المراد من القلب بالمصطلح القرآني هو الإنسان ، بمعنى النفس
والروح ، وإن التعقل والتفكر ، والحب والبغض ، والخوف والشجاعة
والإقدام وأمثال ذلك من الصفات النفسية الروحية ، إن أمكن أن ينسبه
أحد إلى القلب باعتقاد أنه العضو المدرك في البدن على ما يعتقدُه العامة كما
ينسب السمع إلى الأذن ، والإبصار إلى العين ، والذوق إلى اللسان ، ولكن
الكسب والاكْتساب مما لا ينسب إلا إلى الإنسان البتة^(١) .

ونستفيد من الآيات القرآنية الشريفة أمثال : ﴿فإنه آثم قلبه﴾^(٢) وقوله

(١) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، تفسير الميزان ، مؤسسه الأعلمي للمطبوعات ،
بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣ م الجزء الثاني ص ٣٢٣ - ٢٢٥ .

(٢) سورة البقرة - آية ٢٨٣ .

تعالى : ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾^(١) ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾^(٢) ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة (ع) أمثال : إن القلب إذا صفا ضاقت به الأرض حتى يسمو^(٣) «وقول الإمام علي (ع)» إن صفاء النفس وتزكيه يوصل الإنسان إلى مقام فيه المعارف اليقينية الحقيقية^(٤) ، وتؤكد كثير من بحوث علماء المسلمين وغيرهم ، إن الآثار والخواص الروحية كالإحساسات الوجدانية مثل الشعور والإرادة ، والحب والبغض ، والرجاء والخوف ، وأمثال ذلك كلها للقلب ، بعناية أنه أول متعلق للروح .

المتبع والمستقرىء لآراء وأفكار فلاسفة الإسلام الأولين ، يرى بكل وضوح وجلاء أن المحاولات الفكرية والفلسفية عن النفس وماهيتها ومصداقيتها وحقيقتها برزت بشكل جاد وواضح في فكر ابن سينا . فهو أثبت في دراساته الفلسفية وجود النفس وعرفها وبين حقيقتها . فيردد أولاً عبارة أرسطو المشهورة من أنها « كمال أولي لجسم آلي » فهي اذن صورة الجسم ، والصورة تفتى بفناء مادتها . لذلك لم ير ابن سينا أبداً من أن يذهب إلى أن النفس جوهر روحي ، هي جوهر لأنها تستطيع القيام بذاتها ، وروحية لأنها تدرك المعقولات ، والمعقولات لا يمكن أن تكون في جسم ولا قائمة بجسم .

ويرى ابن سينا أن النفس جوهر في ذاتها ، وصورة من حيث صلتها بالجسم^(٥) . ولقد قدم ابن سينا عدة أدلة وقرائن تتسم بالعمق والدقة من

(١) سورة ق - آية ٣٣ .

(٢) سورة البقرة - آية ٧ .

(٣) أصول الكافي ٢ / ١٣٠ .

(٤) أصول الكافي كتاب الأبحاث والكفر ٢ / ٥٣ .

(٥) إبراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية ، ص ١٩٧ - ٢١٨ .

أشدها أخذاً وأعظمها إبتكاراً هي « برهان الرجل المعلق في الفضاء » وملخصه إنا لو تصورنا شخصاً متكامل القوى العقلية والجسمية ، ثم غطى وجهه فلا يرى شيئاً ، وترك في الفضاء يهوي هويًا ، بحيث لا يمس شيئاً ولا يحس بأي إحتكاك ، فإنه لا يشك برغم هذا أنه موجود ، ولا شأن للحس ولا للجسم في إثبات وجوده ، وإنما قاده إليه أمراً آخر غير جسمي وهو النفس^(١) .

« فإنا » الإنسانية هي عبارة عن مجموعة كبيرة من الأفكار والآمال والخوف والحب والشوق ، . . . كلها بمثابة روافد وأنهار وجداول متجه ومتجمعة في مركز رئيسي واحد يستوعب جميع هذه الأبعاد الوجودية لحقيقة الإنسان ، وإن هذا المركز هو بنفسه بحر عميق ، وحياة مستقلة لها قوانين وسنن وأحكام وتكامل ونمو وإضمحلال ومرضى وشعور ووجدان وموت . . . إلخ .

ونستفيد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، إن المقصود بالقلب هو هذا البحر العميق ، وإن ما نطلق على الروح الظاهرية ، عبارة عن الروافد والأنهار والجداول التي تتصل بهذا البحر ، وحتى العقل بنفسه أحد هذه الروافد والأنهار التي تتصل به .

ونلاحظ أن القسم الأكبر من نداءات القرآن تخاطب قلب الإنسان . وما تزكية النفس وصفاء القلب في تلك النداءات الواردة في القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الأئمة (ع) ، إلا خير دليل على دور القلب وأهميته في استحصال المعرفة اليقينية .

﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾^(٢) .

(١) ابن سينا ، الاشارات ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) سورة الشمس الآية ٩ .

- ﴿ كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾^(١) .
- ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾^(٢) .
- ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾^(٣) .

ويتحدث القرآن عن العديد من الأعمال اللامرغوبة التي يقوم بها الإنسان ، والتي تترك آثاراً وترسبات تعيق النفس وتغلق عليها أبواب الرحمة والنور ، فتظلم وتسد ، مما لا يسمح المجال لرؤية الحقائق وإدراكها . فيقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

- ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾^(٤) .
- ﴿ كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾^(٥) .
- ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾^(٦) .
- ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾^(٧) .
- ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾^(٨) .
- ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾^(٩) .
- ﴿ فقس قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾^(١٠) .

هذه الآيات الشريفة وغيرها ، تؤكد على ضرورة إيجاد ذلك الجو الروحاني النظيف للنفس ، لكي يتسنى لها إستقبال وإستيعاب المعارف والحقائق الإلهية ، وضرورة تطهيرها وتزكيتها من الجو العفن المحيط بها من العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية .

فالنفس البشرية إذا كملت بذاتها وزالت عنها دنس الطبيعة ودرن

-
- | | |
|------------------------------|----------------------------|
| (١) سورة المطففين الآية ١٤ . | (٦) سورة الصف آية ٥ . |
| (٢) سورة الأنفال الآية ٢٩ . | (٧) سورة البقرة آية ٧ . |
| (٣) سورة العنكبوت الآية ٦٩ . | (٨) سورة الأنعام آية ٢٥ . |
| (٤) سورة آل عمران آية ٨ . | (٩) سورة الأعراف آية ١٠١ . |
| (٥) سورة المطففين آية ١٤ . | (١٠) سورة الحديد آية ١٦ . |

الحرص والأمل ، وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها ، فتتكشف لها العلوم والمعارف . ويقول ابن سينا : إن الله يحسن عنايته ، يقبل على تلك النفس إقبالاً كلياً ، وينظر إليها نظراً إلهياً ، فيتخذ في تلك النفس لوحاً ، ومن النفس الكلي قلياً ، وينقش فيها جميع علومه ، ويصير العقل الكلي كالمعلم والنفس القدسي كالمتعلم ، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس فتنتعش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر، ومصداق هذا قوله تعالى لنبيه (ص):
 ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (١) .

﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ﴾ (٢) .

﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . . . ﴾ (٣) .

﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ﴾ (٤) .

﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . . . ﴾ (٥) .

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى . . . ﴾ (٦) .

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم . . . ﴾ (٧) .

وقوله تعالى : ﴿ يشرح صدره للأسلام ﴾ (٨) .

وحول إنارة القلب يقول :

(١) سورة النساء الآية ١١٣ .

(٢) سورة يوسف آية ٥٣ .

(٣) سورة الشمس آية ٧ - ٨ .

(٤) سورة القيامة آية ١٤ - ١٥ .

(٥) سورة الأنعام آية ١٣٠ .

(٦) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٧) سورة الروم آية ٨ .

(٨) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

﴿ أن تتقوا الله يجعل لكم فرقان ﴾^(١) .
﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾^(٢) .

وإن الأعمال القبيحة تسود روح الانسان ، وتسلب منه الإتجاهات
الظاهرة النقية وقد تكرر هذا الحديث في القرآن : يقول عن لسان المؤمنين
﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾^(٣) .

ويتحدث القرآن عن قساوة القلب وتختمها ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى
سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ﴾^(٤) .

وعن عبد الله بن قاسم عن الامام الصادق (ع) أنه قال : « إذا تخلى
المؤمن من الدنيا ، سما ووجد حلاوة حب الله ، وكان عند أهل الدنيا كأنه
قد خولط ، وإنما خالط القوم ، حلاوة حب الله ، فلم يشتغلوا بغيره» .
أي أن المؤمن إذا زهد في الدنيا ، يسمو ويرتفع ويحس حلاوة محبة الله
ويتصور أهل الدنيا أنه قد جن ، في حين أن حلاوة حب الله جعلته في غنى
عنهم ، وشغله حب الله عن غيره .

قال (الراوي) وسمعته (الامام الصادق) يقول « إن القلب إذا صفا
ضاق به الأرض حتى يسمو »^(٥) .

ويقول الامام علي (ع) إن صفاء النفس وتزكيتها يوصل الانسان الى
مقام فيه المعارف اليقينية الحقيقية (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا)^(٦) .

(١) سورة الأنفال آية ٢٩ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨ .

(٤) سورة البقرة آية ٧ .

(٥) اصول الكافي ٢ / ١٣٠ .

(٦) اصول الكافي ٢ / ٥٣ كتاب الأبحاث والكفر .

وفي حقيقة الأمر ، أن كون القلب هو ذلك البحر العميق الذي تؤول إليه جميع الروافد الأخرى لا يتعارض مع كون كل عضو من أعضاء الجسم الانساني مختص ومخلوق لأداء غرض ووظيفة معينة . فالدماغ يختص للفكر ، والعين للأبصار ، والسمع للوعي ، والرئة للتنفس ونحو ذلك ، فإنها جميعاً بمنزلة أدوات وآلات ووسائل تستخدم لأداء الأفعال المنشودة . والمتتبع للأبحاث العلمية ، يلاحظ شواهد وأدلة علمية كثيرة اثبتتها التجارب والأبحاث العلمية على الطيور ، حيث وجدت بأن الطيور لا تموت بفقدان الدماغ ، بل إنها تفقد الادراك ، ولا تشعر بشيء وتبقى على تلك الحال حتى تموت بسبب نقص وفقدان المواد الغذائية ، ووقوف القلب عن الحركة والضربات .

وخلاصة القول ، نلاحظ وجود عدة معاني مترادفة للقلب ، فتارة يستخدم بمعنى النفس ، وتارة بمعنى الروح ، وتارة بالصدر لاشتماله على القلب ، وتارة أخرى بالانسان . وقدر الشيخ أبو علي بن سينا كون الادراك للقلب أن داخله الدماغ فيه دخاله الآله ، فللقلب الادراك وللدماغ الوساطة .

إذن القلب، هو ذلك البحر العميق الذي تصب جميع الروافد والأنهار والجداول مياهها فيه .

الأدلة والبراهين القرآنية على أن القلب مصدر للمعرفة الانسانية :

لا نستهدف هنا تقصي جميع القضايا والأمور التفصيلية المتعلقة بالمعرفة العرفانية القلبية ، وذلك التزاماً وانسجاماً مع الغرض الرئيسي من هذا الكتاب ولكن سنستعرض الأدلة والبراهين المستقاة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وقول المفكرين وفلاسفة الاسلام .

المستنطق للآيات القرآنية الشريفة التالية ، يستشف بكل وضوح وجلاء

دور وأهمية القلب أو النفس أو الإلهام في تحصيل المعارف اليقينية .
يقول عز وجل : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع
المحسنين ﴾ (١) والجهاد هنا معناه الوسع والطاقة والمجاهدة ، وإستفراغ
الوسع في مدافعة العدو . والجهاد له ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ،
مجاهدة الشيطان ، ومجاهدة العدو الخفي أي مجاهدة النفس .

وقوله ﴿ جاهدوا فينا ﴾ أي استقر جهادهم فينا ، وهو إستعارة كناية
عن كون جهده مبذولاً فيما يتعلق به تعالى من إعتقاد وعمل ، فلا ينصرف
عن الايمان والاثمار بأوامره والانتها عن نواهيه .

وقوله تعالى : ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ اثبتت لنفسه سبلاً ، وهي أيما
كانت تنتهي اليه تعالى فإنما السبيل لتأديته إلى ذي السبيل وهو غايتها .
فسبله هي الطرق المقربة منه والهادية إليه تعالى ، وإذا كانت نفس المجاهدة
من الهداية ، كانت الهداية إلى السبل هداية على هداية (٢) وتنطبق على
مثل ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا
يحتسب . . . ﴾ (٤) وتفسير هذه الآية يتجلى في أن من يتورع عن محارم الله ،
واحترم شرائعه فعمل بها ، ولم يتعد حدوده ، يجعل له مخرجاً ويضئ له نور
العلم والنجاة من معضلات ومشاكل الحياة ، حيث أن شريعته فطرية يهدي
بها الله الانسان إلى ما تستدعيه فطرته ، وتقضي به حاجته وتضمن سعادته
في الدنيا والآخرة . ويرزقه من الزوج والمال والعلم والادراك من دون أن

(١) سورة العنكبوت اية ٦٩ .

(٢) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي « تفسير الميزان - مؤسسة الاعلمي للمطبوعات -
بيروت - ١٩٧٣ الجزء السادس عشر ص ١٥١ .

(٣) سورة محمد آية ١٧ .

(٤) سورة الطلاق آية ٢ - ٣ .

يحتسب أي من دون الأسباب الظاهرية .

فاطلاق الآية يعني : من اتقى الله بحقيقة معنى تقواه ، وذلك بمعرفته التامة لله تعالى وأسمائه وصفاته ثم تورعه واتقاؤه بالاجتناب عن المحرمات وتحرز ترك الواجبات بقلب مخلص ونية صادقة لوجهه الكريم ، ولازمة أن لا يريد إلا ما يريد الله من فعل أو ترك ، ولازمه أن يستهلك إرادته في إرادة الله ، فلا يصدر عنه فعل إلا عن إرادة الله ، وعند ذلك ينجيه الله من مضيق الوهم وسجن الشرك بالتعلق بالأسباب الظاهرية^(١)

فصفاء النفس من خلال التربية الذاتية لها وتصفيتها من الشوائب وإزالة الحواجز والأمراض ، كلها تؤدي إلى إكتساب نوع من المعارف الحقيقية ، من حقيقة الله وصفاته ، مما يترتب عليه تجسيد إرادة الله والتقرب إليه والفوز بالدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾^(٣) .

فتقوى الله والانصياع لأوامره والانتهاة لنواهيه ، حقاً يعتبر باباً من أبواب الهداية وإكتشاف المعارف ، معرفة الحق والباطل والصواب والخطأ ، وأن ثمرة التقوى يقيناً هي نوع من المعارف اليقينية الذي يقذفه رب العالمين في قلب وصدر الإنسان . يقول الرسول الأعظم (ص) « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة » .

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) سورة فاطر - آية ٢ .

(٣) سورة الأنفال - آية ٢٩ .

الإمام علي ﴿ إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ﴾ .

وهناك آيات قرآنية أخرى يمكن إستدلال هذا المعنى منها :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (١) .

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وأن تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ (٢) .

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٣)

النفس أو القلب كمصدر للمعرفة الإنسانية :

يستفاد من الأدلة والبراهين الواردة في التأكيد على أن القلب مصدر من مصادر المعرفة ، وأن هذا المنبع أو المصدر للمعرفة يختلف عن بقية المصادر ، من حيث أن المجهود فيه لا يطلب من الذهن المعتمد على الحواس والتجارب ، ولا من العقل النقي وأقيسته المنطقية ، ولا من الوحي والأحاديث النبوية الشريفة ، ولا من كتاب ، ولا إسناد ، ولا من شيء سوى الهام القلب وحدثه وإشراقه وتنبئه الصادق ، فينبثق عنه ذلك النوع الأصيل من المعرفة اليقينية الصادقة وذلك بعد تحرره من ربه الشهوات ،

(١) سورة الحج آية ٤٦ .

(٢) سورة الكهف آية ٥٧ .

(٣) سورة ق آية ٣٧ .

والتخلص من عبودية الرغبات ، والتعلق بالملا الأعلى ، والشوق إلى الإندماج في النور الإلهي الأقدس الذي هو أثر ذلك كفيل بكشف وإسدال الستار عن ما وراء الحجب الكثيفة وإجتياز ما بعد الحواجز الصيفية ، وإضاءة ما في داخل البرازخ الكثيفة . يقول الامام علي (ع) في الدرر والغرر : « العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزهها عن كل ما يعدها » ، فإذا ما تم ذلك أصبحت النفس جديرة ومؤهلة لتلقي واستيعاب الحقائق المطلقة اليقينية الثابتة ، ومخاطبة الحق الأعلى (بقوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾) فبعين البصيرة النورانية واللطيفة الربانية التي لا تستلزم الحس والتجربة ، أو العقل والاستدلال والاستنباط نرى الكون والحقائق .

يقول الامام علي (ع) : « من عرف نفسه تجرد » .

وعنه (ع) : « من عرف نفسه فقد انتهى الى غاية كل معرفة وعلم » .

وتؤكد لنا المضامين والمعاني القرآنية المتعلقة بالنفس أو القلب وكذلك الدراسات والأبحاث العلمية في علم النفس ، من أن عملية فتح الأبواب الداخلية للنفس حتى يتسنى لها إستقبال وإستيعاب المعارف صعبة في غاية الصعوبة ، حيث يستلزم الأمر بذلك الكثير من المجهودات الشاقة والتدريبات الصعبة للتخلص من عبودية البدن ، وإيجاد حالة شعورية نفسية تجعل النفس في موضع الخوف من الله والشوق إليه . يقول الامام علي (ع) : « أكثر الناس معرفة لنفسه أخوفهم لربه » .

ومن أهم تلك العقبات والمنحنيات التي يجب أن يجتازها ويتجاوزها الانسان ، هي عقبة الفتنة والغرور المنتهين دائماً بصاحبها إلى الهوى والدرك الأسفل والبعد عن الفيوضات والآلاء الربانية والحرمان من الفتح الصمداني . يقول الإمام علي (ع) : « من لم يعرف نفسه بعد عن سبيل النجاة ، وخبط في الضلال والجهالات » .

فتسبب هذه الكدورات النفسية ، والحواجز السميكة ، والحجب

الكثيفة تظلم النفس ويمتلئ الفؤاد بالغمام ، يقول عز وجل : « ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (١) .

فالرواسب التي تعلق بقلب الانسان تمنع نمو المعرفة والحكمة ، وهي كالأملح والسموم التي تتكون وترسب في التربة تمنع المياه والأغذية أن تصل اليها فتمنع نمو البذرة وتفتك بها ، فالكبر والطمع والغضب والحقد والذنوب والأهواء التي في الصدور تعمل مقام السموم والأملاح التي تفتك بالحكمة .

« الغضب محقة لقلب الحكيم »

« الطمع يذهب الحكمة من قلوب العلماء » .

ويقول المسيح (ع) لحوارييه : « لا تكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ، ويمسك النخالة ، وكذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم ، يا عبيد الدنيا إنما مثلكم كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه ، يا بني اسرائيل إن الله يحبى القلوب الميتة بنور الحكمة ، كما يحبى الأرض الميتة بوابل المطر . إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفاء وكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار » .

وإن تزكية النفس وتطهيرها عن الهوى وملذات الدنيا والشهوات وترويضها بالزهد والجوع يساعد الانسان على تلقي الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ

(١) سورة النور الآية (٤٠) .

إذ اهتديتم الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿١﴾ .

تؤكد هذه الآية الكريمة ضرورة التدبر والتأمل لكل انسان في أمر نفسه والاشتغال والعناية بما يهم نفسه من سلوك سبيل الهدي ، ولا يشغله ما يشاهده من ضلال الناس وشيوع وانتشار المفسد والمعاصي بينهم ، فلا يشتغل بهم فالحق حق وإن ترك ، والباطل باطل وإن اخذ به .

تجدد الاشارة هنا ، إلى أن هذه الآية والآيات الأخرى لا تنافي آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإن الآية إنما تنهي وتحذر المؤمنين في الاشتغال بضلال الناس عن اهتداء انفسهم واهلاك انفسهم في سبيل انقاذ غيرهم وقوله تعالى : ﴿ عليكم انفسكم ﴾ دلالة واضحة وحجة دامغة على أن النفس المؤمنة ، هي الطريق الذي يؤثر بسلوكه ولزومه ، وهو الطريق والمنهاج الذي لو سلكه وانتهجه لعرف الطريق المستقيم « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوا ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » إلى خالقه وسعادته في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) .

هذه الآية والآيات الأخرى تتجلى فيها أهمية مراقبة ، النفس وملاحظتها بشكل دقيق ومستمر وفي شتى أنواع حركاتها وسكناتها . فللنفس حساب وعقاب في مسيرتها الارتقائية التكاملية ، ولها طريق فيه بداية ونهاية ولها هدف تجل في الاسلام منهجاً وطريقاً للتقرب الى الله والفوز بالجنة ونعيمها كهدف وغاية كبرى . فإن نسيان الغاية والهدف ، يترتب عليه فقدان السبيل

(١) سورة الحشر آية ١٨ - ١٩ .

(٢) سورة الأنعام - آية ١٥٣ .

والطريق ، ومن تيه الطريق لم ينل مراده ولا يصل إلى غايته . فمن نسي ربه نسي نفسه - وهذا معنى ما ورد في قول النبي (ص) : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

هذا ما حاولنا استعراضه من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، فيما يتعلق بالقلب أو النفس كمصدر من مصادر المعرفة الانسانية ، والآن نرى من الأهمية بمكان ، أن نستعرض أو نستقرئ بعض الآراء والأفكار المتعلقة بالقلب كمصدر للمعرفة الانسانية والواردة على ألسن فلاسفة الإسلام ومفكري العجم في فترات التأريخ الغابرة حول القلب كمصدر للمعرفة .

المستقرئ لأدبيات الفكر القديم والمعاصر ، والمتأمل في حال الأمم وستهم وسيرهم والمحلل لعقائدهم وأعمالهم الفكرية والاجتماعية ، يلاحظ بوضوح وجلاء ، مدى إهتمامهم وعنايتهم الخاصة ، وإنشغالهم بمعرفة النفس من حيث الماهية ، والعوامل المؤثرة فيها ، والطرق المختلفة لتربيتها ، وكيفية التوصل الى معارف وعجائب آثارها .

والتأمل أو المحلل للشواهد والقرائن التاريخية المتعلقة ببقايا آثار الأساطير والسحر والكهانة في إفريقية وبين الأقاليم الهمجية وغيرها ، تؤكد مصداقية وصحة تلك المقولة .

والمتابع للأديان والمذاهب القديمة كالبرهمانية والبوذية والصابئة والمناوية والمجوسية واليهودية والنصرانية ، يستشف بكل وضوح وجلاء ، مدى التركيز والاهتمام الكبير الذي أحيط بمعرفة النفس والحصول على آثارها .

فالبرهمانية - وهي مذهب الهند القديم - تدعو الى تزكية النفس وتطهير السر وخاصة للبراهمة أنفسهم .

ومذهب الجوكية أصحاب الأنفاس والأوهام ، لهم نوع خاص من الرياضة الشاقة وتحريم اللذائذ الشهوانية على النفس .
والمذهب البوذي الذي جاء به بوذا ، من أهم سماته وتعاليمه ومبادئه ، هو تهذيب النفس ، ومخالفة هواها ، وتحريم لذائذها عليها للحصول على حقيقة المعرفة .

والمانوتية وأهل الكتاب كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، كتبهم المقدسة وأبحاثهم الفكرية والاجتماعية (أمثال العهد العتيق والعهد الجديد وأوستا) مشحونة ومملوءة بالإلحاح والدعوات الحثيثة إلى إصلاح النفس ، ورفع ستار الظلمات ، ومحو الترسبات والطبقات الغبارية الكثيفة ، وتهذيب النفس ، ومخالفة هواها .

وحيثما نستقرىء أدبيات الفكر الاسلامي وتاريخ فلسفته ، نلاحظ أن الفلاسفة المتصوفين هم بالدرجة الأولى أعطوا هذا المنشأ أو المنبع غاية الأهمية والإهتمام حتى أصبح في نظرهم هو المنبع الرئيسي والوحيد الذي بواسطته يستطيع الانسان تحصيل المعارف الإنسانية . ومعظم كتبهم وأبحاثهم الفلسفية تتمحور وتتمركز حول إبراز أهمية ودور هذا المنبع في حياة الانسان ومسيرته الارتقائية التكاملية ، ومدى مصداقية وصحة هذا الأصل وذلك من خلال تبيان وشرح أصوله وأدلته ووجوده وأنواعه وأوجه تفصيله على الاعتبار العقلي والادراك الحسي .

ويقسم المشتغلون أو أصحاب مذاهب العرفان أو الإلهام إلى طائفتين رئيسيتين :

الأولى :

إذا كان الفلاسفة الرييون يطلون أحكام العقل وينكرون حقيقة العلم فإن الفلاسفة المتصوفين يتعلقون بالحقيقة ويؤمنون بإمكان الوصول إليها ، والفرق بينهم وبين الفلاسفة العقلين إنهم يخسون العقل حقه ،

ويبالغون في قيمة الكشف الباطني ، وتأثير القلب ، والخيال ، في الوصول الى الحقيقة .

وقد يطلق لفظ التصوف (Mysticism) على النظريات التي يهيم أصحابها في بيداؤ الوهم ، ويعتمدون في إدراك الحقيقة على العاطفة والحدس والخيال أكثر من اعتمادهم على الملاحظة والتجربة الحسية والاستدلال ، ويزعمون أن في وسعهم أن يدركوا بالإلهام أسراراً لا يدركها العلماء بعقولهم . وهذا المعنى كما ترى لا يخلو من زراية (ر : الصوفي) نفسية يشعر فيها المرء بأنه على اتصال بمبدأ أعلى .

قال الجرجاني في تعريفاته : التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً ، فيرى حكمها من الباطن في الظاهر ، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال . وقال الجنيد : التصوف هو ترك الاختيار ، وقال أيضاً : الصوفية هم القائمون مع الله تعالى بحيث لا يعلم قيامهم إلا الله ، وقال الشبلي : التصوف هو حفظ حواسك ومراعاة أنفاسك ، وقيل : التصوف هو بذل المجهود في طلب المقصود ، والانس بالمعبود ، وترك الاشتغال بالفقود . وقيل أيضاً : تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخمد صفات البشرية ، ومجانبة الدعاوى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة ، واستعمال ما هو أولى على السرمدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله تعالى على الحقيقة ، واتباع رسوله في الشريعة . واصل التصوف الأعراض عن الدنيا ، وترك التكلف ، ونهايته الفناء بالنفس ، والبقاء بالله ، والتخلص من الطبائع والاتصال بحقيقة الحقائق . لذلك قيل : أول التصوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة من الله (1) .

ويطلق لفظ الصوفية في أيامنا هذه على الفلاسفة الذين يقولون بإمكان الاتحاد الباطني المباشر بين الفكر البشري ومبدأ الوجود ، بحيث يؤلف هذا

(1) د . جميل صليبا - المعجم الفلسفي . دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ .

الاتحاد حالتي وجود ومعرفة بعيدتين عن حالتي الوجود والمعرفة الطبيعيين وأعلى منهما .

ويطلق لفظ التصوف أيضاً على مجموع الاستعدادات الانفعالية والعقلية والخلقية المتصلة بهذا الاتحاد . وظاهرة التصوف الذاتية بهذا المعنى هي جوهرها المقدس كالتصوفة على اختلاف طبقاتهم ومسالكهم . هذا ما ورد عن التصوف في المعجم الفلسفي .

والتصوف Mysticism ظاهرة قديمة قدم الانسان ، يمكن تقسيمه وتصنيف أصحابه ودعاته إلى قسمين أو صنفين رئيسيين هما :

أ - أصحاب ودعاة هذه الطائفة يسلكون سبلاً وطرقاً معينة لمعرفة النفس وتربيتها وتهذيبها بشكل يؤدي في نهاية الأمر إلى ظاهرة الغفلة والبعد عن أمر صانعها - الله عز وجل - الذي هو السبب والحق الأخذ بناصية النفس في وجودها وأثارها . فهذه الفئة تبعد عن الخالق والهادي والمحجوب والمعشوق للنفس بسبب تمسكهم وإتباعهم لطرق وسبل بشكل يعتبرونها غاية وهدفاً وليست وسيلة وأداة ، مما يرزفون شيئاً من معارفها من غير أن يتم لهم تمام المعرفة لها ، لأنهم اهتموا وركزوا فقط على النفس وأهملوا ما دونها، مما ترك فجوة وهوة عميقة بينها وبين خالقها وصانعها . ويطلق على هذه الفئة من أهل العرفان الذين يسعون إلى معرفة النفس كغاية وهدف بالكهانة .

ب - رواد وأصحاب الطائفة الثانية يقصدون طريقه لمعرفة النفس لتكون ذريعة لهم إلى معرفة بارئهم وخالقهم رب العالمين . وطريقتهم هذه هي التي يرتضيها العقل والنفس أو الشرع والدين . فانشغال الانسان في معرفة كنهه نفسه وحقيقتها الدفينة في أعماق قلبه ، وذلك باعتبارها آية من آيات الخالق المبدع وأداة ووسيلة يستخدمها الانسان للتقرب إلى الله وتحقيق غايته المنشودة . « وإن الى ربك المنتهى » ، فهو امر طبيعي مشروع عقلاً وشرعاً .

فهؤلاء هم أهل العرفان الحقيقيون الذي يرضي عنهم الدين والشرع ،
ولهؤلاء شعب عديدة ، ولهم كتب ورسائل مسفورة ، ترجموا فيها عن
سلاسلهم وطرقهم ومكاشفاتهم وحججهم ومقاصدهم التي بنوها وشيدوا
عليها صرحهم الشامخ .

وهم يقسمون العلوم الى قسمين رئيسين : أحدهما علم الكسب ،
والآخر علم الوهب .

الأول يأتي من الحس والتجربة والعقل ، ويختص بالعلوم الدنيوية
كالعلوم الطبيعية والرياضية .

والثاني يأتي من الإلهام والإلقاء في القلب ، ولا يحصل هذا الإلقاء الا
للصفوة الخالص ، ويختص بالعلوم الدينية وما يتصل بها كمعرفة الله
وصفاته ، وحقيقة النبوة والوحي والرسالة ، والحياة والآخرة ، وصفات الجنة
والنار ، وأسرار العالم وخلقه وبدايته إلى نهايته ، ومعرفة الخير والشر ،
ومعرفة حقيقة الإنسان والغاية من وجوده ، حيث يستقي هذا النوع من
المعرفة والحقائق بواسطة القلب وليس العقل وذلك للأمور التالية^(١) .

١ - إن أقرب الحقائق إلى الانسان هي نفسه التي بين جنبيه ، وهو عاجز عن
إدراكها ، فكيف يقدر على معرفة الحقائق البعيدة عنه وعن الطبيعة
بكاملها ؟ .

٢ - إن نظر العقل يتبع إستعداد الناظر ، ويختلف باختلاف ظروفه
وملابساته .

٣ - إن الناظر كثيراً ما يعتقد بصحة شيء ، ويبقى على ذلك أمداً مديداً ثم
يتبين له الفساد ، فيتبدل رأيه وإعتقاده ، مع العلم بأن السبب الثاني
الذي دعاه للعدول ليس أقوى من الأول ، ولا أقل من الشك ،
فالاثان أذن لا يؤخذ بهما . ومن هذه الأدلة وغيرها ، مما يستوجب علم

(١) الشيخ محمد جواد مغنية ، فلسفات اسلامية - دار التعارف للمطبوعات بيروت - لبنان
١٩٧٨ م . ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

الاتكال فقط على الحس والتجربة والعقل بل يجب إعتبار القلب أو النفس هنا أيضاً . وبلغت المتصوفة إذا غلب نور العقل على أوصاف الحس ، يستغني الطالب بقليل التفكر من كثرة التعلم ، فإن النفس المقابلة تجد الفوائد العلمية بتفكر ساعة ما لا تجد نفس الجاهل بتعلم سنه .

وأكثر العلوم النظرية والصنائع العملية في الواقع ظهرت بسبب إستخراج نفوس الحكماء بصفاء ذهنهم ، وقوة فكرهم ، وحدة حدسهم ، من غير زيادة تعلم وتحصيل . ولولا أن تستخرج النفس بالفكر شيئاً غير معلومها الأول لطال الأمر على الناس ، ولم تزل ظلمة الجهل عن القلوب ، لأن النفس لا تقدر أن تعلم جميع غاياتها الجزئية والكلية بالتعلم ، بل بعضها يتعلم بالتحصيل وبعضها يتعلم بالنفس ، وبعضها يستخرج من ضميره بصفاء فكره . فالإلهام الذي يُعتبر تنبيه النفس الكلي للنفس الجزئي فيكون بقدر صفائه وقبوله وقوته واستعداده ، يعتبر مصدراً لعلم اللذن الذي لا يحتاج إلى واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري . وإنما هو كالضوء عن سراج الغيب ، يقع على قلب صافي فارغ لطيف ، وسريان نور الإلهام لا يتم كما ذكرنا سابقاً إلا بعد تسوية حسابها ، كما قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها فاهمها فجورها وتقواها ﴾^(١) . والتسوية تصحيح رجوعها الى فطرتها وهذا الرجوع يكون بثلاثة أوجه : -

- أحدها تحصيل جميع مراتب العلوم . وتقديرها وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها .

- والثاني بالرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة ، فإن الرسول عليه وعلى آله السلام ، أشار إلى هذه الحقيقة ، حينما قال (ع) : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » وقال (ع) : « من أخلص لله أربعين صباحاً ، أظهر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

(١) سورة الشمس الآية ٧-٨

- والثالث التفكير فإن النفس إذا تعلمت وأرتاضت بالعلم والعمل ،
تتفكر في معلوماتها، بشرط التفكير يفتح عليها باب الغيب . كالتاجر
الذي يتصرف في ماله بشرط التجارة ، يفتح عليها باب الربح ، وإذا
سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران .
فالتفكير والتأمل حق التأمل ، إذا سلك سبيل الصواب يصبح من
ذوي الألباب ، فيصير عالماً عاقلاً كاملاً ملهماً مؤيداً ، كما قال (ص):
« تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » .

وبشيء من التفصيل يذكر ابن سينا كيفية إدراك العلم اللدني^(١) . أي
المعرفة من مصدر الإلهام ، ونحن نرى من الأهمية بمكان ، أن نستعرض
هذا الموضوع وإن كان بشكل موجز ومختصر .

فيقول ابن سينا: «إن النفس الانسانية خالية بذاتها من أية صورة عقلية
والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة ، كالبذرة في الأرض ، والجوهر في
قعر البحر أو في قلب المعدن»^(٢) إلا إن إدراك النفس لهذه المعرفة يكون
باجتياز مرحلتي فعل وإنفعال . وفيما يلي توضيح بسيط عن هاتين
المرحلتين .

أولاً: مرحلة الفعل : هذه المرحلة هي مرحلة ترقى في النفس في ثلاث
مراتب :

أ - الإرادة :

وهي «أول درجات حركات العارفين»^(٣) المرید هنا «يتحرك سيره الى
القدس لينال من روح الاتصال»^(٤) .

(١) العلم اللدني ، ص ١٩٥ / قا : اثولوجيا ، ضمن ارسطو عند العرب ، ص ٧٣ .

(٢) النجاة ص ١٦٧ .

(٣) الاشارات ، ص ٧٦ .

(٤) عينه ، ص ٧٨ .

ب - الرياضة :

وهي كما سبق ، رياضة لهم العارف وقوى نفسه ، «ليجرها بالتعويد عن جناب الغرور الى جناب الحق»^(١) .

أهداف الرياضة ثلاثة :

« تنحية ما دون الحق عن مستن الايثار » ، أي الاشاحة بالنظر عن كل ما عدا الحق ، ويعين عليه انزهده الحقيقي^(٢) .

« تطويع النفس الأمانة للنفس المطمئنة ، لتنجذب قوى التخيل والوهم الى التوهّمات المناسبة للأمر القدسي »^(٣) ، يعين عليه «العبادة المشفوعة بالذكر» ، و« الألحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن به من الكلام موقع من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكي بعبارة بليغة ونغمة رخيمة وسمتة رشيد »^(٤) .

ج - هنا تبلغ النفس « حدا ما » يكون نهاية مرحلة الفعل .

ثانياً : مرحلة الانفعال :

هذه المرحلة هي مرحلة ترقى النفس الى مقامات ثلاثة . وإذا كان الترقى في المرحلة الأولى بارادة النفس ورياضتها ، وكلاهما من أفعال النفس ، فإن الترقى بين المقامات في هذه المرحلة هو إنفعالي^(٥) ، ليس للنفس فيه دور .

أ - المقام الأول - الوقت : هو عبارة عن « جلسات من إطلاع نور الحق عليه

(١) الاشارات ص ٥٥ .

(٢) عينه ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) عينه ، ص ٧٩ .

(٤) عينه ، ص ٨١ - ٨٣ .

(٥) قا : ١٨١ .

(العارف) لذيذة كأنها بروق تومض اليه ثم تخمد عنه « (١) .
ب - المقام الثاني : الوجد : يعترى المرید إذا أمعن في الأرتياض حيث تكثر
عليه الغواشي ، وإذا توغل في ذلك أيضاً تغشاه الغواشي في غير
الارتياض ، « فكلما لمع شيئاً عاج منه إلى جناب القدس ، فيذكر من
أمره أمراً » (٢) .

في هذا المقام يصبح الانتقاش بجناب القدس ملكة للعارف تتصل به
نفسه في حالة الارتياض وغيرها .

ج - المقام الثالث - السكينة : في هذا المقام الأخير ، تبلغ الرياضة بالعارف
مبلغاً ينقلب له وقته سكينه ، فيصير المخطوب مألوفاً ، والوميض شهاباً
بيناً ، وتحصل له معارف مستقرة كأنها صحبة مستمرة . معنى ذلك أن
الصوفي أثناء تدرجه للوصول الى المقام ، تكون السكينة ومضات لا
يدركها الانفحات ، أما في المقام الأخير ، فيدركها على كمالها .

هنا ينتهي العارف إلى النيل ، وإذا فعل ذلك « صار سره مرأة مجلوة
محاذياً بها شطر الحق » ، فيخلص باقباله على الحق بالكلية ، و« هناك يحق
الوصول »* .

تلك هي المعرفة التي يحصلها النبي ، فهو « مؤيد النفس بشدة الصفاء
وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية إلى أن يشتعل حدساً ، أعني قبولاً لالهام
العقل الفعال في كل شيء ، (فترسم فيه الصور التي في العقل
الفعال) (٣) .

(١) الاشارات ص ٨٦ / قا: كلمات الصوفية ، ص ١٧٩ .

(٢) الاشارات ، ص ٨٧ .

(*) لمزيد من التفصيل - انظر الى د. حسن عاصي - التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة
ابن سينا ، ص ٤٣ - ٤٥ .

(٣) ابن سينا النجاة .

مصادر الالهام في فكر صدر المتألهين :

في ضوء المستوحى من كلمات صدر المتألهين^(١)، انتهى صدر الدين في أواخر المرحلة الأولى من حياته إلى أن سبيل الوصول إلى حقائق العلم وخصوصاً - في الفلسفة الإلهية - لا ينبغي حصره بنهج المشاء الذي يتسم بطابع محدد جاف . بل كما ينتج الإدراك الانساني - الذي يغطي الأفكار الفلسفية العامة ويشكل منطلقاً لها - فكراً ورؤى عن طريق القياس المنطقي ، ينتج كذلك نماذج أخرى عن طريق الكشف والشهود والوحي .

وكما نضع اليد من بين الأفكار القياسية عن أمور لا يتطرق الشك لصدقها وواقعيتها، نلمس هذه الخصوصية أيضاً في مجال الكشف والشهود .

وبعبارة أخرى، بعد أن أتضح على أساس البرهان العلمي واقعية الرؤية الانسانية ، وثبت بالدليل إن الإدراك البشري اليقيني يحكي ويتطابق مع الواقع الخارجي ، فلا يبقى هناك فرق بين البرهان اليقيني ، والكشف القطعي ، وتضحى الحقائق التي يرقى الانسان لا دراكها عن طريق التفكير القياسي سيان .

كذلك بعد أن دعم البرهان القطعي صحة وواقعية الوحي ، لا يبقى هناك فرق بين مفردات الفكر الديني التي تتناول المبدأ والمعاد وبين مدلولات البرهان والكشف .

وفي ضوء هذه الرؤية والنقطة أقام صدر المتألهين بحوثه العلمية والفلسفية على أساس التوفيق بين العقل والكشف والشرع ، واستلهم مقدمات البرهان ، ومفاهيم الكشف ، ومفردات الدين القطعية في سبيل الوصول إلى حقائق الإلهيات ، ورغم أن جذور هذه الرؤية كانت واضحة

(١) في ديباجة كتاب «الأسفار» وغيره .

في طيات ما كتبه المعلم الثاني أبو نصر الفارابي ، وابن سينا ، وشيخ الاشراق ، وشمس الدين تركه ، والخواجه نصير الدين الطوسي ، إلا أن التوفيق حالف صدر المتألهين لتجسيد هذه الرؤية في صورتها المتكاملة^(١).

ويشير ابن عربي في كتابه الفتوحات الملكية ، إلى العلم اللدني ، باعتباره مظهر العقل الأعلى الذي يشرق في النفس الانسانية اشراقاً ، ويتجلى بالنفس نتيجة الرياضات والمجاهدات ، أي بذل الجهود والمجهودات من أجل التخلص من عبودية البدن ، وأهم تلك العقبات عقبة الفتن . والغرور المنتهين دائماً بصاحبهما إلى الهوى في حضيض البعد عن الفيض الإلهي والحرمان من الفتح الصمداني ، وليس هناك نتيجة أسبق إلى القلب من الظلام وامتلاء الفؤاد بالأسودار قال تعالى في محكم كتابه ومبرم خطابه ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ولولا الآثار الوضعية من الذنوب التكوينية التي يرتكبها البشر لنظروا إلى ملكوت السموات لأن الأبالسة تحتك قلوبهم للظلمانية وكدروات مرايا قلوبهم ولو لم تكن نفوسهم مثقلة بالكدروات والأغيار ، لما حملت الأرض من أثقال هذه المفاسد أي أثر ، ولحقت هذه النفوس في سماء الحق وأزالت تلك الحجب بينها وبين الحق . انظر الى قول أمير المؤمنين وسيد الموحدين علي (ع) على لسان كميل بن زياد «الهي ومولاي ، أجريت علي حكماً أتبعته فيه هوى نفسي ولم احترس فيه من تزين عدوي فغرني بما أهوى وأسعده علي ذلك القضاء فتجاوزت بما جرى علي من ذلك بعض حدودك وخالفت بعد أوامرك» .

ونستخلص من العرض السابق ، أن المستقري للآيات القرآنية الكريمة ، والمتفحص للأحاديث النبوية الشريفة ، يلاحظ بوضوح وجلاء ، إلى أي حد يركز الإسلام ويعطي إهتماماً وعناية فائقة لموضوع النفس

(١) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي . طلاله على حياة صدر الدين الشيرازي ومنهجه الفلسفي ، مجلة الفجر ، العدد الثاني ، السنة الأولى ص ١٨٥ - ١٨٦ .

والقلب أو الضمير الانساني وما يتعلق به من خصائص وسمات حياتية سواء فردية منها أو جماعية . ويطلق على الآيات القرآنية التي تخاطب النفس الانسانية بالآيات الأنفسية ، وهي مصطلح للفلاسفة وأهل المنطق أيضاً . ولقد اقتبس هذا المصطلح الشائع في الفكر الأدبي في الاسلام من الآية الكريمة :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (١) .

ويعتبر القرآن الكريم الضمير الانساني مصدراً ومنبعاً هاماً في استحصال المعرفة ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ، ومن جهة أخرى يسلط القرآن أضواءه الكاشفة على طبيعة وخصائص النفس البشرية وتركيبها وتكوينها الذاتي بما تنطوي على دوافع ونوازع باطنية شعورية ولا شعورية من حيث القوة والضعف، الصبر والعجلة ، الإقدام والأحجام ، الاستقامة والطغيان ، والأمل واليأس ، بالإضافة إلى تبيان وتوضيح الأدوات والسبل التي يجب إستخدامها لتصفية النفس وتزكيتها وإطلاق عنانها من القيود ، لكي تتكامل ونستطيع أن تستقي على معارف وحقائق يقينية صادقة .

ويطلق على الأشخاص الذين يعتقدون بأن النفس أو القلب مصدر هام ورئيسي للمعرفة بأهل العرفان . فالعارف الذي قد حقق تقدماً ونجاحاً في سيرة العرفاني ينظر الى عالم الوجود على أنه مظاهر لنور الباري جل جلاله وأن الانسان يصغي ويزكي نفسه من الشوائب والأمراض النفسية لتصبح نقية وصافية كالمرأة تماماً ، تعكس المعارف والحقائق والموجودات الخارجية في نفس الانسان كالمرأة النقية التي تعكس الموجودات الخارجية .

(١) سورة فصلت آية ٥٣ .

وليس هنا مجال للبحث والدراسة في كيفية صفاء النفس ، ففي كتب الأخلاق الإسلامية . معارف وحقائق كثيرة ، تبين لنا السبل والطرق اللازم تطبيقها في تصفية وتزكية النفس الانسانية^(١) . ولكن الأمر الهام هو أن صفاء وتزكية النفس لا يتم إلا من خلال التعاليم الاسلامية الصحيحة فقط .

والمستقريء للآيات القرآنية الشريفة ، يرى بوضوح ، مدى إهتمام الإسلام بالنفس وبالمسائل والأمور المتعلقة بها . وإنها منبع هام للمعرفة، وإنها عالم مستقل متكامل ينطوي على سنن وقوانين وأحكام وضوابط تستحق الدراسة والبحث .

والزائر لقبر الفيلسوف الألماني (كانت) يرى جملة عظيمة قد نقشت على قبره مفادها (هناك شيان نالا إعجاب الإنسان) :

أولاً : هو السماء الزاهرة بالنجوم المتلثلة والمستقرة فوق رؤوسنا .
ثانياً : هو الوجدان والضمير المستقر في أعماقنا .

وهناك كثير من العلماء والفلاسفة يعتقدون بأن إضافة الى العقل والتجربة هناك طريقة ثلاثة - كما ذكرنا في مقدمة هذا البحث - وهي نوع من التيار الكهربائي قد ينقذ فجأة في نفس وعقل العالم أو المفكر ، فيضيء ما حوله ثم سرعان ما ينطفئ هذا النور .

وابن سينا هذا الفيلسوف الاسلامي العظيم يعتقد أن هذه القوة موجودة في الأفراد بدرجات متباينة ومتفاوتة إنطلاقاً من الآيات القرآنية الشريفة لا يكاد يضيء زيتها، ولو لم تمسه نار) .

(١) راجع - الشيخ هادي النراقي - جامع السعادات - مطبعة النعمان - النجف الأشرف - الجزء الأول والثاني والثالث .

والفيلسوف الاسلامي الكبير الغزالي، يذكر في كتابه (المنقذ من الضلال) إلى أن أكثر معلومات البشر المرتبطة بالاحتياجات المعاشية هي أولاً من قبيل الإلهام إنبثقت من النفس البشرية .

والخواجه نصر الدين الطوسي - قدس سره - هو الآخر في بحثه عن الوحي والنبوة ذهب الى أن معظم ما توصل اليه البشر تمّ عن طريق الإلهام .

أما بالنسبة للعلماء والمفكرين المعاصرين فهناك جمع كبير منهم يعتقدون بالمعرفة النفسية الالهامية القلبية . (الكسيس كارل) الفيلسوف والعالم الفرنسي المشهور يذكر في كتابه «الانسان ذلك المجهول» عن نظرية الاشراق والالهام فيقول «من المؤكد إن الاكتشافات العلمية ليست فقط حصيلة الفكر الانساني . النوابع يمتلكون خصائص معينة كالاشراق والخلاقية اضافة لما لهم من مطالعات وتفكير في المسائل المختلفة . فعن طريق الاشراق يدركون ما خفي عن الآخرين ، ويبصرون الروابط المجهولة بين القضايا يُظن أن هناك ارتباط بينهما ، ويتوصلون الى فهم المسائل الهامة دوغما دليل أو برهان » .

وخلاصة القول ، نفهم من حصيلة ما ذكرناه ، أن النفس أو القلب والضمير الانساني يعتبر منبعاً ومصدراً لأنواع من المعارف الانسانية وهي إناء لاستقبال الامدادات الغيبية في مواضع متعددة ، تمنح الانسان أحيانا عزماً وإرادة وتهدي له الطريق وتغير له السبيل . . . وتلهمه الأفكار العلمية .

وهناك بحث عميق يذهب اليه الأستاذ مرتضى المطهري الى دور الامداد الغيبي في حياة الانسان والمجتمعات يوضح أهمية هذا المصدر الإلهي للمعرفة وهو جدير بالإطلاع والدراسة^(١) .

(١) الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري - الامداد الغيبي في حياة البشرية - مؤسسة البعثة - طهران -

الفصل الثامن

الوحي Revelation

مقدمة:

جعل الله سبحانه وتعالى وسائل وأدوات المعرفة فينا ، مسؤولة في ميدان التقصي والبحث عن الحقائق والموجودات ، وهذه المسؤولية مرهونة بكون جميع الطرق والسبل التي أنعمها الله علينا ، كفيلة بتوصيل الإنسان إلى الحقيقة ، إذا ما أتبعت قواعدها السليمة .

والوحي الذي يعتبر منحة ورحمة من الله لعباده عن طريق النبوة ، هو أيضاً سبيل من سبل المعرفة اليقينية الصادقة ، فهو يقدم شهادة بالحقيقة متى ما كان الخبر عن الوحي يقينا مقطوعا به ، فانه لا يمكن بحال من الأحوال أن يتناقض مع اليقين الذي توصل اليه السبل والوسائل الإنسانية الأخرى .

ولقد جعلنا الله مسؤولين عن التسليم بما نخبرنا به عن طريق الوحي ، لأن برهان العقل قد قام لدينا بأن ما نخبرنا به الرسول (ص) ، عن الوحي ، صادق وصحيح وحق لا يدخل الشك والريب أو الخطأ والباطل بين سطوره .

وبنص القرآن الكريم ، وتأكيد الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة (ع) ، أن الهداية الحقّة والصحيحة لا تتأتى ولا تحصل للإنسان إلا من خلال الهداية الربانية المتمثلة بالأمثال للأوامر والنواهي التي أتى بها الوحي المنزل من عند الله تعالى : ﴿ ان الهدى، هدى الله ﴾^(١) .

والسبيل لنيل الهداية هي فقه هذا الدين والإلتزام بتعاليمه . وبهذا

(١) سورة آل عمران آية (٧٣) .

النور الرباني يشق المؤمن طريقه في مسيرته الارتقائية التكاملية المتوجه إلى خالقه وبارئه وهو على بصيرة من أمره ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ (١).

فقد شبه الوحي هنا بالروح يحيى القلوب الميتة ، وبالنور يكشف الظلمات ، والمراد هنا ظلمات الباطل المتمثلة في فلسفات البشر ومناهجهم وتعاليمهم الهدامة لجميع قيم الإنسانية ، والتي يفلسفها ويبلورها القادة والزعماء والمفكرون ، وأجهزة الطواغيت الذين تجاوزوا جميع القيم والمبادئ الإنسانية ، وتجاوزوا حدودهم ، ورفعوا أنفسهم الى مرتبة الأرباب ، يشرّعون ويحللون ويحرمون ، حسب ما تشتهي أنفسهم ويحقق مآربهم وأهدافهم ، وهي بعيدة كل البعد عن المنهج الإلهي الحكيم العادل .

فهذا النور الإلهي الذي يحل في قلب المسلم ، يتكون لديه البصيرة والعقل وروح التأمل التي يعرف بها الحقائق ، ويدرك بها الأمور ، كما يصبح لديه الفرقان الذي يقيس به الأمور ، فيفرق بين الهدى والضلال ، والأصدقاء والأعداء ، والطيب والخبيث ، والصدق والكذب ، وجلة بين الحق والباطل .

فيما يلي عرض موجز ومختصر عن ماهية الوحي ، وكيفية الاستفادة منه في تحصيل المعرفة ، ومدى مصداقية وصحة الوحي كمصدر للمعرفة في المنظار الفلسفي الاسلامي .

لكون الحس والملاحظة ، والعقل ومجالاته ، قاصرة أو محدودة من حيث التوصل الى بعض الحقائق والادراكات بشكل عام والى المعنويات . . . في حياتنا الكونية بشكل خاص ، فإننا نحتاج إلى وسيلة وطريقة أخرى نستقصي بواسطتها هذا النوع من المعارف . وكما ذكرنا في السابق ، إن العقل الذي يعتبر أداة العلم هو بحد ذاته قاصر في جوهره وذاته عن تبيان

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

وإكتشاف أسرار المعنويات ، ومنها أسباب التشريع والتكوين من مشرع الكون تعالى شأنه على الأقل في كثير من المواضيع وكثير من الأشخاص ، وذلك إذا لم يكن بشكل مطلق .

فحكم النجاسات ، وطريقة أداء الصلاة ، وذكر التسيبحات ، والقيم الأخلاقية وترتيبات دفن الميت الذي يراد دفنه في قبره كنقله في ثلاث دفعات حتى ينتهي إليه في الثالثة ، وأدخاله فيه سابقا برأسه والمرأة عرضا ، وكذلك بالنسبة للوضوء والصوم والصلاة والزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من دقائق الأمور الشرعية وآدابها وعقائدها التي تعبّد الناس بها . فإن هذه الأمور الإلهية أسرار ولطائف لا يهتدي إليها الناس فقط بالعقل وقوته ، بل تتلقاها قوة النبوة .

إضافة إلى ذلك ، هناك كثير من الأمور والقضايا الغيبية - ما وراء الطبيعة - التي يكون للعقل فيها حق الحكم في الإمكان والإثبات والنفي ، عن طريق الملاحظة والتجربة والإستدلال والإستنباط ، إلا أنه قاصر عن درك الكنه والجوهر والكيفية والكمية . حيث أن السبيل الوحيد لمعرفة هذه الأمور ، هو الرجوع إلى الوحي الإلهي المنزل على الأنبياء والمرسلين (ع) .

تعريف الوحي :

يعرف الوحي على أساس إنه إعلام في خفاء ، أو الكشف عن أمر مجهول ، أو الإعلام بسرعة ، وقد يراد به اسم المفعول منه أي الموحى ، وهو ينكشف لك بالفعل .

وقيل أن الوحي أصله التفهم ، وكل ما فهم به شيء من الإشارة والإلهام والكتب فهو وحي .

والوحي الإلهي : هو الفعل الذي يكشف به الله للإنسان عن الحقائق التي تجاوز عقله .

والوحي الطبيعي: Natural Revelation يطلق على كل معرفة بالحقائق الإلهية يوصل إليها بطريق الإلهام .

والوحي في الشريعة : هو كلام الله عز وجل المنزل على نبي من انبيائه ، وقيل للوحي ظاهر وباطن ، اما الظاهر فثلاثة :

الأول : ما يثبت بلسان الملك ، فوقع في سمع النبي بعد علمه بالمبلغ بآية قاطعة .

الثاني : ما وضح له بإشارة الملك من غير بيان الكلام .

الثالث : الإلهام الذي يعتبر نورا يقذفه الله في القلب فينكشف وينقدح في قلب الإنسان إنقادحا .

أما الباطن : فما ينال بالرأي والاجتهاد^(١) .

وخلاصة الاستفادة من الآيات القرآنية الشريفة والأحاديث النبوية ، هي ان الوحي هو كلام سماوي (غير مادي) ليس للحواس الظاهرية والعقل أن تصل اليه ، أنزله الله على قلب الرسل والأنبياء (ع) ، أي على من اختارهم واصطفاهم عز وجل .

أنواع الوحي وكيفية نزوله على الرسول :

للوحي أنواع وصور يمكن حصرها في ثلاث صور :

الأولى : الالتقاء المعني في قلب النبي (ص) ، أو النفث في روعه ، بحيث يحس بانه تلقاه عن الله عز وجل كما قال الرسول (ص) : « أن روح القدس نفث في روعي . . . » .

الثانية : تكليم الله النبي من وراء حجاب ، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة فسمع نداءه ﴿ . . . وكلم الله موسى تكليماً ﴾^(٢) .

(١) د. جميل صليبا - القاموس الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت - الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ م الجزء الثاني ، ص ٥٧٠ - ٥٧١ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٤ .

الثالثة : أن يلقي ملك الوحي المرسل من قبل الله تعالى إلى أحد أنبيائه ، ما كلف بالقائه اليه ، سواء أكان هذا الملك على هيئة الملائكية أم على هيئة رجل : « كما في الصحيح ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول »^(١).

والمستنطق للآيات القرآنية والروايات النبوية الشريفة ، يرى أن الرسول (ص) كان يتلقى الرسالة الغراء وآيات الله الكريمة وحيًا عن طريق الملك جبريل تارة ، وتارة أخرى بواسطة المخاطبة المباشرة له تعالى . ففي الحديث الشريف أن الإمام جعفر الصادق (ع) سئل عن الغشية التي كانت تأخذ النبي (ص) أكانت عند هبوط الأمين جبريل فقال : لا وإنما ذلك عند مخاطبة الله تعالى إياه بغير واسطة .

الوحي في القرآن :

المستفاد من الآيات القرآنية الشريفة الواردة بصدد الوحي والإلهام ، أن الوحي في كلام الله سبحانه وتعالى لا ينحصر فقط في وحي النبوة ، يقول عز وجل : ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي ﴾^(٢) والمراد هنا الإلهام الذي يعتبر نوعاً من القذف والأشراق في القلب سواء في اليقظة أو في النوم « وقوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل . . . ﴾^(٣) أي الهاماً تعالى عن طريقة غريزتها التي أودعها في بنيتها وهناك أنواع أخرى وردت في القرآن في ظل الرؤيا أو من طريق الوساس . كقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى . . . ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿ وان الشياطين ليوحون إلى

(١) السيوطي معترك الأفران ج ٢/٢١٥ ، الاتقان ج ١/٤٤ .

(٢) سورة ط آية ٣٨ .

(٣) سورة النحل الآية ٦٨ .

(٤) سورة القصص الآية ٧ .

أوليائهم . . . ﴿^(١)﴾، وقوله : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة
وعشيا ﴾ ^(٢).

أما فيما نستفيد ونفهم من القرآن المجيد في كيفية وحي القرآن هو :
كان وحي الكتاب السماوي المقدس بشكل التكليم ، كلم الله تعالى
الرسول الكريم وتلقي الرسول ذلك الكلام بكل وجوده (لا بإذنه
فقط) ^(٣).

قال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء
حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بأذنه ما يشاء إنه علي حكيم ، وكذلك
أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن
جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط
مستقيم ﴾ ^(٤).

وقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من
المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ ^(٥).

وقال : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ ^(٦).

يستفاد من الآيات القرآنية الشريفة المذكورة أعلاه ، ومن أقوال
المفسرين ، من أن تكليم الله تعالى يصنف الى ثلاثة أصناف هي كما ذكرنا
في السابق .

(١) سورة الأنعام الآية ١٢١ .

(٢) سورة مريم الآية ١١ .

(٣) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي «تفسير الميزان» مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت -
لبنان ١٣٩٣ هـ - ١٣٧٣ م الجزء الرابع عشر ص ١٥٠ .

(٤) سورة الشورى الآية ٥١ - ٥٢ .

(٥) سورة الشعراء الآية ١٩٣ - ١٩٥ .

(٦) سورة البقرة الآية ٩٧ .

كما تؤكد لنا الروايات المتعلقة بهذا الصدد أن رسول الإسلام عليه السلام ، كان يوحى إليه بواسطة جبريل (ع) وفي المنام ومن دون واسطة^(١) . أي جميع الأصناف الثلاثة المذكورة أعلاه .

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ إشارة صريحة وواضحة إلى كيفية تلقي الرسول الكريم (ع) القرآن النازل عليه ، وإن الذي كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية . فكان (ص) يرى ويسمع حينما كان يوحى إليه من غير أن يستعمل حاسة البصر أو السمع ، كما روى أنه كان يأخذه شبه أغماء يسمى برجاء الوحي . فكان (ع) يرى الشخص ويسمع صوته: مثل ما نرى الشخص ونسمع صوته غير أنه ما كان يستخدم حاسة بصره وسمعه الماديتين في ذلك كما نستخدمها ، ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديين لكان ما يجده مشتركا بينه وبين غيره ، وكان يأخذه برجاء الوحي ، وهو بين الناس فيوحى اليه ومن حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصاً يكلمه ما يلقي اليه^(٢) .

وقد يتبادر إلى ذهننا الإستفسار التالي : إنه من الجائز أن يصرف الله تعالى حواس غيره (ص) عن الناس بعض ما كانت تناله حواسه وهي الأمور الغيبية المستورة عنا .

يقول العلامة الطباطبائي (قدس الله سره) لو كان ذلك صحيحاً لهدم بنيان وكيان العلم التصديقي المبني على أصالة الحس .

(١) المرجع السابق - تفسير الميزان - الجزء الثامن عشر ص ٧٥ .

(٢) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي «تفسير الميزان» مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان - ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م الجزء الخامس عشر ص ٣١٦ - ٣١٩ .

والقرآن الكريم يوضح ذلك بشكل مفصل ودقيق في قصة آدم (ع) والملائكة ، حيث قالوا إننا تعلمنا طوال عمرنا وحصلنا على كثير من المعارف والحقائق حتى أصبحنا من أكثر المخلوقات علما وتصديقا، بينما آدم (ع) لم يكن على مستواهم من العلم والإدراك ، حينما خلقه الله ، فتفاخرت الملائكة عليه ، وقالوا نحن نسبح بحمدك ونقدس لك ونعلم حقائق الأشياء ، . . . وهنا ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) . فصغر حالهم عند آدم (ع) ، وسجدوا له بعد ما أنبأهم آدم (ع) مكنونات العلم ومستترات الأمور .

وكان الرسول الأعظم (ع) يقول : «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وقوله : «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله»^(٢) . وكان علمه ومعارفه (ع) أشرف وأكمل وأقوى وأصدق العلوم والمعارف لكونها مأخوذة ومستقاة مباشرة من الرب العظيم ، وأنه لم يشتغل قط بالتعليم الإنساني ، فقال تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ﴾^(٣) .

والمستقريء للآيات القرآنية الشريفة، يلاحظ مدى التركيز الكبير والإهتمام الكبير في موضوع الوحي والنبوة ، وذلك من خلال التأكيدات اليقينية التي تبينها الآيات القرآنية المجيدة على أن جميع ما ينطق به الرسول العظيم (ص) هو من كلام وحي الله عز وجل . فيقول تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله

(١) سورة البقرة الآية ٣١ .

(٢) فنسك ج المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف ، ليدن ١٩٢٦ ، الجزء الرابع ، ص ٣٣٨ .

(٣) سورة النجم الآية ٥ .

إن كنتم صادقين ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (٥) يستفاد من هذه الآيات القرآنية الشريفة كل التأكيد واليقين ، وبكل صراحة وحجج دامغة ، إن كلمات القرآن المجيد ليست من عند الرسول (ص) ، بل هي من عند الله العلي القدير أنزلها بواسطة جبرائيل (ع) على قلبه الشريف ، أي عن طريق الوحي الإلهي

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ (٦) .

وقوله ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ (٧) .

(١) سورة يونس الآية ٣٨ .

(٢) سورة هود الآية ١٣ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٨ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٣ .

(٥) سورة النساء الآية ٨٢ .

(٦) سورة الشعراء الآية ١٩٣ - ١٩٤ .

(٧) سورة التكويد الآية ١٩ - ٢٣ .

ويقول عز وجل في الملائكة المقربين : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ (١).

يستفاد من هذه الآيات الشريفة ، إن الروح الأمين - الذي يسمى جبرائيل (ع) هو الذي يأتي بالوحي الإلهي - وله إستقلاله وإرادته ومداركه ، وإنه يأمر وينهى في الملأ الأعلى وتطيعه الملائكة المقربون . وفي بعض الأحيان يأتي الوحي على يد ملائكة يأتمرون بأوامره . كما تشير إلى ذلك الآيات الواردة في سورة عبس (٢) : ﴿ كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة ﴾ (٣).

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن ما يرويه الرسول (ع) من أحاديث قدسية عن ربه والسنة النبوية الشريفة الصحيحة بأنواعها القولية والفعلية والأقرارية كلها تدخل ضمن نطاق الوحي .

فهي بلا شك تعتبر مصدراً من مصادر المعرفة عند الإنسان المسلم ، حيث يستقي أموراً وحقائق دينية بعد القرآن الكريم مباشرة منها .

والمسلمون مأمورون باتباع الأحاديث النبوية الشريفة ، وتطبيق ما تضمنتها من تعليمات وتوجيهات ، وإستنتاج المفاهيم والأفكار الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان ، وذلك بنصوص قرآنية نفسها التي وردت في مواضع عديدة في القرآن الكريم :

(١) سورة النساء الآية ١٧٢

(٢) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي - القرآن في الإسلام - دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان .

(٣) سورة عبس آية ١١ - ١٦

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (٣).

وقوله عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ (٤).

وقوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . . ﴾ (٥).

إضافة إلى ذلك، هناك مئات الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، التي تبين لنا معالم المعاجز وحوارق العادة التي تمت وظهرت على يد الأنبياء عليهم السلام، أثبتوا بواسطتها نبوتهم واستدلوا بها على رسالتهم .

ضرورة الوحي :

قد يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي : هل هناك ضرورة أساسية للوحي في حياة الإنسان ؟ وبمعنى آخر هل يستطيع الإنسان أن يستغني عن الوحي في مسيرته الإرتقائية التكاملية أم لا ؟ هذا ما سنحاول أن نلقي الضوء عليه حتى تتسنى لنا معرفة حقيقة وضرورة الوحي في حياة الإنسان .

بأديء ذي بدء، نستشف من الدراسات والأبحاث المتعلقة بماهية

(١) سورة الحشر آية ٧ .

(٢) سورة الأنفال آية ٢٤ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

(٤) سورة النساء آية ٦٤ .

(٥) سورة النجم آية ٤ .

الإنسان ، وتركيبه الداخلي ، ومميزاته ومسيرته في الحياة ، بأنه كائن يتميز بإدراكه وفهمه العقلي في التمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، والصالح والپالاح ، وفي أعماله الفردية والإجتماعية ، وذلك بعد أن يتأكد من رجحان كفة المنافع فيها ، ويتبع ما يدركه عقله ، ويرى أن فيه مصلحة له . وإن سجية الإنسان الأولية ، أو فطرته النقية تدعوه وتدفعه إلى التعاون والترابط الإجتماعي ، وذلك إنطلاقاً من إيمانه العميق وإعتقاده الجازم بأنه لا يستطيع أن يشبع جميع حاجاته ورغباته الإجتماعية والفردية إلا من خلال هذا النسج الإجتماعي المترابط والمتعاون .

وبسبب هذا التزاحم الكبير بين الغايات والأهداف والأمانى والآمال لدى البشرية ، يوجب شكلاً ونوعاً معيناً من النسق الإجتماعي الذي يكون أحد مكوناته الرئيسية وقواعده الأساسية هو التنازل المتبادل بين أفراد المجتمع .

وهو بطبعه يطلب مصالحه الشخصية بإستخدام الآخرين لاستثمارهم فيما يعود إليه بالنفع ، ولا يرضخ للتعاون والترابط الإجتماعي إلا إذا اضطُر إليه اضطراراً . والمتمعن حق التمعن ، في سلوكيات وتصرفات الأطفال التي تعكس صورة واضحة تؤكد من خلالها على مصداقية وصحة هذه السجية الأولية عند الإنسان .

ويمكننا الإستدلال من الآية القرآنية الشريفة التالية : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعض سخرى ﴾ (١) .

إن كل فرد من أفراد النوع الإنساني ، يميز ويفوق على غيره في جانب من الجهد المشترك ، وذلك بسبب التباين والإختلاف في الطاقات

(١) سورة الزخرف آية ٣٢ .

والإمكانيات والقابليات بين أفراد النوع الإنساني . وبسبب إستغلاله لهذه الطاقات والإمكانيات بشكل غير مشروع يترتب عليه إنتشار الظلم والفساد والإبتزاز لثمرات وجهود الآخرين ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ (٣) .

ونظراً للتزاحم الشديد بين الأهداف والغايات والأمانى البشرية من جانب ، وضرورة إشباعها ولو كان ذلك على حساب الآخرين وذلك بدافع الفطرة والمصلحة الشخصية من جانب آخر ، لا بد من العمل في إطار ونسيج إجتماعي يتطلب التنازل عن بعض حرياته وحقوقه وأهدافه لضمان حريات وتحقيق أهداف ورغبات الآخرين ، ويترتب على ذلك كله نوع من الاختلاف والتباين في المواقف الإجتماعية ، وتبرز لنا مشاجرات وعدوات لا حصر لها . فبدلاً من أن تكون المنافع والمصالح المتبادلة والمشاركة قاعدة وأساس للإصلاح والصلاح الفردي والإجتماعي ، تصبح موضوعاً وأداة للمشاجرات والتطاحن بين أفراد المجتمع .

ومن هنا ظهرت فكرة ضرورة وجود سلسلة من المقررات المشتركة التي يتفق أفراد المجتمع على أقرارها والتسليم لها ، وبالتالي تقنين وتشريع قوانين وسنن وأحكام وضوابط وقواعد تشكل حياة إجتماعية ، تتسم بالإحترام المتبادل بين افراد المجتمع ، وتصون حقوق الآخرين ، وذلك بغية الحفاظ على هذا النسيج الاجتماعي المتماسك ، والذي يمكننا من

(١) سورة العلق آية ٦ .

(٢) سورة احزاب آية ٧٢ .

(٣) سورة ابراهيم آية ٣٤ .

تحقيق رغباتنا وأهدافنا ومصالحنا بشكل يرضي به جميع أفراد المجتمع طبقاً لتلك القوانين والقواعد المتعارف عليها .

وهنا يتبادر الى أذهاننا السؤال التالي : هل يكفي العقل في هداية الإنسان الى القانون أم لا ؟

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل المحوري والهام في حياة الإنسان ، نود أن نستوضح ماهية وهضمون وإطار ذلك القانون الإجتماعي المطلوب تطبيقه وإحترامه من أجل الحفاظ على إنسانية الإنسان والمجتمع وتماسك كيانه ووجوده من الذوبان والإنحلال ، وتحقيق المصالح والمنافع المتناقضة والمتباينة بين الأفراد النوع الإنساني وذلك بشكل يرضي الجميع دون احساسهم بالظلم والغبن .

إنطلاقاً من الفهم الحقيقي والواقعي لتركيبية الإنسان وماهيته والمجتمع ، من حيث الرغبات والأمزجة والشهوات والحرص الشديد والأثانية وغيرها من الصفات ، ندرك أن القانون الوحيد الذي يمكن تطبيقه في المجتمع ؛ هو ذلك القانون الذي يأخذ بعين الاعتبار والحسبان جميع أبعاد وأعماق الإنسان والمجتمع معا . وبتعبير آخر يجب أن يكون القانون منسجماً وملتبهاً بالتمام والكمال ، ومنطبقاً إنطباقاً كاملاً وتاماً مع سجية وفضرة الإنسان والمجتمع .

والتأمل حق التأمل ، يستتج بكل وضوح وجلاء ، أن هذا الشرط لا يمكن توفيره أو الأخذ به في الاعتبار والحسبان ، إلا إذا كان القانون صادراً من خالق هذا الإنسان والكون ، والعليم والخبير بجميع أبعاد وأعماق الإنسان والمجتمع ، بل حتى عليم بتلك الجوانب والأبعاد المخفية على الإنسان نفسه والتي تكون دفينه في اعماقه وأغواره البعيدة .

وهناك أبحاث ودراسات عديدة تؤكد مدى الغموض ونقص المعلومات ، وجهل العلماء والإنسان بماهية نفسه ، وأن هناك جوانب هامة

وعديدة مجهولة عند البشرية ويمكن مراجعة كتاب الكس كارول «الإنسان ذلك المجهول» ليوضح ذلك ، موقف البشرية من ماهية وجوانب الإنسان المجهولة»^(١).

فالقانون الإجتماعي الصالح للبشرية ، هو ذلك القانون الرباني الإلهي ، الصادر من الواحد الأحد ، والصمد العليم الأعلم ، الذي لا يصدر منه أمور متضادة متناقضة ، ولا يسري الخطأ والمزاج في إصدار ، إضافة إلى أخذ جميع أبعاد الإنسان الظاهرية والغيبية ، وجميع مراحل حياته إبتداء قبل الولادة الى الطفولة والشيخوخة ثم الموت والحساب والدار الآخرة في الاعتبار .

وحينما نستقريء الأحداث التاريخية ، نلاحظ من دون ريب أو شك ، مدى الأهوال والمصائب والكوارث التي أصابت البشرية من جراء تطبيق القوانين البشرية الوضعية ، فانتشر الظلم والفساد ، وسحقت الحقوق ، واهدرت كرامة الإنسان ، وانتشر الغدر والخيانة والقتل والإقتال بين أفراد المجتمع الواحد . . . الخ وذلك كله بسبب إعتقاد الإنسان على عقله كمصدر ومنبع للقوانين والأحكام والضوابط الإجتماعية . فالعقل مهما كان نزيها ورفيعا ، له إمكانات وطاقات وحدود معينة لا يتجاوزها .

وبناء على ذلك نستدل بكل وضوح وجلاء ، أن العقل مهما كان رفيعا وله قدرات عظيمة ، فإنه لا يمكن الإعتماد عليه وحده ، لهداية ، الإنسان لكي يصل إلى قوانين وأحكام بل نلاحظ أن في كثير من الأحيان وفي ظروف معينة ، كان العقل سبباً رئيسياً لإيجاد الإختلاف وإيقاظ روح التفرقة والتشنج في المجتمع ، وكان سبباً في تدعيم غريزة الإستثمار وجلب المنافع والمصالح بشكل مطلق وبحرية كاملة ، وذلك بسبب تلك الأجواء

(١) الكس كارول - الانسان ذلك المجهول .

التي تحيط بالعقل ، وتمنعه من التفكير بشكل حر وطلاق لكي يقوم الوضع تقويماً صحيحاً .

إضافة الى ذلك ، أن عقول البشرية تتباين وتختلف باختلاف وتباين العصور والأمصار . وكم من أمر يعد فضيلة لدى أمة ، هو من أرذل الرذائل لدى غيرها . وكم من أمر يعد في عصر من العصور حقاً وصحيحاً ، ثم يجيء عصر آخر فيعتبره باطلاً وزيفاً ، وكذلك هناك تباين في مستويات العقول البشرية تبعاً لمراحل العمر التي تمر بها ، إضافة الى ذلك كله تملك الأهواء والميول والنزعات الشخصية والأسرية والاقليمية والقومية التي تسيطر وتغلب على عقل الإنسان وتضع قيوداً لا يستطيع فك أسرها ، فنجده واعياً حيناً ، وجاهلاً أحياناً^(١) .

فأين العقل الإنساني الذي يعرف منه الحق المجرد؟ ويستدل على القانون الإنساني أهو عقل فرد أم جماعة؟ وفي أي بلد أو في أي عصر؟ ويقول الله تعالى : ﴿ ولو أتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾^(٢) .

ولكي نوضح للقاريء مدى خطورة الإعتماد على العقل وحده في الحكم والتشريع ، دعونا نضرب مثلاً حول موضوع واحد من الموضوعات أو الأمور التي تهم الإنسان في حياته ومسيرته التكاملية الإرتقائية .

تعالوا نرى مدى التباين والإختلاف في مقاييس الفلسفة الأخلاقية التي اتخذتها المذاهب والمدارس الفلسفية والإجتماعية في التأريخ البشري .

هناك مذاهب جعلت مقياس اللذة هو الأساس والقاعدة التي ينطلق الانسان منها في تفكيره وعقله .

(١) يوسف القرضاوي - الناس والحق - المكتب الإسلامي - الطبعة الثالثة ص ١٦ - ٣٣ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٧١ .

وهناك من إتخذ مبادئ القوة والهيمنة كأساس له ومنهم من ذهب الى المنفعة .

ومذاهب آمنت بمبادئ الواجب . ومنهم من غالى في العقل والعاطفة ، وآخرون قدسوه الحرية الفردية فقط ، والآخرون قدسوا المصلحة الاجتماعية ومنهم من آمن بالمادة فقط ، وآخرون بالروح كأساس لفلسفاتهم ومنهم من جنح الى المثالية أو الواقعية أو الشك .

ومن هنا كان السبيل الوحيد الضامن ، هو سبيل الأنبياء المدعم بالقانون الإلهي عن طريق الوحي .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده إلى أن يقول تعالى : رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (٢) .

المستنطق والمستقريء للآية الأولى ، يستفيد من أن حل الإختلاف ، وفك النزاع بين أفراد المجتمع ، لا يمكن القضاء عليها إلا من خلال الوحي والنبوة في الوقت الذي تؤكد الآية الثانية إن الوحي والنبوة هما الدليل الوحيد والقاطع لاتمام الحجة على العباد .

فالدليل العقلي بالرغم من أهميته ومكانته الرفيعة في الاسلام ، إلا إنه لا يصلح وحده أن يكون دليلاً لهداية ، وإرشاد البشرية ، ولا يصلح لإتمام الحجة بشكل قاطع يقطع دابر كل شك . وبمعنى آخر إن الله عز وجل لو

(١) سورة البقرة آية ٢١٣ .

(٢) سورة النساء آية ١١٣ .

لم يبعث الأنبياء والرسول ليبشروا وينذروا الناس، لما استطاع الإدراك العقلي للإنسان من إستيعاب وتفهم الأحكام والتشريعات الإلهية .

وقد يتبادر الى أذهاننا، بعد هذا الإستعراض المستفيض، ثمة أسئلة وتساؤلات تتركز حول المقولة التالية : إن الإعتماد على الوحي في إرشاد وهداية الناس قد يعني بحد ذاته تجريد العقل عن دوره الرئيسي في إستيعاب الحياة وكمصدر للمعرفة تستنتج بواسطته القوانين والأحكام التي ترشد البشرية .

فكيف ينسجم هذا القول مع تلك الآيات القرآنية الكريمة التي تبين مقام الفكر والعقل والتفكر والتعقل؟! وكيف ينسجم مع الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة عليهم السلام؟! «إن لله تعالى على العباد حجتين ظاهرة وباطنة هما النبي والعقل» ولقد ذكرنا إن العقل لا يحكم دائما بضرورة رعاية القانون وإجتناّب التخلف عنه ، وليس له حكم قاطع في موارد تخلف الإنسان عن بعض واجباته ، فكيف يكون العقل حجة عليه؟

يقول العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (قدس سره) في تفسير سورة الرعد ، «إن العقل العملي يدعو دائما الى ما ينفع والإجتناّب عما يضر، ولكن الإنسان المستثمر عندما يرضخ للتعاون الإجتماعي وتبادل الجهد المشترك إنما يفعل ذلك إضطرارا ، ومنشأ الاضطرار هو القدرة التي يملكها ويستثمر بها بحرية تامة جهود الآخرين ، أو القوة التي تقع في يد من يضع القوانين»^(١) . إضافة إلى إنه قانون صادر من الإنسان الذي يجهل كثيراً من الأمور التي تحيطه، وكذلك لا يستطيع تجاوز الواقع إلى حد كبير لأنه صادر من الواقع ، وغير ذلك من الأسباب والعلل المذكورة في الصفحات السابقة .

(١) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي : القرآن في الإسلام - دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م ص ١٠٤ - ١٠٦ .

إذن لولا تلك القوانين الربانية التي تحد من هذه القوة والقدرة وتؤطرها وتضعها في مواقعها الصحيحة ، لما حكم العقل في نفسه بضرورة الالتزام والاتباع الكامل لتلك القوانين والأحكام التي تنظم حياة الإنسان ، ولا ينهى تخلف الإنسان عنها ونقضه لها .

فالأطروحة الإلهية المتمثلة بالوحي والنبوة هي التي تفسر لنا منشأ الاضطراب ، بأنه الحكم الرباني الإلهي الرقيب والعليم بالأعمال والنوايا الظاهرية والباطنية والمنزه عن الغفلة والجهل والعجز ، مما لا يترك أية ثغرة ومجالاً للعقل ، من حيث إيجاد تبريرات وأدلة عقلية تناقض الحكم أو التخلي عنه وذلك بسبب غياب إحساسه بالاضطرار ، وضرورة إتباع الوحي في أحكامه .

فيقول عز وجل في محكم كتابه المقدس : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾^(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾^(٣) .

إذن ماذا ترك الوحي للعقل ؟

المتفهم للنصوص القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وسيرة الأئمة والصالحين (ع) ، يلاحظ أن الإسلام ترك للعقل أموراً كثيرة وفي مجالات متعددة ومختلفة منها على سبيل المثال :

أ - حث سبحانه تعالى على ضرورة استخدام نعمة العقل في أخطر وأدق مجالات الحياة، الا وهي مجال العقيدة، فمطلوب من

(١) سورة الرعد آية ٣٣ .

(٢) سورة الطارق آية ٤ .

(٣) سورة المدثر آية ٣٨ .

الإنسان أن يهتدي بهدى العقل والبصيرة النافذة إلى أعظم حقيقتين
في هذا الوجود :

الحقيقة الأولى : إثبات وجود الله ووحدانته الصمدية .

بالرغم من أن الفطرة السليمة ، ترشد الإنسان إلى خالقه ، ولكن
سرعان ما تتلوث هذه النعمة الإلهية ، وتحجب عنه رؤية الحقائق والمعارف
الصادقة ، بسبب الذنوب والابتعاد عن تطبيق الشريعة الإلهية ، ولذلك
أودع الله فينا العقل ومنحنا القوة والإمكانات ، للنظر والتمعن في الآفاق
الانفسية الداخلية والآفاق الخارجية الطبيعية ، وذلك لاستنتاج القرائن
والأدلة التي تثبت حقيقة الله عز وجل . يقول تعالى : ﴿ إن في خلق
السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا
السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾^(٢) .

والأدلة العقلية التي يوردها القرآن في إثبات وحدانيته كثيرة منها ما

يلي : -

قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا ف سبحانه الله رب
العرش عما يصفون . . . أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ﴾^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد ومـا كان معه من إله إذاً لذهب
كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾^(٤) .

ب - الأمر الثاني : هو إثبات الوحي والنبوة والرسالة .

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

(٢) سورة الطور آية ٣٥ - ٣٦ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٢ - ٢٤ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٩١ .

يعتبر العقل هو الحكم الأول الذي يتسم بالنزاهة والموضوعية في الحكم على مدى صحة ومصداقية دعوات الأنبياء والرسل . فالعقل يؤكد لنا ضرورة وجود انبياء ورسول معصومين مرسلين من قبل الله لهداية الإنسان ، إذ ليس من الحكمة أو العقل أن يخلق الله سبحانه وتعالى البشر، ويتركهم في خضم الأمواج الهائلة أو في أعماق البحار اللحجة أو في مستنقعات الجهل والعمى ، دون أن يكون من بينهم إنسان هادي مهدي ، كامل متكامل على مستوى البشرية، معصوم من الخطأ والزلة ، يأخذ بيد البشرية ويتشلها من مستنقعات الفساد والجهل والعمى والرذيلة الى دار العلم والإيمان والفضيلة والأمن والاستقرار والسعادة . يقول عز وجل : ﴿ ولكل قوم هادٍ ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾^(٢) ، والعقل لا يستسلم لدعوات الأنبياء والرسل ، إلا بعد البينة والدليل العقلي أو الأدلة الاعجازية التي يقنع بها العقل ويشهد على صحتها . والعقل وحده يستطيع أن يميز بين المعاجز الحقيقية والسحر والشعوذة ﴿ صدق عبدي فيما يبلغ عني ﴾ .

والعقل يحكم على مصداقية إدعاء الإنسان للنبوة ، وذلك من خلال التأمل والنظر في صفاته وسلوكياته وأخلاقه وأقواله وأعماله ، هل هي منسجمة ومنطبقة مع مكانة ورتبة النبوة أم لا يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قل إنما اعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ .

ب - ترك للعقل في مجال التشريع أن يتأمل وينظر الى نصوصه ، فيفرغ على الأصول ، ويستنبط الأحكام والتشريعات المتغيرة ، ويستوعب الأصول والتشريعات الثابتة . وما الاجتهاد الفقهي الا دليل قاطع لدور العقل في مجال التشريع الاسلامي حتى أعتبر مصدرا من مصادر التشريع

(١) سورة الرعد آية ٧ .

(٢) سورة الفاطر آية ٢٤ .

(٣) سورة سبأ آية ٤٦ .

والمعرفة الانسانية بعد القرآن والأحاديث النبوية الشريفة .

ج- للعقل حكم وتقدير خاص في ميدان الأخلاق والفضائل الانسانية حتى قيل إن القبح والحسن عقليان . فترك الإسلام للعقل أن يصدر كلمته وتقديره في كثير من الأعمال التي يلتبس فيها الخير بالشر، ويشتبه الحلال بالحرام ولم يغفل شأنه - بجانب الوحي - كمصدر للالزام الأدبي ، ومقياس للكلم الخلقى .

د- فتح الاسلام للعقل مجالات عديدة للخوض والبحث في الأمور الحياتية سواء الاقتصادية أو الطبيعية أو النفسية وذلك بغية اكتشاف الإبتكارات والاختراعات في وسائل الحياة وأمور الدنيا .

هـ- ترك للعقل مراقبة النفس ومحاسبتها عن طريق الضمير الحي . قوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

وترك للعقل أن يستقريء التأريخ ويستنطق تجارب وحياة الآخرين لكي يعتبر الإنسان من التراث الحضاري للأقوام السابقة - قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾^(١) .

وما ختم الآيات القرآنية الشريفة بكلمات ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ﴿ أفلا تفكرون ﴾ إلا خير دليل وبرهان، على دور وأهمية التدبر والتعقل في امور الحياة .

نعم ، هناك أمور عملية قد يهتدي الإنسان فيها إلى الحق باستخدام العقل والحس كأداة للنظر والتجربة والبحث، والتي بدورها تكشف لنا خبايا الأمور الخاطئة، وتميط اللثام عن جوانب مظلمة خافية عن أذهننا وعقولنا ، مما يرفع ستار الجهل والغفلة عن أعيننا ، ولكن لا يتم ذلك إلا

(١) سورة الحج آية ٤٦ .

بعد تقديم توضيحات كبيرة ، وهدر للإمكانات والطاقات البشرية ، وبعد حقبة زمنية طويلة ، لأن الميزان الوحيد والمقياس الرئيسي هو العقل الذي يعتمد على التجربة ، والتي هي بدورها تسند على الملاحظة والنظر الذي يتسم بالخطأ والصح .

إذا كان الإنسان العاقل وهو رب البيت ، يبذل قصارى جهده وطاقاته في سبيل بلورة أفكاره ومعارفه الحقه ، وإيصالها إلى أبنائه بشكل يختصر عليهم الوقت والتكلفة المادية والمعنوية ، أفليس الأوفق والأحكم بحكمة العليم الحكيم ، ورحمة الرحمن التي أحيطت بكل شيء علما ، والذي يعلم الصالح والفساد ، والطالح والخير والشر ، أن ينقلها عز وجل ويوصلها إلى عبده المشدود إليه ، وذلك بغية المحافظة على دين وأموال وأعراض وعقرب وأخلاق الناس .

فحقيقة وضرورة الوحي لا محيص عنها ، إذا نظرنا الى الحياة والكون والإنسان والعلائق الارتباطية المتداخلة بينهم ، والأهداف والغايات المنشودة من الإنسان تحقيقها عبر مسيرته التكاملية الإرتقائية في الحياة .

وخلاصة القول ، يمكن أن نستنتج من كلامنا بشكل عام ، إن العقل لوحده غير كاف للحد من التخلفات القانونية التي تنبثق عن وجود الحرية التامة في التصرف ، وتجدر الإشارة الى أن هذا الإستدلال مستند على أساس إن العقل لا يحد بعض هذه الحريات في قضايا خاصة ، بل لأنه ليس له حكم قاطع في هذه الحرية المطلقة ، وإنه لم يدع إلى الإرتباط والتعاون الإجتماعي التام وإتباع القوانين والأحكام والضوابط ، لأن ما قام به في بعض الأحيان وفي مواقف محددة الى ضرورة إتباع القوانين ، كان ناتجا من طبيعة الضغط ، والضرورة المتأنية من المزاحم التي تمنع عنه حرية التصرف ، وهو علمه بأن مساويء الحرية المطلقة في تصرفاته الفردية أكثر من محاسنها ، أي أن الأثار والجوانب السلبية أكبر من الأثار والجوانب الإيجابية . ومن الواضح لولا وقوع العقل في وضع إضطرابي ، وتحت

ظروف قهرية ذات قوة وضغط كبيرين، ولولا وجود الإلتزام والتناقض والموانع عن الحرية في التصرف ، لما قام بوضع بعض الحدود والقيود على حرته المطلقة ، ولم ينأدِ باتباع القوانين التي تؤطر هذه الحدود وتضيق عليه مجالات الحرية المطلقة . وبناء على ذلك ، نرى بأن العقل لا يدعو دائماً إلى ضرورة الإلتزام والاتباع للقوانين والأحكام والضوابط التي تنظم الحياة الفردية والاجتماعية . وبالتالي لوحده غير كاف للارشاد والهداية ، بل أن السبيل والطريق الوحيد الذي يحمل في طياته ضمانات ومقومات الاتباع والإلتزام هو الوحي وإتباع منهاج الأنبياء والرسل ، لأن الوحي دائم الدعوة والحث على السير على ضوء القانون الرباني الإلهي ، الذي يراقب الإنسان في كل حالاته ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، بدون تمييز بعض على بعض^(١) قال تعالى : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ ان الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾^(٤) .

وقال : ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾^(٥) .

وقال : ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾^(٦) .

يستفاد من الآيات القرآنية الشريفة ، بأن الدين الإلهي ، هو الدستور

(١) نفس المصدر السابق ص ١١٩

(٢) سورة يوسف الآية ٤٠ .

(٣) سورة الزلزلة آية ٧ - ٨ .

(٤) سورة الحج آية ١٧ .

(٥) سورة البقرة آية ٧٧ .

(٦) سورة الأحزاب آية ٥٢ .

والمنهاج الوحيد الذي يشتمل على ضمانات ومقومات وأسس تكفل تحديد المتخلفين عن الإلتزام والاتباع بالقانون ، ويكمن في تطبيقه تحقيق سعادة الانسان والمجتمع . حيث الرقابة الظاهرية والباطنية الذاتية ، من تأنيب الضمير ، والخوف من عقاب الله ، والفوز بالجنة ، ورحمة الله ، كلها دوافع ذاتية تضع قيودا وتحدد وتنظم حرية الإنسان من زاوية ، والرقيب الخارجي من تطبيق قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من زاوية ثانية ، إضافة الى الأحكام والتشريعات الجزائية التي يجازى بها المجرمون في الدنيا .

يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾^(١).

ويقول تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾^(٢).

ويقول : ﴿ وان عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾^(٣).

وقال : ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾^(٤).

اذن السبيل والطريق الأمثل والأنسب بل والأوحد لهداية وإرشاد الناس للإلتزام والإلتزام بالقوانين والسنن والأحكام الإجتماعية التي تنظم الحياة الفردية والإجتماعية ، لا يتأتى من مصدر العقل وحده فقط ، وذلك بسبب القيود والاضطرار وإحتمالات الخطأ فيه ، بل من منبع النبوة والوحي الذي لا يتسرب اليه الخطأ على طول الخط . قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

(٢) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٣) سورة الانفطار الآية ١٠ - ١٢ .

(٤) سورة سبأ الآية ٢١ .

على غيبه أحد ، الا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴿١﴾ .

إضافة إلى أن المعارف والحقائق المستقاة والمستوحاة من الوحي مباشرة ودون واسطة أو وسيلة ، هي أشرف وأدق وأكثر مصداقية و يقينا من بقية المصادر أو المعارف، ومن هنا كان علم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق ، لأنه محصول عن الله تعالى بلا واسطة .

هدف وغاية الوحي :

المستنطق للآيات القرآنية الشريفة ، يستفيد من أن الغاية الأساسية من الوحي هي أولاً : أنذار الناس وخاصة ذلك الأنداز المتعلق بيوم الجمع والحساب الذي يتفرق فيه الناس فريقين ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ (٢) .

ولولا هذا الإنذار والوعيد بيوم الجمع والحساب والجزاء ، لم تنجح الدعوات الدينية ، ولم تنفع التبليغات التي أتى بها الرسل والأنبياء (ع) .

ولتبيان أهمية ووظيفة الوحي للبشرية ، نرى من الأهمية بمكان ، أن نستشهد ببعض الآيات القرآنية التي توضح لنا هذه الغاية والوظيفة .

فيقول عز وجل : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم

(١) سورة الجن الآية ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة الشورى الآية ٧ .

(٣) سورة طه الآية ١ - ٢ .

آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴿^(١)﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾^(٢) .

ويقول: ﴿ وما انزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾^(٣) .

وقوله تعالى: ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ﴾^(٤) .

نستدل من هذه الآيات القرآنية الشريفة الواردة بصدد الوحي من حيث غايته وآثاره ووظائفه الأساسية ما يلي : أن الوحي سنة إلهية هادفة غير مبتدعة ، وإن غايته هي إنذار الناس عن طريق الإلقاء الإلهي وهو النبوة ، وتعليم الناس بالعقائد والأمور الدينية الحياتية من مسائل الحلال والحرام ، والأحكام الخلقية من أجل هداية الناس ، وترسيم الطريق المستقيم المنسجم مع الفطرة الانسانية ، وذلك باستخراجهم من الظلمات الى النور بعد أن اختلفوا واختلط العلم بالجهل والظلم بالعدل والنور بالظلام و... الخ .

وخلاصة القول ، إن غاية ووظيفة الوحي ، تتمثل بالإنذار والوعيد ليوم الحساب ، وترسيم وتنوير الناس الى الهداية ، والصراط المستقيم .

العلاقة بين الوحي والإلهام :

لقد ذكرنا فيما سبق ، أن هناك عدة طرق وأساليب يمكن أن نستفي ونستحصل عن طريقها المعارف أو الحقائق الكونية ، وإن أحد هذه الطرق

(١) سورة الجمعة الآية ٢ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٣ .

(٣) سورة النحل آية ٦٤ .

(٤) سورة الغاشية آية ٢١ - ٢٢ .

هو الطريق المباشر بدون واسطة ، وإن هذا الطريق أو السبيل يطلق عليه التعليم الرباني الذي بدوره ينقسم الى وجهين رئيسيين هما : الوحي والإلهام . ونعتقد أن الوقت قد حان الآن ، للفرقة والتمييز بين الوحي والإلهام كمصدرين للمعرفة في المنظار الإسلامي .

يقول الإمام الغزالي ، إن هذين الطريقين لا يختلفان في طبيعتهما ، نظراً لكون كل منهما نابع من القلب بغير حيلة أو تعلم أو إجهاد من العبد . . . وإنما يحصلان في النفس على شكل نفث في الروح بواسطة الملائكة لقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ﴾ (١) .

ولكن الفروقات بينها تنحصر فيما يلي :

أ - كيفية حصول الإلهام والوحي :

فالوحي عند الغزالي : « يتولد من إفاضة العقل الكلي أما الإلهام ، فمن إشراق النفس الكلية ، والعقل الكلي أشرف وأكمل وأقوى وأقرب الى الباريء من النفس الكلية . . . » .

وتأسيساً على ذلك ، إن مرتبة وشرف العقل الكلي أعلى وأفضل على النفس الكلية ، فإن الإلهام دون الوحي مرتبة .

٢ - الوحي حلية الأنبياء ، والإلهام رتبة الأولياء :

وبناء على ذلك ، الولي دون النبي ، والعلم الدني (الإلهام) يكون لأهل النبوة والولاية ، بينما الوحي مختص بالنبوة ، فقال عز وجل في محكم كتابه المقدس عن كيفية حصول الخضر (ع) وتلقيه المعارف الإلهية ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ (٢)

(١) سورة الشورى آية ٥١ .

(٢) سورة الكهف آية - ٦٥ .

وقال أمير المؤمنين علي (ع) إن رسول الله (ص)، أدخل لسانه في فمي ، فانفتح في قلبي ألف باب من العلم ، في كل باب الف باب . وإن حقيقة الحكمة تنال من العلم اللدين ، حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾^(١) وأولوا الألباب هم الواصلون لمرتبة العلم اللدني .

٣ - استمرارية الإلهام وإنقطاع الوحي^(٢) .

بعد إتمام الحجة ، وإكمال الدين ، وتبيان الأمور للناس ، إنقطع الوحي ، وسد باب الرسالة لإستغناء الناس عن الرسل «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»^(٣) .

وليس من الحكمة والعدل الإلهي إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة ، وأما باب الإلهام فانه ظل مفتوحاً على مصراعيه وذلك لتلقي نور الله وتجلي النفس للقاء خالقها ، وذلك لدوام ضرورة النفس وحاجتها الى تجديد وتأكيد وتذكير للإنتباه من غفلات الدنيا وإنغماسها في اللذات المادية .

ويحدث الإلهام في حالات عديدة متباينة ، منها حالة اليقظة ، أو في حالة النوم ، أو عن طريق الرؤيا الصادقة .

هل هناك تعارض بين الدين أو الوحي والعقل :

ليس من الإنصاف والحكمة أن نحمل الدين أو ما يأتي به الوحي من معارف وحقائق كل ما يتعارض مع الحقائق والمدركات التي ثبتتها العلوم التجريبية ، وليس من الحق شيء أن ندخل في صراع ونزاع بين ما يأتي من

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

(٢) عبد الكريم العثمان - الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص مكتبة وهبة ،

١٩٦٣ م ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٣) سورة المائدة آية ٣ .

المعارف والحقائق الكونية عن طريق الدين ، وما يأتي منها عن طريق العقل والحس أو التجربة والملاحظة ، حيث أن الشواهد والحقائق كلها واحدة لا تتغير مع الزمان والمكان ، وإنما صادرة من الواحد الأحد الصمد ، وبالتالي لا يوجد هناك مجال لظهور التناقض بين الحقائق والمعارف المستقاة بطريق العلم والعقل أو عن طريق الوحي والإلهام .

ويمكننا إرجاع جميع مظاهر التناقضات التي تظهر أو ما تشهده الوسائل والسبل الإنسانية للمعرفة وما تشهد به النصوص التشريعية الدينية الى أحد الإحتمالات التالية : -

١ - إحتمال عدم صحة ومصداقية المعارف النظرية أو التجريبية المستقاة من الملاحظة والتجربة أو الإستدلال والاستنباط ، حيث أعطيت درجة اليقين والمصداقية إلى فروض لم تثبت صحتها بعد ولكنها أقرب إلى الواقع الفكري والعملي للإنسان . وهناك شواهد وقرائن عديدة تؤكد لنا صحة هذه الظاهرة ، حيث أن هناك نظريات تلغى يومياً من الاعتبار العلمي ، وأخرى تتغير وتتعدل فيها كثير من الأمور ، وأخرى تضاف وبهذا المنوال على قدم وساق .

٢ - إحتمال أن المعارف والحقائق التي نسبت الى الشريعة الإلهية غير صحيحة البتة ، سواء من حيث نقل المعنى أو النص .

٣ - إحتمال تحريف الفهم الإسلامي الإلهي للنصوص الدينية التي تنقل لنا حقائق ومعارف إنسانية ، بحيث يتم تفسير وتحليل النصوص بطرق وأطر مذهبية متباينة ، تبعد بعضها كل البعد عن الإطار والمضمون الإسلامي المرسوم لها .

ويستفاد من الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة (ع) ، وبحوث الفلاسفة والمفكرين الإسلاميين ، أنه ليس هناك تناقض بين الدين والعقل ، بل أعتبر الإسلام العقل حجة دامغة على

الإنسان ، وناقش الإسلام مخالفه ومعانديه على أساس من العقل والعلم . وهناك إلحاح وحث شديد من قبل الشرع في إستخدام العقل في الحكم على الأشياء ، إلى درجة اعتبر الإسلام الدليل العقلي ضرورة أساسية لمعرفة أصول الدين من التوحيد والنبوة والعدل والإمامة والمعاد . يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ قل : انظروا ماذا في السماوات والأرض ﴾^(١) .

﴿ قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾^(٢) .

﴿ أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ﴾^(٣) .

تأسيساً على ذلك ، يعتمد الإسلام على العقل سبيلاً إلى إدراك الحقائق في الكون وفي الإنسان نفسه ، والسنن الإلهية والضوابط والقوانين الثابتة المحيطة به ، وذلك أساساً للعقائد ، وتكويننا للقناعة بحقيقتها ، مما ينهض بالأصالة والذاتية ، ثقة منه بأحكامه في أعظم قضاياها ، وترك للعقل الحكم ، والإرادة الحرة للإختيار ولتقرير مصيره في الدنيا والآخرة ، والعلم ميزان التفاضل كالتقوى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾^(٤) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون ﴾^(٥) .

وبذلك يشمل المذهب الإسلامي في الحياة الجمع بين العقل ،

(١) سورة يونس آية ١٠١ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٢٠ .

(٣) سورة الطور آية ٣٥ .

(٤) سورة الزمر آية ٩ .

(٥) سورة العنكبوت آية ٤٣ .

والعلم ، والإرادة الحرة ، والتوازن الفطري ، والفضائل والأخلاقية الإنسانية ، فضلا عن الشرع العادل ، وجميع هذه الموازين والمقاييس منطلقات أساسية علمية لدفع المسيرة الانسانية الإرتقائية التكاملية إلى الإمام ، لتحقيق أهدافها وغايتها المنشودة ، والمتمثلة بالتقرب الى الله عز وجل .

فالمسلم حقا هو ربيب تعاليم الوحي ؛ ومنطق العقل ، وحضارة العلم ، والفضائل والأخلاق الانسانية ، والفطرة السليمة ، والمثل العليا الخالدة .

أصالة العقل والنفس كمصدر وأداة للمعرفة الإنسانية في الفلسفة الإسلامية :

بعد أن بينا ألوان مصادر المعرفة ، وأنواع الأدوات المستخدمة في معرفة الموجودات والقضايا والحقائق ، وكيفية إنتزاع الذهن المعارف الثانوية من المعارف الأولية ، نريد أن نبين الأصالة في المعرفة لمن ، هل للحس أم للعقل أو النفس البشرية ؟ .

تنقسم الآراء والأجوبة على هذا السؤال إلى عدة أقسام رئيسية أهمها ما يلي :

المجموعة الأولى : وهي تعتقد بأصالة الحس ، ويطلق على الفلاسفة الذين يعتقدون بأن التصورات أي المعرفة الحسية هي المعرفة الحقيقية ذات قيمة أساسية بالحسين ، أما بالنسبة للتصديقات فانهم يعتقدون بأصالة التجربة أي الحس وبالتالي تكون جميع التصديقات العقلية تابعة للتجربة ويطلق على هؤلاء الفلاسفة بالتجريبيين ، وأهم رواد هذا المذهب الحسي في الزمن المعاصر هم جون لوك ، وكند باك ، وباركلي وهيوم .

المجموعة الثانية :

المذهب العقلي ، الذي يعتقد بأصالة العقل ، ويطلق على الفلاسفة

الذين يعتقدون هذا المذهب بالعقليين . وهم يعطون القيمة التعويلية للعقل في التصورات وفي التصديقات ويطلق عليهم بالمتعقلين مقابل المذهب الحسي (التجريبيين) . وتندرج تحت المذهب العقلي أو التعقليين مدارس ونظريات متباينة ، يستلزم دراسة كل مدرسة أو نظرية على حدة . وأهم هذه النظريات هي : نظرية أفلاطون ، وديكارت ، وكانت ، وآخرين .

المجموعة الثالثة :

أصالة العقل والنفس

مذهب أصالة العقل والنفس هو المذهب الفلسفي الذي يستند إليه الإسلام ، فالإسلام يقدر قيمة العقل ويحترمه ويعتبره النبي الباطني ، وإن أصول الدين تعتمد وتستند إلى الأصول العقلية في الإعتقاد والإيمان بها ، فبدون التحقق العقلي لا يعتبر الإعتقاد بالأصول إعتقاداً راسخاً قويمًا . أما بالنسبة لفروع الدين مثل الصلاة والزكاة والحج والخمس . . . إلى آخره ، فيعتبر العقل أحد مصادر الاجتهاد . ويقدر الإسلام قيمة العقل إلى درجة الطهارة ، وإن زواله نوع من (الحدث) ، لذا فإن اعراض الجنون أو السكر يعتبر نقصاً للوضوء كالنوم أو البول . والإسلام وضع خطة قومية ذات أسس وركائز أساسية في المحاربة والقضاء على كل عمل أو سلوك يؤدي إلى القضاء أو زوال أو تعطيل العقل لأنه جزء من الدين .

تبعاً لنظرية الإنتزاع في الإسلام ، نستنتج بأن المذهب الفلسفي في الإسلام يستند إلى أصالة العقل في إنتزاع المعارف والتصورات والتصديقات ، وإن كان العقل يغذى بالتصورات والمعارف الأولية عن طريق الحس والتجربة إلا أن الإنتزاع والحكم على القضايا الكلية يرجع أساساً إلى الذهن أو العقل .

بالإضافة إلى إعتبار الإسلام أصالة العقل في المعرفة ، فإن المستقريء

للآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، يستنتج إن الإسلام أعطى عناية فائقة وتركيزاً كبيراً على تصفية وتزكية النفس لتحصيل المعارف الإلهية المباشرة دون وساطة من زاوية ، أو لتهيئة الجو وإزالة العقبات والمنحنيات أمام العقل في إنتزاع المعارف والقضايا الكلية من زاوية ثانية .

ولذلك نعتقد أن المذهب الفلسفي في الإسلام يستند بالدرجة الأولى إلى أصالة العقل ويعطى إهتماماً وتركيزاً للتجربة ، ويعتبر النفس أصيلة من حيث الوجود والتفاعل ، ومن حيث تلقي وتقبل المعارف الإنسانية عن طريق الإلهام والإشراق بدون واسطة عقلية أو تجريبية .

نطاق كل لون من ألوان المعرفة :

بعد ما بينا أن مصادر المعرفة متنوعة منها: العقل، والتجربة، والنفس، والقلب ، (الآيات الأفاقية والأنفسية) يتبادر الى أذهاننا سؤال محوري رئيسي ، مفاده هل أن كل واقع أو موجود أو حقيقة يمكن معرفتها بلون واحد من ألوان المعرفة ؟ أم أن لكل نوع ولون من المعرفة حقلاً ومجالاً خاصاً؟ وإذا وجدت حقيقة أو معرفة يمكن إثباتها وتحصيلها بعدة طرق من مصادر المعرفة فأيهما أفضل وأدق وأكثر مصداقية وواقعية ؟ .

بإدبيء ذي بدء ، إن للمعرفة وسائل وأدوات (ذكرناها بشيء من التفصيل في الصفحات السابقة) هي في الواقع متباينة ومتعددة من حيث درجة الاتساع والشمول ، والدقة والعمق ، وإن لهذه الأدوات والوسائل التي تنقل إلينا المعارف الإنسانية والكونية بشكل عام ، درجات في الإعتماد والتعويل عليها ، بسبب درجات القصور والأخطاء في إعدادها وإستخدام هذه الوسائل والأدوات ، الأمر الذي ينعكس على دقة وصحة المعارف الإنسانية في الحياة .

ومما لا شك فيه ، لو أن الإنسان إستطاع أن يستحصل على معلومات

وحقائق ومعارف عن الوجود والموجودات بشكل مباشر دون وسيط أو أداة تنقل من خلالها الى الإنسان ، لكانت درجة التعويل والدقة بالنسبة لتلك الحقائق والمعارف أكثر صحة ومصداقية وإطمئناناً أو يعتبر إنعكاساً حقيقياً للواقع الموضوعي خارج الإدراك أو الذهن الإنساني .

وهذا ما يطلق عليه بالعلم الحضورى أو المعرفة الفطرية، التي ينكشف فيها الواقع وتنطبع الموجودات والحقائق بشكل مباشر دون أي وسيط، تماما كما هو في الخارج . ولكن هذا المصدر (العلم الحضورى) (أو المعرفة الفطرية) لا تتجلى ولا تحصل لجميع أفراد النوع الإنساني وخاصة العاديين ، والاعتماد على هذا المنبع أو المصدر الفطري الحضورى النفسى للمعرفة ، يستلزم الادراك الحقيقى الواعى لقوى النفس وأفعالها وإنفعالاتها وكيفية إزالة الشوائب والأمراض النفسية من جانب، وتنمية وتزكية وتصفية الروح والنفس الى درجة تصبح نقية صافية زكية تعكس الحقائق والموجودات الخارجية بشكل مباشر وصادق من جانب آخر .

والأفعال والانفعالات النفسية التي يرتبط بها العلم الحضورى ، تشمل بالإضافة الى ما ذكرناه ، الصور الإدراكية الجزئية ، والمفاهيم الكلية المتعلقة بالعلم الحضورى من حيث إنها موجودة في النفس، ولكن متعلقاتها التي هي الواقعيات الخارجية . عن النفس، فلا يتعلق بها العلم الحضورى الذي لا وساطة فيه ، وتعرف في الأفراد العاديين دائما بوساطة الصور الإدراكية (١) .

وهناك نماذج عديدة في القرآن ، تبين كيف أن الله سبحانه وتعالى قد أوصل الى الإنسان بشكل مباشر معارف وحقائق بدون وسيط، بل ألقاه الله في قلب الإنسان مباشرة . يقول عز وجل :

(١) الأستاذ محمد نقي اليزدي - محاضرات في الأيديولوجية المقارنة - مؤسسة في الطبعة الأولى ١٣٦١ هـ ص ١٨٠ .

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا . . . ﴾^(١).

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . . . ﴾^(٢).

﴿ قل انما اتبع ما يوحى الي من ربي . . . ﴾^(٣).

إذن هناك نوعان رئيسيان من العلوم او المعارف هما : العلم الحضورى والعلم الحصىلى ، فالعلم الحضورى هو ذلك العلم أو المعرفة أو الحقائق اللى نحصل عليها ونلقاها بشكل مباشر دون وساطة ، بينما العلم الحصىلى هو العلم للواقعيات القابلة للإدراك الحسى والعقلى ، وهنا يتبادر الى اذهاننا السؤال المحورى التالى : هل أن جميع المعلومات والحقائق المتعلقة بالعلم الحصىلى قابلة للإدراك الحسى والعقلى ؟ أم أن لكل من الحس والعقل مساحة ومجال خاص به ؟

مما لا شك فيه ، إن للحس مجالا ومحدودية واضحة من حيث التقاط أو تحصيل الموجودات أو المعارف والحقائق الموضوعية خارج إدراك الذهن البشرى . والمستقرىء للآيات الشريفة ، يلاحظ بوضوح وجلاء ، مدى إهتمام وتقدير الإسلام إلى إستخدام الحواس للنظر الى الكون والحياة والإنسان ، أى إستقراء الحقائق والمعلومات ، وإعتبار الحواس كمصدر من مصادر المعرفة ، إلا أنه ليس مستقلا عن مصدر العقل كما وضحنا ذلك فيما سبق . ويقول تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون ﴾^(٤).

وتجدر الإشارة هنا ، بأن معنى الشكر هو إستخدام وإستعمال هذه

(١) سورة الشورى آية ٥٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٤ .

(٣) سورة الأعراف آية (٧) .

(٤) سورة النحل آية ٧٨ .

الأدوات والحواس في مجالاتها ومواقعها الصحيحة والتي خلقت من أجلها .

وفي موضع آخر في القرآن الكريم ، نرى بوضوح تام ، قصور الحواس من إدراك الواقع الموضوعي خارج إدراك أو الذهن البشري أي أن هناك موجودات غير مادية ، ومن المادية في بعض الأحيان لا يستطيع الحس أن يكتشفها لنا . يقول تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾^(١) .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظروا كيف كان عاقبة الظالمين ﴾^(٢) .

﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾^(٣) .

ويقول الإمام علي (ع) : «من أدى من العلم غايته ، فقد أظهر من الجهل نهايته»^(٤) .

ويقول الإمام علي (ع) : «ليست الرؤية مع الأبصار ، فقد تكذب العيون أهلها ، ولا يغش العقل من استنصحه»^(٥) .

وبالتالي نستنتج أن مهما بلغت حواس الإنسان من الدقة والعناية بها ، إلا إنها محدودة وضيقة وتخضع في كثير من الأحيان إلى ظروف معينة ، تحجبه عن الحقيقة الموضوعية خارج إدراك أو ذهن الإنسان ، وإن ما يدرك بالحواس لا يغني عن طلب العلم الخارج عن الحواس ، فلا يكون الإنسان أبدا مستغنيا عن المعرفة العقلية . ويؤكد لنا هذا الأمر ، إن كثيرا من

(١) سورة الاسراء الآية ٨٥ .

(٢) سورة يونس آية ٣٩ .

(٣) سورة الروم آية ٧ .

(٤) غرر الحكم / ٣١١ .

(٥) نهج البلاغة / ١٢٢٣ .

الحقائق والمعارف العلمية لا مجال ولا طريق للحس إليها بصورة مباشرة .
وعندما نستقرئ وندقق في كيفية تحصيل هذه المعارف ، نجد إننا إستخدمنا
أدوات ومصدر العقل من أجل إنتزاع هذه المعرفة الخارجية ونقلها إلى
الذهن أو النفس الإنسانية .

وبتعبير آخر ، إنه بالرغم من أن القضايا الجزئية ، والمعارف الجزئية
تحصل عليها من خلال التجربة والملاحظة مثل غليان الماء عند درجة حرارة
معينة وتحت ضغط مئوي معين ، وكونها قضايا تجريبية صرفة نابعة ومشتقة
من الحواس ، إلا أن التعميم وأثبت القضايا الكلية بصورة قطعية تحتاج
إلى معارف غير حسية ، وهي عقلية صرفة كتعميم وإثبات أن جميع المياه في
العالم تغلي عند درجة ١٠٠ م° ، هذا التعميم لا يمكن إستنتاجه من
الحواس أي التجارب ، لأننا لا نستطيع أن نخضع جميع المياه في العالم
للإختبار والملاحظة ، وإن هذا التأكيد والإثبات الكلي خاضع أو مستند
أساساً على الأصول العقلية الرئيسية في ذهن الإنسان ، مثل قضية العلية
وفروعها وقضية التناقض .

وتجدر الإشارة إلى ، أن هناك علاقة متبادلة ومتأثرة بين الحس
والعقل ، فكثير من القضايا الحسية تثبت وتدعم القضايا العقلية ، كحركة
المادة في الكون والحركة الجوهرية للنفس في الفلسفة وغيرها من القضايا
التجريبية .

وخلاصة القول ، إن ألوان وأشكال منابع المعرفة وأدواتها في نظرية
المعرفة عند المسلمين ، لها تنوع أفقي وقوة ودرجة عمودية . فالحواس
تستخدم في أغلب الأحيان لاستكشاف المعارف والمدرجات التصورية
السادجة ، والعقل يستخدم الترتيب والتصنيف والتحليل والتركيب من
أجل إستدلال وإستنباط أحكام كلية عامة شاملة ، ويستخدم العقل أيضاً
ل طرح وإستيعاب القضايا والأمور الغيبية - أي ما وراء الطبيعة الذي يعجز

الحس عن إلتقاطه ، بل عن تصوره بالشكل الساذج ايضاً . وهناك دور وقدرة للنفس أو القلب لاستيعاب كثير من المفاهيم والحقائق والأشياء إذا ما زكينا وصفينا نفوسنا وقلوبنا ، فإنها تلتقط نوعاً من المعارف اليقينية بشكل مباشر دون وسيط ، قد تكون من المحسوسات أو من الغيبات ، والوحي يعتبر مصدراً ومنبعاً أصيلاً ورئيسياً وضرورياً لمعرفة القضايا والأمور المتعلقة بالتشريع الاسلامي وتفصيله الدقيقة .

إذن الإسلام دائماً وأبداً ، واقعي منطقي ، منسجم مع طبيعة وفطرة الانسان وواقعه الموضوعي ، ويتميز عن كافة الأنظمة والمذاهب الوضعية ، التي تأخذ بنظرية العامل الواحد ، منطلقاً وقاعدة لبناء وتشيد صرحها الفلسفي او الاجتماعي ، فالاسلام يرى بأن لكل نوع من أنواع مصادر المعرفة مجالاً وميداناً خاصاً به ، ودرجة وعمقاً مميزاً من المصدقية والدقة والتعويل عليه .

الفصل التاسع

هل الحقيقة مطلقة أم نسبية ؟

المستقريء لنظرية المعرفة في معظم المذاهب الفلسفية القديمة والمعاصرة ، يستنتج بكل وضوح وجلاء ، أن هناك اتفاقاً إجمالياً بين هذه المذاهب على وجود حقائق ، بالرغم من التباين الواضح في تفسيرها ، هل إنها مطلقة ؟ « Absolute » أم أنها نسبية (Relative) ؟

ونستطيع أن نفهم القصد الحقيقي لتعبير (المطلق والنسبي) في مجال المعرفة ، عندما نوضح أو نطرح ثمة تساؤلات رئيسية متعلقة بالموضوع وهي تتمثل في القضايا والامور التالية^(١) :

- أ - هل أن كل الاشياء تخضع لمعرفتنا ؟ أو أن بعضها مما لا يخضع لها ؟
- ب - هل أن المعرفة الانسانية عينية (Objective) ؟ أو أن لها جانبيين وإطارين يرتبط أحدهما بالذهن (Subjective) أي متعلق بشخص المدرك وذهنه ؟ والجانب الآخر بالشيء موضوع المعرفة .
- ج - هل أن معارف الانسان بالنسبة (لشيء واحد) هي على مستوى واحد ؟ أم أن معرفة كل شخص تتبع تشكيلات الجهاز الادراكي له والظروف الخاصة المحيطة به ؟
- د - هل يمكن معرفة واقع معين معرفة تامة كاملة ؟ أم أن المعرفة الكاملة

(١) المادة الديالكتيكية ، تأليف مجموعة من العلماء الروس ، الترجمة العربية ص ٣٢٦ .

لاي شيء ومن قبل أي فرد غير ممكنه ، وهل أن معرفة الناس تقرب من
(الحقيقة المطلقة) (Absolut Fact) تدريجيا ووفق السير التكاملي دون أن
تصل إليها على أي حال ؟

بعد طرح هذه التساؤلات ، نرى من الأهمية بمكان ، أن نبدأ حديثنا
بتحديد مفهوم الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية وذلك على النحو التالي :
المقصود بالحقائق المطلقة ، هي تلك الافكار والمعارف التي لا تتبدل ولا
تقبل أي تعديل أو تصحيح أو إضافة . فهي حقائق نهائية يقينية صادقة
مستمرة منذ صدورهما ، ولا تصل يد الزيف والبطلان إليها مهما دار الزمن ،
ومهما اختلفت الظروف والمحددات او الملابس التي تحيط بها .

وهناك أمثلة عديدة ، يمكن أن نسوقها لتبيان مطلقية الحقائق وثبوتها ،
بغض النظر عن الزمان واختلاف الظروف والملابس المحيطة بها ، منها ما
يلي :

- أن الكل أعظم وأكبر من الجزء .
 - أن الواحد يساوي نصف الاثنين .
 - أن لكل ظاهرة وحادثة سببا مؤثرا في حدوثها .
 - إضافة اثنين (٢) على اثنين (٢) يساوي أربعة (٤) .
 - عدم صحة وجود الشيء وعدمه في آن واحد .
- فجميع هذه الامثلة ونظائرها ، أحكام أو معلومات وحقائق نهائية ثابتة
ومستمرة ، وهي حقائق مطلقة لا تقبل أي تعديل أو تصحيح أو إضافة ،
لأن لها واقعا موضوعيا مستقلا ثابتا ، لا يرتبط وجوده بوجود شيء آخر ،
حتى بوجود من يفكر بها .

اما نسبية المعرفة Relativity of Knowledge فلها عدة معان ، منها إن المعرفة
الانسانية نسبة بين الذات العارفة والموضوع المعروف ، وأن العقل الانساني
لا يحيط بكل شيء ، وإذا أحاط ببعض جوانب الاشياء صبها في قوالبه
الخاصة .

ولنسبية المعرفة عند (هاملتون) ثلاثة معان ، وهي قوله :

أ - إن معرفتنا لا تتناول إلا ظواهر الوجود ، ولا تحيط إلا بالنسب التي بين الأشياء .

ب - إن الذات العارفة لا تستطيع أن تدرك أحوال الوجود الا إذا كانت مزودة بعقل قادر على إدراكها .

ج - إن العقل الانساني لا يدرك صور الوجود الا بعد تبديلها ومزجها بفاعليته الخاصة .

ولنسبية المعرفة معان أخرى عند فلاسفة أوروبا أمثال جون ستيوارت ميل وغيره من الفلاسفة^(١) .

وخلاصة القول، إن المراد بالحقائق النسبية هو تلك المعارف أو الأفكار والادراكات التي قد تضحل أو تبطل وتهرم في المستقبل ، مما يستلزم الأمر تصحيحها وإضافة أشياء جديدة إليها . ومن هنا نستشف بالرغم من أن المذاهب الفلسفية النسبية تعتقد بوجود حقائق موضوعية خارج ذهن الانسان ، وتؤمن بإمكانية التوصل إلى تلك الحقائق والمعلومات ، ولكن هذه المعرفة والحقائق التي يمكن للفكر الإنساني أن يظفر بها ، هي معرفة أو حقيقة نسبية . بمعنى إنها ليست نظيفة خالصة من الشوائب الذاتية وبالتالي تصبح ماهية الأشياء التي يتعلق بها العلم لا يمكن إكتشافها بشكل مطلق وبدون تغيير - القوى المدركة للانسان . فالأشياء المحسوسة مركبة من مادة أدركت بالحس ، وصوره زمانية ومكانية أنشأتها الحساسة الصورية ، أي الحساسة التي تخلق الصورة الموحدة للاحاساسات المختلفة . ومن هنا نلاحظ أن كل فرد يدرك أي شيء بشكل مختلف ، بل أن الشخص الواحد قد يدرك الشيء الواحد بنحوين مختلفين في حالتين من أحواله .

(١) د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي « دار الكتاب اللبناني » الطبعة الاولى ١٩٧٣ ، الجزء الثاني ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

وللنسبية اتجاهان رئيسيان في معنى النسبية وحدودها في العلوم البشرية ، إحداهما الاتجاه النسبي في فلسفة كانت ، والآخر الاتجاه النسبي الذاتي المتمثل في النسبية التطورية التي نادى بها المادية الديالكتيكية وآخرون من فلاسفة الغرب المحدثين . وكلاهما ينفيان وجود الحقائق المطلقة النهائية ، بالرغم من اعتقادهم بوجود الحقائق الموضوعية خارج ذهن الانسان .

النسبية الكانتية :

يقال أن لشك (دفيد هيوم) فضلاً كبيراً في إيقاظ (أمانويل كنت I. Kant) (٧٢٤ - ١٨٠٤) من سباته (الدجماتيقي) Dogmatiam والقيام بشورة فكرية عظيمة في نظرية المعرفة التي كانت سائدة آنذاك .

• ويقسم (كانت) كما ذكرنا سابقاً العالم الى قسمين رئيسيين هما :

أ - الظاهر : وهي الأشياء التي تبدو لنا أو بالأحرى الظواهر بشكل عام .
(Phenomena) .

ب - وعالم الشيء في ذاته ، وهي أشياء كما هي في ذاتها Noumene .

وإن كل شيء من أشياء العالم له باطن وظاهر ، أو مظهر وحقيقة .

ويقسم «أمانويل كنت» ملكة المعرفة أيضاً إلى قسمين أساسيين هما :

أ - الاحساس : وهو ملكة الادراك التي تقوم بادراك الجزئيات الموجودة في

زمان ومكان معين ، ثم تأتي هذه الجزئيات لتصب في قوالب موجودة في

الذهن ، وهي ما يسميه بالمقولات وعددها إثني عشر مقولة .

ب - الفكر : وهذا يعني المادة التي يأتي بها الاحساس ثم علاقتها الكلية .

ويعتقد «كنت» أن المعرفة البشرية تنحصر جميعها في معرفة عالم الظواهر وحده فقط ، أما عالم الشيء في ذاته ، فهو يستحيل معرفته وإدراكه (Unknownable) من قبل البشرية . وتجدر الإشارة هنا إلى ، إن كنت لم يقل

بعدم وجود عالم الشيء في ذاته ، أبي لم ينكره ، بل قال انه مجهول (Unknown) لا يمكن إدراكه أو التوصل الى حقيقته .

وخلاصة القول ، أن نظرية «كنت» في المعرفة والتي تندرج تحت إسم النسبية الكانتيه ، تصنف المعرفة الى صنفين : أحدهما يأتي من الأشياء وهو « مادة المعرفة » وهي لاحقة على التجربة (Aposteriori) ، والآخر يأتي من العقل وهو سابق على التجربة (Expirism) وهذا هو « صورة » المعرفة . وكنت ينكر في الواقع النزعة التجريبية . التي تنكر كل شكل صوري ، وترى في العقل مجرد قابل . وعنده أن العقل هو الذي يفرض قوانينه على الاشياء والتي تتمثل في :

أ - الشكوك القبلية للحساسية ، وهي الزمان والمكان .

ب - والمقولات الأثنتا عشر للذهن .

وتأسيسا على ذلك ، تصبح المعرفة نسبية ، حيث لا يستطيع الانسان أن يدرك الاشياء في ذاتها (noumenes) بل كل ما يستطيع أن يدركه الانسان من الأشياء والحقائق (المعارف) هو الظواهر Phenomenes أي الأشياء والمدركات كما هي تظهر لعقلنا من خلال هذه الشكوك وعلاقاتها .
النسبية الذاتية :

يمكننا تلخيص النسبية الذاتية على أساس إنها نظرية فلسفية تبتني أساسا على التفسير المادي للدراك ، واعتباره نتيجة لعملية (فيزيولوجية) يتفاعل فيها الجهاز العصبي المدرك مع الشيء الموضوعي المدرك ، مما يفرز وعياً وإدراكاً على أساس مقولة (الفعل المنعكس الشرطي) الذي كشفه العالم الفيزيولوجي (بافلوف) .

ما المقصود بالفعل المنعكس الشرطي : **Conditional Reflex action**

يقصد بالفعل المنعكس الشرطي كما ورد في المعجم الفلسفي على النحو التالي^(١) :

(١) د . جميل صليبا « المعجم الفلسفي - دار الكتاب اللبناني ، بيروت - لبنان - الطبعة الاولى ١٩٧٣ الجزء الثاني ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

الفعل المنعكس ردّ فعل آلي مباشر على منبه خارجي ، وهو ظاهره عصبية بسيطة مخصوصة بغدّة ، أو عضو حركي ، تستند الى روابط سابقة ، وتحدث آليا ، وبصورة مباشرة ، ردا على أحد المنبهات ، والمثال من ذلك المنعكس الرضفي وإفراز اللعاب .

ويطلق إصطلاح المنعكس الأولي (Elementary Reflex) على المنعكس الذي لا يشترك فيه إلا عدد قليل من العناصر العصبية ، ولكن المهم في الفعل المنعكس أن يكون فعلا آليا مباشرا مستقلا عن الفكر والارادة ، لا أن تكون عناصره العصبية كثير ، أو قليلة .

ويطلق إصطلاح المنعكس الشرطي (Conditional Reflex) على الظاهرة التالية : وهي أن ربط المنبه ، الذي يحدث بطبيعته منعكساً معيناً ، بمنبه ثانٍ مختلف عنه ، يكسب هذا المنبه الثاني خاصية إحداث ذلك المنعكس مثال ذلك : اذا وضعنا في فم كلب قطعة من اللحم ، أفرزت الغدة قليلاً من اللعاب ، وهو منعكس بسيط ، ولكننا إذا اسمعنا ذلك الكلب صوت جرس عند إعطائه قطعة اللحم ، وكررنا هذه التجربة عدة مرات ، فإن إسماع الكلب صوت الجرس دون إعطائه قطعة اللحم يولد إفراز اللعاب في فمه ، ويسمى الإفراز في هذه الحالة بالمنعكس الشرطي ، أو المنعكس المشروط .

وتأسيساً على ذلك ، يصبح الوعي البشري نتيجة لعملية مادية قائمة بين أشياء الطبيعة ، والجهاز العصبي الدماغي ، تقوم الأولى بدور تحريك الجهاز العصبي وإثارته وتنبيهه ، ويقوم الجهاز العصبي بدور منفصل يستجيب لتلك الاثارة ، والتحريك والتنبيه الحاصل من قبل الأشياء الطبيعية ، لا تكسب صفة منبهات طبيعية ومثيرات موضوعية ، الا بعد تكرار العملية والممارسة ، ولا يمكن أيضاً إكتساب الجهاز الدماغى صفة الاستجابة والانفعالات بتلك المنبهات والمثيرات إلا بعد تكرار العملية والممارسة ، الى أن يحدث نوعاً من الارتباط والعلائق بأشياء الطبيعة ،

وتكون هذه الارتباطات بمثابة ، علاقة ، موضوعية ومنبها طبيعيا لإثارة نشاطاته وعملياته ، حتى عند تذكرها وتصورها ، وتستند هذه النظرية على أسس وقواعد رئيسية معينة يمكن تلخيصها على النحو التالي :

١ - ان الوعي عبارة عن الافكار والآراء ، والأحاساس والشعور ، والأرادة ، والرغبات ، تجمعها كلمة ، الادراك أو الوعي .

٢ - الوعي بشتى معانيه مرتبط بالانسان الحي أساسا .

٣ - الطبيعة والاشياء لها وجود واقعي مستقل عن ذهن الانسان ، وان وعي الانسان يلحق وجود الطبيعة وأشائها .

٤ - التفكير عبارة عن الأثر الحاصل من تقابل المادة الخارجية مع المادة الدماغية وما يحصل في تفاعلها وإنفعالها هو العلم والتفكير .

٥ - الوعي مرتبط بالجهاز العصبي للدماغ ، والتفكير مصنوع الذهن في شرائط مخصوصة .

٦ - التفكير هو الترشح الدماغى ، وتبديل المقدار الكمي بالكيفي .

وبناء على ذلك ، لا يوجد وعي ولا فكر خارج حدود الطبيعة واشائها ومثيراتها ، بل هو إنعكاس وإستجابة من قبل الجهاز الدماغى شأن الغدة ، اللعابية التي يكون افرازها لللعاب مشروطا بمثير خارجى موضوعى لها (منبه طبيعى) يتحقق بالنسبة لها نتيجة عملية تجريبية متكررة من الممارسة لبعض أنواع الطعام .

أما كيف أصبحت هذه الحقائق نسبية ، فذلك يرجع إلى إعتبار وسائط الادراك وأجهزته وظروفه وملابساته المتباينة بأختلاف الاشخاص . فأية فكرة صحيحة وحقيقية تصبح صحيحة بالنسبة للشخص المدرك فقط ، وفي بيئة زمانية ومكانية معينة ، أما بالنسبة إلى شخص آخر في ظروف أخرى فإن الحقيقة ستكون شيئا آخر . فمثلا إدراك شخص ما لأشياء أو أجسام معينة في لحظة زمانية ومكانية معينة وفي ظل بيئة خاصة لها من شكل وحجم ولون معين ، هو حقيقة صحيحة وواقعية لهذا الشخص فقط ،

وليس من المنطق القول بأنها حقيقة صحيحة بالنسبة للآخرين الذين تختلف قواهم الإدراكية وإن كانت الأشياء والاحجام والزمان والمكان والبيئة ثابتة ، فإن الحجم والشكل واللون للأشياء تختلف عن الشخص الأول ، وبناء على ذلك تصبح الحقيقة التي يدركها هذا الشخص ليست هي الحقيقة التي يدركها سائر الأشخاص ، أي ليست مطلقة عند جميع الأفراد ، بل هي حقيقة مطلقة بالنسبة الى ذلك الشخص فقط ، فلا يمكن فرضها حقيقة مطلقة بالنسبة الى الفرد الآخر ، وإنما هي نسبة ذاتية مرتبطة بذات كل فرد ، فلا حقيقة مطلقة لاختلاف الفعل المنعكس الشرطي بالنسبة الى كل إنسان بسبب إختلاف الظروف والملابس والاستجابة والمنبهات الطبيعية وتأثيراتها على الاجهزة العصبية الدماغية^(١) .

نقد مقولة الفعل المنعكس الشرطي :

أولاً : المتفحص لمقولة الفعل المنعكس الشرطي بدقة وموضوعية علمية وفلسفية ، يستنتج بانه حتى لو سلمنا به جدلاً - أن هناك أفكاراً أو حقائق ومعارف معينة قد تكون (فعلاً منعكساً شرطياً) ونتيجة إستجابة لواقع طبيعي . ولكن إطلاق التعميم من هذا الجزء اليسير من المعارف المنبثقة عن الفعل المنعكس الشرطي على جميع المعارف أو الأفكار والحقائق البشرية بما فيها المفاهيم والبديهيات الأولية ، ليس (هذا التعميم) نابعا ومشتقا من الفعل المنعكس الشرطي فقط .

ثانياً : هناك معارف وبديهيات ومدركات تأملية مجردة ، مثل المعارف المنطقية والرياضية وأمثالها لا تخضع لمؤثرات البيئة الاجتماعية والمناخات الطبيعية ، حتى وإن كانت الأفكار والمعارف العملية منبثقة عن الظروف المادية والمنبهات الشرطية الطبيعية كما تدعى النظرية ،

(١) الشيخ عبد الله نعمة عقيدتنا ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ص ١١٠ - ١٢٠ .

حيث لو كانت الأفكار والبدييات التأملية المجردة خاضعة ومنبثقة عن المنهات الشرطية الطبيعية المتغيرة والمتحولة ، لفقدنا جميع الاقيسة والاسس التي نعتمد عليها كأفكار ومباديء منطقية نرجع اليها في عملية بناء المعرفة .

ثالثا : تفسير ظاهرة شروق الشمس وغروبها أو طلوع القمر وغروبه بالأمس كان على أساس حركة الشمس والقمر حول الأرض ، بينما المقولة الحديثة التي تفسر هذه الظاهرة هي دوران الأرض حول نفسها . فهل تفسيرنا لهذا التغيير والتحويل في الإدراكات والمعرفة ناتجة من تغيير في إدراكاتنا ؟ أم نتيجة حصولنا على إدراكات ومعارف جديدة ؟

والجواب على تلك الاستفسارات هو أن الذي تغير هو تصوراتنا الخاطئة عن الموضوع والتي كنا نعتقد بصحتها ، وحل محلها تصور صحيح من خلال إدراكات جديدة .

والاعتقاد بأن هذه الحالة تفسر لنا تغيرا في الإدراك ليس صحيحا ، حيث أن الإدراك السابق باق على حاله ، ولكن ظهر نوع جديد من الإدراك يخطيء النوع الأول ويؤكد على صحة النوع الثاني .

وبافتراض صحة مقولتهم من أن هذا التغيير يدعى تغير الإدراك ، فهل أن هذا التغيير والتحويل الناشيء لادراك الشخص دالة أو تابع لتغيير الدماغ ؟ أو بالصورة الرياضية التالية :

الادراك = د (الدماغ)

ك* = د (م)

أو بتعبير آخر ، هل أن المادة الرمادية اللون للدماغ تغيرت خلال مدة البحث والدراسة - أي منذ تحصيل النظرية الأولى إلى ظهور النظرية الثانية -

(*) حيث (ك) تشير الى الادراك ، و (د) الى داله ، و (م) الى الدماغ .

بسبب التغيرات والتفاعلات الفيزيائية أو التغيرات المادية ، وبالتالي حصل تغيير في إدراك الشخص وفي رأيه ومعرفته ! أم أن هناك شيئاً آخر .

والآن نريد أن نعرف مدى مصداقية وصحة هذه المقولة من الناحية الفلسفية والعلمية ؟

الشيء الذي نعتقده ونجزم به ، هو أن تغير ونمو دماغ الانسان وتبديل خلاياه الى خلايا جديدة بمساعدة بمساعدة جهاز التغذية ودوران الدم كما أثبتته التجارب والقرائن العلمية لا علاقة له بشكل مباشر أو بشكل كامل مع تغير آرائنا في نظام الشروق والغروب ، حيث أن منشأ هذا التغير في فكر الإنسان ليس في التغيرات الفيزيائية للدماغ ، بل شيء آخر الا وهو المعلومات التي زودت له . بل نعتقد بأن التغير في إدراكاتنا يمكن أن يصبح منشأ لتغيرات جينية دقيقة ، أي من الممكن قبول الفكرة القائلة ، بأن كل تفكير وإدراك جديد يترك أو يحدث نمواً معيناً في جينات (مورثات) الدماغ .

أما الاعتقاد بالعلاقة العضوية الدالية بين التغيرات الحاصلة لادراكاتنا والوضع المادي أو الفيزيائي للدماغ وأجهزة الادراك والأعصاب ، في جميع الحالات فهو غير صحيح بمنظور ومنطق الاسلام .

رابعاً : إن التجارب والقرائن العملية تؤكد لنا ، أن العمل الفيزيائي ، أي الأثر الذي تتركه العين على الأعصاب والأعضاء الحسية ، والذي يعبر من المراكز الحسية ليصل الى المراكز الرئيسية في الدماغ (مثل المركز السمعي والمركز البصري) ليس هو المنشأ والمصدر الوحيد لادراكاتنا ومعارفنا ، بل أن هناك عملاً أكبر من العمل الفيزيائي المتمثل بادراك ذلك الأثر وتفسيره . وبتعبير آخر يستطيع الانسان بهذه الوسيلة أن يدرك بعض الأشياء التي قد لا يحصل عليها بالوسائل الفيزيائية . فعلى سبيل المثال وليس الحصر ، كيف تفسر رؤية الاشياء

والاحجام التي تفوق حجم جسم الانسان بعدة ملايين في السماء ؟
وكيف تستوعب وتدرک سعتها ؟

فالتأمل حق التأمل ، يجد نفسه أمام حقيقة دامغة لا مفر منها ، وهي أن إدراك هذه المساحات الكبيرة التي تتجاوز حجم الانسان بعدة ملايين ، لا يمكن تصويرها أو أي جزء من أجزائها على شكل علاقة تناسبية ، سواء بتلك الصورة الموجودة في خارج الذهن البشري أو التي في أعيننا أو الصورة التي تتكون في سلسلة الأعصاب والتي تتجه فيما بعد الى المركز البصري في الدماغ والأماكن الأخرى . وأن التفسير الوحيد لهذه الظاهرة تكمن في الإدراك الحسي للموضوع والأشياء وفهمها وتفسيرها التي تتعدى جميع نطاق الأعمال الفيزيائية التي تتم على الأعضاء الحسية .
النسبية التطورية :

لقد ذكرنا فيما سبق ، أن هناك مدارس فلسفية مادية ، ترى بأن الفكر أو الإدراك إنعكاس للواقع الموضوعي في الجهاز العصبي إنعكاسا آليا ، كما تنعكس الصورة في المرآة أو العدسة ، بينما المادية الديالكتيكية تفسر الفكر والادراك بعملية تحول الحركة الفيزيائية الى حركة نفسية ، وإن الفكر جزء من الطبيعة أو نتاج أعلى لها ، وإن الحقيقة عبارة عن الإدراك الذي يتفق مع طبيعة الجهاز العصبي وشروط الادراك فيه ، وأن الفكر والادراك إنعكاس للواقع الموضوعي ولأجل ان يكون مطابقا له يجب أن يعكس قوانينه وتطوره وحركته . فالطبيعة تتطور وتتغير باستمرار ، طبقا لقانون الحركة ، ولا يمكن للحقيقة أن تصورهما في الذهن البشري إذا كانت جامدة ساكنة ، وإنما توجد الحقيقة في أفكارنا ، إذا أخذت هذه الأفكار على اعتبار إنها تنمو وتتطور ديالكتيكيا ، لتكون مفاهيمنا عن الاشياء مواكبة للأشياء ذاتها . وبالتالي يصبح الواقع في حالة نمو ، والمعرفة المنبثقة عنه تعكس حاله النمو أيضا في الطبيعة ، وتعتبر عنصرا فعلا من عناصر نموه . وبالتالي لا يوجد في الفكر الانساني أي نوع من الحقائق المطلقة، فكل ما هو موجود من الحقائق التي

ندركها هي نسبية دائما . وما يكون حقيقة في وقت ما يكون خطأ في وقت آخر . وإن هذه النسبية وهذه التغيرات والتطورات في حقيقة الأمر ، ما هي إلا إنعكاسات لتغيرات الواقع ، وتطورات المادة التي تتمثلها في حقائقنا الفكرية ، فالنسبية في الحقيقة بنفسها نسبية موضوعية ، وليست نسبية ذاتية منبثقة عن الذات المفكرة ، وإن معارفنا وأفكارنا خاضعة لقانون التناقض وصراع الأضداد والتطور - تماما - كالمادة وأشياء الطبيعة من دون فرق^(١) .

يقول ستالين^(٢) : « أن الإدراك أو الفكر هو العنصر الثاني المشتق عن العنصر الأول أي الطبيعة أو الواقع الموضوعي خارج الذهن البشري ، وإن الإدراك أو الفكر إنعكاس لهذا الواقع الموضوعي الخارجي ، وإن هذا الواقع الموضوعي موجود بصورة مستقلة عن إرادة الانسان . وبالتالي لبحث الأفكار والادراكات الذهنية الفعلية للانسان يجب البحث عن منشأ هذه الافكار التي تكمن في الواقع الموضوعي الخارجي (الطبيعة) .

ويقول ماركس إن الديالكتيك هو علم القوانين العامة للحركة ، سواء في العالم الخارجي أو الفكر البشري ، وإن التناقضات التي تنطوي عليها أفكار الناس ، هي في واقع الأمر ناتجة ومنعكسة للتناقضات وجدل الاشياء في الواقع الموضوعي خارج أذهاننا - أي الأشياء والطبيعة . ويقول ماركس ايضا ان حركة الفكر ما هي الا إنعكاس لحركة الواقع ، منقولة ومحولة في مخ الانسان .

وتقول الماركسية إن المعرفة هي الاقتراب اللامتناهي للأبدي للفكر نحو الشيء . ويستلزم فهم عملية إنعكاس الطبيعة في فكر الانسان معرفة صورتها الديناميكية المتحركة والمتطورة دائما وماهيتها التناقضية ، التي تولد ولادات جديدة من التناقضات المتنامية التي بدورها تكمل المعارف البشرية

(١) المنطق الشكلي والمنطق الديالكتيكي ص ١١ .

(٢) مختارات ماركس وانجلز ٢ - ٨٧ المادة الديالكتيكية والمادية التاريخية ستالين ، ترجمة خالد بكداش

النسبية ، بشكلها التدريجي المرحلي تبعا لتغير وتطور الطبيعة ووسائل المعرفة للادراك .

وكل ما تقول الماركسية عن الحقيقة المطلقة ، فهي تقصد ذلك المجموع من الحقائق النسبية الماضية قدما الى ما لا نهاية في عملية تطورها . وتتناقل كتب الماركسية مقولات وتعبيرات عديدة حول هذا الموضوع ، فمن أقوالهم : « إن عملية إدراك الحقائق المطلقة تجري عن طريق تكديس الحقائق النسبية ، وتطور المعرفة يكمن في أن هذه الحقائق النسبية إذ تتكدر تدريجيا ، ويقترب الانسان من معرفة الطبيعة بأسرها وبالتالي معرفة ظاهراتها وقوانينها ، فكما أن الكل يتكون من أجزائه ، فإن الحقيقة المطلقة تتكون من الحقائق النسبية في عملية لا نهاية لها من تطور المعرفة » .

وبالتالي تصبح كل حقيقة نسبية في أية مرحلة كانت لبنة في كيان الحقيقة المطلقة اذن ، فمجموع الحقائق النسبية في تطورها يعطينا معرفة تامة عميقة مطلقة ، سواء عن الطبيعة ككل ، أو عن هذا الجانب أو ذاك من الواقع الموضوعي خارج أذهاننا .

ونظرا لاعتقاد الماديين بان الفكر ظاهرة مادية ، وإن المعرفة والادراك ليس شيئا فوق عمل الجهاز العصبي ، وإن معرفة أي شيء تتوقف على نوعية تركيب الأعصاب والمخ للشخص المدرك ، ولكون الأشخاص مختلفون ومتفاوتون في تركيب أعصابهم ، فإن معارفهم الحقيقية وإدراكاتهم أيضا مختلفة ، وبالتالي لا توجد حقيقة مطلقة ، بل هي نسبية تبعا لتطور المادة والجهاز العصبي للانسان الذي يعتبر جزءا من المادة ايضا^(١) .

وتأسيساً على ذلك ، نلاحظ أن المادية الديالكتيكية لا تنفي وجود الواقع الموضوعي خارج الذهن البشري ، ولا تنفي وجود معارف وحقائق للانسان ، ولكن ترى بأن الحقيقة نسبية متطورة ، تعكس ماهية وحقيقة

(١) عرض موجز للمادية الديالكتيكية - بودو ستيك وباحوت ص ١٨٤ - ١٨٥ .

الطبيعة المتحركة والمتطورة على أساس نظرية التطور والتغير ، والمتمثلة في قانون التناقض وصراع الاضداد في الواقع الموضوعي بشكل مطرد ولا نهائي في الواقع الموضوعي - أي أن الماركسية الديالكتيكية ترى أن معارفنا وأفكارنا خاضعة لقانون التناقض وصراع الأضداد والتطور - تماماً - كالمادة وأشياء الطبيعة من دون فرق - وبالتالي توجد حقائق ومعارف تتنامى وتتكامل تدريجياً تبعاً لتغير وسائل المعرفة والادراك ، مما يبرهن على أن المعارف والادراكات البشرية نسبة منبثقة عن الطبيعة المتحركة المتغيرة في الحياة ، ومستندة على أصول ابتدعتها الجوانب الاقتصادية في القرن العشرين ، متمثلة في أن أدوات وقوى وشكل الانتاج المادي ، هي البنية التحتية لجميع أفكارنا الاجتماعية والسياسية والفلسفية والنفسية . فتبدل الوضع الانتاجي الى شكل آخر ، يستلزم الامر تبديل الافكار والمعارف الانسانية الى شكل ينسجم إنسجاماً كاملاً مع هذا الوضع أو الشكل الجديد .

وللرد على مقولات الماركسية الديالكتيكية فيما يتعلق بالركائز الاساسية لفلسفتها ، وبالأخص تلك المتعلقة بنظرية المعرفة ، ومدى مصداقية ، المعرفة المطلقة والنسبية ، فإننا سنستعرض بعض الاجوبة المختصرة والموجزة عن أهم أركان وأسس هذه النظرية ، وبالأخص تلك المتعلقة بموضوع بحثنا ، وذلك على النحو التالي : -

أولاً : دعونا نطرح الركيزة الاساسية والأصول الرئيسية التي يستند اليها المادي في فلسفته المادية الديالكتيكية المتحولة ، والتي منها تبدل المادة وتغيرها ، وإجتماع الضدين في الموجودات المادية ، وتأثير المادة بعضها في بعض ، نحن نسأل الماديين الديالكتيكيين ، هل أن هذه الأصول من : تعميم قانون الديالكتيك للحقائق والمفاهيم وفرض خضوعها لقانون التناقض والتطور ، الذي يقضي بها الى تغيرها من حقيقة الى اخرى ، (الى مولود جديد لا يشبه أبويه) صحيحة على وجه الدوام أم لا ؟ فإن قالوا نعم إنها صحيحة ، فإنهم يعتقدون بالحقيقة الثابتة المطلقة التي

يرتأيا الحكيم الاسلامي ، وبالتالي لا صحة لمقولتهم بأن المعارف والحقائق البشرية هي نسبية دائما ومتطورة . أما إذا أجابوا بالنفي ، أي أن تلك الأصول والركائز الرئيسية هي بدورها ايضا عرضة للتغيير والتبديل والتطور ، فإنهم يقرون بذلك أن هذه الأصول صحيحة ولكنها مؤقتة قابلة للتغير ، وبالتالي من المنطق والعقل إن محدودية صدق الأصول ، لا تليق أن تترقى وتصبح ركيزة وقاعدة أصولية أولية لتغير حوادث الكون وكشف نواميسه .

ثانيا : لقد ذكرنا في نظرية المعرفة ، إن الادراك أو الفكر والحقيقة لا تعكس الخصائص الواقعية للطبيعة ، وإن الذهن البشري يدرك من الأشياء الموضوعية ، مفاهيمها وماهياتها ، والمفهوم المنعكس فيه تلك الأشياء يختلف عن الواقع الموضوعي خارج الذهن الانساني في الوجود والخصائص . فالطبيب الذي يبلور فكرة علمية دقيقة عن خصائص وسمات الميكروب ، من حيث الشكل والنشاط والتفاعلات المختلفة مع الجسم الانساني ، مهما كانت هذه الخصائص دقيقة وتفصيلية ، فإنها تفقد فيها تماما خواص الميكروب وماهيته ونشاطه في الخارج ، ولا يمكنها أداء نفس الدور الذي يؤديه واقعها الموضوعي خارج الذهن الانساني .

وبالتالي نستنتج من أن قوانين الواقع الموضوعي وخواصه ، لا مكان لها في الفكرة ذاتها . ومن تلك القوانين والخواص الحركة . وبالرغم من انها تعتبر من الخواص العامة للمادة ومن قوانينها الثابتة ، فهي لا وجود لها في الفكرة أو الحقيقة المنعكسة في أذهاننا من الطبيعة . وتأسيسا على هذه الحقيقة ، ترفض الفلسفة الميتافيزيقية قانون الحركة والتطور الدائم للمفاهيم الذهنية ، نظرا لكونها فاقدة من الخصائص والسمات (الحركة) المتواجدة في الطبيعة أو الواقع الموضوعي . وتجدر الإشارة هنا ، إلى نقطة جوهرية هامة مفادها : أن رفض الفلسفة الميتافيزيقية لقانون الحركة والتطور في المفاهيم الذهنية لا يعني جمود

الحركة في الطبيعة والبحث والدراسة عن المعارف الجديدة . فإن
الفيلسوف الاسلامي يؤمن ويعتقد بتطور الطبيعة والحركة الجوهرية
لها ، ويرى من الضروري دراستها في كل دور من أدوار نموها
وحركتها ، وتكوين مفهوم عنها . ولكنه يرفض كما ذكرنا وجود حركة
ديناميكية طبيعية في كل مفهوم ذهني . فعلى سبيل المثال ، لاحظنا
حركة وتطور عنصر (اليورانيوم) الذي يشع بأشعة (الفا) و (بيتا)
و (جاما) ، فإنه يتحول تدريجياً من عنصر الى عناصر أخرى أخف منه
وزناً ، تبعاً لمقياس الوزن الذري لعناصر الطبيعة . فعنصر
(اليورانيوم) يتحول تدريجياً الى عناصر أخرى إلى أن يصل إلى عنصر
(الرصاص) هذه الظاهرة العلمية تعكس لنا واقعا موضوعيا متحركا
متطورا ، وبناء على ذلك يتبلور ويتحدد مفهوم معين عنها في أذهاننا .

فإذا كانت المادية الديالكتيكية بالنسبة لهذه الظاهرة ، تدعي بأننا يجب أن
لا ننظر إلى عنصر (اليورانيوم) كعنصر جامد غير متحرك، بل يجب متابعة
واستيعاب هذا العنصر وفقاً لطبيعته الحركية المتطورة ، وبالتالي تكوين فكرة
أو مفهوم خاص عن كل مرحلة من مراحل نموه وحركته ، فإن هذه الحقيقة
أو المقولة لا غبار عليها . وليست موضوعاً للنقاش والجدال وأن الاسلاميين
يقرون بذلك أيضاً وفقاً لنظريتهم المشهورة بالحركة الجوهرية للمادة التي
بلورها بشكل فلسفي علمي يقيني ، الفيلسوف الاسلامي الشهير صدر
المتأهلين الشيرازي في كتابه الأسفار .

أما إذا كان القصد من تطور المفهوم الذهني أو الحقيقة طبقاً لتطور
الواقع ، أن نفس مفهومنا العلمي عن (اليورانيوم) يتطور تطوراً ديالكتيكياً
وطبيعياً ، تبعاً لتطور اليورانيوم نفسه في الطبيعة . فهذا محل خلاف وجدل
وتعارض أساس بين المنظور الفلسفي الاسلامي والديالكتيكي . فالفلسفة
الاسلامية ترى بأن المفهوم المتبلور من كل مرحلة من مراحل حركة وتطور
اليورانيوم في المثال السابق ثابت وصحيح وغير قابل للتغير والتحويل إذا

كانت حقيقة صادقة صحيحة ، وإنما لا تنمو ولا تتطور مع تطور العنصر ، وكل ما هو هناك تراكمات وإضافات جديدة . من المعلومات في شكل سلسلة من الأفكار والمفاهيم عن عنصر اليورانيوم ، وإن كل حلقة من هذه السلسلة تمثل درجة خاصة معينة من الواقع الموضوعي ، تماما كما يعكس الشريط ألوان الحركة والنشاط التي يجعل بها الفيلم السينمائي . إذن فالادراك لا يتطور ولا ينمو دياكتيكيا تبعا للواقع المنعكس وإنما يكون إدراكاً ثابتاً في كل مرحلة من مراحل الواقع .

ثالثاً : هناك حقائق ومعارف ليست لها علاقة أو إنها لا تنبثق عن الجهاز العصبي أو العمل الفيزيائي للأعصاب . فعلماء الاسلام والرواحيون لهم إثباتات وقرائن تؤكد عدم إنطباق خواص الامور الروحية على الخواص العامة للمادة - فنظرا لكون الامور الروحية التي نعيها بالعلم الحضوري ليست مادية . فبالتالي لا يمكن أن تنطبق على النشاطات العصبية . اذن فالنشاطات العصبية تعتبر مقدمة لظهور سلسلة من الامور غير المادية وليست عين تلك الحقائق .

رابعاً : هناك حقائق ومعارف ما زالت باقية وثابتة دون أن يمسه يد التغيير والتحويل منذ آلاف السنين ، فمثلا كون الواحد أكبر من الجزء ، وإن وراء كل ظاهرة وحادثة سببا ، وإن الواحد يساوي نصف الاثنين ، وإن إضافة $2 + 2 = 4$ ، الخ ، هي حقائق ومعارف بديهية ثابتة مطلقة لا تخضع لقانون التناقض أو التطور ، ولا تقبل أي تغيير أو إضافة ولا ترتبط بواقع موضوعي معين .

وخلاصة القول ، أن مثل هذه الحقائق والمعارف المطلقة التي يدركها العقل دون أن تكون إنعكاسا عن الواقع الموضوعي ، لا تخضع لقانون الجدل وصراع الاضداد والتطور .

نظرية الحركة الجوهرية عند الفيلسوف الالهي ملا صدر الشيرازي :

واجه الانسان حين بدأ يحاول تفسير العالم ، بطريقة علمية ، مسألتين أساسيتين هما :

أ - مادة الوجود .

ب - كيفية النشأة .

والبحث في الثانية متفرع عن البحث في الأولى ، إذ لا يمكن تصور صدور الشيء عن مادته بغير تصور الطريقة التي صدر بها . وهكذا كانت اولى النظريات التي صاغها الفلاسفة عن أصل العالم .

وهناك مفاهيم وتعاريف عديدة للحركة (فطاليس) (٦٢٥ ق . م) له تعريف خاص ، وكذلك هناك مفاهيم لكل من (هيراقليطس) ، (وابيقوروس) (٢٧٠ ق . م) (وسقراط) (وافلاطون) (وأرسطو) ، وفلاسفة الاسلام امثال الكندي وابن رشد وعلماء وفلاسفة المعتزلة أيضا لهم مساهمات وابحاث حول موضوع الحركة . ولقد تناول صدر المتألهين الشيرازي في أبحاثه عن الجوهر الجسماني وفقا لمنظور المذاهب الفلسفية التالية :

أ - المذهب الذري : وهو أنه مركب في دوات أوضاع جوهرية غير منقسمة أصلا .

ب - مذهب النظام : وهو قول النظام القائل بانقسام الجوهر الجسماني الى مالا نهاية .

ج - مذهب الحكماء وهو مذهبه : حيث يركبه من جوهر مادي وجوهر صوري .

وينحدر تحت مفهوم الجوهر عند صدر المتألهين الشيرازي كل من الجسم والمادة والصورة ، ثم النفس والعقل .

ويعرف صدر المتألهين الحركة على أساس إنها نفس التجدد والخروج . من حالة الى غيرها .

وأعلن أن الحركة ليست ممكنة في إطار الكيف والكم فقط ، بل تجوز ايضا في الصورة الجسمانية .

والمقصود هنا بالصورة الجسمانية الجوهر .

ويمكننا متابعة وإستيعاب جوانب معينة من نظرية الحركة الجوهرية عند صدر المتألهين من خلال تبيان القضايا والامور التالية^(١) :

الأول : إن ما هو موجود إما جوهر وهو ما يوجد مستقلا ، ولا يتوقف وجوده على غيره ، وإما عرض وهو ما لا يوجد مستقلا بذاته ، بل وجوده قائم بغيره ، سواء في ذلك ، العرض المحسوس كالرائحة وما الى ذلك ، أو العرض غير المحسوس كالكرم والشجاعة وغيرهما .

الثاني : إن الحركة هو خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدرج ، أي إن ما نسميه بالحركة ، هو إنتقال موضوع من حالة فقدان صفة ما الى حالة وجودها إنتقالا تدريجيا ، بحيث يتبع كل جزء من الموضوع الجزء الآخر في الوجود بالتوالي ، عبر مراحل عديدة تتم خلالها عملية التطور والتغير في ذلك الموضوع ، بدءا بأول جزء منه حتى نهايته وكماله .

الثالث : ان الجسم أو الجوهر الذي به يوجد العرض ، هو بمثابة العلة لوجوده ، وهو بالنسبة اليه بمثابة المعلول ، وعليه فيكون العرض الذي هو معلول تابع لعلته وهو الجوهر ، في خصائصه وصفاته من الحركة والسكون ، أي انه لا بد أن يكون العرض متوافقا مع الموضوع الذي

(١) اقتبسنا من كتاب عقيدتنا في الخالق والنبوة والاخرة - للشيخ عبد الله نعمه ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ص ١٦٧ - ١٧٠ .

هو الجوهر الذي وجد فيه ، من حيث الحركة والسكون وغيرهما . لكن تبعية العرض للجوهر أو الجسم إنما تكون في خصوص الأعراض الذاتية التي تنشأ من ذات الجسم والطبيعة . أما إذا كان العرض منبثقا من عامل خارج عن الجسم كسخونة الماء بسبب مجاورته للنار ، فإنه يتبع ذلك العامل الخارج من حيث قوته وضعفه ومراتبه .

الرابع : ان الحركة كما سبق الذكر هي خروج الشيء من القوة إلى الفعل بالتدرج ، أي إن كل جزء من ذلك الشيء الذي يتدرج في الوجود من القوة إلى الفعل ، وكل مرحلة من مراحلها حتى نهاية كماله ، هي معلولة لعلة ما ، وليس العلة هنا ذات الجسم والجوهر ، وترتبط كل مرحلة وكل تطور بالتغير والحركة في ذات الجوهر .

ومن غير الممكن أن تزول كل مرحلة أو يحدث تغير ما فيها مع بقاء علتها ثابتة لا تتغير .

وبكلمة ثانية : إن تبدل الظاهرات وتغيرها لا يمكن أن يحدث الا بسبب تبدل علتها . فكل تغير في العرض هو ناشيء عن تغير في الجوهر ، وكل تحرك في لون الثمرة مثلا أو طعمها أو رائحتها وتغيرها نحو كمالها وإرتقائها إلى درجة أخرى من تلك الأعراض والظاهرات ، لا يمكن أن يحدث ما لم يكن هناك تحول أو تغير في طبيعة تلك الثمرة وجوهرها الى وجود آخر أقوى وأكمل ، ويكون تحول العلة التي هي الجوهر من مرحلة إلى مرحلة ثانية هو السبب في تحول تلك الظاهرات والأعراض وتطورها .

ولا يمكن إفتراض بقاء العلة ثابتة وساكنة دون حركة وتطور ، مع إفتراض تغير معلولها وتطوره ، لأن ذلك يفضي الى وجود معلول بدون علة ، بل يلزم منه بقاء تلك الأعراض (المعلوم) على حالها الذي كانت عليه في درجاتها ومرحلتها الأولى ، دون تطور أو تحول . وهذا ما لم يحدث .

ويمكن إقامة الدليل على الحركة الجوهرية بشكل آخر ، وهو :

أن العرض مرتبط في وجوده بالجوهر وتابع له ، وليس له أي نوع من الاستقلال في الوجود .

والحركة والتغير في الكيفية والكمية وغيرهما من الأعراض ، إما أن يحدث ذلك بمعزل عن موضوعها ، أي عن الجسم أثناء حركته وتغيره ، وأن يكون التدرج في الوجود والخروج من القوة الى الفعل بصورة تدريجية متتالية ثابتاً في الأعراض وهي منفصلة عن موضوعها الذي هو الجوهر دون أن تكون مرتبطة به .

وأما أن يحدث ذلك . مع إرتباط العرض بالموضوع ، ويتحرك تبعاً لحركة موضوعه وجوهره .

والأول يؤدي الى خروج الأعراض عن طبيعتها العرضية وانقلابها الى ماهية أخرى هو الجوهر المستقل في الوجود .

إذن يتحتم إعتبار حركة العرض وتغيره تبعاً لحركة الموضوع الذي هو الجوهر وتغيره ، وليست حركة مستقلة عن حركته . وقبلنا هذا أي بمبدأ حركة الجوهر لا يلزم منه أي محذور .

وبعبارة أخرى : إن حركة العرض كالكيف والكم والوضع وغيرها ، إما أن تكون تبعاً لحركة الجوهر ، وإما أن تكون حركة مستقلة في وجودها عن غيرها وبمعزل عن الجوهر ، وهذا الفرض الثاني غير ممكن لأنه يلزم إنقلاب العرض عن كونه عرضاً وصيرورته إلى جوهر له خصائص الجوهر . فتعين الأول ، وهو أن حركة العرض إنما هي مرتبطة وتابعة لحركة الجوهر ومن آثارها (١) .

فالتغير عند الملا صدر الشيرازي ذو طابع تقدمي تكاملي لأن الوجود يرقى نحو الاحسن والأكمل ولا يتراجع الى الأخص والادنى ، والتحول

(١) نفس المصدر السابق ١٦٩ - ١٧٠ .

النوعي قاصر على عالم الطبيعة فهو شأن المادة وحدها ، اما عالم المفارقات فثابت لا يتبدل لأنه مبدع على أتم صورة ، فهو النموذج وإليه تتوجه الموجودات المادية حتى تنتهي الى التلبس به في المرحلة الأخيرة من تطورها ، بعد أن تبلغ صورة الانسان . . والتحويلات متصلة بتسلسل بعضها عن بعض إذ الطبيعة لا تنتقل إلى مرتبة مالم تمر بالمرتبة التي قبلها وكل مرتبة تبطيء إستعداد للتحويل الى ما بعدها . ويعم هذا الفرض المراتب الخمس للموجودات المصنفة تبعا للمعيار الذي أقرت به المشائية الاسلامية والمراتب هي (١) :

- العناصر أو الاسطقسات

- الجمادات او المعدنيات .

- النبات .

- الحيوان .

- الانسان .

وصرح الملا صدرا بان المراتب الخمس متصلة وكل مرتبة سابقة تحمل إستعدادا للتحويل الى المرتبة اللاحقة . ولدينا في الأسفار نص يقول : « صورة الجسم الطبيعي العنصري جماد بالقوة ، وصورة المعدنيات جماد بالفعل ونبات بالقوة ، وصورة النبات جوهر نامي متغذ مولد بالفعل وحيوان بالقوة ، وصورة الحيوان جوهر حساس بالفعل وانسان بالقوة » (٢) .

وقد أورد الملا صدرا في الشواهد الربانية وقائع التحويل فنجده يجعل موضوعه الجسم الطبيعي المؤلف في أبسط أشكاله من هيولي وصورة جسمية . وأول مراحل التحويل هي مرتبة الاجسام الجامدة (المعدنية) وهذه تتطور حتى تستكمل صور النبات لينشأ عنها نوع جديد ترتبت عليه آثار

(١) هادي العلوي ، نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي - مطبعة الارشاد - بغداد ١٩٧١ ص ٩٧ -

(٢) كتاب الاسفار - ملا صدرا .

مخصوصة زائدة على الآثار التي ترتب على الجسمية العامة ، بعد هذه الصورة خصائص أخرى تصعد به في سلم الرقي حتى يتمخض عن نوع آخر يتميز ، زيادة على الخصائص المكتسبة سابقا ، بأمور جديدة هي الحركة الارادية والحس وهذا هو النوع الحيواني . ويستمر الجسم الطبيعي في تطوره حتى يبلغ كماله الأخير ، فيرتب عليه ما يترتب على الصور السابقة من آثار وخصائص ، مع لواحق مخصوصة لا توجد في غيره فيظهر النوع الانساني وهو خاتمه المطاف في رحلة التطور التي يقطعها الجسم الطبيعي ، فليس بعد الانسان مرحلة أخرى .

فالسلسلة التحويلية والتغيرية عند الملا صدرا هي :

سما ← أرض ← سما

وهذا ما ينخص النفس ومخططها حيث أنها تهبط من عالم السماء ، عالم ما وراء المادة الى الأرض ، وبعد أن تمر بالتحويلات المقررة لها تتجرد ثانية فتصعد الى السماء وإذا ما جردنا السلسلة من طرفيها الميتافيزيقيين وتابعا التغير على الأرض اتضح أن المتغير هو الجسم الطبيعي وهو موضوع السلسلة الكاملة من التحويلات المبتدئة من أعماق الجماد ، والمنتية بالانسان . « والانسان آخر موجود ختم به عالم الطبيعة ويسلك التغير هنا نفس الاتجاه المقرر في نظريات الارتقاء الحديثة طبقا للمقارنة التالية بين الاتجاهين : (١)

جماد ← نبات ← حيوان ← إنسان

النظريات الحديثة : المادة اللاحية Inanimete matter

الخلية الأولى نبات

حيوان ← انسان

هل الحقيقة دائمة أم مؤقتة ؟

المتتبع لابعث ودراسات الفلاسفة والمحققين القدماء ، يستشف بوضوح

(١) نفس المصدر السابق ص ١٤٣ - ١٤٤ .

وجلاء تام ، إنهم كانوا يرون ويعتقدون بمقولة دائمية الحقائق ، وذلك عندما كانوا ينظرون الى ماهية وخواص المفاهيم والافكار الحقيقة ، والمتطلع على كتاب منطق الشفاء للشيخ الرئيس ابن سينا ، يلاحظ بشكل واضح إنه أشبع هذا الموضوع تحقيقا وبحثا مفصلا غطى جوانب عديدة منه .

وعندما بدأت تبرز في الفكر الفلسفي والعلمي نظريات عديدة متعلقة بالحركة والتغير والتكامل والارتقاء ، وبالخصوص تلك النظريات المادية الديالكتيكية ، فظهرت الشبهات والمغالطات عند بعض العلماء المحدثين .

لقد شن علماء المادية الديالكتيكية وغيرهم ، حرباً كلامية شعواء ، على الفلاسفة الذين يعتقدون بفكرة مطابقة الفكر الحقيقي للواقع بشكل ثابت وخالد لا يدخل عليه أي تغيير أو تحوير مهما طال الزمان واختلف المكان ، وذلك باستخدام تعبيرات والفاظ متباينة ، ويعتبرونهم ممن تأثر بعقيدة القدماء وانهم لم يستوعبوا ولم يدركوا حقيقة أصل التغير الشامل للطبيعة ، وإنهم متبعون منطق الجمود ، ومتأثرون بالفكر الميتافيزيقي و . . . وغيرها من التعبيرات والألفاظ المشنجة .

ونرى من الأهمية بمكان ، قبل أن نخوض في إستعراض وتبيان ماهية ومدى مصداقية دائمية ومؤقتية الحقائق ، أن نستوضح الواقع الذي تحكيه الافكار والمفاهيم أهو مؤقت أم دائم ؟

المتبوع والمدرک للواقع الموضوعي المادي خارج ذهن الانسان من جانب ، والعلاقات التي تربط بين أجزائه من جانب آخر ، يستشف بوضوح وجلاء ، أن الواقع ونفس الأمر الذي تحكي عنه القضية الذهنية قد يكون مؤقتا وقد يتسم بالدوام .

فالواقع المادي يكون مؤقتا لأن المادة والعلاقات التي تربط بين أجزائها هي في حالة تغيير وتحوير مستمرين ، مما يترتب على ذلك ، عدم بقاء الشيء الواحد في الطبيعة على حاله واحدة خلال لحظتين ، وإذا كان كل شيء ،

أو واقع مادي معين إذا ظهر على الساحة الطبيعية لفترة زمنية معينة ثم يزول ، فإن هذا اللون من الواقع مؤقت وزائل .

أما إذا تمعنا في جوانب أخرى من ظواهر وعلاقات المادة في الخارج ، فإننا نستدل بوجود نوع آخر من الواقعيات المستمرة الدائمة الابدية (بغض النظر عما وراء الطبيعة) مثل واقع الحركة ، فإذا اعتقدنا بأن المادة شيء متحرك ، فإننا نتحدث عن أمر دائم أبدي مستمر .

وخلاصة القول ، أن هناك نوعين من الواقعيات الخارجة عن الذهن هما : واقعيات مؤقتة ، وواقعيات دائمة مستمرة .

دعونا نطرح السؤال السابق مرة أخرى ، هل الحقائق دائمة أم مؤقتة . وبتعبير آخر ، أتكون مطابقة المفاهيم والمحتويات الذهنية للواقع ونفس الأمر (سواء أكان واقعا مؤقتا أم دائما) مؤقتة أم دائمة ؟

التمتعن حق التمتعن ، لماهية النوعين من الوقائع التي ذكرناهما فيما سبق ، يستنتج بأن تلك المطابقة يستحيل أن تكون مؤقتة ولحظية ، وإن كانت هذه المفاهيم والافكار تبين واقعا متغيرا في لحظة زمنية ، معينة ، فإن مطابقة ذلك المفهوم لواقعه أبدي ودائم وليست لها علاقة وإختصاص بلحظة زمنية معينة .

وبتعبير أدق وأوضح ، أن المفيد والمحدود بالزمن هو الواقع الخارجي وليس مطابقة المفهوم الذهني لذلك الواقع الخارجي .

وبناء على ذلك ، نستطيع أن نستشهد بأحداث ووقائع كبيرة ، تؤكد لنا مصداقية وصحة إستمرارية ودائمة الحقائق . فعلى سبيل المثال وليس الحصر . اذا قلنا بأن النبي (ص) هاجر من مكة الى المدينة المنورة قبل ١٣٠٤ هـ هنا نتحدث عن واقعة تاريخية إسلامية متعلقة بواقع مادي متغير ، أي نتحدث عن علاقات متغيرة لاجزاء الطبيعة ، لأن هجرة الرسول (ص) مرتبطة ببرهة زمنية معينة (هي القرن السادس الميلادي) .

ولكن هذه الحقيقة التي إنتقشت وأختمت في أذهاننا صادقة دائما في كل الازمان ، ومطابقة كل الانطباق لواقعها ، أي هجرة الرسول (ص) بالرغم من تغيير الزمان .

وبناء على هذه الحقائق الفلسفية ، فإن علماء الإسلام وفلاسفته ، يرون بأن المفهوم الذهني إما أن يكون صادقا من أساسه وحقيقيا يحكي الواقع ونفس الأمر ، وإما كاذبا ومخطئا وغير حقيقي من أساسه . والأبحاث والدراسات الفلسفية المرتبطة بهذا الموضوع كانت تدرس وتبحث تحت عنوان الدوام والضرورة . وفي باب البرهان الذي كان يتركز على أساس دوام واستمرارية خواص الحقائق وبعض الواقعيات .

ونرى من الأهمية بمكان ، أن نستوضح بعض الملاحظات المعلقة بهذا الموضوع وذلك على النحو التالي :

١ - مما لا شك فيه ، إن كلامنا عن حقيقة دائمية واستمرارية الحقائق والمفاهيم مرتبطة بالعلوم الحقيقية دون العلوم الاعتبارية كعلم الاخلاق والقوانين والنظريات الاقتصادية والاجتماعية التي لا يوجد لها مصداق عيني خارجي ، وإنما هي تابعة للمشرعين والمقنين وغيرهم ، حيث إنه من الممكن قبول حقيقة ومفهوم أخلاقي أو إجتماعي معين في فترة زمنية ومكانية معينة ، ثم تصبح تلك الفكرة او الحقيقة غير مقبولة بسبب تغير الظروف المرتبطة بالبيئة التي شكلت وبلورة تلك المفاهيم والحقائق . ومن هنا نعرف بطلان ادعاءات فلاسفة وعلماء الماديين ، الذين إستندوا على دحض فكرة دائمية واستمرارية الحقائق على أساس مفاهيم وحقائق معيارية إعتبارية بطبيعتها تتغير وتشكل بالوان وأشكال متباينة ، لأنها مشتقة ونابعة من فكر الانسان نفسه والتي لا تعتبر بمنظور الفلسفة حقائق .

٢ - كلنا نعلم أن العلوم التجريبية تعتمد في منهاجها البحثي والدراسي على أساس فرضية الاحتمالات وليست على أدلة وحقائق يقينية ، وبناء على

ذلك أطلق العلماء على التجربة بانها مجال لا ينتج لنا اليقين بل على حقائق إحصائية أو ذات يقين نسبي لقوانينها ونظرياتها ، وهي بطبيعتها متغيرة ومتحولة ، حيث يمكن أن نعتبر فرضية معينة قانوناً علمياً ما دامت تنطبق على مجموعة من التجارب ، وعندما تظهر فرضية أخرى لها ما يؤيدها من النتائج بصورة أدق وأعظم ، فإنها تحل محل الأولى وتصبح هي الحقيقة العلمية .

وتأسيساً على ذلك ، نقول أن الاستمرارية والدائمة متعلقة أساساً بالحقائق والمعارف اليقينية دون الاحتمالية منها .

إضافة إلى ذلك ، هناك من المفكرين والفلاسفة الذين يفسرون الحقيقة ابتداءً على أساس إن الحقيقة مؤقتة وليست لها سمة الاستمرارية والدائمة . فهذا (أوجست كونت) ، يفسر الحقيقة على أساس إنها : « تلك الفكرة التي تتفق عليها العقول في كل عصر ما » وبالتالي يعتبر الأفكار مؤقتة لأنه من الممكن أن تتفق العقول في فترة زمنية معينة على فكرة نظرية معينة ، ثم يأتي زمان آخر ، لا يتم هذا الاتفاق بين العقول .

هل الحقيقة قابلة للتحويل أو التكامل أم لا ؟

بعد تبيان وتوضيح مصداقية وواقعية الأشياء والادراكات الموضوعية خارج الذهن البشري ، وإنها ممكنة ، الادراك والتوصل إليها ، وإنها مطلقة وليست نسبية ، يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي : هل الحقيقة الموضوعية قابلة للتحويل أو التكامل أم إنها تبقى ثابتة دون تغيير أو تحويل إذا ما ثبتت صحتها ومصداقيتها ؟

النظرة السطحية للحقائق أو الأشياء أو المعارف التي يدركها ويستوعبها الإنسان في حياته العملية والنظرية يستشف بوجود خاصية متميزة تبدو له لأول وهلة أن هذه الأشياء والحقائق أو المدركات بشكل تنمو وتتكامل ، وإنها تقترب رويداً رويداً من المصدقية والواقعية بمرور الزمن

وتطور العلوم . هذه النظرة تستند أساساً على ظواهر معينة من المعارف التي تبدو في نظر الإنسان على مستوى معيناً من التوضيح والتصديق ، ثم تظهر علامات ومعلومات جديدة تكشف جوانب عميقة لتلك المعلومات والحقائق بشكل يتصورها الانسان إنها تحولت وتكاملت من تلك المعلومة الاولى ومن ثم أصطبغت بسمة الوضوح والدقة والتصديق أكثر من ذي قبل .

وبناء على ذلك ، يتبادر الى أذهاننا ذلك السؤال الذي طرحناه في مستهل حديثنا .

ونرى من الأهمية بمكان ، قبل أن نخوض في الموضوع ونجيب على هذا التساؤل ، أن نوضح بعض المصطلحات الفلسفية والمنطقية التي تتداول في العرف الفلسفي ، ولها معاني ومضامين قريبة للموضوع المطروح أمامنا للبحث والنقاش . فهناك مصطلحان قريبان من حيث الشكل ومتباينان من حيث المحتوى والمضمون وهما : -

أ - التغيير التكاملي .

حينما لا يميز ولا يفرق بشكل دقيق ومسهب بين تغيير وتكامل المعارف أو بتعبير أدق حمل مصطلح « التغيير التكاملي » على معنى مغاير للمعنى الفلسفي الدقيق ، فإن المفكر أو الباحث يقع في إشكال ويدخل في متاهات قد يصعب عليه الخروج منها أو معرفة طريقه .

إذن غياب الدقة المتناهية في معنى وفحوى المصطلحات من زاوية ، وتسامح العلماء والمفكرين من زاوية أخرى ، أوجد فرصة كبيرة ، وأصبحت مادة غنية لخزعيلات الماديين لتشويه الادراكات الحقيقية والمعارف بشكل عام ، وتمرير الكثير من مغالطاتهم الفلسفية وتحريفاتهم على عقول عامة الناس بشكل خاص ، والمفكرين والباحثين بشكل عام .

ولقد أوضحنا في عدة مواضع من هذا الكتاب ، انه وفقاً للمنظور

والمنطوق الاسلامي ، المفاهيم والحقائق والاشياء في أذهاننا اذا كانت منطبقة مع الواقع ، فإنها تبقى دائما منطبقة ومنسجمة وصادقة ، ما دامت هي حقيقة وصحيحة ، وتبقى كاذبة وخادعة ، ما دامت هي في الأصل خاطئة ومغلوبة .

فالحقائق والمفاهيم الصادقة واليقينية ، سواء الجزئية منها أو الكلية ، وسواء المادية منها أو الغيبية ، فهي وفقا لمنطق الاسلام ومنظوره الفلسفي صادقة وصحيحة بشكل دائم وقاطع في جميع الازمان والاماكن ، وتكون في حالة ودرجة واحدة متكاملة دون نقصان وضعف ، وليس هناك معنى ومغزى في نظرنا بتدرج وتكامل المعرفة مع مرور الزمان ، أي تتكامل مصداقيتها وصحتها . ونستطيع أن نسوق عدة أمثلة واقعية تثبت زيف وخطأ فكرة تكامل المعرفة . ففي الحقل التاريخي مثلا تؤكد لنا الحقائق التاريخية ان النبي محمد (ص) ولد في

او في الحقل الطبيعي إن الماء يغلي عند درجة حرارة ١٠٠م° وتحت ضغط جوي معين ، أو في الحقل الرياضي إن مجموع المثلث يساوي زاويتين قائمتين او في الحقل الفلسفي إن التسلسل والدور باطلان .

يلاحظ إنه قد مضت سنوات وقرون عديدة على هذه الآراء والنظريات والافكار دون أن تمسها يد التحوير والتغير ، فهل نسمح لانفسنا أن نتجرأ ونقول بأن تلك الافكار بذواتها وصورتها الذهنية قد إنقلبت إلى صورة أخرى أو تكاملت . نعم نعتقد بكل جزم أن كل واحد من تلك العلوم والامثلة ينحل الى قضايا ، وربما لا يحصل العلم بها دفعة واحدة ، بل يصل اليها الانسان على نحو تدريجي مرحلي وفقا لافق زمني معين ، يتم بواسطته إستكشاف وإستكمال مبادئ ومقدمات تلك العلوم والافكار . وهذا ليس دليلا على تكامل الحقيقة بالمعنى الفلسفي بأن تكون الحقيقة كأي مثال من الامثلة السابقة ، موجودا في أذهاننا بصورة ناقصة ، وعندما تم إستكشاف وإستكمال بعض مقدماته ومبادئه فإنها تكاملت (اي الحقيقة الذهنية) حسب الوقوف على مقدماته .

فبعد تبيان مجموعة متباينة من الامثلة التاريخية والطبيعية والرياضية والفلسفية للحقائق ، نطرح مرة ثانية السؤال السابق ، هل أن هذه الحقائق قابلة لتحول والتكامل بحيث تصبح مصداقيتها وحقيقتها أكثر دقة ودرجة أم لا ؟

المتبع لنظريات المعرفة بشكل عام ، والفكر الفلسفي بشكل خاص ، يجد النفي القاطع في الاجابة على ذلك السؤال .

ولكي نوضح هذه المقولة ، لا بد من الاشارة والتوضيح الدقيق لمفهوم تكامل وتحول المعرفة أو الحقيقة والاضافات الجديدة التي تضيفها المعلومات المستنبطة من التجارب الى تلك الحقائق والمعارف . فمثلا بعد البحث والدراسة نستكشف معلومات وحقائق إضافية وجديدة عن ولادة النبي (ص) ، مثل غزواته وأخلاقه وحياته الاجتماعية (ع) . فهذه السلسلة من الحقائق الاضافية في حقيقة الامر لا تزيد عمق المعرفة الاولى (ولادته ص) ، ولا ترفع درجاتها وقيمتها التصديقية واليقينية ، بل كل ما هناك هو إضافة وإتساع لاطار أو رقعة المعارف والحقائق المرتبطة بالاولى . ولا يعد تكاملا لما وقف عليه باديء الامر ، بل هناك علوم وإدراكات بحيالها لكل واحد كاشفية عما سواه^(١)، إين هذا مما يدعيه المادي من تكامل الحقيقة وتطور المفاهيم الذهنية الى طور آخر مع أن كل قضية باقية على ما هي عليها !

وعلى نفس المنوال ، بالنسبة للامثلة الطبيعية والفلسفية والرياضية ، حيث من الممكن إكتشاف وإضافة معارف وحقائق جديدة لخواص الفلزات أو خواص وأحكام جديدة بالنسبة للمثلثات ، ولكن تبقى الحقيقة الاولى لها ثابتة دون تغير في قيمتها ودرجتها اليقينية .

وتجدر الاشارة هنا ، إلى أن الغالبية العظمى من العلماء ، حينما يبحثون

(١) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي «أسس الفلسفة والمذهب الواقعي» ، دار الهادي للمطبوعات إيران ، ١٤٠٣ هـ ، الجزء الأول ص ١٨٠ - ١٨٤ .

ويتحدثون عن تكامل الحقيقية ، فهم في الواقع لا يقصدون المفهوم الفلسفي منه ، وإنما يؤطر وينحصر قصدهم في أحد المعنيين التاليين :

أ - التوسع التدريجي ، أو التكامل العرضي للعلم . حيث هناك إضافات جديدة وأبواب عديدة ، تفتح يوميا للبشرية أشكالاً وأنواعاً متباينة من المعارف والعلوم ، بشكل أخذت المعارف والحقائق تتسع وتنتشر بشكل كبير وعلى نحو حضاري للبشرية ، وذلك تبعاً لتدرج وسرعة هذا النمو . ويطلق العلماء على هذا النوع من التكامل في المعارف البشرية « بالتوسع التدريجي أو التكامل العرضي » وهو يشمل العلوم والفلسفة ، ولا علاقة لها أبداً بتكامل الحقيقة بالمعنى الفلسفي الذي يزعمه الماديون .

ب - التكامل الطولي :

تنبثق الحقائق والمعارف العلمية التجريبية عادة من الفروض التي يعتقد بها العلماء ، وذلك بعد جمع البيانات وتصنيفها وترتيبها ودراستها وإختبارها في المعمل أو الحياة ، بشكل يُطمأن لها ، مما تصبح حقيقة واقعية في ذهنه ، منسجمة مع واقع التجربة ونتائجها ، ولكن إذا ما تبين فيما بعد ضعف أو خطأ هذه الفرضية ، وظهرت فرضية أخرى تنطوي على حقائق وقوة تفسيرية أشمل أو أعمق، واكبر للظاهرة قيد البحث والدراسة ، وبشكل أوضح وأدق وأقرب الى الصواب والواقع ، فإن الفرضية الأولى ستطرد من ساحة العلم والتجربة لتحل محلها الفرضية الجديدة ، وبهذه الصور تتكامل المعارف والحقائق في الحياة^(١) .

كما هو في الظاهرة الفلكية المشهورة . فقبل (كوبر نيقوس) كان الاعتقاد المسلم به ، هو أن الكواكب والنجوم تدور حول الأرض ، وبالتالي حول الراصد الثابت على الأرض الثابتة في مركز الكون . فجاء (كوبر نيقوس) (١٤٧٣ - ٥١٤٣) وأثبت أن تفسير حركات الكواكب يكون معقولاً أكثر إذا سلمنا بأن الراصد الثابت على الأرض هو الذي يدور حول الشمس .

(١) نفس المصدر السابق ص ١٨٢ .

فهذا التحوير والتغيير في معارفنا الفلكية عن حقيقة ظاهرة الشروق والغروب ، وإستحداث الليل والنهار أو الشتاء والصيف ، هل كان من نتاج تغيير وتحوير نفس الفرضية أو الحقيقة الأولى بشكل تدريجي مرحلي نظرا للتغيرات التي طرأت عليها الى أن تنامت واكتملت في المقولة أو الحقيقة الثانية ؟ أم أن الفكرة أو الحقيقة الأولى هي بالأساس كانت خاطئة وغير صحيحة ؟

فالشيء الذي يصدق على تغيير وتحوير أو تكامل ونمو المعرفة ليس صادقا ولا صحيحا ، حيث أن الفكرة الأولى ما زالت باقية على حالها ، وإن كل ما حدث هو إبطال الفكرة الأولى وتبيان خطئها وكذبها ، ثم إضافة معلومات وحقائق جديدة على الموضوع قيد البحث والدراسة فقط لا غير .

ولذلك قلنا إن للعلوم الطبيعية التجريبية نوعان من التكامل : تكامل عرضي كالفلسفة (التوسع التدريجي) ، وتكامل طولي بالشكل الذي بيناه .

ونستخلص من هذا الاستعراض السريع والموجز لمدى مصداقية مقولة أن الحقائق تتحول وتتكامل ، إنه من الأهمية بمكان ، أن نميز بشكل دقيق وحذر بين التكامل الطولي والتكامل العرضي ، وبين المفهوم الفلسفي لتكامل الحقيقة - بمعناه الفلسفي المطروح والمتجسد بالمقولة التالية : أن الحقيقة الواحدة نفسها تتدرج وتتكامل في مصداقيتها وحقيقتها . ويجب التنبيه إلى أن التكامل الطولي للعلوم والمعارف التجريبية ليس له أي إرتباط أو علاقة بالمفهوم التكاملي الفلسفي للحقيقة . حيث أن الفرضية إذا كانت بالاساس ضعيفة أو خاطئة ، فهي منذ البداية خاطئة وكاذبة ولا تصبح صحيحة ويقينية بإضافة معلومات وحقائق جديدة لها .

وتأسيساً على ذلك ، قيل بان الحقائق التجريبية ليست يقينية قطعية ، كما هو الحال بالنسبة للمعارف والحقائق الفلسفية والرياضية .

الفصل العاشر

مقاييس وموازين الحقيقة الصادقة

مقدمة :

المستقرىء لادبيات الفكر الفلسفي بشكل خاص ، والفكر الاجتماعي والسياسي أو التربوي والاقتصادي أو . . . الخ بشكل عام ، يلاحظ بكل وضوح وجلاء ، مدى التباين والاختلاف الواضح في كثرة النزعات الفلسفية والعقائدية ، ومدى التناقض الصريح بينهما ، الى درجة يصعب إيجاد قواسم مشتركة بينهما ، سواء من حيث النتائج أو الآثار أو الأهداف والغايات ، أو الأساليب والمقاييس المتبعة فيها .

وكل مذهب يدعي لنفسه بأنه على حق ، وإنه يمتلك المقاييس والموازين العلمية الدقيقة اليقينية التي تقاس وتوزن بها مختلف المعارف والحقائق الانسانية ، وتمييزها عن الكاذب وغير الصحيح منها .

فهناك نزعات إلحادية تمثلها فلسفات مادية عديدة أمثال : الماركسية المادية الجدلية ، الفلسفة الوضعية ، المذهب الوجودي الجديد ، المذهب البرجماتي (النفعي) الخ وهم يحملون بكل صراحة ووضوح راية الرفض لكل ما وراء الطبيعة ، والتركيز على المادة وحدها في جميع الأمور والقضايا .

وهناك النزعة الالهية العقائدية الدينية التي تقف موقف الندد والمعارض للنزعة المادية أو الإلحادية، وهي تعتقد بما وراء الطبيعة ، وتعتبر

القضية الالهية ، حقيقة واقعية وصادقة منقوشة في أعماق الفطرة الانسانية ومختمة في عقولهم .

فالانسان العادي بشكل عام ، والمفكرون والباحثون عن المعرفة بشكل خاص ، تواجههم هذه التيارات العنيفة وترتطم بهم كالأمواج العالية في وسط العواصف في أعماق المحيطات والبحار ، فتارة تدفع بهم شمالاً ، وتارة أخرى تدفعهم الى مسافات بعيدة عن سطح الماء . فكيف نستطيع في هذا الخضم الكبير من الصراعات والتناقضات أن نحدد موقفنا وموقعنا تجاه هذه التيارات بحيث نصل الى بر الأمان ونصل الى حقائق وأشياء صحيحة صادقة ؟ فما هي المقاييس والموازن التي تقاس بها أفكارنا ؟ كيف نتصرف ونتحرى صدقها أو كذبها ؟ ما هو المرجع الذي نعول عليه هذه النزاعات الفكرية والعقائدية وغيرها ؟ هذه تساؤلات وإستفسارات تحتاج الى إجابة واضحة ودقيقة حتى يتسنى للانسان الوصول الى معرفة حقيقية يقينية صادقة .

وهناك اتفاق شامل وكامل بين الغالبية العظمى من المذاهب الفلسفية ، تتمثل في ضرورة وجود مقاييس وموازن ثابتة محكمة تخضع أفكارنا لها ، وإلا فالنزاع والتناقض يدور ويستمر في حلقة مفرغة تتسع حلقاته مما تضيق ماهية الحقائق والأفكار التي نسعى للتوصل اليها .

فيا ترى ما هي تلك المقاييس والموازن التي نقيس بواسطتها ونميز من خلالها المعرفة اليقينية الصادقة الصحيحة في حياتنا ؟!

أو بأي شيء تعرف الحقيقة ؟ وما هو مصدرها ، والمعايير أو الترمينتر Terminator الذي نميز به الصواب من الخطأ ؟ هل هي التجربة والمشاهدة والاختبار فقط ؟ أم هو العقل المحظ ؟ أم هو الدين والوحي ؟ أم هو العرف ؟ ، أو ما يحقق اللذة والمنفعة الفردية أو الاجتماعية ؟ ، أم هو العرفان والقلب ؟ ، أو إن كل واحد من هذه المعايير ، يعتبر سبباً للمعرفة ومقياسها ، أم أنه ليس هناك أسباب ومقاييس للمعرفة الحقيقية اليقينية ألبتة ؟

ما هي الحقيقة ومقاييسها : «Truth»

نرى من الأهمية بمكان ، قبل أن نخوض في تبيان وشرح مقاييس وموازين المعرفة الصحيحة واليقينية الصادقة ، أن نعرف تعريفاً دقيقاً ما المقصود بالحقيقة نفسها وما هي أنواعها ؟

تعريف الحقيقة وأنواعها :

يطلق لفظ الحقيقة على الثابت والواقع ، نظراً لاشتقاق هذا اللفظ من كلمة الحق في اللغة العربية .

أما في منظور أو منطوق المناطقه وأهل الفكر ، يطلق على ماهية الشيء ، ومطابقة الفكر للأشياء ، وبلغة « الاسكلايين » : « هي تطابق الشيء والعقل » فالحقيقة تتضمن إذن مقارنة بين حدين : الفكر من جانب ، والشيء من جانب آخر .

المفهوم الفلسفي للحقيقة :

هو ذلك المفهوم المرادف لكلمة الصدق أو الصحة ، ويطلق على القضية الذهنية المطابقة للواقع إسم الحقيقة ، وهو نفس تعريف أهل الفكر . وهناك من يعرف الحقيقة على أساس إنها وصف للادراكات من حيث مطابقتها للواقع ونفس الأمر .

والمستقرىء لأدبيات الفكر الفلسفي (القديم) والمعاصر ، يلاحظ وجود تعريفات ومضامين متباينة لكلمة الحقيقة ، وذلك تبعاً للمنظور والاعتقاد الفلسفي الذي يتبناه الفيلسوف أو المفكر ، وسوف نستعرض بعض هذه التعريفات ، وذلك عندما نتطرق الى مقاييس المعرفة الصحيحة .

فتبعاً لتقسيم حدى الحقيقة إلى الفكر من جانب والشيء من جانب آخر ، يتم تقسيم الحقيقة الى قسمين رئيسيين هما :

أ - الحقيقة المنطقية - وتعرف بأنها : تطابق الفكر مع الشيء .
فعندما يتطابق الموضوع المنقول أو الحادثة مع الواقع ، فهنا يعتبر
الموضوع أو الرواية المنقولة صادقة وحقيقية .

ب - والحقيقة الوجودية - وتعرف بأنها : تطابق الشيء مع الفكر المعياري
الذي يحكم عليها الشخص . أي بتعبير آخر ، تطابق الشيء مع
العقل . والمقصود هنا مقاييس ومعايير العقل . فاذا قلنا بأن هذا
الرجل شجاع أو أمين أو مقدام أو كريم ، هنا نلاحظ تطابقاً من نوع
آخر ، وهو أن خلقه يتطابق مع قيمة الشجاعة والأمانة والكرم كما
قدرها العقل .

وهناك من يميز بين الحقيقة المادية والحقيقة الصورية ، فيعتبر الحقيقة
المادية هي تطابق الفكر أو القول مع الموضوع أو الأشياء ، بينما الحقيقة
الصورية هي إتفاق الفكر مع نفسه ، أي خلوه من التناقض .

الخطأ وأسبابه : «Error,Fault»

تعريفه : يمكننا تعريف الخطأ الذي يعتبر في الواقع نقيض الحقيقة
على أساس ما عرفنا به الحقيقة .

فالخطأ هو عدم التطابق بين الفكر والأشياء ، أو بتعبير عام عدم
مطابقة الفكر أو القول للأشياء . فالخطأ أو الكذب أو الغلط يحمل في
طياته مفهوم عدم مطابقة القضية الذهنية مع الواقع . فالاعتقاد بأن
الأرض تدور حول الشمس هو إعتقاد حقيقي صحيح صادق ، وإن
الشمس تدور حول الأرض فهو إعتقاد مخطيء وكاذب .

وتجدر الإشارة هنا الى ، أن الخطأ يختلف عن الكذب أو الغلط .
فهناك من يرى بأن الخطأ يصدر بشكل عفوي غير تعمدى مضدره
الجهل ، بينما الكذب هو قول غير الحق مع العلم بما هو حق .

وهناك أسباب عديدة تمنع رؤية الحقائق بصورتها الحقيقية ، مما يترتب على ذلك ظهور و ابراز مقولات وأشياء خاطئة كاذبة في حياة الانسان سنستعرض أسباب عدم التمييز بين الحقيقة ونقيضها وذلك بشكل مختصر وموجز ، حيث سنتطرق لهذا الموضوع بشيء من الافاضة والشرح في فصل مستقل تحت عنوان موانع المعرفة . فالأسباب هي ما يلي : -

- ١ - الجهل البسيط .
 - ٢ - الجهل المركب .
 - ٣ - القضايا والأسباب اللاشعورية .
 - ٤ - الذنوب والكوارث النفسية .
 - ٥ - التسرع في الحكم .
 - ٦ - الترف الفكري والمادي .
 - ٧ - اتباع الظن .
 - ٨ - الحب والعشق للشيء .
 - ٩ - العاهات والأمراض النفسية والجسدية التي تخل بالعقل والحواس .
 - ١٠ - اتباع هوى النفس .
 - ١١ - النظرة الجزئية الضيقة .
 - ١٢ - النظرة المثالية غير الواقعية .
- أما أسباب الكذب فهي عديدة . وكتب الأخلاق مملوءة بتشخيصه وعلاجه ، ومن أسبابه ما يلي :

- ١ - الطمع والجشع .
- ٢ - المصلحة الذاتية .
- ٣ - الحسد .
- ٤ - اتباع هوى النفس .
- ٥ - الحصول على منفعة أو الابتعاد عن الألم بشكل سريع .

مقاييس وموازين المعرفة الحقيقية الصحيحة :

المتبع للأطر والأفكار الفلسفية للمذاهب المتعددة في التاريخ البشري ، يلاحظ أن هناك تبايناً واضحاً بين المذاهب الفلسفية في تحديد ماهية الحقيقة ومقاييسها الصحيحة . ولقد بلغ التباين والاختلاف إلى درجة كبيرة بحيث يصعب على الإنسان أو المفكر أن يوجد قاسماً أو محوراً متماثلاً بينها .

ونحن لا نستطيع في هذه العجالة أن نقدم بحثاً تفصيلياً نستقصي فيه جميع الأفكار والآراء المذهبية التي طرحت حول موضوع الحقيقة ومقاييسها ، ولكننا سوف نقدم عرضاً سريعاً وموجزاً لأبرز هذه المقاييس والموازين وذلك على النحو التالي : -

المذهب الواقعي Realism

المعرفة عند الواقعيين هي إدراك عقلي أو حسي مطابق للأعيان في الخارج ، أو هي إنعكاس العالم الخارجي على العقل .

وهذا يعني أن للأشياء الخارجية وجوداً عينياً مستقلاً عن العقل الذي يقوم بادراكها، ومستقلاً أيضاً عن جميع أفكار ذلك العقل وأحواله. فالعالم الخارجي كما هو مدرك في عقولنا، ليس إلا صورة لهذا العالم كما هو موجود في الواقع⁽¹⁾ . هناك ثمة اتجاهات جديدة ظهرت في المذهب المثالي : أمثال الواقعية الجديدة . New Realism . فنحن في غنى عن ذكر آراء هذه المذاهب في هذا المكان . وخلاصة القول : الفلسفة الواقعية هي القائلة بوجود واقع موضوعي خارج الذهن الإنساني ، وإن الفكرة تعتبر حقيقة

(1) Montague, W. The Story of American Realism In 20 th Century Phrloso. 1947.

وصادقة ، اذا كانت معبرة عن ذلك الواقع ومطابقة له والا فهي كاذبة وخاطئة .

المعرفة عند افلاطون :

يعتقد افلاطون إن المثل هي الموجودات الحقيقية ، ويرى أن الأشياء أو الموجودات المحسوسة ليست الا مجرد أشباح وظلال للمثل⁽¹⁾ .

المذهب البرجماتي (النفعي) Pragmatism

نشأت الفلسفة البرجمتية في العصور الأخيرة وبدأها «سوندرز بيرس» (١٨٣٩ - ١٩١٤) وشيّد بناءها «وليم جيمس» (١٨٤٢ - ١٩١٠) ثم بلورها «جون ديوي» (١٨٥٩ - ١٩٥٢) .

رواد وأنصار هذا المذهب متفقون من حيث المبدأ على أن مصداقية وصحة المعرفة ، تكمن بمقدار جدواها وفائدتها العملية . أي بتعبير آخر بمقدار ما يعود علينا من نتائج إيجابية تخدم سلوكنا العملي في الحياة ، وليس بتطابقها مع شيء سابق عليها .

وبتعبير آخر ، إن صواب المعرفة ومصداقيتها وصحتها ، إنما هو باعتبار ما ستكون عليه الفكرة مستقبلا من الفائدة والسلوك العملي لا باعتبار ما كانت عليه قبل نشوء الفكرة . فهي صحيحة وصادقة إذا ما كانت تسعفنا في حياتنا العملية وتدفعنا الى الحركة مستقبلا . أي إن المعرفة الحقيقية الصادقة تعرف بواسطة نتائجها العملية . فالحق هو ما ينتج ، وهو المفيد ، وهو النافع Expedient والمعرفة تكون كاذبة أو مخطئة إذا كان غير ذلك . فالمصلحة والمنفعة الشخصية هما المقياس والاختبار المناسب والملائم لصدق الحقيقة وصحتها .

(1) Joad, An Introduction to Modern Philosophy

ويستطرد وليم جيمس بخصوص هذا الموضوع ، فيقول (١) :

أ - أن في ميدان التجربة الفيزيائية المفيد والصحيح هو ما يمكننا من التنبؤ ومن العمل ومن التأثير والانتاج .

ب - وفي ميدان التجربة النفسية أو العقلية ، الصحيح والصادق هو ما هو مفيد للفكر ، وما يزودنا بالشعور وبالمعقولية ، وهو شعور بالراحة والسلام والاطمئنان .

ج - وفي ميدان التجربة الدينية، تصبح الاعتقادات والقيم الدينية صادقة وحقيقة اذا نجحت روحياً، أي عندما تحقق للروح أو النفس تلك الحالة النفسية المطمئنة المتسمة بالراحة والسلام والسكون ، وتسمو بنا فوق أنفسنا أي تجردها وتكاملها .

وخلاصة القول ، الحقيقة عند مذهب البرجماتية هي الفورية للفكر ، فعوضاً عن أن نتساءل عن مصدر الأفكار، ومن أين جاءت أو أستمدت ، أو ما هي مقدماتها ، فإن البرجماتزم تفحص نتائجها . وهي تبتعد عن كنه الشيء ومصدره ، وتتجه الى نتيجة الشيء وثمرته وعقباه ، أي توجه الفكر والاهتمام الى العمل والمستقبل (٢) .

وتأسيساً على ذلك ، لا يهتم المذهب البرجماتي عما يوجد في الكون من حقائق أم لا ، إنما يهتم ويوجه إمكانياته وطاقاته العملية والفكرية عما هي حقيقة وصدق في أفكارنا ونوع الأحكام الصادقة . . . ، المهم هو صدق الأفكار والمعتقدات المتمثلة في مدى حاجتنا العملية الى هذه الأفكار أو

(١) لمزيد من التفصيل ، أنظر ول ديورانت ، قصة الفلسفة ، مكتبة المعارف - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ م ص ٦١٨ .

(٢) لمزيد من التفصيل ، أنظر « ول ديورانت » ، قصة الفلسفة - مكتبة المعارف - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٢ م ص ٦١٨ .

مدى ما تقدمه لنا من آثار ونتائج مفيدة ونافعة ، بغض النظر عن مصدرها وبدايتها ونهايتها .

وبالرغم من أن رواد وأنصار المذهب البرجماتزم متفقون على هذا المبدأ العام ، إلا أنهم مختلفون في التفاصيل المتعلقة بالمعرفة والحقيقة الصادقة الصحيحة . فمثلا (وليم جيمس) يرى بأن نجاح الفكرة أو المعرفة من حيث الصحة أو الصواب مرهون بنجاح نتائجها لدى الفرد ، أي حين تكون الفكرة عملا شخصيا .

أما (بيرس) و (ديوي) فهما متفقان على أن نجاح النتائج في الفكرة الصحيحة أو الصادقة هو مرهون بالمجتمع ، أي حينما تكون عملا جماعياً لا فردياً .

وهذا المقياس للمعرفة والحقيقة الصحيحة مرفوض بدون أي شك أو ريب ، حيث أن هذا المقياس يهدم كثيراً من الحقائق الصادقة التي لم تحالفها الحظ في الاستفادة منها في الواقع العملي .

فاذا صح هذا المنطق ، منطق الربح والمصلحة الشخصية العملية ، كمقياس للمعرفة الصادقة الحقيقية ، فإن كل العباقرة والمصلحين الذين لم يحالفهم الحظ في تحقيق غاياتهم وأمنياتهم كانوا كاذبين ، وبالتالي يعتبر جميع أفكارهم وآراءهم الاصلاحية مجرد أوهام وأكاذيب وأباطيل لا نفع لها ولا فائدة .

وبناء على هذا المقياس ، تصبح الأفكار والمفاهيم التي لها نتائج عملية مفيدة ونافعة ، وان كانت تتسم بالأساطير والخرافات هي معارف حقيقية وصادقة .

فهذه المذاهب بمقياسها الخاص للحقيقة ، تهدم كل المفاهيم والقيم والموازين الانسانية والأخلاقية ، ولا تعطي وزناً أو قيمة لها ، فالخير والحق والعدل والحرية والكرامة مرهونة بالفائدة العملية الشخصية والمنافع المستتقة

منها ، مما لا يترك مجالاً للعقيدة والايان أن يلعبا دورهما الأساسي والرئيسي في قدسية القيم والموازن الأخلاقية .

إضافة الى أن الفكرة التي تعطينا نتائج مفيدة ونافعة ، هي في الواقع حقيقة صحيحة وصادقة ، ولكن إذا ما تغيرت المنافع أو زالت تلك المنافع والفوائد المستحصلة منها فإنها تصبح كاذبة ومخطئة . فنفس الفكرة تارة تصبح حقيقية صادقة صحيحة ، وفي وضع وزمن آخر تصبح كاذبة ومخطئة وغير صحيحة .

المذهب الوجودي

تناول مشكلة الحقيقة في الوجودية كل من « كيركجور » (١٨١٣ - ١٨٥٥) « وهيدجر » (١٨٨٩) « وكارل يسبرز » (١٨٨٣ - ١٩١٩) وذلك بشكل تفصيلي . فسوف نستعرض فقط ذلك الجانب الذي يخدم غرضنا ، ونترك بقية الجوانب لمواضع أخرى .

يذكر رائد الوجودية « كيركجور » أن الحقيقة هي ذاتية ، « وأن الذاتية هي الحقيقة »^(١) . وأن وجود الحقيقة له تكرار في ذاتك ، وفي ذاتي وفي ذاته ، حتى إن حياتك وحياتي وحياته هي وجود الحقيقة بالقدر الذي تقترب منها . وتبعاً لمذهب الوجودية الحقيقة لا تعرف الا حيث تصبح حياة في ذات الانسان . وإن الحقيقة هي فعل الحرية ، وإن الحقيقة لا توجد للفرد الا من حيث هو أنتج بفعله شيئاً ، وهذا الانتاج لا يتم الا بقرار مصمم ، لا بالتأملات العقلية .

أما كارل يسبرز يصنف مستويات الحقيقة في مذهبه الوجودي تبعاً للأحوال الانسانية على النحو التالي :

الذات الحيوية : الحقيقة هي الحضور المباشر للمحسوس ، والفائدة

(1) S. Kierkegaard: Post- scriptum, Paris, Gallimard, 1941- P. 134.

والمنفعة المادية المتجسدة في العمل النافع والمفيد .

الشعور بشكل عام : الحقيقة هي عدم التناقض في الفكر المنطقي بالنسبة الى العقل (أو الروح) : وهي الاقتناع الذي توحى به الأفكار بالنسبة الى الوجود فالحقيقة هي الايمان بالمعنى المحدد ، والايمان هو الشعور بالوجود في علاقته مع العلو^(١) .

المذهب السفساطائي :

يرى أنصار ورواد هذا المذهب باستحالة تعرف العقل وإدراكه للحقائق والمدركات الحقيقية بشكل جازم يقيني ، وإن العلوم الطبيعية أو غير الطبيعية محض أوهام وخيالات . وأستدلوا على ذلك بالأدلة والشواهد التي تكون فيها الحواس موضع الضلال والخداع . أي في الحالات التي نخدعنا الحواس ولا تنقل لنا الصور والادراكات الحقيقية الواقعية . وبناء على ذلك ، أجزم السوفسطائيون بعدم إمكانية ووجود حقائق أو واقع موضوعي يمكن إدراكه ومعرفته ، وبالتالي لا يوجد مقياس صحيح نستطيع أن نعتمد عليه .

وتجدر الاشارة إلى ، أن السفساطائيين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام

منهم :

- أ - من ينكر حقائق الأشياء البته .
- ب - ومنهم من لا ينكر نفس الحقائق ، ولكن ينكر ثبوت العلم بها أو نفيها ، ويزعم الشك في كل شيء ، بل يشك في إنه يشك .
- ج - ومنهم من يزعم أن الحقائق تابعة للاعتقاد ، أي ينفيها واقعا ويثبتها إعتقادا .

(١) لمزيد من التفصيل ، راجع . د . عبد الرحمن بدوي - مدخل جديد الى الفلسفة وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٤ م . ص ١٤٨٠ - ١٥١ .

المذهب الصوفي :

ترى مجموعة من الصوفيين أن المعارف والادراكات الحقيقية اليقينية الصادقة لا تحصل من التجربة والمشاهدة ولا من البديهية والأقيسة المنطقية (العقل)، وإنما يتم تحصيل الادراكات والحقائق اليقينية من الاتصال بالخالق العظيم مباشرة . وهذا الاتصال والذوبان يتحقق إذا قطع الانسان جميع علاقاته وإرتباطاته بالطبيعة والماديات ، وإستحال روحا بغير جسم . وبالتالي يكون المقياس الوحيد والأساسي لمعرفة وقياس وتمييز الحق من الباطل أو الخطأ من الصواب هو النفس وتصفيتها وإنفكاكها من الماديات .

المذهب الوضعي : Positivism

نشأ هذا المذهب في القرن التاسع عشر الميلادي ، وأصبح له رواد ودعاة كثيرون من أبرزهم (آير) الانجليزي .

ويتسم هذا المذهب بأنه اتخذ النزعة التجريبية إطاراً ومحوراً تتمحور وتتمركز حوله مفاهيمه وقضاياها الفلسفية .

وأبرز دعواتهم هو أنهم يبحثون عن الحقيقة تبعا للمنهج التجريبي ويدعون بأنهم علميون . أي يستندون على مقولة وجوب العلم بالاكْتفاء بتلك الحقائق التي قدمتها التجربة ، وإن يتمركز البحث والدراسة بالأسلوب التجريبي العلمي حول الموضوعات القابلة للتجربة والملاحظة وترك ما سواه ، سواء الموضوعات المادية أم الروحية .

ولا يتم البحث والدراسة في مذهبهم إلا وفقا للشروط التالية :

- ١ - أن يكون الموضوع قيد البحث والدراسة موضوعا واقعيا ملموسا .
- ٢ - للموضوعات المطروحة معنى ومحتوى نستطيع إدراكها وإثباتها بالتجربة الحسية .

- ٣ - لا بد أن تكون القضايا القابلة بالوصف الصحيح والباطل أو الصدق والكذب.
٤ - يبحث في صحة ومصداقية الموضوع على ضوء وضعها مع الواقع المحسوس ومطابقتها له .

فالقضايا والموضوعات الفلسفية والدينية والمفاهيم والقيم الأخلاقية كالروح والنفس والجنة والنار والحق والخير والعدل وأمثالها هي جميعها معاني وكلمات جوفاء فارغة من المحتوى والمعنى ، وبالتالي لا يمكن إعتبرها موضوعات قابلة وجديرة بالبحث والدراسة ، وذلك بحكم أنها تفقد الشروط السابق ذكرها .

المذهب المثالي : Idealism

أن أنصار ورواد المذهب المثالي كثيرون ومتباينون في الأطر والمضامين ، إلى درجة أن الفوارق والاختلافات بينها واسعة . وهو مذهب له شهرة وشيوع في الانتشار منذ القدم ، والسمة الرئيسية التي تتميز بها شتى أنواع المذهب المثالي ، تتمثل في أن الحقيقة النهائية ذات طبيعة عقلية أو ذهنية أو فكرية أو روحية ، وإن العقل البشري جزء من العقل الكلي الشامل المتغلغل في الكون .

فجوهر الفلسفة المثالية عند «الاييلين» ، هو أن الوجود الحقيقي ليس في مكان معين وهو ليس موضوعا للحواس ، بل هو الفكر الداخلي . وهذه الفلسفة تفرق بين الحس والعقل ، وتعتقد بأن الحقيقة لا تدرك بالحواس ، بل يدركها العقل وحده الذي يصل بنا الى عالم المثل Ideas .

وهناك مثالية سقراط التي تتمثل في المقولة التالية : إن المعرفة الحقة هي معرفة بالمبادئ الثابتة التي توجد وراء الظواهر المتغيرة ، وفي نظره هو البحث عن الكل وراء جزئياته ، وأن عالم الحقيقة الكامن وراء هذه الجزئيات ساكن ثابت لا يتغير .

بينما مفهوم المثل في فلسفة أفلاطون يتمثل في أن عالم الحس هو عالم

التغير وهو غير صحيح وغير حقيقي ، لأن الحقيقة أبدية ساكنة ثابتة غير قابلة للتحويل والتغير . وبناء على ذلك ، نستنتج بأن المعرفة الحقيقية لا تستحصل عن طريق الحواس ولا يعتبر مقياساً لصحة الحقيقة ، لأن الحواس تعطينا عالم الظاهر المتغير المتحرك ، بل العقل وحده الذي يصل بنا الى عالم المثل Ideas .

ويعتقد أفلاطون أن التصورات العقلية التي تبين وتفسر لنا الموجودات ، هي الأساس المعتمد والمطلق أو الحقيقة النهائية للعالم كله ، وإنها تتمثل في المثل . ومثال الشيء هو الطبيعة العامة الأساسية والمشاركة بين جميع جزئيات هذا الشيء ، فمثال « القط » هو الطبيعة العقلية العامة التي تشترك فيها جميع القطط الجزئية . وهذه الطبيعة العامة هي الأصل الأساسي وهي خالدة وأبدية ، وهي تقع في عالم بعيد عن الزمان والمكان هو عالم المثل. والوصول الى عالم المثل هو المعرفة الحقيقية عند افلاطون»^(١).

إذن وفقاً لمنظار أفلاطون ، يجب التمييز بين الحس والعقل ، حيث أن الحواس تعطينا عالم الظاهر ، والعقل يمنحنا عالم الحقيقة ، وأن الحقيقة هي كلية تتمثل في عالم المثل الذي يعتبر هو الأساس ، وكل ما في العالم ما هو الا عبارة عن محاكاة للمثل ، الذي يتألف من مجموعة من الحقائق الموضوعية المستقلة عن الانسان ودون خضوعها لعنصر الزمان والمكان ، وان عالم المثل لا يعتمد ولا يستند الى شيء موضوعي خارجي ، بل إنه الحقيقة في ذاتها ولذاتها .

والفيلسوف الألماني المثالي إمانويل «كانت» (I. Kant) (١٧٢٤ - ١٨٠٤) يصنف العالم الى صنفين هما : الظاهر أو الأشياء التي تبدو لنا أو

(١) د . أمام عبد الفتاح أمام ، مدخل الى الفلسفة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٢ م ، ص ٢٧٧ - ٢٩٢ .

الظواهر Phenomena . وعالم الشيء في ذاته ، أي الأشياء كما هي في ذاتها Nouneha وإن كل شيء في العالم له ظاهر وباطن . وإن الأشياء تدرك من خلال طريقتين هما :

أ - الاحساس الذي ينقل ويدرك الجزئيات الموجودة في زمان ومكان معين والذي بدوره تصب هذه الجزئيات في قوالب موجودة في الذهن البشري هو ما يسميه بالمقولات . وعددها إثنتي عشر مقولة .

ب - الفكر الذي تصب فيه الجزئيات وتتم معرفة العالم .

ويعتقد (كانت) أن البشرية تستطيع فقط ادراك ومعرفة عالم الظاهر وحده ، بينما عالم الشيء في ذاته ، فهو مستحيل وغير ممكن Un Knowable وهو في حقيقة الأمر ، لا يعتبرها (كانت) بأنها مجهولة Unknown ، بل هي غير ممكن التوصل إليها .

ويذكر (كانت) إنه حتى هذه المعرفة أو الحقيقة الظاهرية لا تتم إلا في قوالب زمانية ومكانية محددة ، وبالتالي تصبح هذه المعرفة الظاهرة للعالم والممكن تحصيلها هي متناهية أو محدودة ومقيدة بشرطي الزمان والمكان ، مثل الاحساس بالذوق والشكل واللون والطعم والحجم والوجود والتفاعل الخ لا يتم ذلك الا عن طريق التجربة Experience ، وهي لهذا تسمى بعديه أي إنها تأتي بعد التجربة والملاحظة أو هي مكتسبة . بينما يكون موضوع العقل هو اللامتناهي أو اللامشروط والذي لا يتقيد بشرط الزمان والمكان . وهذه المقولات التي تعتبر موضوع العقل هي قبلية Apriori ، وبتعبير آخر هي سابقة على كل تجربة ، وهي في نفس الوقت يعتبر شرطاً أساسياً لكل تجربة .

وخلاصة القول ، يرى (كانت) أن المعرفة الحقيقية القابلة للادراك ، هي معرفة الانسان لعالم الظاهر ، وهي متناهية ومحدودة أو مقيدة ومشروطة بشرطي الزمان والمكان ، وأن المعرفة (الكانتية) هي كلها معرفة عقلية ،

باستثناء ذلك العنصر الذي يرد إلينا من الخارج - وهو الاحساس - والذي لا بد له من علة ، وهذه العلة هي (الشيء في ذاته) .

أما مذهب الفيلسوف الألماني «هيجل» المشهور (١٧٧٠ - ١٨٣١) يرى أن الحقيقة في صيرورة وتغير ، وليس ثم حقيقة مطلقة صادقة صدقا كليا في الزمان والمكان ، الا اذا وصلت الصيرورة الى خاتمة مطافها - وأن لها أن تبلغ ذلك أبدا .

ولقد رد هيجل حتى الاحساس الى العقل ، حتى أصبح هناك عامل واحد فقط هو العقل في معرفة الحقيقة الصادقة عنده . ويقول إن الاحساس دائما مشحون بالفكر ، أو على الأقل إن الاحساس هو الفكر وهو جنين^(١) .

إذن المعرفة عند هيجل هي المعرفة العقلية دون سواها، وان المعيار أو المقياس الذي يميز بين الألوان والأشكال المتباينة لنشاط العقل هو (الموضوع) ، فاذا كان جهود العقل منصبة على موضوع حسي ، نطلق عليه ادراكا حسيا ، واذا انصبت الجهود والبحث على تصوير ذهني كان ذلك تخيلا ... الخ .

وإن حقيقة الشيء عند هيجل هي الكليات العقلية أو الكليات غير المشروطة ، ونقصد هنا بالمكونات العقلية تلك المجموعة الكبيرة من الأفكار العقلية التي ليست شيئا آخر في الواقع سوى الذات ، وإن الذات ما هي الا الفكر ، فالذات حينما تكشف لنا عن حقيقة الموضوع فانها لا تجد سوى نفسها ، وحين تعي وتدرك الأشياء فانها لا تمارس سوى وعيا وإدراكا ذاتيا فحسب .

(1) Wallace: Prolegomena to the Study of Hegel's Philosophy. P. 359.

فطبيعة العملية الفكرية وكيفية تحصيل المعارف عند هيجل تكمن في المراحل الفكرية التالية : -

أ - الموضوع These

ب - نقيضه Enti These

ج - الاتحاد في مركب أعلى Synthese الذي يزول التقابل بين الموضوع ونقيضه ، اذ يتوافقان في وحدة أعلى وأوسع .

والفلسفة المادية «الديالكتيكية» هي أيضاً تنطلق من هذه المقولة في عملية التفكير ، وذلك من خلال هيمنة وسيطرة قانون التناقض وصراع الأضداد وعلى كل شيء ، سواء في الطبيعة المادية أو في الأفكار والمعارف العقلية . وأن الحقيقة ومقياسها الصحيح ، مرتين بنجاح تطبيقها وصحة إختبارها وتجربتها مع الواقع الموضوعي ، فاذا نجحت تجربتها خارجياً، فهي حقيقة صادقة وصحيحة ، والا فهي مخطئة وغير صحيحة . إضافة الى أن أفكارنا وآراءنا والحقائق المستقاة لا توجد مستقلة عن مرمى التفاعلات النفسية الذاتية ، بحكم أن الوعي البشري وفقاً لمنظارتهم الخاص مرتبط بالجهاز العصبي للدماغ ، وأن العملية الفكرية هي مادية ومن عمل الأعصاب والأجهزة الداخلية في رأس الانسان .

وترى بأن الحقائق هي نسبية ، بحكم التباين والتفاعل في وسائل الادراك وأجهزته وظروفه وملابساته من شخص إلى آخر ، فالحقيقة يدركها هذا الانسان ليست هي الحقيقة التي يدركها سائر الأشخاص ، أي ليست مطلقة الى جميع الأفراد ، وهي في حالة تحوير وتغيير لأن الشيء الذي يتحكم في معارفنا وحقائقنا هو قانون التناقض وصراع الأضداد في الواقع الموضوعي ماضية في عملها صعوداً الى ما لانهاية ، فلا حقيقة مطلقة ما دامت عملية التطور مستمرة أبداً .

المذهب الاجتماعي في تمييز المعرفة الصحيحة

تمخضت من الدراسات والأبحاث التي قدمها علماء الاجتماع ، أفكار وآراء ومفاهيم فلسفية واجتماعية تتمثل بعضها في الرأي أو النتيجة التي توصل اليها دوركايم ومدرسته من رفض العقل كمصدر للمبادئ الكلية الضرورية ، ورأوا إنها مرتبطة بتصورات المجتمع بالدرجة الأولى ، ومقتضياته في ذلك ما لاحظوه بشأن قانون عدم التناقض . ويرى (دوركايم) إنه من الخطأ أن يظن أن هذه المبادئ العقلية ثابتة غير قابلة للتحوير والتغيير في الزمان والمكان والظروف والأحوال .

وهكذا أعتبرت المبادئ العقلية في ظواهر الحياة الاجتماعية والحياتية - عند هذه المدرسة هي الأساس وهي التي تشمل مناحي الفكر والعاطفة والعمل جميعا ، لأنها تصدر عن ناس يعيشون في مجتمع واحد ، وفي ظل ظروف متماثلة واحدة ، ومن هنا وجدت نظرية المعرفة بابا ومدخلا لها في مجال الظواهر الاجتماعية ، حتى أصبح الفرد في نظر هؤلاء الاجتماعيين يتلقى عن العقل الجمعي أفكاره وآراءه ومعتقداته ، وهو يخضع لها راضيا أو كارها .

وخلاصة القول ، يرى (دوركايم) إن المبادئ العقلية السالف ذكرها ، هي وليدة العقل الجمعي ، وهي ثمرة الحياة الاجتماعية ، ومن هنا يصبح فكره شبيه أفكار « سبنسر » في إدعائه أن هذه المبادئ وليدة المجتمع .

وهناك إنتقادات عديدة وجهت إلى أركان وأسس هذه المدرسة ، تتمثل أساسا في إنها غالت في تفسير الظواهر العقلية والعاطفية والعملية ، وإنها أرجعت جميعها الى عامل واحد وحيد ، هو الحياة الاجتماعية عامة أو الاقتصادية خاصة كما هو عند الماركسية . ونحن في حقيقة الأمر في غنى عن ذكر تفاصيل هذه الانتقادات ومن أراد ذلك يمكنه الرجوع الى المراجع التي تبحث في هذا الموضوع ، ولكن نعطي مؤشرا ودليلا واحدا فقط ،

وهو الدليل القرآني الفطري الواقعي الذي لا يجعل آراء وأفكار الناس المتفقة دليلاً ومقياساً للمعرفة الصحيحة والصادقة ، بل في كثير من المواضع والحالات يعتبر هذا الدليل مقياساً لفساد وزيف وعدم صحة الأفكار والحقائق . وأما الآيات القرآنية التي تنتهي في « أكثرهم لا يعقلون » ، « أكثرهم فاسقون » ، « أكثرهم لا يعلمون » . هي خير دليل على رفض الاسلام لمقولتهم .

المذهب الحدسي Intuitionism

يمثل الفيلسوف الفرنسي المعاصر « هنري برجسون H. Bergson (١٨٥٩ - ١٩٤١) أحد الأقطاب والرواد الرئيسيين للمذهب الحدسي في الفلسفة المعاصرة . وهو يرى أن العقل ليس هو الأداة الصالحة لإدراك وقياس المعارف والحقائق الحياتية عند الإنسان ، وذلك لأنه مطلب فوق قدراته وإمكانياته ، وأكثر ما يستطيع العقل أن يفعله هو إستعمال وإستخدام الوجود لصالحه ، وهذا بحد ذاته يتطلب من الإنسان وقف تيار الحياة الذي يدب في الكون وتجزئية الوجود حتى يتسنى له دراسته جزءاً جزءاً ، فالعقل والحواس وأجهزتها آلات للتجزئة ، والغاية الرئيسية منها هي تيسير الحياة لا تصوير الوجود ، أي إنها تتناول الوجود في ظاهره وليس في باطنه واعماقه . ولما كانت المعرفة الحقيقية الصادقة والصحيحة هي تلك التي تتمشى مع الوجود في تحوله ، وتتغلغل في بواطن واعماق الأشياء ، وتحسها إحساساً مباشراً ، كما يحس الحمل الوديع وجوب الفرار من غائله الذئاب ، فالبصيرة الباطنية هي الأداة والمقياس الوحيد الكفيل لاكتشاف وإدراك وقياس المعرفة اليقينية الصادقة الصحيحة ، لأنها حاسة الحياة التي تنقل إلينا الوحدة الحيوية التي تربط الوجود .

ويرى هنري برجسون أن العقل ملكة نشأت لخدمة الجوانب العملية في حياة الإنسان الذي يعيش في عالم دائم الصيرورة والتغير والتحوير ،

وهو بحاجة إلى التحكم في هذه الظواهر التي لا تكف عن الجريان ، وإن القلب هو الأداة والمقياس للتغلب على هذه الصعوبات . ويرى بأن خاصية العقل الإنساني ، تنحصر على وجه الدقة في القيام بما يقوم به مصور السينما ، وإن ما هو مُطَّلَع لا يمكن إكتشافه إلا من خلال أداة الحدس أو القلب الذي يدرك الواقع الحقيقي الأصلي . وهو الذي يوقفنا على حقيقتنا الداخلية بوصفها ضرورة متصلة لا تتخللها فترات سكون وضرورة كيفية ما تصف دائماً بالمرونة والجدّة وعدم قابلية التكهن بها^(١) .

وتتلخص نظريته في : إن الإنسان يستطيع بتفكيره في « ذاته » وبمشاهداته الداخلية « النفسية » أن يجد وسيلة ومسلكاً إلى الحقيقة المطلقة ، وبالتالي التوصل إلى الفلسفة الأولى التي تأخذ على عاتقها مسؤولية تفسير وشرح وقياس الحقائق المطلقة عن هذا السبيل فقط .

ولمزيد من التفصيل والتحليل سواء من حيث الجوانب الإيجابية لنظرية المعرفة عند برجسون أو معالم نظريته أو الإنتقاد الموجه إلى نظريته الحدسية في المعرفة أنظر المرجع المذكور في الهامش^(١) .

المذهب العقلي Rationalijm

يرى المذهب العقلي أن الحقيقة يجب أن تتصف بالسمات والخصائص التالية :

١ - الحقيقة هي واحدة بالنسبة إلى شتى العقول على السواء ولا تعتمد على أمزجة وشعور أحد .

(١) د . زكريا ابراهيم - في كتابه « برجسون » العدد الثالث من نوايغ الفكر الغربي - الطبعة الأولى ، ص ٢٩ - ٦٠ .

J. H. Randall, Philosophy: An Introduction P. P. 100- 106.

(٢)

٢ - تتسم الحقيقة بأنها كلية لها إمتداد في الزمان والمكان ، فهي لا تنحصر في لحظة زمانية معينة ، وهي صادقة في جميع الأزمنة والأمكنة . فالصادق في الأغوار البعيدة هو صادق اليوم ، يصبح صادقاً في المستقبل البعيد أيضاً .

٣ - الحقائق الجزئية موضوعها هو نفس الكون ، إنها تعبير عن نفس الحقيقة .

فأصحاب ورواد المذهب العقلي يؤكدون ويعتقدون بأنه ليس هناك مقام أساسي للتجربة في عملية تحصيل المعارف والمبادئ العقلية ، حيث إنها كلية وضرورية ، وهي ليست نتاج وحصيلة التجارب والملاحظات .

ومن أشهر أعلام رواد المذهب العقلي المعاصر والحديث «ديكارت» الذي يؤمن بحتمية وسمودية وضرورية المبادئ العقلية ، وإنها فطرية ، فعندما يدرك الإنسان معارف وحقائق معينة ، فإنها لا تبدو غريبة أو غير منسجمة مع طبيعته ، بحيث أن ادرك هذه الأشياء يكون في عقله من قبل ، وإن كان لم يوجه بعد فكره نحوها .

ويرى بأن هذه الأفكار الفطرية تتسم بالكلية والضرورة ، وتباين عن الأفكار الطارئة التي تطرأ على العقل من الخارج بواسطة الحواس ، وتختلف عن الأفكار المصطنعة التي تكون من نسيج خيال وأوهام . ويرى أن هذه الأفكار الفطرية موجودة بالطبيعة فينا ، لأن الله أودعها وعرسها في نفوسنا منذ أن خلقنا .

إذن فمقياس الحقيقة الصادقة والصحيحة هي تلك الأفكار والحقائق الفطرية التي أودعها الله في نفوسنا وهي كلية ضرورية .

المذهب التجريبي والحسي Empricism

يعتقد أنصار ومؤيدو المذهب التجريبي من أن المصدر الرئيسي

والوحيد للمعارف والحقائق الإنسانية كلها نتاج وحصيلة التجربة فقط ،
بالتجربة وحدها تستطيع أن تكون وتكتشف وتعرف وتقيس الحقائق
الصحيحة اليقينية ، وليس هناك سواها أداة أو مقياس أخرى يمكن
بواسطته تحصيل وقياس المعارف والحقائق الصادقة اليقينية .

وأفضل دليل عملي يستشهدون به ، هو أن الإنسان حينما يولد في هذه
الدنيا ، لم يكن لديه أي نوع من المعارف أو الأشياء التي تحيط به من العالم
الخارجي ، ولكنه أخذ يكتسبها مباشرة من الملاحظات والمشاهدات
للظواهر المحيطة به .

والفكرة الرئيسية لهذا المذهب كما ذكرنا ، هي أن كل معرفتنا ناشئة
ومشتقة عن التجربة ، ولا قيمة لها إلا بالتجربة ، والتجربة هي المقياس
والميزان الوحيد الذي نقيس به الحقائق والأشياء ، ونميز بها الكاذبة
والخاطئة عن الصحيحة والصادقة .

وعلى رأس التجريبيين المحدثين (جون لوك) (١٦٣٢ - ١٧٠٤) الذي
أنكر مقولة ديكارت (الأفكار الفطرية) ، وقرر أن العقل الإنساني لوحدة
بيضاء *tabula rasa* وان الأساس لكل معارفنا إنما يوجد في التجربة ، ومنها
تستمد المعلومات والمعارف بطريقة لا نهائية . فملاحظتنا . . . هي التي
تزود عقلنا بجميع مواد التفكير^(١) وينتهي الى أن جميع أفكارنا مستقاة من
التجربة وحدها .

وهناك رواد عديدون ولهم شهرة عالمية تبناوا هذا المذهب ، فمنهم
(جورج باركلي) ، (وديفد هيوم) ، (وجون ستيوارت ميل) ،
(وكوندياك) (وأوجيست كونت) (المذهب الوضعي) ، (وأورنست
ماخ) وغيرهم .

يقول جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ليس لدينا معرفة غير
معرفة الظواهر ، وهي نسبية ليست مطلقة .

(1) Randall: Philosophy: Introduction, P. 75.

وعند التقديرة التجريبية Empiriokritizismus التي ترجع كل المسائل العلمية الى التجربة ، ترى أن الطريق الوحيد لحل المسائل العلمية هو طريق التجربة المباشرة . وهي أي التجارب المباشرة تقوم في الإنطباعات التي تحكم في النهاية وتميز بين الخطأ والصواب .

والوضعية المنطقية أيضاً ترى أن التجربة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الواقع ، وهي بدورها تنكر وجود معرفة قبلية ، وإن التجربة هي المقياس للتأكد من صحة وصدق المعارف ، وإن جميع الأبحاث والمسائل الميتافيزيقية مطروحة من الحساب ، وهي أمور لا معنى لها ، هي مجرد لغو وباطل ، لأنها تخرج من ميدان التجربة والإختبار .

موقف المذهب الفلسفي في الإسلام تجاه تمييز الحقائق ومقاييسها

بعد هذا الإستعراض الموجز في بعض جوانبه والمستفيض في بعضه الآخر ، نريد أن نستوضح ونحدد موقفنا من هذه النزعات والأفكار أو من المقاييس والموازن المتناقضة والمتباينة ، وذلك بغية إبراز المقياس الصحيح وفق منظورنا ومنظورنا الخاص .

نعتقد أن المقياس والميزان القويم والصحيح الذي يمكن بواسطته قياس وتمييز الأشياء والمدركات الحقيقية اليقينية الصحيحة عن الباطلة والكاذبة والخطائة منها ، هو ذلك المقياس الذي يتسم ويتمثل بأحد الأمور التالية :

١ - ان يكون المقياس من المدركات الأولية ، وأن تكون من البدهة العقلية التي لا يستلزم أي نوع من الاثبات والدليل في صحته ومصداقيته .

٢ - أن يكون من الأمور التي تستند على المدركات الأولية بطريق غير مباشر .

٣ - الاستناد والاعتماد على قواعد ومقاييس حسية مشتقة عن التجربة .
هذه هي المراجع أو المقاييس والموازن التي بواسطتها نقيس بها الحقيقة ، ونستحصل بواسطتها المعرفة اليقينية .
ونعتقد أن الحقيقة الصادقة اليقينية والتي لها مغزى ومضمون عملي هي تلك الحقيقة التي تتسم بالخصائص التالية :

- ١ - إمكان اثباتها بالاستدلال - أي إنها لا تتغير مع منطقية العقل .
- ٢ - تنطوي على مفاهيم ومعاني تغذي شريان الحياة وتحولها إلى شتى أنواع وأشكال الطاقة والحيوية ، مما تجتث من الأذهان مقولة العذب والضياح والتشاؤم في حياة الإنسان .
- ٣ - هي حقائق تبعث روح الأمل والتفاءل، وتفجر الطاقات والإمكانات الكامنة في نفس الإنسان .
- ٤ - هي حقائق لها قدسية محترمة تضيف وتعطي للأهداف والغايات الإنسانية حرمة وإحتراماً وتقديراً .
- ٥ - هي التي تحمل في طياتها روح الإلتزام وروح الشعور بالمسؤولية .
- ٦ - وأخيراً وليس آخراً ، هي الحقائق التي تنسجم وتلتئم مع البنية والتركيبية الداخلية الفطرية للإنسان سليم القلب والفطرة .
أولاً : المفاهيم والمبادئ العقلية الأولية :

فالمذهب الإسلامي يعتبر جانب من جوانبه الجوهرية مذهباً عقلياً في تبنيه نظرية المعرفة ، من حيث الاستناد إلى المدركات الأولية ، والمبادئ اليقينية الأولية التي يدركها ويستوعبها الإنسان ببداهة عقله وفطرته السليمة .

وتنحصر هذه المبادئ والأفكار الأولية البديهية في المبادئ التالية :

- ١ - مبدأ الهوية Principle of Identity يتمثل : ما هو هو ، ما ليس هو ، ليس

هو . ويعبر عن هذا المبدأ أو المقولة رمزياً بالصولة التالية :

P ص P ، وليس P ص ليس P

٢ - مبدأ التناقض ، أو بالأحرى عدم التناقض - Principle of non - Contadiction .
التمثل في المقولة التالية : ان الشيء الواحد في زمان ومكان واحد لا يمكن أن يكون موجوداً في نفس الوقت . ولا يمكن أن يكون أ هو نفسه أ ، وفي نفسه الوقت أ ليس هو أ .

وهنا يجب التمييز والإشارة إلى الفرق بين التناقض والتضاد ، فالتضاد حقيقة مقبولة وصحيحة حيث يوجد أبيض وأسود ، وقصير وطويل ، ولكن التناقض هو مستحيل في المنطق الإسلامي .

٣ - قانون السببية ليس عند إثبات الدعوى وتعليلها فحسب ، بل يتجاوز إلى تعليل نفيها وإبطالها أيضاً .

ومن هذا القانون ، إن لكل حادثة سبباً وعلة ، ولا يمكن أن يحدث شيء دون سبب أو علة كافية . وبتعبير آخر ان حقيقة أي حكم يستلزم إلى إيراد سبب أو علة كافية .

وهي حقائق يقينية صادقة ، كلية ضرورية ، وثابتة لا يدخل عليها التغيير والتحوير أبداً . وهي تقاس وتوزن بواسطتها الأفكار والمفاهيم في حياة الإنسان بشكل عام .

وخلاصة القول ، إن المدركات الضرورية الأولية هي المنطلق الرئيسي والمقياس الأساسي لكل ما لدينا من معارف ، وإن معارفنا النظرية لا بد أن تنتهي إلى معارف أولية ذاتية بشكل مباشر أو غير مباشر . وبالتالي تصبح معارفنا أما من المعارف الأولية البديهية ، وإما تنشأ من معارف مستقلة سابقة مباشرة أو بواسطة أو بعدة وسائط ، بحيث لا تكون المعرفة الأولية السابقة عليها غير متولدة من معرفة سابقة عليها .

ثانياً: هناك معارف وأحكام وحقائق تقاس وتوزن بواسطة التجربة والحس سواء كان الموضوع المطروح لاستحصا الحقائق والمعارف اليقينية

مطروحاً بجميع جوانبه مثل غليان الماء وتجميده ، أو جزء من جوانب الموضوع مثل اثبات كروية الأرض ، والآيات القرآنية كثيراً ما تؤكد على صحة مقياس التجربة والإختبار في بعض المواضيع

ثالثاً : نستطيع أن نعتمد على مقياس بعض الآثار والنتائج المستخلصة من التجارب والإختبار ، حيث إنه بحكم المحددات الطبيعية قد لا نستطيع في مواضع معينة الالمام الكافي بجميع جوانب التجربة ، فمن خلال متابعة ومشاهدة بعض آثارها ونتائجها حول الموضوع ، يمكننا التأكد من الحقيقة اليقينية الصادقة ، وهذا في الواقع يعتبر مقياساً علمياً موضوعياً ومقبولاً وصحيحاً عند أهل العلم والخبرة . وهي في الحقيقة مستندة على المقولة المشهورة التالية : « الأثر يدل على المؤثر » فالشواهد والبراهين العلمية تؤكد لنا صحة هذا المعيار في كثير من المواضع العلمية ، فمثلاً موضوع (الإليكترون) الذي قيل عنه بأنه لا يخضع للمشاهدة ولا يمكن وزنه ، وهو في حالة دوران مذهلة حول (البورتون) ملايين الدورات في الثانية الواحدة ، مع ذلك يعتقدون بأنه حقيقة علمية يقينية صحيحة ، وذلك من خلال آثار ونتائج شوهدت واختبرت .

رابعاً : هناك معارف وحقائق وأحكام وتشريعات ، لا يمكن إخضاعها أو قياس صحتها ومصداقيتها بواسطة التجربة أو العقل ، حيث لا توجد مقدمات برهانها في متناول يد الانسان (على الأقل في فترة زمنية معينة) من قبل تفاصيل الأحكام العبادية والمالية والقوانين المدنية والجزائية ، وأيضاً من قبيل النتائج الأخروية ، حيث لا يمكن إخضاعها لمقياس التجربة والإختبار في هذا العالم . وبالتالي المستنطق للآيات القرآنية الشريعة والأحاديث النبوية ، يلاحظ أن الإهتمام والتركيز على إستيعاب وإدراك أو قياس مصداقية وصحة هذه

الموضوعات تخضع لقبول القلب والنفس والإيمان والتسليم المطلق بها دون اعتراض على أوامره . والمتمعن حق المتمعن ، بكلمة الإسلام التي تعني الخضوع والتسليم المطلق ، خير دليل على أن الإيمان القلبي وإستعداده وسموه لقبول المعارف الإسلامية يعتبر مقياساً صحيحاً وصادقاً يعتمد عليه في التمييز بين الحقائق المزيفة الكاذبة والحقائق الصادقة ، سواء بشكل مباشر أو بواسطة أدوات ووسائل أخرى مثل العقل والتجربة كعوامل مساعدة لتحقيق الهدف .

وهنا تجدر الإشارة ، إلى أن على المسلم أن يعتقد ويؤمن بصحة ومصداقية هذه المفاهيم والأحكام والحقائق أولاً ، ثم إذا أراد البحث والتقصي عن إبراز جوانبها الموضوعية وإثباتها بطريقة علمية عقلية فليبدأ بعد ذلك ، وبعد تهيئة مقدمات خاصة .

وخلاصة القول ، إن المقاييس والموازن التي بواسطتها نستطيع تمييز الحقائق والإدراكات المزيفة والكاذبة والخاطئة من الإدراكات والحقائق الصادقة واليقينية الصحيحة وفقاً للمنطق أو المذهب الإسلامي في المعرفة هي متنوعة ، ولكل واحد منها مجال خاص يمكن الإستفادة والإعتماد عليها في قياس الحقيقة اليقينية الصادقة . فهناك مقياس العقل ومقياس التجربة والإحساس ومقياس الآثار والدلائل غير المباشرة ، ومقياس القلب والإيمان والتسليم .

وكل هذه الموازين والمقاييس تقيس لنا الحقائق والإدراكات ، وتميز لنا الصادق والصحيح من الخطأ والكذب ، وهي حقائق ومعارف يطمئن القلب والعقل بها ، وتعطينا شعوراً يتسم بالأمان والأمن والسعادة والرضا ، وترتبط إرتباطاً وثيقاً بالعمل سواء من حيث الدافع أو النتيجة ، وتفتتح أبواباً وآفاقاً جديدة ذات عمق عميق للمعرفة ، وتتمشى مع روح العقيدة والدين والأخلاق والفطرة الإنسانية .

الفصل الحادي عشر

مراتب ودرجات المعرفة البشرية

حينما نلقي نظرة فاحصة عميقة إلى أشكال وأنواع المعارف التي نحصلها ، وإلى مراتبها ودرجاتها من حيث الصدق واليقين والعمق والسطحية ، نلاحظ وجود أنماط متباينة من المعلومات والإدراكات أو بشكل عام من التفكير بحيث يمكن حصرها وتلخيصها في أربعة أنماط رئيسة هي :

أ - المعرفة السطحية ، معرفة وتفكير الرجل العامي .

ب - المعرفة العلمية .

ج - المعرفة الفلسفية .

د - المعرفة الحدسية أو الإشرافية الالهامية .

هـ - المعرفة على مستوى الوحي الإلهي .

ولكل نمط وصنف من هذه الأنماط والأصناف سمات وخصائص عامة متميزة سوف نستعرض فيما يلي عرضاً سريعاً ومختصراً لكل نمط على حده .

أولاً : المعرفة السطحية ، معرفة الرجل العامي :

تنطلق المعرفة البشرية بسيرها من مرحلة الحس المشترك فيستخدم الانسان أجهزة حواسه من البصر والسمع والاحساس والذوق والشم ، في عملية إكتساب معارف تصويرية بسيطة . وهناك معارف تنقل له من الكتب وعلى لسان الآخرين ، أو يعرف معلومات ومعارف من رؤية أشياء ينتقل ذهنه من تصورها الى تصور شيء آخر ، كما لو رأى دخاناً يرتفع من

مدخنة ، فانه يتصور حينئذ وجود نار تحتها ، وكأنه يرى مثل هذه النار ، أو إنه يتنبأ ببعض المعارف والحقائق كما لو أشعل ناراً ووضع إناء من الماء عليها ، فانه يؤمن بأن الماء سوف يغلي ويتبخر بعد لحظة .

إذن الحس المشترك يأخذ مكان الطليعة في عملية تحصيل المعرفة العادية السطحية وذلك باستقلال أجهزته المختلفة فيستطيع بواسطتها إدراك وتعلم حقائق معينة في الحياة وفي حقيقة الأمر لا يوجد عيب أو شك أو خطأ في ذلك ، حيث يبذل الانسان العادي جهودا غير قليلة في التفكير من أجل تمييز الشيء المتصور ، حيث أن المعرفة هي العلاقة بين العارف والقابل للمعرفة ، ويسمى الأولى بالعارف أو الفاعل ، ويدعى الثاني بالمعروف أو موضوع المعرفة .

وهذا المجهود المستمر في التفكير هو الذي يفتح مجالا للاستنباط والتأكد من أن المعرفة العامة تنطوي في ثناياها عيوب ، أو هي موطن للتناقضات والأخطاء . ويفضل النقد والتمحيص تعرف الوسائل المقاييس التي ترشدنا وتدلنا على معارف وحقائق ذات مستوى من العلم والدرجة الرفيعة .

وتبدو المعرفة العامة في واقع الحال صورة معلومات متناثرة متشتتة ، إستقاها أصحابها من مشاهداتهم وخبراتهم الفردية ، فهي تبدو في ذهن الانسان العادي خليطا من جزئيات لا يوجد ترابط بينهما ، أو توجد بينهما روابط وعلائق وهمية بسيطة ساذجة تجعل المعرفة في بعض الأحيان خرافية وهمية ، وأن هذه المعارف الجزئية لا ترتفع الى تعميمات كلية بسبب تفككها التي يحول دون التوصل الى قانون وسنه عامة تفسر لنا الظواهر والمشاهدات .

والمعرفة العامة البسيطة تتمثل في صورة صفات وكيفيات ، يوجددها الانسان على الاشياء والموجودات بغير ضابط ، مما تفقدها الدقة التي ينشدها

العلم وتلتمسها الفلسفة . كما هو الحال في تفسير ظاهرة الامطار والكسوف والخسوف والزلازل التي تحدث في حياتنا ، فالانسان العامي البسيط يفسرها ويحللها على أساس الغيبيات فقط .

وتتميز المعرفة العامة بالخصائص والسماة التالية :

١ - هي معرفة تشوبها الذاتية المؤلفة من أحاسيس فردية ومن آراء تسودها العرضية ، وفي أكثر الأحيان تسيطر عليها الأوهام ، وبالتالي لا تستطيع المعرفة العامة أن تقدم لنا معارف وحقائق تصديقية يقينية .

فالذاتية المسرفة هنا Egoentric تعني جعل الذات محورا ومرتكزا أساسيا لعملية التفكير ، وبالتالي يلاحظ أن رجل الشارع يقيس الأشياء بمقدار قربها أو بعدها عن ذاته ، فهو يقف في مركز دائرة ، والأشياء من حوله تشكل دوائر تزداد إتساعا كلما بعدت عن ذاته ، وقلت أهميتها بالنسبة له . ولهذا فهو يمزج تفكيره بميوله وأهدافه وعقيدته الدينية والقومية و . . . وبالتالي يتلون تفكيره بلون ذاته دون سواها .

٢ - تفقد القدرة على تعليل وتفسير الظاهرة والربط بين المتغيرات والعوامل والأسباب التي تتحكم فيها ، وبالتالي ينحصر موقف الانسان منها في أغلب لأحيان في سردها وتسجيل ملاحظاته وتصوراته عليها ، وبالتالي تصبح جميع الأحداث والظواهر في حكم الامكان والاحتمال .

فظاهرة الاحالة الى المجهول واضحة جدا. ففي الحالات التي يصعب على الإنسان إدراك ومعرفة كنه المشكلات والظواهر مما يفسرها رجل الشارع الى مجهول وغيب كما هو حاصل في تفسير بعض أحداث الكون كالرعد والمطر والحسد والعين و . . . الخ . .

٣ - وهي غير قادرة على إعطائنا قدرة تنبؤية لها في المستقبل ، حيث إنها تقدم لنا مجموعة متناثرة من الخواص ، يستحيل تحديد أقيستها . فهي تلاحظ مثلا أن الجسم الذي يهوي من أعلى الى أسفل ، تزيد سرعة

سقوطه باطراد، ولكنها لا تستطيع أن تحدد مقدار السرعة في أية لحظة من لحظات هذا والسقوط .

٤ - المبالغة في وصف ونقل الظواهر والأحداث وفقدان الدقة ، كما يفعل ذلك الأطفال أو الرجال البدائيين ، فيسيطر عليهم التفكير اللاشعوري على نحو ما يتجلى في الاحلام .

٥ - التقويم الخاطيء : سرعة الحكم والتقويم والاعتماد على ظواهر وحوادث تكرارية محدودة وتعميمها هي من السمات البارزة لتفكير الرجل العامي . كمن يجسد بالألمان من حيث العمل والجد ، والانجليز من حيث الأخلاق ، أو البخل عند الاسكتلنديين و... الخ . من ظواهر وتجارب محدودة جدا .

وخلاصة القول ، أن المعارف العامية الساذجة هي مجموعة من المشاعر والاحساسات المادية التي يستحصلها الانسان بواسطة بعض أجزاء بدنه (الحواس الخمسة) وهي تمتاز بأنها بسيطة ساذجة ، خالية من الدقة والتعمق

وبأنها مزعزعة متنقلة لا تكاد تثبت ولا تدوم ، وبأنها مختلطة متشابكة مضطربة القواعد والأسس كما يصفها الفيلسوف القديم هيراقليطيس بأنها أشبه بماء يسيل بين شطآن غير محددة سيرا غير محدد المصير . ونحن في الواقع مدينون لهذه المعارف العامية المستقاة من حواسنا ، ولكن ليس هذا هو كل شيء ، بل تستقاد وتستغل هذه المعارف العامية البسيطة الساذجة بعد نقلها الى مكانها الطبيعي في النفس البشرية للإستدلال على معلومات وحقائق وأشياء أكثر دقة وعمقاً كما هو الحال في المعرفة العلمية والفلسفية .

وتجدر الاشارة هنا الى ، أن المعارف العامية تنقسم الى قسمين أو درجتين هما :

أ- المعرفة الاحساسية البحتة ، وهي همجية وهمية مؤقتة لا علاقة لها
بذكریات الماضي ولا بأخيلة المستقبل .

ب- هي ما تشترك النفس في عمليتها ، وهي منظمة ثابتة تتناول ماضي
الحياة وحاضرها ومستقبلها . وهذا القسم هو الذي يعول عليه
كمصدر وأداة من المعارف الانسانية .

إذن فالملاحظة في صورتها الساذجة غير المقصودة ، هي النافذة
المفتوحة أمام المعرفة الحسية المباشرة ، وقد أدى هذا النوع من الملاحظات
الى بعض التعميمات البسيطة والصحيحة أحياناً ، وغير الصحيحة أحياناً
أخرى .

ثانياً : المعرفة العلمية

هناك مجموعة كبيرة من المعارف البشرية لا يمكن استلهاؤها وإستسقائها بسهولة
ويسر، كما هو بالنسبة للمعارف العامية الساذجة، ولا تحصل مثل هذه المعارف
لعامة الناس، دون توفير مقدمات ومسببات محددة ومعروفة في المنهج العلمي
فهي معلومات مستقاة من العقل والتفكير العقلي والمنطقي المستند على
مدخلات Inputs من ما تنقله لنا أجهزة الحواس عند الانسان . حيث أن
المعرفة العلمية ليست مجرد عملية جمع وتصنيف البيانات والمعلومات
والحقائق . . . بل أن تفسير الباحث لهذه الحقائق وبيان معانيها ووضعها في
إطار منطقي مفيد ، هو الذي يميز التفكير العلمي عن سواه . فبالبحث
يتطلب الفكر . . . ومن هنا كان التفكير الذي يتضمنه البحث ، هو ما
يسمى بالتفكير العلمي أو التفكير النقدي

وهنا يعتبر موضوع المعرفة هو العلم ، ولكن بأوسع معانيه ، وعلى
صورة واضحة ، بل يقينية ، أي في أكمل مراتبه . وغاية العلم ليس
الواقع المحسوس أو الكائن المتحيز والمتغلغل في الامكان ، ولكنها هي
المعقول العام اللامادي الذي ينقّب عنه العقل البشري في العالم المحس ثم
يجرده .

للصورة الذهنية التي تنطبع في أذهاننا عن الواقع الموضوعي الخارج
عن ذهن البشري فيها ناحيتان :

— ناحية الصورة ، أي صورة الشيء ووجوده الخاص في ذهن الانسان ،
والتي لها خصائص وسمات متميزة ومتباينة تماما عن الواقع الموضوعي
لذلك الشيء . حيث إنها تفقد جميع أشكال الخصائص والفعاليات
المرتبطة بها .

فالأشياء عندما تنقل وتطبع في نفوسنا بواسطة أجهزة الحواس ، تزول
وتتخلص بادية ذي بدء ، من خصائصها المادية ، أي من مادتها التي
تتمثل فيها . وهذه الحالة هي التي عبر عنها أرسطو بقوله : « ليس
الحجر هو الذي في نفسي بل صورته ، ولكنها لكي تدخل في عقولنا
تتجرد من فروعيتها ، وتتحول الى العمومية . فالتصور ليس نسخة
مادية للأشياء كما يتصوره البعض .

والمعرفة التصديقية العقلية هي التي تستطيع إكتشاف وإدراك
موضوعية التصور ، ووجود واقع للصورة التي تطبع في أذهاننا .

ومن هنا نستطيع أن نميز بين الناحية الموضوعية للفكر والناحية
الذاتية . أي الناحية المأخوذة عن الواقع الموضوعي ، والناحية التي تعود
الى تبلور ذهني خاص .

وبشكل اجمالي كلي ، إن حواسنا تدرك الأشياء في أفرادها المشخصة
وفي وسط تيار وأتلال الأحداث المتغيرة ، بينما تستطيع عقولنا إدراكها وهي
في طبيعتها ومميزاتها العامة .

والمتبع لمنهج أرسطو في التفكير ، يلاحظ وجود تقسيمات أساسية
للمعرفة ومراتبها ، وهي تابعة لدرجات المعقولات التي هي في الأساس
موضوعات للمعرفة .

ومن أهم خصائص ومميزات الفكر أو التفكير العلمي المستقاة منه
المعرفة العلمية هي ما يلي :

١ - الدقة والتحليل : اذا كانت المعرفة العامة تستلزم معرفة وتمييز الأشياء بعضها عن بعض فقط ، فان المعرفة العلمية أو التفكير العلمي يميل الى تحديد هذه الأشياء وتحليلها وتفسيرها الى عناصرها الاساسية . فمعرفة الطاولة على حقيقة موضوعية خارج ذهن الانسان ، تختلف عن معرفة حقيقة الطاولة بما فيها التركيبات المكونة من ملايين الكهارب المتسمة بالحركة الديناميكية . والتفكير العلمي يرفض الاعتماد على مصدر الثقة فقط ، بل يعتمد على الفكرة القائلة بأن النتائج لا تعتبر صحيحة إلا إذا أدعتها أدلة وبراهين Evidence .

فامكانية إضافة حقائق ومعلومات جديدة إلى المعرفة الانسانية ، ليس أمرا سهلا ميسورا ، بالرغم من أن الشخص العادي يتقبل كثيرا من الأفكار على أنها صحيحة ، بينما الباحث المدقق لا يعترف بصحتها أو قيمتها قبل أن يخضعها للاختبار والفحص الدقيق ، والبحث عن دليل صحتها ووزن وتقويم الجوانب المؤيدة والمعارضة لها .

وكثيرا ما تستعصي المشكلة العلمية على الحل . . . لأن الدليل غير كاف أو لأنها لا تثبت للاختبار المنطقي أو العقلي .

والباحث الذي ينتهج منهاج علمي في التقصي والبحث عن الحقائق لا يقبل ما قاله أرسطو - أو غيره من الفلاسفة الكبار ، على إنها قضية مسلم بها . . . ولكنه يقوم بالتأكد من ذلك بفحص الحقائق بواسطة الملاحظة المباشرة Direct Observation والتجربة .

ولتقريب الصورة الى الأذهان ، نضرب مثلا معيناً من تاريخ العلوم . لقد كان الاعتقاد السائد في عصر جاليليو بالنسبة لنظرية سقوط الأشياء (هو فكرة فلاسفة وعلماء في العصور القديمة وأتباع أرسطو) في أن

الأشياء الثقيلة تتساقط على الأرض بسرعة أكبر من الأشياء الخفيفة . . . والمتأمل لأول وهلة ، يجد أن هذا الافتراض منطقي ومعقول ومنسجم مع ما يشاهده ويلاحظه بدرجة أنه يعتبره حقيقة بديهية بسيطة لا يستلزم الأمر القيام بتجارب وإختبارات دقيقة للتأكد من صحته . وقيام جاليليو في البحث عن معدل سرعة سقوط الأجسام . . . وذلك باسقاط كرات مختلفة الأوزان من برج بيزا المائل في عام ١٥٨٩ ، خير دليل على أنه لم يكن مقتنعاً ومطمئناً بمجرد الاستنتاج المنطقي Reasoning أو إستشارة أهل الثقة في الموضوع ، بل قام بدراسة موضوعية علمية تجريبية للتأكد من صحة تلك الحقيقة^(١) .

إذن من أهم وأعظم مميزات الاكتشافات العلمية ، إنها دقيقة وجزئية ومحددة ، وتعطينا آلاف من المعلومات التي تدور حول موجود جزئي واحد ، وهو قادر على أن يملأ كتب ومجلدات عن معارف تدور كلها حول موضوع واحد أو جزء من الموضوع الواحد .

٢ - النزوع الى التكميم ، أي تحول الكيف الى الكم Quantification ويعني ذلك تحويل الصفات والكيفيات الى مقادير كمية ، فالتعبير الصادق عن وقائع الحس بالأرقام العديدية ، يحتل مكان الصدارة في المنهج العلمي والتفكير العلمي . فرؤية الضوء والاحساس به ليس كافيا عند العالم الفيزيائي والباحث العلمي ، بل لا بد من معرفة طول موجاته وقصرها ، وسماع الأصوات يستلزم معرفة سعة ذبذباته أيضا ، والاحساس بالماء يستلزم في الفكر العلمي والمعرفة العلمية معرفة عدد ذرات الأيدروجين والأكسجين التي يتكون منها الماء . . . الخ .

٣ - الموضوعية Objectivity : والمقصود هنا بالموضوعية هو إقصاء الخبرة

(1) Good, C. V. and Scates, D, E, Method of Research Eductional, Psychological, Sociological, N. Y. Appleton, 1954.

الذاتية لمعرفة الأشياء كما هي في الواقع ، وإبعاد النزعات العاطفية والأهواء الشخصية تجاه الموضوع قيد الدراسة والبحث ، ولا يجوز له التمني والتحيز بأن تكون النتيجة كذا وكذا .

وفي هذا المضمون يختلف العلم عن الفن في كل صورته ، نظراً لكون الخبرة الذاتية أساساً للعمل الفني والأدبي .

فيقول « كلود برناد » إذا ما عرض موضوع معين للدراسة والبحث على مجموعة من العلماء في تبنيهم لآراء وأفكار فلسفية واجتماعية ودينية متباينة ، فإن المتوقع منهم أن يصلوا إلى نتائج متشابهة وامتازة من التجربة أو الاختبار العلمي ، وذلك بحكم الموضوعية التامة اللازمة استخدامها في التفكير العلمي .

وهذا يعني توحي النزاهة Disinterestedness ويراد بها تنحية الذات Self- Elimination ، أي طرح الهوى ، والتزام الحياد ، واستبعاد الاعتبارات الشخصية . ويذكر العالم الشهير (ميلو) في كتابه « القوة والعلة » ما يلي :

« ان العلم يتقدم بقدر توافر درجات التنزه لدى من يتعهده »

٤ - إمكان اختبار صدق الحقائق العلمية . فالتفكير أو المعرفة العلمية ، يمكن التأكد من صحتها ومصداقيتها بواسطة إخضاعها للتجربة والاختبار والملاحظة والمشاهدة حتى تظهر النتائج الصادقة الحقيقية ، ويكون الهدف والغاية من البحث العلمي في تصور علماء الغرب ، هو فقط إبراز الحقائق العلمية دون سواها .

والإستفادة من هذه المميزات والخصائص للتفكير العلمي ، تنمو وتزداد المعارف العلمية وتتقدم العلوم في اكتشاف العلل والمعلولات والآثار والأسباب والمسببات ، وذلك نمواً عمودياً حسب إمكانياته وطاقاته وأدواته العلمية المتوفرة له .

وبالرغم من جميع امتيازات وخصائص المعرفة العلمية من الدقة المتناهية والموضوعية والتفصيل الشديد، الى درجة تفصل في عدة مؤلفات ومجلدات لموضوع واحد ، إلا أن هذه المعرفة العلمية والمسائل المتعلقة بها هي جزئية ومحدودة ومؤطرة باطار ميدان التجربة التي قد لا تشمل جميع المدركات والحقائق الكونية .

ومحدودية العلم والمعارف العلمية تتمثل في كونها تشبه المصباح الذي يشع النور في مكان واسع مظلم لا نهاية له ، فهو يضيء لنا منطقة محدودة معينة تستوعب فقط مقدار النور الصادر من المصباح ، أما ما بعد هذه المنطقة فهو مظلم يستحيل رؤيته بوضوح .

المعارف العلمية تنقلنا من وضع أو معرفة الى معرفة أدق وأشمل وذلك عامودياً وأفقياً، ولكن هذا العمق العامودي من المعارف البشرية حيال موضوع من الموضوعات يمس درجة معينة ويقف بعدها التفكير العلمي عاجزاً عن التفسير والتحليل والتنبؤ بما سيكون عليه .

والعلم والتفكير العلمي يمهّد لنا الطريق ويطلعنا على أبعاد وأوضاع بعض أجزاء وأبعاد الكون ، وليس بإمكانه وقدرته أن يمنحنا المعرفة الاجمالية الكلية لكيان وماهية وشخصية الكون بأجمعه .

والمعرفة العلمية بالرغم من دقتها ، إلا انها تتغير يوماً بعد يوم ، تبعاً للتغيرات التي تطرأ على الفرضيات التي تبنى عليها ، وعلى دقة أجهزة القياس والتجربة ، وبالتالي تكون قيمة المعرفة العلمية مؤقتة وليست دائمة ثابتة، لا بحكم بأنها تتكامل وتصل الى قيمة حقيقية يقينية، لكونها ادراك غير موثوق أو مطمئن إليه . ولقد تم توضيح هذا المفهوم عندما تطرقنا الى موضوع تكامل المعرفة في الفلسفة .

إضافة إلى كل ذلك ، تعجز المعرفة العلمية الاجابة على أسئلة رئيسية ومحورية في حياة الانسان مثل :

من أين جاء هذا الكون ؟
والى أين هو ذاهب ؟
وأي موقع من الكون نحتله نحن ؟
ألكون - من حيث الزمان - أول وآخر أم لا ؟
هل هناك حقيقة موضوعية أم لا ؟
هل الوجود عبث أم مستهدف ؟
هل الوحدة هي المسيطرة أم الكثرة ؟
هل هناك غيبيات ، أي ما وراء الطبيعة أم لا ؟
هل يجري أمور الكون عن بصيرة أم بطريقة عشوائية ؟
هل الكون عادل مع الانسان ويلبي حاجاته أم لا ؟
هل هناك حياة غير الدنيا ، هل هناك حياة أخروية أم لا ؟

إذن هناك سلسلة من المعارف والحقائق تقع في واقع الأمر خارج ميدان وإطار التفكير العلمي ، وهو عاجز بامكانياته وأدواته الدقيقة أن يفتح أبواب المعرفة المتعلقة بتلك الأمور والقضايا .

ولذلك نترك هذه القضايا والمعارف للبحث الفلسفي العميق وميدان المعرفة القلبية الالهامية عند الانسان والتي بدورها تشكل الايديولوجية التي يتبناها الانسان في حياته الدنيوية .

ثالثاً المعرفة الفلسفية :

توجد في حياة الانسان قضايا أو حقائق ومعلومات ترتبط بالعقل الانساني ، وهي وان خرجت عن إطار وحدود الحس والتجربة الحسية ، إلا إنها ليست مما يقبل الانكار والرفض التام لها ، وإن حل مسائلها وغموضها والاجابة على التساؤلات والاستفسارات التي تطرح حولها ، لا يتم الا بواسطة التحليلات العميقة والبحوث الذهنية الدقيقة ، ولا يتوصل اليها إلا من لهم صفات ومقومات خاصة ورفيعة ، تتمثل بالذكاء والذهن

الصافي ، والقدرة الكافية على استخدام العقل في الاستدلال والاستنباط ،
ومعارف حسية وعلمية معينة ، الأمر الذي يؤدي بهم الى نتائج قطعية
يقينية لا تقبل الشك والريبة .

فالمسائل المتعلقة بالخالق والكون والهدف من خلق الانسان أو أن
لهذا الكون الهه وخالق عليم بصير أم لا ؟ ومن أين جاء هذا الكون ؟ والى
أين ذاهب ؟ وهكذا من الأسئلة التي طرحناها في الصفحة السابقة وأكدنا
بأن العلم قاصر وعاجز عن إدراكها والاجابة عليها ، هي في الواقع
خارجة عن دائرة ومحيط البحث العلمي .

وفي حقيقة الأمر ، أن آخر محيطات المعرفة العقلية هو محيط
الميتافيزيقيا ، والذي كان من أكثر المواضيع تعرضا وهجوما للنقاش
والجدل ، والأخذ والعطاء .

وينبغي أن يعرف بأن العقل في هذا المحيط لا ينقب الا عن الأقيسة
العالية ، كالمقولات التي هي الخطوط العريضة لمعرفة الطبيعة ، والتي
تؤلف عالم موضوعات « العام » ، اذ أن العقل في المعرفة الميتافيزيقية يصل
الى درجة عليا ، والى عالم المعقولات الذي يستطيع أن يتحقق خارج العقل
البشري في طبيعة خاصة لا تقع في اطار الحس ، وليست في ظل ميدان
التجارب والاختبارات العلمية ، وهو عالم المباديء ، والعلل الأولى ، التي
لا تستطيع الفروع الأخرى من المعرفة أن تمتد اليها .

وبالرغم من أن المعارف والحقائق الفلسفية قد تفتقد الدقة والتحديد
الموجودين في المعارف العلمية ، إلا إنها تتصف بلون من الجزم واليقين ،
لأنها تستند وترتكز على سلسلة من محاور وأصول تتسم بالسلمات التالية :

- ١ - بديهية ولا يمكن إنكارها ، وهي تقدم بأسلوب البرهان والاستدلال .
- ٢ - عامة وشاملة وهي من أحكام الموجود بما هو موجود .

فالمعرفة الفلسفية التي هي قاعدة ومحور للايديولوجية البشرية ،

تجيب على تلك التساؤلات والاستفسارات ، وتطلعنا على معارفها الحقيقية اليقينية الثابتة .

والمعرفة الفلسفية تتميز بالعمومية والشمول حيث إن إدراك الانسان لشيء واحد لا يكون علما ، لأن العلم يستند على التعميمات التي تصوغها في قوانين عامة ، نستعين بها في التفسير والتحليل والتنبؤ . فدراسة كمية معينة من الماء وربطها بالحرارة وإستخلاص النتيجة منها غير كافٍ ، إلا إذا كان هناك قانون عام يشمل جميع المياه في العالم ، ويفسر لنا علاقتها بالحرارة .

وهذا القانون العام منشأه الأساسي هو محيط الفلسفة . أو بالأحرى يستند على أصل فلسفي ثابت ، وهو أن الظروف المتشابهة توجد نتائج متماثلة أيضا . أو قاعدة عدم التناقض ، أو قاعدة العلية .

والحقيقة أن العلم والفلسفة يتفقان في كونها يبحثان عن المعرفة الدقيقة الموضوعية ، ولكن المعرفة التي يأتي بها العلم لا تكفي بها الفلسفة ، لأنها تريد أن تصل الى معرفة « شاملة » أي التعميم Generalization أي معرفة شاملة عن الكون ككل ، لا عن جزء أو قسم واحد من أقسامه ، فالعقل البشري لا يقنع بمعرفة مجموعة من المعارف العلمية ، بل يسعى الى فهم وإدراك ظواهر الكون من ناحية ، وتفسيرها تفسيراً ذا معنى عميق من ناحية أخرى . ولذا يقول الفيلسوف الانجليزي المعاصر برود (C. D. Broad) إن الفلسفة تتناول نتائج العلوم الجزئية المختلفة ، ثم تضم اليها نتائج الخبرات الدينية والأخلاقية للجنس البشري ، ثم يجعل من ذلك كله موضوعاً لتفكيره ، على أمل أن يصل الى حقائق ومعارف نفسر له حقيقة وماهية الكون ومركزنا فيه .

ونستشف من خلال متابعتنا لتطور الاسئلة والاستفسارات التي تطرح في ميادين كل من العلم والفلسفة ، أن هناك تمييزاً واضحاً بينهما ،

يتمثل هذا التمييز في كون القضايا والمسائل والأسئلة المطروحة في ميدان الفلسفة تتصف بالثبات والتكرار بشكل لا يمكن توفره في أي فرع من فروع العلم .

والتأمل حق التأمل ، لقائمة التساؤلات والمشكلات الرئيسية التي يحاول كل من الفيلسوف والعالم التجريبي أن يجيب عليها في العصور المختلفة ، لوجدنا ولمسنا ذلك الفارق الهائل بينهما . فالأسئلة والتساؤلات المطروحة في مجال العلم أيام (نيوتن) متباينة عنها في أيام (لافوازيه) ، وهي مختلفة عنها في أيام (داروين وآنشتين) وغيرهم ، بل هي تتباين من عقد الى آخر ، وتارة ومن سنة الى سنة أخرى .

أما الأسئلة والتساؤلات المطروحة في ميدان الفلسفة فتكاد تكون ثابتة متكررة تدور وتحوم حول محاور ثابتة ، مثل الوجود وماهيته والعدم والعلية ، والحركة ، الخ ، نفسها كانت تتداول وتبحث في زمن (أفلاطون وأرسطو وأوجست كونت ، وبيكون ، ودفيد هيوم وماركس ، وبرجسون) ، وكذلك بالنسبة لفلاسفة الاسلام ، ذلك إذا ما إستثنينا مباحث جديدة تضاف الى البحث والدراسة .

والملاحظ أيضا ، أن القيمة الحقيقية والعملية لنتائج التجارب والمشاهدات العلمية التجريبية موقوفة ومستندة على مدى دقة تطبيق الأصول والمبادئ الفلسفية البديهية عليها .

ويلاحظ أيضا أن هناك إستقلالية واضحة للتفكير الفلسفي ، لكونه لا يعتمد على سلطان آخر سوى سلطان العقل والمنطق ، فالفيلسوف لا يخضع في تفكيره لاجماع الناس⁽¹⁾ ، وان كان يستفيد في كثير من الاحيان من نتائج العلوم التجريبية في تدعيم وتوضيح مفاهيمه ومعارفه الفلسفية .

(1) F. H. A. Hodges, Selected Passages, London. Kegan Paul, 1944, P. 148.

وأخيرا وليس آخرا ، المعارف العلمية والمعارف الفلسفية كلتاهما مقدمة للعمل ، ولكن بشكليين متباينين ، فالمعرفة العلمية تعتبر مقدمة للعمل من حيث كونها تعطينا وتمنحنا القدرة والسلطان على التغيير والتصرف في الطبيعة وإخضاعها لسيطرة وهيمنة الانسان أي تطويعها لنفسه ، بينما المعرفة الفلسفية تعتبر مقدمة للعمل ومؤثرة فيه من حيث كونها تمتلك قوة وخصائص تعين لنا اتجاه السير والعمل الذي نختاره في حياتنا العملية ، وهي تعطينا مفاهيم وحقائق تحدد لنا مواضيع تفكيرنا حول الكون والحياة والانسان والعلائق الارتباطية المتداخلة بينهما ، وتوضح لنا مدى عبثية الحياة وهدفيتها .

ومن المفيد أن نذكر خصائص الموقف الفلسفي التي تميزه عن بقية المواقف ، وذلك كما أوردها « باهم » « Bahm » بجامعة مكسيكو الجديدة (1) :

وذلك دون تعليق عليها ، وهي ما يلي :

- ١ - موقف تأمل وتفكير .
- ٢ - موقف عقلي يرتفع فوق الشك الهدام .
- ٣ - موقف تسامح وسعة صدر .
- ٤ - موقف الحيرة والدهشة والقلق .
- ٥ - الميل الى الاسترشاد بما تشير به الخبرة وميله العقلي .
- ٦ - موقف إرتياب وتعليق موقف للحكم .
- ٧ - موقف يتسم بالمثابرة والجهد .
- ٨ - موقف يتحرر من العاطفة والانفعال .

(1) Archie J. Bahm, Philosophy. An Introduction, 1953 P. 12- 13.

رابعاً : المعرفة الاشرافية أو التنسكية :

يختلف هذا النوع من المعرفة في مجالات عديدة ، فهي تختلف من حيث السبل والطرق والجهود المبذولة للتوصل إليها ، وهي لا تتطلب جهوداً ذهنية تستند على الحواس ، ولا جهوداً عقلية نقية صافية ، إنما تتطلب بذلاً وجهوداً ، وتنقية وتهذيباً للنفس للتحرر من ربة الشهوات ، والتخلص من عبودية الرغبات ، والتعلق بالملا الأعلى ، والشوق الى الاندماج في النور الأقدس ، الذي أثره كفيل بكشف ما وراء الحجب السمكية واجتياز ما بعد الحواجز الصفيقة .

ويقول عز وجل في محكم كتابه المقدس : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » أي (١) إستخدام العقل والحواس في تفسير الظواهر وإستنتاج النتائج يرتكز على عالم الشهادة ، أما المقصود بالأنفس ، والآيات الأنفسية ، هي نفس الانسان المدركة بالشعور الباطني ، أو بالعقل المجرد من كل غواش الحس وعلائق المادة .

وهناك المعرفة المباشرة التي تعتبر نوعاً من المعرفة الفيضية أو الاشرافية التي يحصل عليها الانسان فجأة بعد أن تكون قد أعيتته كل السبل للوصول اليه .

ويقول ملا صدرا الشيرازي وذلك بعد أن اتضحت له على أساس البرهان العلمي واقعية الرؤية الانسانية، وثبت له بالدليل أن الادراك البشري اليقيني يحكي ويتطابق مع الواقع الخارجي ، يقول « فلا يبقى هناك فرق بين البرهان اليقيني والكشف القطعي ، والحقائق التي يحصل عليها الانسان عن طريق المشاهدة والكشف القطعي ، والحقائق التي يرقى

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

الانسان لا ادراكها عن طريق التفكير القياسى هما سيان «(1)» .
وخلص القول ، أن النفس أو الروح أو القلب يعتبر مصدرا من
مصادر المعرفة البشرية في المنظور الاسلامي ، وهذا المصدر تنبع منه
معارف وحقائق لها مميزات وخصائص خاصة تتميز بها عن المعرفة العلمية
والفلسفية ، حيث إنها تقبل الصدق دون دليل أو برهان ودون حاجة الى
الحس والتجربة والعقل ، حيث يلقيها الله في القلب فينور قلب الانسان
بنوعية معينة من المعارف .

معرفة الوحي :

يعتبر الوحي ، أو المعرفة الإيحائية ، نوعا معينا ومصدرا للمعارف
البشرية وفقا للمنظور الاسلامي ، فهي تعتبر منحة ورحمة من الله لعباده
يطلعنا على معارف خاصة بواسطة طريق النبوة، وتتسم المعارف المنبثقة عن
الوحي بالدقة واليقين والصدق إذا ما ثبتت صحة الخبر ونقله دون إدخال
تزييف الى مفاهيمه ومعانيه .

اذن هناك أنواع من المعارف البشرية، تقع خارج ميدان ونطاق الحس
والتجربة والعقل والفلسفة ، بل هي تقع ضمن ميدان الوحي . فعلى
سبيل حكم النجاسات ، وطريقة أداء الصلاة ، وترتيبات دفن الموتى ،
وتوزيع الثروة ، وقضايا الزواج والطلاق وغيرها من الأحكام الشرعية
التفصيلية في الحياة، لا يمكن الاعتقاد بها إعتقادا يقينيا صادقا من خلال
التجربة أو الحس أو العقل أو الفلسفة ، فالطريق الوحيد هو الوحي .

وخلص القول تتسم المعارف والحقائق الصادر من الوحي بالدقة
المتناهية والمصادقية الكاملة ، والواقعية التامة ، اذا ما ثبتت صحة صدور
الخبر أو الحكم من مصدر الوحي ، وتتسم ايضا بالثبوت والخلود والعموم
والشمول إضافة إلى أنها تتمتع بميزة تفقدها المعارف العلمية والفلسفية ،
وهي القداسة التي تهيمن على تلك المعارف . وفي المنطق أو المنظور
الاسلامي تستند كثير من الأحكام بل جميعها اذا استطعنا ادراك حقيقتها

(1) كتاب الأسفار الأربعة .

وكنهها ، على قواعد فلسفية وإحكام المنطق السليم . وهذا ما نلاحظه ، من أن المعرفة الدينية في الاسلام إصطبغت باللون الفلسفي ، أي بطريق الاستدلال والاستنباط ، مما يثبت لنا أن المواضيع والقضايا التي يستعرضها الدين مستندة على العقل والاستدلال والبرهان ، ولذلك تكون المعارف الاسلامية هي معارف عقلية فلسفية دينية في وقت واحد .

الفصل الثاني عشر

موانع المعرفة اليقينية الصادقة

مقدمة :

حينما ننظر الى إمتداد الأبعاد الحقيقية ونتعمق في أعماق الإنسان عبر مسيرته التكاملية الفردية والإجتماعية، أو الفكرية والعملية، نستشف بوجود العديد من العوامل والمتغيرات المادية والمعنوية، والفردية والإجتماعية ، التي تقف حاجزاً ومانعاً أمام الإنسان الباحث عن الحق والحقيقية ، فتعمي بصره ، وتصم آذانه، وتسود قلبه وروحه ، وتغير احساسه وحواسه ، وتشل حركة عقله ، وتشوه تفسير الموضوعات المطروحة في ميدان البحث، مما تحرقه وتبعده عن معرفة الواقع الموضوعي خارج ذهن الإنسان بشكله ومضمونه الواقعي الصادق.

وهذا الفصل من الكتاب ، يتناول أهم العوامل والموانع التي تقف حجر عثرة أمام رؤية الحقائق في حياة الإنسان . وسوف نتبع أسلوب الإختصار والإيجاز متجنبين أسلوب التطويل والشرح المستفيض، وذلك لكون هذا الموضوع هو بحث مفصل تناوله الكاتب في كتاب مستقل يحتوي على اثني عشر فصلاً يمكن الرجوع اليه لمن أراد التفصيل والمزيد من المعلومات حول الموضوع.

أولاً : المنهج وأخطاء الفكر :

يتميز الإنسان عن بقية الكائنات الأخرى بحكم كونه كائناً مؤمناً مفكراً . فالتفكير هو الصفة الرئيسية التي تميز شخصية الانسان وتحدد

معالمها وموقفها من الحياة . فكلمها كان منهجه التفكيرى مبنياً على أسس
وركائز قوية وسليمة ، كلما كان الفكر المستقى منه فكراً قوياً صائباً .
وللتفكير السليم ومنهجه أهمية بالغة في تشكيل الشخصية الإنسانية وتكاملها
في مسيرتها الارتقائية التكاملية . فالذي ينقصه التفكير والمنهج السليم ، يكون
فاقداً للرؤية السلمية الصائبة للأمور ، لأن التفكير السليم هو الذي يوجد
الرؤية الواقعية الصادقة ، ويوصل الإنسان الى الحق والحقيقة . وهذه هي
سنة طبيعية نلاحظها حتى في سيرة الانبياء والمرسلين (ع) ، حينما أرادوا
التوصل الى حقيقة وكنهه الدين والإله . فهذا نبينا إبراهيم (ع) يتدرج في
منهجه حتى يصل ويلامس الحق والحقيقة ، وكذلك نبينا محمد (ص) حينما
تفرد إلى غار حراء سنين طويلة ، وأخذ يغوص في تفكير وتأمل عميق حتى
توصل إلى حقيقة وكنهه ما جاء به الوحي الإلهي* . فالارتكاز على أسس
ودعائم التفكير المنهجي القويم هو الذي يوصل الإنسان إلى الحق
والحقيقة ، وما سواه يضل الإنسان ويحرفه عن جادة الحق والطريق
المستقيم .

فالملاحظ أن جميع الناس تقريباً يفكرون أو على الأقل يدعون بأنهم
يفكرون بشكل عام .

وكذلك جميع المثقفين والمفكرين يدعون أيضاً بأنهم يفكرون ويتأملون
بعمق ودقة ، بينما في الوقت الذي يتعرضون لمواقف وأحداث نجد أن
الغالبية العظمى منهم ضالّون منحرفون عن الحق والحقيقة ، ولم يستطيعوا
التوصل إليها من خلال إثارة عقولهم ، وتشغيل أذهانهم ، وذلك بسبب أن

* تجدر الإشارة الى ، اننا في حقيقة الأمر، لم نجد من خلال بحثنا ومطالعتنا المتواضعة حول هذا المفهوم ،
تعبيراً أو مفهوماً أدق وأشمل وأعمق من المفهوم الذي طرحه إمام الأمة في احدى خطبه قائلاً بهذا
المضمون :

« ان الرسول (ص) بلغ درجة عالية من الرقي والسمو الروحي والفكري من خلال منهجه التربوي
والفكري والروحي الخاص ، حتى انزل بايمانه وروحه الوحي والقرآن على قلبه أي بتعبير آخر ، أن
الرسول الأكرم بواسطة ايمانه وفكره ، وسموه الروحي جذب الوحي والقرآن الى قلبه الشريف .

الطريق والنهج الذي سلك من قبلهم أصلاً لا يوصلهم إلى الحق والحقيقة اليقينية الصادقة .

ومن المؤكد إن من الأسباب الرئيسية التي تؤدي الى ظهور مفاهيم وآراء خاطئة ، أو تبني مواقف غير حكيمة ، أو إتخاذ قرارات غير رشيدة وغير سليمة وبشكل عام عدم إصابة الواقع الموضوعي كما هو في الحياة الإجتماعية والسياسية والتربوية أو العلمية ، تكون ناتجة من ذلك المنهج الفكري الذي يركز على النظرات والتأملات الجزئية المفتتة ، مقابل النظرة الشمولية العميقة المفتحة للأمور .

ونحن نعتقد بأنه من أخطر حالات النظرة الجزئية الضيقة ، هي الاعتماد على بعض المعلومات والفروض المحددة والخاطئة التي تفسر ظواهر إجتماعية أو علمية ، في الوقت الذي تعطينا نتائج أو مخرجات صحيحة لا غبار عليها . أو بتعبير آخر تكون الفروض والمعلومات غير صحيحة ، ولكنها تعطينا نتائج سليمة ومشابهة فيما لو كانت المعلومات والفروض صحيحة مئة بالمئة .

فهناك العديد من الحالات والظواهر الاجتماعية أو العلمية التي يمكن تفسيرها وتحليلها ، بناء على عدة فروض متناقضة ومعلومات متباينة ، بينما الجميع يعطي نتائج متماثلة واحدة . فعلى سبيل المثال وليس الحصر ، نلاحظ أن في السابق كان العلماء والمفكرون يفسرون ويحللون ظاهرة كسوف وخسوف الشمس والقمر على أساس مباديء وفروض «نظرية بطليموس» المتمثلة في أن : «الأرض هي محور الكون، وهي ثابتة لا تدور ، بينما الشمس هي التي تدور حول الأرض» وتأسيساً على فروض هذه النظرية، كان يتم تحديد الزمان والمكان اللذين يحدث فيهما الخسوف والكسوف بالدقة المتناهية .

ولكن فيما بعد تبين أن فروض وأسس نظرية بطليموس أساساً خاطئة

وغير علمية ، حيث تم التأكد من أن الأرض هي التي تدور حول الشمس . فبالرغم من تنفيذ فروض نظرية بطليموس واستبدالها بفرضية أخرى مغايرة لها مئة مئة بالمئة ، إلا أن تحديد حدوث الكسوف والخسوف من حيث الزمان والمكان مطابق مئة بالمئة مع الزمان والمكان اللذين حددا بواسطة نظرية بطليموس الخاطئة .

فنستشف من ذلك ، حقيقة واضحة دامغة ، مفادها إنه بالرغم من عدم صحة الفروض والمعلومات التي تستند إليها نظرية بطليموس ، إلا أنها أعطت نفس النتائج التي تمخضت عن نظرية كوبرنيكس ، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن المفكر أو العالم الذي كان يفسر ظاهرة الكسوف والخسوف على أساس نظرية بطليموس ، كان غافلا عن بعض الفروض والمعلومات الجوهرية والرئيسية التي كانت تعطينا نتائج سليمة . أو بتعبير آخر إن الفروض والمعلومات التي كانت تستند إليها نظرية بطليموس هي فروض ومعلومات سطحية وقشرية لا تمس جوهر ولب الظاهرة . وبسبب تلك النظرة الجزئية الضيقة التي أغفلت الجزء المهم من المعلومات والفروض الجوهرية أدت الى تبني نظرية خاطئة ولكن نتائجها صحيحة .

وهنا بالصدفة كان المنهج خاطئاً ولكن النتيجة صحيحة ، ولكن لو استخدمنا نفس المنهج في تفسير ظواهر أخرى لأعطانا نتائج بعيدة كل البعد عن الواقع والحقيقة ، في الوقت الذي يعتبر الإنسان ان منهجه قويم وسليم . وفي حياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية و . . الخ العديد من القضايا والأمور التي تفسر وتحلل ، ثم يتخذ قرار وموقف على أساس بعض الفروض والمعلومات السطحية والقشرية في الوقت الذي يغفل الجزء الهام والخطير منها .

شمولية وضيق المنهج التفكيري عند الإنسان وأثرهما على الضلال والانحراف : -

المتطلع على مضمون وإطار المناهج الفكرية المعاصرة أو القديمة ،

يستشف بكل وضوح وجلاء ، مدى التباين والاختلاف الكبيرين في البنية التحتية أو القاعدة الأساسية التي تستند عليها هذه المناهج ، فهناك مناهج ترتكز على عامل واحد في التشخيص والعلاج ، وتحديد الأهداف ، بل في مسيرة الحياة بكاملها . وهناك مناهج تستند فقط على عوامل متعددة ، ولكنها مادية محضة ، وتوجد مناهج تتصف بالشمولية في النظرة والتحليل ، ولكنها مادية التفسير والتحليل أيضاً . الخ. وللإسلام منهج خاص ، له سماته وخصائصه المتميزة التي ينفرد بها عن بقية المناهج الفكرية . فسعة أفق المنهج من حيث الضيق والشمولية ، أو ماهية المنهج من حيث مادية التفسير أو إلهية التحليل لها تأثير كبير وواضح في التوصل إلى ماهية وكنه الحقائق والقضايا الواقعية الصحيحة . ولذلك سنستعرض فيما يلي أهم المناهج الفكرية ، من حيث مضمون الشمولية والضيق ، أو المادية والإلهية مع تبيان المنهج الاسلامي في التفكير ، وموقفه العملي والنظري منها .

مناهج البعد الواحد

تستند نظريات أو مناهج البعد الواحد على بعد أو عامل واحد ، أو بالأحرى لها إطار وقالب يرتكز على محور واحد فقط في النظر والتأمل ، والفحص والتشخيص ، والتفسير والتحليل ، والعلاج والتكهن والتنبوء بالاوضاع والنتائج المستقبلية .

وهناك عدة مذاهب ومناهج فكرية تعترف وتستند على عامل واحد فقط ، من أهمها ما يلي .

١ - المادية التاريخية ، أو المادية الماركسية ، أو العامل الاقتصادي .

٢ - الجنس وغريزته القوية .

٣ - العرق والدم .

٤ - العامل الجغرافي .

أولاً : العامل الاقتصادي :

الماركسية المذهبية ، تعتمد في تحليلها وتفسيرها لجميع الأمور والقضايا ، سواء السياسية أو الإجتماعية أو التربوية أو النفسية على عامل واحد وهو الاقتصاد . والمتمثل بتطور أدوات الانتاج الذي تعتبره الماركسية العصا السحرية ، التي 'تشخص وتفسر وتحلل كل القضايا الحياتية للإنسان والمجتمع وان العامل الإقتصادي ، هو محور تغير التاريخ ، وبقية العوامل هي إعتبارية ثانوية الأثر والتأثير.

ومما لا شك فيه ، إن التصورات المغلوطة للماركسية عن الكون ، لا تمكنها من استيعاب وفهم الحياة والإنسان وأبعادهما الحقيقية بالصورة والواقع العيني الصحيح ، حيث إنها تحصر الوجود بالمادة من دون اعتبار للأبعاد الروحية والمعنوية للإنسان فالإنسان في نظرها وسيلة انتاج ، تقف الى جنب الفأس والمطرقة وأمثالها .

ثانياً : الجنس ، أو العرق والدم

هناك من يرى بأن المحرك والموتور الرئيسي لحركة ، التاريخ والمجتمعات ، أو في تشخيص نظراتها أو اشتقاق معارفها وحقائقها ، يتمحور حول محور وعامل واحد أوحد ، يتمثل في مقدار القوة المدخرة في صميم الجنس ، وما تنطوي عليه من قوة الدفع والتحرك ، وطاقات الإبداع والبناء .

فالجنس النقي القوي ، هو مصدر ومبعث الحياة ونموها وحركتها في المجتمعات الانسانية منذ الأزل الى العصر الحديث . والتاريخ عبارة عن سلسلة من الأحداث والصراعات بين الأجناس النقية القوية والأجناس الضعيفة ، التي تموت وتضمحل بحكم سيطرة وقوة الأجناس القوية ، بينما يكتب البقاء والاستمرارية للجنس القوي والنقي .

فهؤلاء اليهود كانوا يسمون أنفسهم «شعب الله» ويعتبرون باقي الشعوب عبداً أو حيوانات مملوكة لهم ، ويجيزون لأنفسهم أن يسلكوا أي سلوك مع أعدائهم (١) .

وهذه توراتهم المحرّفة نفسها ، تشهد على جنائياتهم ومذابحهم العامة القاسية في اراضي الآخرين (٢) .

وهذا « هيتلر » القائد النازي الذي يعتبر أحد قادة العنصرية ، حيث كان يرى العنصر الجرمانى أقوى العناصر وأسماءها ، ويرى إن الحكم والتحكم في العالم ، إنما يليق به دون غيره ، وكلنا نعلم كيف أشعل هيتلر في سبيل تحقيق هذه العقيدة حرباً طاحنة ، وحملها على البشرية . وبالتالي لم يخسر (هيتلر) موضوع ايصال العنصر الجرمانى أو المانيا الى القيادة والنصر فحسب ، بل صار سبباً لتقسيم المانيا الى قسمين : شرقي وغربي ، وضياح الوجود الألماني وإنهزاه وذلته أمام الحلفاء .

ومن انعكاسات وإفرازات هذا النمط من التفكير في عصرنا الحاضر وبصورة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، فهذه مسألة العنصرية في بعض الأقطار الأوربية وأمريكا ، ما زالت تعتبر إحدى المشكلات الرئيسية التي لم تحل بعد ، إذ أنه في بعض الولايات لا يقبل البيض أبداً بالتعايش مع السود الذين يعيشون في الحرمان والضغط ، وعليهم أن يتحملوا هذا الحرمان وشظف العيش لا لشيء ، إلا للون بشرتهم ، في حين أن أي عاقل لا يمكنه ان يقبل ان يعيش الآخر في الحرمان والشقاء لأن لونه أسود .

نعم ان العنصر لا يؤثر في إنسانية أي إنسان . والتفوق العنصري ليس أكثر من خرافة . . . إن الإنسان بعلمه وعقله وفضيلته ، لا بلونه الفاتح أو رشاقته أو عضده القوي .

(١) يراجع (اليهوديين الدين والتاريخ للدكتور صابر عبد الرحمن طعيمة ص ٥٥٠ طبع مصر وما بعدها وكتاب (الصهيونية في فلسطين) لصبري جرجيس .

(٢) انظر الى التوراة سفر التثنية الفصل الثاني الاصحاح ٣٢ - ٣٤ .

ثالثا : الغريزة الجنسية :

هناك من العلماء والمفكرين «وخاصة علماء النفس»، الذين يتخذون منهجا خاصا في الحياة، يستندوا على عامل الغريزة الجنسية التي يعتبرونها السر والقوة الحقيقية الكامنة وراء مختلف النشاطات الإنسانية، وبالتالي يفسر حركة التاريخ والمجتمعات، ويحدد نظرات ورؤى الإنسان الى الحياة والإنسان والكون والإله والعلائق المتداخلة بينها، على أساس تلك القوى والأسرار الكامنة في أبعاد ومضمون القوة الغريزية الجنسية عند الإنسان .
فهذا المنهج التفكيري، يفسر ويبحث الظواهر، وأنماط السلوك البشري، على أساس الغريزة الجنسية، فيرى أن كل العقد والاحساسات بالنقص تشكل ردود فعل للكبت الجنسي، في الوقت الذي توجد مجموعة كبيرة أخرى من الغرائز والدوافع التي لها تأثيرات وأبعاد حقيقية في شخصية الانسان، والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال إهمالها وتركها فريسة لغريزة الجنس فقط .

رابعا : العامل الجغرافي :

من النظريات والمذاهب التي تركز على العامل الواحد، هي المذهب الجغرافي . الذي يعتبر العامل الجغرافي والطبيعي هو المحور والموتور المحرك لتأريخ الأمم والشعوب، فتاريخ وحياة وأفكار ومفاهيم وحقائق الشعوب تتباين باختلاف الظروف الجغرافية والطبيعية المحتوية على قوى ومحركات كبيرة في تغير التاريخ . فمن وجهة نظرهم ان العامل الجغرافي هو الذي يشق لهم طريق التكامل والنمو والارتقاء، أو طريق الاضمحلال والتراجع والتهور في الحياة، وهو الذي يفجر الطاقات في عقول الشعوب من الأفكار البناءة أو الهدامة . وإنطلاقا من هذا المنظور الجغرافي، تفسر الظواهر وتحللها، ثم تستقي منها المعارف والحقائق الموضوعية خارج

الذهن البشري .

فنحن نعتقد اعتقاداً جازماً ، بأن كل واحد من هذه المناهج أو المذاهب الفكرية في التاريخ ، لا يتفق مع الواقع ولا ينسجم مع طبيعة الحياة ومسيرتها الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية و... الخ .
والمطلع الى النهج الاسلامي ، يلاحظ بكل تأكيد ويقين ، أن الاسلام لا يقرب بأي واحد من هذه المناهج أو المذاهب ، ولا يعترف للإسلام بتفسير الحياة والتاريخ على أساس عامل واحد ، أو محور أحادي فقط .

المناهج الشمولية :

أولاً : منهج الجشتالتيين :

من النظريات والمذاهب الفكرية التي تتبنى فكرة النظرة الشمولية الى الحياة والانسان ، هي المنهج الجشتالتيين . وهو منهج ظهر في أوائل القرن العشرين . يعتقد بأن الفرد يدرك الموقف ككل أو كوحدة . فأنت اذا رأيت صورة جميلة ، أدركتها كوحدة ذات معنى وأعجبت بها ككل وليس كجزء ، مثل اللون وحده ثم الشكل والحجم الخ ، وبالتالي تجمعها وتكون صورة معينة^(١) .

وذكروا ان الكائن ليس من سهولة التركيب بحيث يعتبر مجموعاً لأجزاء تكونه ، لأننا لا نستطيع أن نجمع عدداً من الأفعال المنعكسة لتكون إنسان . فالكائن ما هو الا وحدة أو كل متكامل ، ولا قيمة للأجزاء في حد ذاتها ، الا في ضوء ما تؤديه من خدمات للكل ، وللكل مميزات وخصائص لا تتوفر في الأجزاء ، ولا نستطيع دراسة اجزاء خواص الكل من الجزء ، كما لا يمكننا دراسة خواص الماء من دراسة خواص الأوكسجين والهيدروجين اللذين يدخلان في تركيبه الماء .

ويركزون على ضرورة عدم فصل الكائن عن بيئته ، لأن سلوك

(١) د. رمزية الغريب - التعلم - مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٦١ .

الإنسان في أي موقف من مواقف حياته ، نتيجة لتفاعل الفرد مع ما يحيطه به من بيئة وظروف^(١).

ومن علماء ومفكري الغرب ، الذين نادوا بضرورة إتباع المنهج الشمولي ، في تحصيل الإدراكات والمعارف الانسانية هو «الكسيس كارل» صاحب «كتاب الانسان ذلك المجهول» . فيذكر في كتابه «الأنف ذكره» : انه لا مفر من فحص الانسان فحصا شاملا . . . فان فقر الخطط الكلاسيكية يُعزى الى الحقيقة - وذلك بالرغم من اتساع مدى أفق معرفتنا - التي مؤداها أننا لن نفهم أنفسنا لعدم بدلنا جهدا نافذا كافيا . ومن ثم يجب أن نفعل ما هو أكثر من مجرد النظر الى ناحية واحدة من نواحي الانسان ، في حقبة معينة من تاريخه ، وفي أحوال معينة من حياته . يجب أن نفهمه في جميع وجوه نشاطه . ما كان واضحا منها عادة ، أو ما قد يبقى في حيز الفكر . ومثل هذه المعلومات يمكن فقط الحصول عليها بالتأمل الدقيق في حاضر وماضي جميع اكتشافات قوانا العضوية والعقلية ببيئتنا . . . يجب ان نتبع نصيحة «ديكارت» الحكيمة في كتابه «حديث عن الوسيلة» تلك النصيحة التي وجهها الى الباحثين عن الحقيقة ، فنقسم موضوعنا الى اكبر عدد من الأقسام تدعو اليه الضرورة حتى نستطيع أن ننشئ جدولاً كاملاً مشتملاً على دقائق كل منها . . . لكن يجب أن يكون مفهوماً بجلاء ، ان مثل هذا التقسيم ، ما هو الا طريقة منطقية ملائمة نبتدعها نحن ، ومع ذلك فان الانسان سيظل غير قابل للرؤية^(٢).

المنهج الاسلامي

للإسلام منهج خاص ، متميز ومنفرد عن بقية المناهج الوضعية . له سمات وخصائص تتسم بالعمق والافق والبعد والشمولية ، بشكل يستوعب جميع أبعاد وعناصر الموضوع قيد الدراسة والبحث ، أو بشكل عام للحياة

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) الكسيس كاريل ، الانسان ذلك المجهول - مكتبة المعارف - ص ٥١ .

بكاملها بما تحويه من أمور مادية ومعنوية ، وماضي وحاضر ومستقبل . . . الخ .

وهو منهج منبثق من القرآن الكريم ، الذي يحث المسلمين على أهمية وضرورة الكسب العلمي الصحيح ، وتحصيل المعرفة اليقينية المتعمقة والشاملة فيلفت العقول ، ويوجه النفوس ، ويجتد الطاقات الى التعمق في الكائنات من أرضي وسماوي ، نباتي ومعدي ، حيواني وانساني الخ .

وهو منهج يأخذ بعين الاعتبار جميع العوامل والظروف المحيطة بالحياة ، من الأحوال الروحية والجسمية ، والفردية والاجتماعية ، والحاضرة والتاريخية ، والحيوانية والانسانية ، والمعدنية والنباتية ، والدينية والاخروية ، إضافة الى ذلك ، بأخذ بالاعتبار تركيبية ، وطبيعة النفس والفترة الانسانية ، بما تنطوي على غرائز وقوى الشد والانجذاب والانفلات والتقرب الى الله .

وهو منهج لا يركن الى البرهنة الذهنية المجردة من التجربة العينية والواقعية ، كما هو الحال في بعض المذاهب والمناهج الفلسفية ، التي إنتهجها بعض الفلاسفة القدماء ، وتبعهم بعض من فلاسفة الإسلام .

وهو منهج يتبع دراسة وتفسير وتحليل كل ظاهرة من الظواهر أو موضوع من الموضوعات ، وفقا لظروفها الموضوعية الوجودية ، ومدارها الطبيعي وكيانها الواقعي ، وفي حال الفعلية والوجودية والتطور ، وفي حين الترابط مع سائر الظواهر والمواضيع ، من دون أن ننظر اليهما نظرة تجريدية أو ذهنية ، يفصلها عن سائر الكائنات . ففي ذلك المنهج ، يدرس ويفسر الظواهر والموضوعات على أساس نوااميسها وسننها الطبيعية والتاريخية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية و . . . الخ . أي بصورة غير مجردة ومنعزلة عن ظروفها الوجودية العينية .

وبناء على ذلك ، يستند الاطار العام للمنهج التفكيري ، والاسلوب

التنظيري في المنظور الاسلامي ، الى فلسفة الالهية ربانية ، وعلمية موضوعية ، والى حقيقة دقيقة دامغة مفادها ، إن للحياة نظاما خاصا بها وإن الاحداث والظواهر الكونية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتاريخية و والسياسية التي تحدث في زمان ومكان معين ، هي معلولة لسلسلة من العلل والاسباب والمقدمات الخاصة بها ، وإن أية ظاهرة ، أو حادثة سواء كانت إجتماعية أو إقتصادية أو . . . الخ . هي غير منفردة ، ولا مستقلة أو منفصلة عن بقية الاحداث والظواهر الاخرى . ويتعبير فلسفي دقيق ، أجزاء الكون جميعا متصلة ومرتبطة ببعضها . وأن هذا الارتباط أو الاتصال ينطوي على جميع أطراف الكون ، بحيث يوجد إرتباطا عاما بين جوانب وجودها .

وخلاصة القول ، إن الحكمة الالهية متمثلة في مبدأ أصل إرتباط الأشياء ببعضها ، أي أصل وحدة الواقعية للكون ، ووحدة النظام الشامل له . وإنه نظام قطعي غير قابل للتحويل والتبديل ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾^(١) .

وبتعبير الفلاسفة « الكون غير قابل للتفكيك »^(٢) وبناء على هذه المقولة الفلسفية ، والحقيقة الجوهرية الدامغة في المنظور الاسلامي ، نستلهم ونستقي مفاهيم وأفكار ، ومشاعر وعواطف ، ومضامين وأطر منهجية فكرية ، تساعد المفكر أو المنظر الاسلامي على التفكير والتنظير لمواضيع الحياة بشكل عام .

ولكي نعطي مثالا وصورة واضحة ، نفترض إن أمام المفكر أو الباحث الإسلامي موضوعا إقتصاديا يريد أن ينظر له ، ويستنتج مفاهيم ونظريات إقتصادية . فعليه بتصورنا أن يتبع الخطوات والنهج التالي :^(٣)

(١) سورة فاطر - الآية ٤٣ .

(٢) الاستاذ الشهيد مرتضى المطهري ، « العدل الالهي » مطبعة الخيام ، قم ١٤٠١ هـ ، ص ١٣١ .

(٣) لمزيد من التفصيل والشرح انظر الى : د . جعفر عباس حاجي « المنهج الفكري وأثره في تفصيل وتحريف الناس عن الحق والحقيقة » سلسلة موانع المعرفة رقم (١) مطبوعات كويت تايمز ١٩٨٥ .

أولاً : ضرورة إستيعابه وفهمه للتشريعات والاحكام الاقتصادية المتعلقة بشتى مجالات الحياة الاقتصادية في الامة الاسلامية ، ومحاولة إيجاد روابط وقواعد ترتبط بتلك المجموعة المتسقة من الأحكام والتشريعات الاقتصادية التي تمثل وحدة الظاهرة أو وحدة الموضوع نسبياً ، مع الوحدات المتسقة الأخرى في المجال الاقتصادي ، وذلك بغية التوصل الى جذور وأسس عامة تربط جميع الاحكام والتشريعات في منظوم ونسق متسق ومنسجم مع جميع أجزائه وجوانبه ، كربط مفاهيم وتشريعات وأحكام متعلقة بالانتاج والاستهلاك والاستثمار والتصدير والدخل والضرائب و . . . الخ في شكل منظوم متسق مترابط اجزائه وعناصره .

ثانياً : معرفة الفلسفة السياسية للامة الاسلامية وإستيعاب معالمها ، وخصائصها ، ووظائفها العامة في حياة الأمة . أي معرفة تشكيله المؤسسات داخل الدولة ، ووظائفها والمسؤوليات المناطة لها ، والسلطات الممنوحة لها في المجتمع وإستيعاب مجال ملكياتها ونشاطاتها وحرياتها في التدخل في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع . ومعرفة حقوقها وواجباتها تجاه المجتمع والفرد ، وتحديد واجبات ومسؤوليات الفرد تجاه المجتمع والدولة .

ثالثاً : ربط الاسس والقواعد والمفاهيم العامة في الاقتصاد والسياسة ، بالبنية التحتية لهما . حيث إن المفاهيم والأسس الاقتصادية والسياسية في الإسلام ، تدوب وتنصهر في بوتقة إجتماعية شاملة تستوعب جميع جوانب الحياة .

وبتعبير آخر، يجب على المفكر أو المنظر الاسلامي، أن يستوعب النظرة الفلسفية والاجتماعية الشاملة للإسلام ، وأن يربط المفاهيم والقواعد والاحكام والتشريعات الاقتصادية والسياسية ، بجذورها وأصولها الاجتماعية ، حيث أن الاقتصاد والسياسة جزءان من الاجتماع ،

ومنبثقان عنه ، أو بتعبير آخر ، يجب إستيعاب والنظر الى الاحكام والتشريعات الاقتصادية في الإسلام بمنظورها السياسي ، وفقاً للمنظور الاجتماعي الذي يشمل جوانب سياسية وإجتماعية في طياته .

رابعاً : يجب ان لا ينظر إلى القواعد والافكار أو الاحكام والتشريعات الاقتصادية في الإسلام ، بمعزل عن حركة المجتمع والتاريخ . أي لا بد من معرفة فلسفة ونظرة الإسلام الى حركة التاريخ في مسيرتها التكاملية . حيث أن: للتاريخ ، وفقاً للمنظور الإسلام حركة تكاملية مثمرة ، تحكمها سنن وقوانين ، وأحكام وضوابط ثابتة بشكل عام ، ومتغيرة بشكل خاص ، وهي تستوعب شتى مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية و . . . الخ . وبالتالي هناك علاقة في المنظور الإسلامي ، بين الأحكام والتشريعات أو المفاهيم والقواعد الاقتصادية من جانب ، وسنن وقوانين وحركة التاريخ التكاملية من جانب آخر .

خامساً : ان اتجاهات حركة التاريخ في مسيرتها التكاملية الأرتقائية ، تتحكم فيها وتسيرها النظرة الفلسفية للحياة والكون والانسان والإله والعلائق الإرتباطية المتداخلة بينهم ، والتي بدورها تغذي روافد عديدة في حياة الانسان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وبتعبير آخر ، أن هناك علاقة وثيقة وعضوية واضحة بين الافكار والمبادئ والتشريعات الاقتصادية في الإسلام ، والنظرة الفلسفية لمكونات الكون وللعلائق بينهما . أي أن الافكار الفلسفية هي التي تؤطر وتفرض مضامين إجتماعية وإقتصادية وهي التي تشكل البنية التحتية الأساسية لحركة التاريخ ، وهي بدورها بنية تحتية أساسية لحركة المجتمع ونظامه السياسي ، وهي بدورها الأساس الرئيسي للاقتصاد في الإسلام . وبالتالي يجب على المفكر أو المنظر الإسلامي ، إستيعاب تلك النظرة الفلسفية للحياة والكون والانسان والمجتمع والعلائق الارتباطية

المتداخلة بينهم .

سادسا : ان الروافد الرئيسية التي تغذي النظرة الفلسفية للحياة والكون والاجتماع والانسان والإله ، والتي تشكل لونا ونوعا معيناً من العلائق الارتباطية المتداخلة بينهم ، تنبثق من العناصر الرئيسية التي تعتقد وتخضع لها الفطرة الانسانية السليمة دون حاجة الى براهين وأدلة ، اي العقيدة الاسلامية* المتكونة من مبادئ اساسية متمثلة في : التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والامامة ، والمعاد .

إذن البنية التحتية ، والركيزة الرئيسية الأساسية لنظرة الانسان الفلسفية الى الكون وحركة التاريخ في مسيرتها الارتقائية التكاملية ، ونظرته إلى المجتمع وماهيته ، والى النظام السياسي ، والى الافكار والتشريعات او الاحكام والقواعد الاقتصادية التي هي موضع مثالنا ، هي العقيدة الاسلامية المتمثلة بالتوحيد والعدل والنبوة ، والامامة ، والمعاد .

وتجدر الاشارة ، إلى أن هناك علاقة طردية واضحة ، مفادها أنه كلما كانت معالم ومضامين العقيدة الاسلامية ، واضحة وجلية في ذهن ومشاعر وسلوكيات المفكر أو المنظر ، كلما استطاع أن يستوعب الفلسفة الاقتصادية ، ويستكشف قواعدها وأسسها المذهبية بشكل أفضل وأقرب إلى الواقع الموضوعي لها والعكس صحيح أيضاً .

وخلاصة القول ، إن المنهج الإسلامي ، هو منهج أو مدخل تكاملي ، يستند إلى نموذج تصوري عضوي ينظر إلى المجتمع كوحدة متكاملة متماسكة ، يأخذ بالاعتبار جميع عناصره وأبعاده الحقيقية . وما دون ذلك ،

(*) للعقيدة بمفهومها اللغوي العام هي : ما عقد عليها القلب والضمير اما بالمفهوم العام عبارة عن : (حالة ثبوت القضية في ذهن الانسان ثباتاً تصديقياً جازماً) ، ومن ثم ينتزع من هذا الثبوت اسم لمن صدق في قضية معينة ، فيقال له (معتقد أو ذو عقيدة) . وبناءا على هذا المفهوم العام ، لا يوجد مفكر أو منظر إلا وهو مؤمن ومعتقد بفكره أو مبدأ معين ، حتى بالنسبة للشكاكين واللاداريين من الفلاسفة والمفكرين .

مناهج وطرق تفكير لا تصيب الحقيقة الموضوعية خارج الذهن البشري ، ولا تصل أي أعماقها وأبعادها الحقيقية كما هي في الواقع . وتجدر الإشارة إلى أن بعض المناهج الفكرية لا تقف فقط عند قشور حقيقة الأشياء ، بل أنها تضلل وتحرف الحقائق والأشياء الموضوعية بشكل لا يمت بأية صلة واقعية بها في الواقع الموضوعي خارج الذهن البشري .

وبالتالي يصبح المنهج الفكري ، أداة ووسيلة لمنع الإنسان من معرفة الحقائق والموضوعات التي تقع خارج الذهن البشري معرفة واقعية صحيحة كما هي .

ثانياً : الجهل :

التأمل حق التأمل في الآيات القرآنية الكريمة ، والمتمعن حق التمعن في الاحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة (ع) والحكماء والمفكرين من المسلمين وغيرهم ، والمستقريء لتاريخ وسيرة الناس في الحياة ، يرى بكل وضوح وجلاء ، ويقين وإطمئنان ، إن مرض الجهل من الأمراض التي تنخر أسس إنسانية الانسان ، وتهدم كيانه وهيكله ، وهو أول خطر يصطدم به الكمال الانساني ، وأول إنحطاط تقع فيه النفس البشرية ، وأول مجريء لها على إرتكاب الرذيلة ، بل هو أول خطيئة وآخر جريمة . وإنه مرض يفتك بالانسانية ، ويشل حركة عقله وشعوره ، ويحجر قلبه وعواطفه ، وإنه أضر ما يواجه الانسان في حياته ، وهو منبع ومنشأ لمعظم السلوكيات وأفكار الانسان المنحرفة والهدامة في حياته . فالانسان الجاهل فاقد لقيمة انسانيته وحقوقه وغاياته ، فهو يتخبط يمينا وشمالا ، صعودا ونزولا ، لا يستنير ولا يدرك طريقه المستقيم ولا مسيرته التكاملية ، فهو كالألة التي تدور نسمع جعجعتها ولا نرى دقيقا أو طحناً ، وهو لا يزيد على أن يكون كرة في أيدي الحوادث والعواث ، تلعب بها كيفما تشاء فهو يرتكب أخطاء خلقية تعود بالضرر على نفسه وعلى أمته ودينه وانسانيته .

وبناء على ذلك ، أنكر الإسلام الجهل والجهالة أشد الانكار ، وعدّهما مضادين للشخصية الانسانية المتكاملة ، وكافحهما أشد كفاح ، وطردهما أعنف طرد .

فالجهل غدة سرطانية خطيرة وفتاكة في حياة الانسان ، تفرز غيوما كثيفة تتلبد أمام عين الانسان ، فتحجب عنه الرؤية الصحيحة ، وتبني حواجز وجدران سميكة تحيط بقلب الانسان الجاهل فتحجّر قلبه ، وتعمي بصيرته ، وتشل حركة عقله وفكره مما يجعله يعيش في ظلام دامس محاط بجدران وحيطان سوداء سميكة ، تمنع وصول نور العلم والمعرفة إليه ، فيصبح أسير أفكاره الشاذة ، وأوهامه العائمة ، وطموحاته الحاملة ، والتي تتبين وتتضح على شكل سلوكيات منحرفة شاذة ، وحركات تحبّطية مبتذلة ، وأفكار ومفاهيم ساذجة مهزوزة ، ومشاعر وعواطف جامدة متحجرة ، وقرارات ومواقف بعيدة كل البعد عن الموقف الانساني الفطري المنسجم مع إنسانيته وغاياته التكاملية في الحياة من جانب ، ومع حقيقة وكنه الاشياء وصحتها في الواقع الموضوعي خارج الذهني البشري من جانب آخر .

وتجدر الاشارة هنا ، إلى حقيقة دامغة ، مفادها أن الغالبية العظمى من العوامل والاسباب التي تؤدي إلى انحراف الانسان وتمنعه عن رؤية حقائق الموضوعات والاشخاص ، ما هي الا افرازات وروافد يغذيها الجهل في حياة الانسان (١) .

تعريف الجهل البسيط

يوضع الجهل البسيط في مقام أو تحت باب التفريط ، ويعرّف على أساس إنه خلو النفس من العلم من دون إعتقاد بكونها عالمة . وهو في البداية غير مذموم ، لتوقف التعلم عليه . اذ ما لم تعتقد النفس

(١) لمزيد من التفصيل والشرح راجع د . جعفر عباس حاجي . الجهل البسيط والجهل المركب واثرها في تضليل وتحريف الحق والحقيقة ، من سلسلة موانع المعرفة - مطبعة كويت تايمز ١٩٨٥ .

جهلها بالمعارف لم تنهض لتحصيلها . أما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة^(١) .

والجهل هو نقيض العلم ، قال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء ﴾ يعني الجهل بما لهم ، ولم يرد هنا الجاهل الذي هو ضد العالم ، إنما أراد الجهل الذي هو ضد الخبرة . ويقال هو يجهل ذلك . أي لا يعرفه .

ويقول الجرجاني : « الجهل هو إعتقاد الشيء خلاف ما هو عليه » .

ولقد اعترضوا عليه بأن الجهل قد يكون بالمعدوم ، وهو ليس بشيء ، والجواب عنه انه شيء في الذهن .

ويطلق الجهل عند المتكلمين على معنيين ، أو بالاحرى للجهل صنفان رئيسيان ، الأول : هو الجهل البسيط ، وهو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما . فلا يكون ضده العلم ، بل مقابل له إقبال العدم والملكة ، ويقرب من السهو ، والغفلة ، والذهول . والجهل البسيط بعد العلم يسمى نسيانا .

وهناك من يرى أن وقوع الانسان تحت قيود الجهل البسيط ، لا يعني انه لا يدري عن نفسه ، ولا يدرك إنه ناقص العلم ويحتاج الى من يهديه ويأخذ بيده من الظلمات الى النور .

أما الصنف الثاني : « هو الجهل المركب ، وهو إعتقاد جازم غير مطابق للواقع . وسمى مركبا ، لأنه يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه ، فهذا جهل أول ، ويعتقد بصحة ومصداقية ما هو عليه ، وهذا جهل آخر قد تركبا معا وهو ضد العلم^(٢) .

(١) الشيخ محمد مهدي النراقي ، جامع السعادات ، منشورات جامعة النجف الدينية ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ، الجزء الأول ، ص ١٣٦ .

(٢) التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، الجزء الأول ، ص ٢٧٨ . ٢٧٩ ..

فالإنسان الذي يتصف بالجهل المركب ، ويضع نفسه في مقام وصف العارفين ، الذين عرفوا الحق عن بينة ، فهو يتمسك بما هو عليه من باطل ، متوهما إنه الحق الصريح ، وهذا الصنف يعسر عليك أن تعرفه الحق أو تزحزحه عن الباطل .

وقال الإمام علي (ع) بما مضمونه :

رجل يعلم ويعلم أنه يعلم فهذا عالم فأسألوه واتبعوه .

ورجل يعلم ولا يعلم أنه يعلم فهذا نائم أو ناس فايقظوه وذكروه .

ورجل لا يعلم ويعلم أنه لا يعلم فهذا مسترشد أو جاهل فارشده وعلموه .

ورجل لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم فهذا ضال أو أحمق فأرفضوه وأجنبوه .

ومن المؤسف والمصيبة الكبرى ان الغالبية العظمى والاكثية الكاثرة من الجاهلين يندرجون تحت الصنف الرابع . وهم الذين قال الله عز وجل عنهم : ﴿ واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ (١) .

وقال عز وجل عنهم في موضع آخر : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (٢) .

(١) سورة البقرة - الآية ١١ - ١٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٤ .

وبناء على هذا التقسيم ، تناولنا موضوع الجهل في كتابنا السابق ذكره على مرحلتين . استعرضنا في المرحلة الأولى الجهل البسيط فيينا معالمة ، وصفات الجاهلين وآثاره ، وأخيراً استعرضنا بعض الخطوات الاجمالية الكلية لعلاج هذا الداء السرطاني الخطير في حياة الانسان . ومن ثم انتقلنا الى المرحلة الثانية ، والتي استعرضنا فيها موضوع الجهل المركب ، وذلك بقدر ما يتسع لنا المقام ، ويتطلب منا طبيعة البحث .

بينما في هذا الكتاب ، سوف نقتصر فقط بعرض أهم سمات وخصائص الجهل والجاهلين ، والتفصيل متروك للقارئ ان يرجع الى كتابنا* .

سمات وخصائص الجهل :

يقول الإمام الصادق (ع) : « الجهل صورة رُكبت في بني آدم اقبالها ظلمة ، ادبارها نور ، والعبد متقلب معها كتقلب الظل مع الشمس . الا ترى الى الإنسان تارة تجده جاهلاً بخصال نفسه ، حامداً لها ، عارفاً بعييها ، في غيره ساخطاً . وتارة تجده عالماً بطباعه ، ساخطاً لها ، حامداً لها من غيره . فهو متقلب بين العصمة والخذلان . فإن قابلته العصمة أصاب وان قابله الخذلان اخطأ . ومفتاح الجهل الرضا والاعتقاد به ومفتاح العلم الاستبدال مع اصابه موافقة التوفيق . . . »^(١) .

وهذه بعض الاحاديث والاقوال المأثورة التي تلقي الضوء على حقيقة الجهل وآثاره السلبية في عملية البحث عن المعرفة اليقينية الحقيقية الصادقة .
يقول الإمام علي (ع) :

« لو أن العباد حين جهلوا وقفوا لم يكفروا ولم يضلوا »^(٢) .

* د . جعفر عباس حاجي « الجهل البسيط والجهل المركب واثريهما في تحريف وتضليل الناس عن الحق والحقيقة » مطبعة كويت تايمز ١٩٨٥م الكويت .

(١) بحار الانوار ج ١ / ص ٩٣ .

(١) غرر الحكم .

« لا ترى الجاهل الا مفرطاً او مفرطاً »^(١) .

أما الآيات التي تتناول موضوع الجهل المركب هي ما يلي :

﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾^(٢) .

﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون إنهم مهتدون ﴾^(٣) .

ثالثاً : اتباع الهوى والذنوب والانحراف الفكري والسلوكي لدى الإنسان .

المعرفة اليقينية الصادقة هي النور الكاشف الذي يميز الحقيقة عن الأوهام ، والعدل عن الظلم ، والخطأ عن الصحيح ، وهي نور لا يتأثر بالواقع المادي وتطوراته ومما لا شك فيه أن أحكام العقل يقينية صادقة جازمة ، وشاملة ثابتة واحدة عند العقلاء والحكماء . ويمكننا تمثيل المعرفة العقلية اليقينية الصادقة بمثابة الجانب المشرق ، وجانب القوة في النفس ، أي جانب الكشف والاستجلاء ، وليس جانب الضعف والظلام ، الذي يتلخص في التأثير والتطور والإستسلام والتبعية لمقتضيات الظروف والأهواء البشرية . أي جانب الضعف والسلبية وإتباع الهوى والشهوات أو الرغبات والملذات الشيطانية الآنية .

فاتباع الهوى : يعني إتباع وسيطرة تلك القوى الشريرة التي تدفع

(١) نهج البلاغة / ١١١٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ١١ - ١٣ .

(٣) سورة الاعراف الآية ٣٠ .

الإنسان إلى الشر ، وتحمله عليه ، وبقدر ما يكون الإنسان ذليلاً وتبعياً لهواه ، ورغباته وشهواته المتأججة والمنحرفة ، بقدر ما يكون بعيداً عن المعرفة الحقيقية وكنه الواقع الموضوعي الذي ينشده الإنسان في تحقيقه خلال بحثه واستقرائه للواقع وما يحيط به من أسرار وحقائق .

وقوة الهوى ، قوة كبيرة جارفة ، تشبه إلى حد كبير ، قوة الكهرباء الحادة ، والأبخرة المتفاعلة ، والظوفان العنيف . فإذا لم تضبط كل هذه القوى بصمامات أمان ، إختلَّ ميزان ومقياس المعرفة الذي بدوره يؤدي الى عدم اصابة الواقع الموضوعي بالشكل الواقعي الحقيقي .

بعد هذه المقدمة المختصرة ، نبدأ بتوضيح بعض الأمور والقضايا المتعلقة بالهوى وأثره في إنحراف الإنسان فكرياً وعقلياً أو شعورياً وسلوكياً .

ولو تمعنا حق التمعن ، وفتشنا بشكل دقيق عن جذور الغرائز لاهتدينا إلى انها منبثقة ونابعة من جذر واحد هو «حب الذات» المتجسد في الإنشداد للمادة أو الجنس أو المنصب أو ، ، ، الخ .

دعونا نلقي نظرة عابرة وسريعة على بعض النصوص الإسلامية الواردة في القرآن والأحاديث النبوية الشريفة ، والتي تكشف لنا عن ماهية الهوى وأثره وخطورته على حياة الإنسان المادية والروحية أو العقلية والجسدية أو الشعورية والنفسية .

يقول الله عز وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾^(١) .

(١) سورة الجاثية - الآية ٢٣ .

يقول الإمام علي (ع) :

إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع ، وأحكام تبتدع ، يخالف فيها كتاب الله ، ويتولى عليها رجال رجالا ، على غير دين الله^(١) .

وقال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله ﴾^(٢) .

ويتولد من إتباع الهوى مرض خطير فتاك ، يهدم كيان وحياة الإنسان والمجتمع معا ، إلا وهو الإعراض عن الحق . فصاحب الهوى لا يستسلم للحق عندما يعرض عليه ، بل يرفضه ويزين له الحق باطلا ، والباطل حقا .

﴿ وأما إتباع الهوى فيصد عن الحق ﴾^(٣) .

واتباع الهوى يؤدي الى الإبتعاد عن الدين وأحكامه ، ويؤثر بشكل كبير على حياة الأجيال القادمة ، بحيث قد يتصفون بصفة إتباع الهوى ، يفضلون الطريق ويتعدون عن الدين وأحكامه :

فاتباع الهوى يؤدي بالإنسان إلى مرحلة شعورية وعقلية حيثما يتبع هواه ، بحيث يفقد فيها القرائن والحجج ، والأدلة العقلية والفطرية ، مما يضلّه عن الطريق المستقيم ، ومعرفة الحق واليقين ، ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾^(٤) . ويصل إلى حد لا ينفع العلم ولا الدين أو المنطق الصحيح معه . حيث أنه في حالة عقلية وشعورية يرى الباطل حقا ، والكذب صدقا ، والضلالة العمياء هداية ورشدا ونورا . وربما دافع عن كل هذه الرذائل والكدورات النفسية بعقيدة ثابتة جازمة في نظره وعقله .

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٥٠ .

(٢) سورة القصص - الآية ٥٠ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٤٢ .

(٤) سورة ص - الآية ٢٦ .

فالذين يتبعون أهواءهم ، هم في واقع الحال في وضع يرون الواحد اثنين ، حيث لهم بصيرة حولاء لا تبصر الأشياء على حقيقتها ، فلا يميز الخبيث من الطيب ، ولا الحرام من الحلال ، ولا الضار من النافع ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وابتغوا أهواءهم ﴾ ، أولئك ختم الله على سمعهم وقلوبهم ، وجعل على بصرهم غشاوة ، لا يرون الحقيقة .

ويقول الإمام علي (ع) في نهج البلاغة :

«عدو العقل الهوى ، وكم من عقل أسير عند هوى أمير ، ، ، ، والهوى شريك العمي» .

رابعاً : الهوى وأثره على العقل الإنساني :

خلق الإنسان لكي يكون حراً مؤمناً مفكراً ، لا يعبد شهواته بإسم الحرية ، ولا يقلد البهائم والحيوانات بإسم نزع التقليد . فإذا ما سيطر الهوى على نفس وعقل الإنسان ، سد مجاري تفكيره بالآتربة والطبقات الكثيفة من الضباب ، فتعمى البصيرة والبصر ، ويموت الإحساس ، وتُصم الآذان ، وتبكم الألسن ، وتشل حركة العقل والتفكر ، وتغير الموازين والمقاييس المنطقية والعقلية عند الإنسان ، حتى يصبح كآلة الكهربية التي تدور حول محور واحد تسمع صوتها وجعجعتها ولكن لا ترى طحنا أو دقيقا ، والانسان الذي يسيطر على عقله وشعوره هوى النفس يتعذر عليه أن يملك عقله وشعوره ، ولا يدرك ولا يتذكر ولا يتخيل ولا يعتقد ما يعتقد عامة الناس ، بل تدور أفكاره ، وتحوم مشاعره واهتماماته حول قطب ومحور واحد ، يتمثل في إتباع هواه ، وما يجب لنفسه ولذاته .

ومن النتائج السلبية السيئة المترتبة على إتباع الهوى ، هي عدم التقيد

بمبدأ التناقض^(١). مثال إن كثيرا من المتعلمين يؤمنون بالأساطير، وهم وإن تقيدوا في كل شيء بأحكام العقل ، إلا أنهم عند نظرهم في المسائل الموافقة لأهوائهم يستسلمون للأوهام، ويقعون في التناقض، كخوف بعضهم من الظلام وإعتقاده في الوقت نفسه أنه لا وجود للجن ، وما الجحود والكفران بالله ورسله بعد كل هذه الأدلة العقلية والنفسية والفطرية والتجريبية ، إلا إنعكاسات للتناقضات التي نشأت من إتباع الهوى في عقل ونفس الإنسان .

الذنوب وآثارها في تضليل وإنحراف الناس عن جادة الحق والصواب

المتأمل حق التأمل ، في مسيرة التاريخ البشري منذ القدم ، يستشف بكل وضوح وجلاء، أن الغالبية العظمى ، والأكثرية الكاثرة من المآسي والدمار والهلاك والانحراف والضلال الذي أصاب البشرية - فردا أو مجتمعات، ناشئة من الإنزلاق في المحارم ، التلوث بالذنوب والمعصية ، وعشعشة الأهواء والرغبات الشيطانية المنحطة في عقلها وشعورها واحساسها.

يقول عز وجل :

﴿ كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ﴾^(٢).

﴿ أهلكتناهم انهم كانوا مجرمين ﴾^(٣).

﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾^(٤).

(١) د، جميل صليبا ، علم النفس، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢ م ص ٣٠١ - ٣٠٤ .

(٢) سورة الأنفال - الآية ٥٤ .

(٣) سورة الدخان - الآية ٣٧ .

(٤) سورة الأنفال - الآية ٥٤ .

الآثار النفسية والعقلية والسلوكية للذنوب :

يستفاد من الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة (ع) ، إن لكل باب من أبواب المعرفة مفتاحاً وقفلاً خاصاً به ، ولكل ذنب من الذنوب والكدورات النفسية آثاراً واضحة مباشرة ، وآثار خفية غير مباشرة .

يقول عز وجل : ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾^(١) أحدهما يعتبر قفلاً داخلياً ، والآخر قفلاً خارجياً يسد أبواب المعرفة اليقينية والحق والهداية والنور والطريق المستقيم .

فلكل ذنب قفل يقفل باب من أبواب المعرفة ، فهناك قفل التكبر ، وقفل الحقد والانانية والحسد والغرور وطول الأمل والفسق ، والكذب ، والنفاق ، والجحود ، والظلم ، ، الخ . أي أن لكل ذنب آثاراً خاصة تضر النفس والعقل والبدن ، كما تصيب الأمراض جسد الانسان . فالحسد مثلاً يفعل في بدن الحسود وروحه ما يفعله السرطان في الجسم . والتكبر يولد في الإنسان بعض الإختلالات الروحية التي قد تؤدي إلى الجنون . وهكذا بالنسبة لبقية الذنوب . وتؤكد لنا صحة ومصداقية هذه المقولة بشكل واضح وجلي تلك الكلمات العظام التي لقنها الامام علي (ع) لكميل بن زياد ، والمعروفة بدعاء كميل ، حيث يقول الإمام (ع) :

« اللهم أغفر لي الذنوب التي تهتك العصم » وهي : (شرب الخمر ولعب الميسر والقمار) .

« اللهم أغفر لي الذنوب التي تنزل النقم » وهي : (الظلم ، ومجاهرة الله سبحانه بالمعاصي) .

(١) سورة الأنعام - الآية ١٢٠ .

« اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم » وهي : (البغي ، وشهادة الزور وكتمان الشهادة ، وجور الحكام) .

« اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء » (وهي سوء النية وخبث السريرة والنفاق مع الاخوان وترك التصديق بالاجابة ، وتأخير الصلوات المفروضة ، وإستعمال البذاء ، والفحش في القول ، وعقوق الوالدين) .

« اللهم اغفر لي الذنوب التي تقطع الرجاء » (فهناك ذنوب لها آثار سلبية سيئة، تؤدي الى زوال النعم ، يقول الرسول الأكرم (ص):
« ما أنعم الله على عبد نعمة قطّ فسلبها إياه حتى يذنب ذنباً يستحق بذلك السلب » .

وخلاصة القول أن للذنوب آثاراً سلبية ، ولها أقفالاً متعددة تقفل وتسد أبواب المعرفة الإنسانية أو تشوهها بشكل تحجب عن الإنسان رؤية الحقائق الموضوعية خارج الذهن البشري .

خامساً : الغفلة والنسيان عن الله :

من المؤكد أن حالة الغفلة والنسيان ، يسببان في إيجاد موانع عظيمة ، ويفرزان الغمام والضباب أمام بصر الإنسان ، فيحجمانه عن رؤية الحقائق ، ويوجدان حواجز كثيفة وجدران غليظة، تقف حجر عثرة أمام معرفة حقائق الأشياء والموضوعات والأشخاص، بل أن آثارها السلبية تتجاوز هذا الحد ، بحيث يصل الأمر في بعض الأحيان إلى رؤية الحقائق، وسماع الأقوال والكلمات ، وإدراك وإستيعاب المعارف بشكل مقلوب ومعكوس تماماً . حيث يرى الباطل حقاً والحق باطلاً ، والصدق كذباً ، والكذب صدقاً ، وذلك نتيجة تفسير ذهنه ، وترجمة شعوره للأفكار والموضوعات المطروحة أمامه بشكل خاطيء ، لا يمت بالواقع الموضوعي بأية صلة وإرتباط ، في حين أنه فقط يعكس واقعه وشعوره الذاتي ، وكل ذلك بسبب حالة النسيان أو الغفلة ، التي تستوجب نقص وحذف أجزاء كبيرة

من المعلومات ، والحقائق ، والأحداث المرتبطة بالموضوع ، مما يترتب على ذلك تشويه الصورة الواقعية الصادقة للحالات ، وبالتالي قولبة المعلومات والحقائق المتبقية في قالب آخر يبعد عن القالب والصورة الحقيقية التي حدثت في الواقع الموضوعي خارج ذهن الإنسان .

فعلى سبيل المثال ، نلاحظ تكراراً أشخاصاً وأصدقاء يستمعون الى قول خطيب أو صديق لهم حول موضوع من موضوعات الحياة ، فيتقبلونه دون تردد أو التباس أو تشويه . ولكن سرعان ما تتغير الصورة حينها يحاولون بعد فترة زمنية متباعدة عن الحادثة ، إسترجاع وإستذكار المعلومات والحقائق والصور التي نقلها الخطيب أو الصديق ، فترسخ صور ومفاهيم مشوهة ومنحرفة حين إسترجاعها ، بسبب حذف بعض الحقائق والصور الأصلية من جانب ، وامتزاجها وقولبتها في القالب النفسي الذي تحيط به ظروف وعوامل داخلية وخارجية تختلف عن الحالة الأولى بسبب النسيان والغفلة عند الانسان .

يقول عز وجل :

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾^(١) .

فهنا يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان يوم القيامة ، يوم انكشاف الغطاء والأسرار ، إنك كنت في حالة غفلة ونسيان من النبأ العظيم ، ومن الساعة ويوم الحساب ، كنت في غفلة عن كلماتي وسنني وتشريعاتي وأحكامي في الدنيا ، بالرغم من وضوحها وجلاءها كوضوح الشمس في منتصف النهار ، ولكن بسبب عوامل داخلية وخارجية ، وبسبب انشداد النفس الانسانية الى الأمور المادية والتشبث بها في الدنيا ، والركوع والخنوع

(١) سورة ق الآية ٢٢ .

للأهواء الشخصية والغرائز الحيوانية المنحطة دون مراعاة الأفراس والتفريط، ودون التفات الانسان الى الجانب الروحي الإلهي ، تكوّنت حواجز وجدران غليظة حول قلب الإنسان ، حجزت عن بصره الحقائق والمعارف ، وتوجد ضباباً وبخاراً كثيفاً أمام بصر ونظر الإنسان فيعمى بصره عن رؤية الحقائق ، فاصبح في غفلة عن ذكر الله وعن سننه وتشريعاته .

وحينما يُسدل الستار ، وينكشف الغطاء، أي حينما تنكسر وتفتت صخور الحواجز والجدران حول قلب الانسان ، ويتبخر الضباب الكثيف أمام بصره ، فيزيل الغمام ، وتنفتق الغشاوة ، فيرى الحقائق والمعارف اليقينية الصادقة بالتمام والكمال ، فيصعق صعقة يهتز بدنه وما حوله من هول وفضاحة الموقف امام تلك الحقائق والمعارف الصحيحة .

تعريف الغفلة او النسيان :

تُعرف الغفلة على أساس إنها : فتور النفس عن الإلتفات والتوجه الى ما فيه غرضها ومطلبها، أما عاجلاً أو آجلاً . وضدها النية ، وترادفها : القصد والإرادة التي تعتبر إنبعث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها ومطلبها حالاً أو مالا^(١) .

ويعرف النسيان ايضاً على أساس زوال صورة العلم عن خزانة الذهن^(٢) وهنا يكون مقابل الذكر ، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ واذكر ربك اذا نسيت ﴾ .

وتعتبر الغفلة أو النسيان من الرذائل والصفات المذمومة ، ومن نقصان

(١) محمد مهدي التراقي - جامع السعادات - منشورات دار النعمان - النجف الأشرف - الطبعة الرابعة ١٣٨٧ هـ - ١٩١٧ م الجزء الثالث - ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) العلامة محمد حسين الطباطبائي - الميزان في تفسير القرآن ، المجلد الأول ، ص ١٥٢ .

النفس المتكاملة، بينما تعتبر النية والارادة والتوجه من الصفات الممدوحة،
ومن تكامل النفس الانسانية المتكاملة .

صفات وخصائص الغافلين عن ذكر الله
السطحية في التفكير:

الغافلون عن ذكر الله في الدنيا هم أناس يتصفون بضحالة في
التفكير، والتمسك بقشور الحياة ومعارفها، وهم عن لب الحقائق
وجوهرها معرضون، حيث تنصب جهودهم وتفكيرهم حول الماديات
والسطحيات من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة والحقائق اليقينية لها
معرضون وغافلون .

يقول تعالى:

﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾^(١)

الغافلون يكذبون ويحرفون الحقائق:

من السمات والخصائص الخسيسة والمنحطة عند الغافلين، هي
تحريف الحقائق، وتزييف الكلام، وتشويه الأحداث والأقوال بما ينسجم
مع اهوائهم ورغباتهم الشخصية، فهم يرون أنفسهم دائما على حق
وصدق، والآخرين على باطل وضلال.

يقول تعالى:

﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ﴾^(٢).

ولمزيد من التفصيل حول العفلة واثرها على انحراف وتضليل الفكر

(١) سورة الروم الآية ٧ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٣ .

البشري . . انظر الى كتابنا حول موانع المعرفة* .

خامساً : الغضب والتشنج :

« إياك والغضب فأوله جنون وآخره ندم »^(١) .

حينما تقرأ أدبيات الشعر الجاهلي أو المعاصر ، نرى أن الأدباء والشعراء كثيراً ما شبهوا ومثلوا حالات الانسان بالطبيعة وما فيها ، فمثلوا حالات الغضب بفصول السنة ، حيث شبهوا حالة الحزن والقلق والغم التي يمر بها الإنسان في حياته كحالة أو فصل الخريف الذي يمر على الطبيعة فتتجرد الأشجار من أوراقها وتتساقط حتى تبقى عارية مكشوفة تماماً من الأوراق . وشبهوا حالة العطاء المثمر والكرم والمرح والسعادة ، بالربيع وأمثال ذلك .

ومنهم من شبه الغضب بالرياح والعواصف المحطمة ، أو الرعد القاصف ، أو البرق الخاطف ، أو البركان المتفجرهما . . . الخ .

كلنا نغضب ، وكلنا نعرف أثر الغضب في حياتنا ، وكيف أنه يدمر الحياة ويعدمها من الوجود ، ولكن هناك الكثير والعديد من الموضوعات ، والمعارف المتعلقة بحالة الغضب والتشنج ، غائبة عن إذهان الغالبية العظمى من الناس ، فدعونا نكشف الغطاء عن هذه الجرثومة الفتاكة ، ابتداءً بتعريف الغضب ومروراً بالآثار السلبية الناتجة منها .

تعريف الغضب :

الغضب كما يعرفه علماء النفس والاخلاق عبارة عن إنفعال نفسي

* د . جعفر عباس حاجي « الغفلة والنسيان واثروهما في تحريف الحقائق عند الناس » مطبعة كويت تايمز - الكويت ١٩٨٥ م .

(١) التراقي جامع السعادات ، الجزء الأول ص ٣٢١ .

موجبا لحركة الروح من الداخل الى الخارج للغلبة .

وهناك من يعرف الغضب على أساس الضد ، أي الحلم ، فيعرفه بأنه ضد الحلم . الذي عبارة عن طمأنينة النفس بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ، ولا يزعجه المكروه بسرعة ، فهو الضد الحقيقي للغضب ، لأنه المانع من حدوثه بعد هيجانه^(١) .

وقال بعض الحكماء وعلماء والأخلاق عن الغضب : أنه شعلة نار اقتبست من نار ، إلا إنها لا تطلع إلا على الأفئدة ، وأنها لمستكنة في طي الفؤاد إستكان الجمر تحت الرماد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين ، وحمية الجاهلية الكبر الدفين من قلوب الجارين ، التي لها عرق الى الشيطان الرجيم اللعين الذي قال :

﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾^(٢) .

وعرف علماء النفس الغضب على أساس أنه إنفعال نفساني مقارن لغريزة الكفاح والمقاتلة ، وهو المظهر الإيجابي لغريزة الدفاع عن النفس ، او غريزة حفظ البقاء ، وله درجات مختلفة ، ويعتبر عاملا مهما وأساسيا لإستعداد الانسان في الحركة والصراع والنهوض .

وهذه بعض الأحاديث الشريفة التي تكشف لنا حقيقة الغضب وآثاره على الفرد والمجتمع .

«إياك والغضب فأوله جنون وآخره ندم» .

وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : -

« الغضب مفتاح كل شر » .

وقيل :

(١) التراقي - جامع السعادات ، الجزء الأول ، ص ٢٩٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٢ .

« رأس الحمق الحده ، وقائدة الغضب » .

« اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الخلّ العسل » .

« يا بني لا يثبت العقل عند الغضب ، كما لا تثبت روح الحي في

التنانير المسجورة ، فأقل الناس غضبا أعقلهم » .

« الغضب عدو العقل ، والغضب غول العقل .

« من لم يملك غضبه لم يملك عقله » .

الغضوب إذا غضب فقد عقله وشعوره ودينه ، ويرى بعين تشوبها الشكوك والظنون والحقد والاحتقار ، ويرى الباطل حقا ، والحق باطل ، والاسود أبيضاً والابيض أسوداً .

فالغضوب إذا هاج به الغضب لطم خده ، ومزق ثوبه ، وضرب أولاده وطلق زوجته ، وسب أهله ، وحطم ما في يده وجنبه ، وربما طعن نفسه أو قتل الآخرين .

وقال النبي سليمان (ع) :

« يا بني إياك وكثرة الغضب ، فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحلیم » .

وعن ذي القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة ، فقال علمني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً قال :

« لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم وسكنة بالتؤدة ، وإياك العجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك . . . الخ » .

يقول الإمام علي (ع) :

« اعدى عدو المرء غضبه وشهوته فمن ملكهما علت درجته وبلغ غايته » .

ويقول (ع) : « ضبط النفس عند حادث الغضب يؤمن مواقع العطب » .

وقال أبلّيس ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث :

إذا سكر احدهم ، أخذنا بخزائمه فقدناه حيث شئنا وعمل بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، ونبخله بما في يديه وثننيه بما لا يقدر عليه .

فالغضب او سريع الغضب يفعل بقوة اذا صدمته أو واجهته الحوادث . فنلاحظ في مزاجه كل أعراض الانفعالية وعواقبها ، من عدم إستقرار وتقلب الأحوال ، وسرعة الاندفاع ، ويصل به إلى وضع التهور والاندفاع نحو تحقيق مأربه وأهدافه الشيطانية بدون تدبر وتعقل وشعور .

فحالة الغضب والتشنج عند الانسان توجد حالة نفسية مضطربة تجعل الانسان يتعد عن التفكير والمنطق السليم ، مما يفقد المقاييس والموازن الشرعية والعقلية عند البحث والدراسة عن الحقائق والموضوعات خارج ذهنه .

ولزيد من التفصيل والشرح راجع كتابنا حول هذا الموضوع* .

سابعاً : الترف الفكري وأثره على رؤية الحقائق الموضوعية :

من الأطروحات الإنسانية والاجتماعية المتكاملة التي يطرحها الاسلام ، هي وحدة حياة الانسان ، واتساق وإنسجام أجزائها وأعضائها بأهدافها وغاياتها سواء بعلاقة الانسان بنفسه أو مع أخيه الانسان من جانب ، أو مع

* د . جعفر عباس حاجي « الغضب والتشنج واثروهما في تحريف الحق والحقيقة » مطبعة كويت تايمز - الكويت ١٩٨٥ م .

الكون والحياة والوجود أو مع الله تعالى من جانب آخر .

فكما أن للإنسان وحدة جسمية وجسدية متسقة ومتكاملة من المنظور البيولوجي ، حيث أن جسم الانسان يلزمه جميع أنواع الفيتامينات والبروتونات والكاربوهيدرات . . . الخ ، وبنسب وتناسب موزون ودقيق ، حتى يستطيع هذا الجسم أن يقوم بواجباته ووظائفه المتعددة بشكل سليم ومتكامل بحيث أن أي اختلاف سواء في الزيادة أو النقصان في الأنواع المتباينة من الغذاء ، يكون سببا رئيسيا لظهور أختلالات وأمراض وأضطرابات بيولوجية ، تؤثر في ميكانزم أجهزة وأعضاء جسم الانسان .

فإن نفس وعقل الانسان أيضاً وحدة متكاملة متسقة مع نفسها ومع بقية أعضاء جسمه فكما أن الجسم السليم يحتاج إلى جميع الأنواع المختلفة من الغذاء ، كذلك عقل الانسان السليم يحتاج إلى جميع أنواع المعرفة والعلوم بنسب وتناسب دقيق ومتسق فظهور أي إختلال في عملية التغذية الفكرية والروحية للانسان ، يؤدي إلى بروز عوارض وأمراض وأضطرابات واختلالات عقلية ونفسية ، تمنع الانسان من إستخدام عقله وأدواته في تشخيص الموضوعات أو الأشخاص بشكل واقعي صحيح ، مما تمنع الرؤية الدقيقة والصائبة للأمور والاشياء التي يريد الانسان أن يصدر أحكاما وقرارات تجاهها في الحياة .

وكما أن هناك مواد غذائية غير مناسبة لجسم الانسان ، كالمواد السامة والاعذية الفاسدة التي تقضي على حياة الانسان وتشل حركته وعمله ، كذلك هناك أفكار ومعارف وعلوم سامة وفاسدة ، تفسد وتخل بعملية التفكير السليم عند الانسان ، وتشل حركة العقل في الاستنباط والاستقراء ، وتحجّر النفس والشعور الانساني .

ونعتقد أن السموم الفكرية أو التغذية الفكرية والنفسية السامة والفاسدة ، لها آثار وخطورة كبيرة في حياة الانسان ومعالمها وذلك بشكل مباشر أو غير مباشر . ويستطيع الانسان الواعي والمدرك تشخيص الأضرار والمفاسد

الناجمة منها بشكل واضح ودقيق في أغلب الأحيان ، وخاصة عند المثقفين والعلماء الواعين بشكل أدق وأعمق .

ويذكر المحقق العظيم والحكيم المتأله محمد بن المرتضى الكاشاني في كتاب المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء ، تقسيمات خاصة للقدير المحمود من العلوم ، والقدر المذموم فيها ، فيقول :

« اعلم أن العلم على ثلاثة أقسام : قسم هو مذموم قليله وكثيره وقسم وهو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل ، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه »^(١) .

فالقسم الأول والذي هو مذموم منه قليله وكثيره هو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا إذ فيه ضرر يغلب نفعه ، كعلم السحر والطلسمات والنجوم ، فبعضه لا فائدة فيه أصلاً . ومنه ما فيه ضرر يربي على ما يظن أنه يحصل به من قضاء الوتر في الدنيا ، فإن ذلك لا يعتد به بالاضافة الى الضرر الحاصل منه .

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله سبحانه وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته ، وهو علم مطلوب لذاته وللتوصل به الى سعادة الآخرة والدنيا .

ولكن الأمر الخطير الذي يخفي على عقول ومشاعر الغالبية العظمى من الناس بجميع فئاتهم ، ابتداءً من الجاهل والبسيط والمثقف والمؤمن الى العالم والمفكر ، هو الاختلال في نوعية وكمية المعارف والعلوم التي يسعى الانسان إلى تحصيلها في الحياة ، فتماماً مثل الإنسان الذي يستطيع تشخيص الأغذية الفاسدة وتجنبها بسهولة ويسر ، ولكنه في أغلب الأحيان لا يستطيع الاحتفاظ بتوازن في النظام الغذائي الدقيق في حياته ، حيث أنه قد يخطيء

(١) المحقق محمد بن المرتضى الكاشاني - المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، الجزء الأول ، ص ٩٥ .

ويهمل في تناول كمية من الدهون والاملاح والسكريات بحيث تضر جسمه ، وتخلق فيه نوعا من الاضطرابات والامراض والاختلالات الجسدية التي تفسد حياته وتشله حركته ووظائفه .

فالانسان الذي ليس لديه نظام متكامل ومتسق من الغذاء الفكري والروحي ، فإنه يعاني دائما من اضطرابات وإختلالات فكرية ونفسية قد لا يشعر بها . وبإعتقادنا أن أي إختلاف في نوعية وكمية المعارف والعلوم الانسانية التي يسعى الانسان في نيلها ، من أجل القيام بعملية فكرية إستنباطية واستقرائية ، بلا شك يؤدي الى ظهور حواجز سميكة ، وصور ضبابية كثيفة أمام بصر وقلب الانسان ، بحيث تمنعه وتحجب عنه رؤية الصور الواقعية والحقائق الدامغة ، أو تشخيص الواقع وعلاجه بالصورة السلمية .

فكما أن الطبيب الناجح والباهر حينما يعالج عضواً من أعضاء الجسم الانساني المريض ، ينظر إلى أجزاء الجسم بالمنظار الشمولي الكلي ، أي بجميع أجزاء الجسم ووظائفها وخصائصها الرئيسية . وبتعبير آخر ينظر الى جسم الانسان كوحدة متكاملة متسقة ومنسجمة من حيث الوظائف والأهداف والوسائل والغايات .

فكذلك الجانب الفكري والشعري عند الانسان ، أي عندما نريد أن نفهم حقيقة ، معينة عن موضوع أو شخص معين ، فإذا لم تكتمل المعارف والمعلومات عن الشخص أو الموضوع بشكل متكامل ومتسق ، فإننا لا نستطيع أن نشخص الموضوع او الشخص بشكل علمي موضوعي دقيق ، ولا نستطيع أن نصدر أحكاماً ، أو نبني مواقف موضوعية سليمة تنسجم مع الامكانيات وطبيعة العقل والشعور عند الانسان .

وبناء على ذلك ، يجب أن نحرص على أن نستحصل العلوم والمعارف من مناهلها الصحيحة ، وأن نتأكد من سلامتها من السموم والمفاسد وأن

نوازن في التغذية الفكرية والروحية بشكل دقيق ومتسق ومتوازن ، حتى لا نترك فرصة لظهور فجوات واختلالات واضطرابات نفسية وعقلية تمنع الانسان عن رؤية الحقائق والأشياء الصحيحة في الحياة .

وهنا تجدر الإشارة الى حقيقة في غاية الاهمية والخطورة ، وهي مع الاسف الشديد غائبة عن أذهان الغالبية العظمى من الناس حتى العلماء والمفكرين ، وهي ضرورة إيجاد التوازن الدقيق بين المعارف والعلوم العقلية والشعورية أو الروحية والفكرية ، أو بالاحرى التناسق والتوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي عند الانسان .

فمن أشد البدييات في الفكر الاسلامي هو أن الانسان مكون من روح وجسد أو مادة وروح . وأن هناك علائق متبادلة ومتداخلة بينهما ، بحيث أنه لو ظهر أي اختلال أو اضطراب في تلك العلائق ، يؤدي الى ظهور فجوة أو حاجز بين الروح والجسد أو بين الجانب الفكري العقلي والجانب النفسي الشعوري عند الانسان ، مما يترتب على ذلك ، إيجاد نوع من الاختلالات والاضطرابات في العملية الفكرية والشعورية لديه ، وبالتالي تشويه الحقائق ، وعدم إدراكها بالصورة الموضوعية الواقعية .

وتجدر الإشارة هنا إلى حقيقة أخرى ذات أهمية بالغة أيضا ، ومفادها أن الاختلال بين الجانب الفكري والروحي وإن كان هذا الفكر هو فكر إسلامي نقي سليم خالي من السموم ، إلا أنه على حساب الجانب الروحي ، يؤدي إلى ظهور إنحرافات واضطرابات وفساد في الفكر والرأي ، كما هو حاصل لفئة من العلماء والمفكرين الذين لا يعتنون بالجانب الروحي لديهم ، أو أنهم يهملون هذا الجانب بشكل أو آخر .

وكذلك إذا تم التركيز على الجانب الروحي على حساب الجانب الفكري والعقلي عند الانسان ، وأن كانت هذه المعارف والعلوم الروحية صحيحة وسليمة ومستلهمة من مناهلها الصحيحة ، إلا أنه يوجد فجوة

وفاصلا بين الجانب الروحي والجسدي ، وبالتالي يوجد نوعا من الاختلال في التوازن المطلوب ما بين الروح والجسد ، مما يترتب على ذلك بروز أفكار وهمية عائمة ومفاهيم وصور قائمة ، ومعتقدات خرافية ، لا تمت الى الواقع والحقيقة بأية صلة .

فإذا عرفنا أن للإنسان جانبيين أساسيين ، جانب الروح وجانب المادة ، أو جانب إنساني وجانب حيواني . وإذا عرفنا أن هناك علائق متداخلة ومتبادلة بين انسانية الانسان وحيوانيته . أو بتعبير آخر ، بين حياته الثقافية والفكرية والمعنوية من جانب ، وحياته المادية من جانب آخر . وإذا عرفنا إن لانسانية الانسان أصالة وإستقلال وليست هي انعكاساً لحياته الحيوانية ، وإن العلم والايان هما الركنان والركيزتان الأساسيتان لانسانيته ، وأنه ليس هناك تعارض وتضاد بين العلم والايان ، أو المعرفة الفكرية والروحانية ، بل الواضح والمؤكد هو وجود إنسجام واتساق تام ودقيق بينهما ، وإن كل واحد منهما يكمل الآخر ، فالعلم والمعرفة يبينان نصف كيان وشخصية الانسان المتكامل ، والايان والروح أي الجانب المعنوي للإنسان يبني النصف الآخر .

بعد تبيان جميع هذه الحقائق والامور ، يستطيع الانسان المفكر أن يعرف ماهية ودور كل من العلم والايان في حياته ، فترتكز في ذهنه الصورة التكاملية والتلاحمية بين كل من العلم والايان . كما يقول الإمام علي (ع) : « بالايان يستدل على الصالحات ، وبالصالحات يستدل على الايمان ، وبالايان يعمر العلم »^(١) .

فالعلم يصنع وسائل الانتاج ، ويستكشف قوانين الطبيعة ، والايان يعين الغاية والهدف والمسار الذي يجب أن يوجه هذا العلم في حياة الإنسان .

العلم نور وضياء ، والايان يوجه هذا النور والضياء في إسترشاد

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ، ج ٩ ، ص ٢٠ .

الإِنسان للخروج من دهاليز وظلمات الطرق المستوحشة في حياته .
العلم يوفر للإنسان الأمن والاطمئنان الخارجي مقابل الأمراض
والزلازل والأضطرابات ، بينما الايمان يوفر الأمن والراحة والاطمئنان
الداخلي والنفسي نظير الشعور بالوحدة والضياع والعبث .

فالنظرة الفاحصة إلى دور كل من العلم والايمن ، تبين لنا بكل وضوح
وجلاء ، أن العلم والايمن ليسا متضادين ، بل إنهما متكاملان يكمل
أحدهما الآخر .

هذه هي بعض الأحاديث التي تؤكد على صحة تلك المقولة .

« وان العلم حياة الاسلام وعماد الايمان »^(١) .

وان العلم لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يحل محل الايمان ، ولا
يستطيع الايمان أن يملأ فراغ العلم ويعلمنا قوانين الطبيعة^(٢) .

« الايمان والعلم أخوان توأمان لا يفترقان »^(٣) .

والنظرة الاستقرائية إلى التاريخ البشري ، تثبت لنا أن انفصال العلم
عن الايمان ، قد جرّ على الانسانية الويلات والهلاك والخسائر ، يستصعب
تعويضها ، بينما انفصال الايمان عن العلم ، أوجد الكثير من الخزعبلات
والخرافات في حياة الانسان من جانب ، وتحول الايمان إلى جمود وتعصب
أعمى ودوران في حلقة مفرغة من جانب آخر .

يقول الإمام الصادق (ع) : « العامل على غير بصيرة ، كالسائر على
غير الطريق ، لا يزيده سرعة السير إلا بعدا »^(١) .

(١) كنز العمال ٢٨٩٤٤ .

(٢) الشهيد مرتضي المطهري . الانسان والايمن ، منظمة الاعلام الاسلامي ، قسم العلاقات
الدولية - طهران - ايران ١٤٠٣ هـ ، ص ٢٦ - ٣٨ .

(٣) غرر الحكم ، وعلل الشرايع .

(١) الكافي ١ / ٤٣ .

فالعلم بغير الايمان ، مدية بيد مخمور أضاع رشده أوضيائه في منتصف الليل بيد سارق ليحكم سرقة .

وعندما يعجز العلم أو يضعف يصبح إيمان المؤمنين « اللاواعين » لعبة بيد المنافقين الأذكياء . كما هو حال الخوارج في صدر الإسلام .

ويقول الإمام علي (ع) : « المتعبد بغير علم كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح من مكانه » .

قال رسول الله (ص) : « من عمل على غير علم ، كان ما يفسده أكثر مما يصلح » (٢) .

والمكان الذي يحل فيه الإيمان ويخلو العلم منه يجعل فكر وشعور وعقل الإنسان ، عقلا وشعورا جامداً متعصباً تبرز فيه النزعات المضرة والمدمومة ، بينما المكان الذي يحل فيه العلم ويخلو من الايمان - كما هو حال مجتمعاتنا في هذا العصر - نلاحظ تجنيد كل الطاقات المادية والمعنوية والفكرية في عبادة النفس والذات وتسخيرها في إشباع اللذائذ المادية والأنية عند الانسان . أي تسخيرها لإبراز الجانب الحيواني فقط من الإنسان ، والقضاء على انسانية الانسان .

وتأسيساً على ذلك كله ، نلاحظ أن المفاهيم والأفكار الإسلامية أو بشكل آخر الأطروحة الإسلامية وموقفها اتجاه تلك العلوم والمعارف الواسعة في العالم ، تتركز أساساً على ضرورة إستحصال النافع من البصائر والمعارف والعلوم .

والتأمل حق التأمل والامعان ، يرى بكل وضوح وجللاء ، أن من أبرز خصائص المعرفة الإسلامية هو الواقعية . أي ارتباطها بالواقع العملي النافع للانسان ، والهدفية أي إنها توجب السعادة والكمال في الحياتين ، وهي

(٢) تحف العقول / ٣٩ .

بعيدة عن العبث . ولذلك نرى أن التعاليم الاسلامية تحث وتؤكد على أهمية وضرورة كسب البصائر الهادفة والعلوم الناجعة لتحسين الحياة الانسانية ، والتمتع من حقائقها وواقعياتها .

وإنطلاقاً من هذه الحقائق الواقعية يبني الإسلام مبادئه وأسس أطروحاته ونظرياته في المعرفة ، على ضرورة الابتعاد عن تلك المجموعة من العلوم والمعارف التي لا تمس سعادة الانسان بصلة ، أو تلك التي لا يستلزم الجهل بها تأخراً أو شقاءً . بل ربما يكون في كسب بعضها ضرورة وموجبة لتعاسة وشقاء وإنحراف الإنسان عن جادة الحق والصراط المستقيم . فهذه المعارف لا يهتم المسلم طلبها وصرف العمر لها ، بل نهي عنها في كثير من الموارد التي بينها من خلال إستطراد الآيات والاحاديث الشريفة .

وخلاصة القول ، أن الترف والبذخ الفكري بجميع أنواعه التي ذكرناها في الصفحات السابقة ، مؤدية إلى ظهور طبقة ضبابية ، تحجب الرؤية الحقيقية عند الانسان ، وتكون حواجز وسدود سميكة على سمع الانسان بحيث تحجب عنه صوت الحق والحقيقة ، وتقف حجر عثرة أمام شعور وقلب الانسان في استشعار الحق والحقيقة . وتأسيساً على ذلك ، يجب على الإنسان الباحث عن الحقيقة أن يستوعب ما يلي :^(١)

- (١) الإبتعاد عن المفاهيم الفكرية السامة والفاسدة .
- (٢) إيجاد نظام منسق ومنسجم مع المعارف والعلوم التي يجب أن يستحصلها في حياته .
- (٣) إيجاد التوازن الدقيق بين الغذاء الروحي والفكري .
- (٤) إقتران العلم النافع بالعمل الصالح .
- (٥) عدم الخوض في علوم ومعارف ليس أهلاً لها .

(١) د . جعفر عباس حاجي « الترف المادي والفكري وأثرهما في تضليل الانسان عن الحق والحقيقة » مطبعة كويت تايمز - الكويت ، ١٩٨٥ م .

هذه هي أهم الأصول والمبادئ التي يجب على الإنسان الإرتكاز عليها وإستيعابها عند البحث عن المقدار والنوعية من العلوم والمعارف التي يريد ان يستحصلها الانسان في حياته .

سادساً : الترف المادي وأثره على تحريف الحقائق :

جاهدوا أنفسكم بقلة الطعام والشراب فتضلكم الملائكة . ويفر عنكم الشيطان»^(١) المستنطق للآيات القرآنية المجيدة، والمتفحص للأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة الأطهار عليهم السلام والحكماء وأهل العرفان المتعلقة بموضوع الترف المادي والفكري ، يستشف بكل وضوح وجلاء، أن هذه الحالة الشعورية والفكرية عند الإنسان ، تسبب له في مواضع عديدة نوعاً ونمطاً من الاضطرابات العقلية والنفسية والجسدية المباشرة وغير المباشرة ، تؤثر في المقاييس والموازين التي تقاس وتوزن بها سلوكيات وأفعال الإنسان من جانب ، وعلى نوعية وماهية الأفكار والمبادئ التي يسعى الإنسان الى تحصيلها وتبنيها في حياته من جانب آخر .

وهذه الحالة العقلية والنفسية تؤدي إلى إيجاد صورة ضبابية غامضة، ورؤية متذبذبة واهية ، لكثير من الأمور والمسائل الحياتية عند الإنسان . كل ذلك بسبب تلك النظرة المادية المجزئة، وذلك الأفق الضيق، والمنظار المشوه الذي أوجدته حياة الترف والإسراف المادي والفكري في نفس وعقل الإنسان .

فهذا النمط من الحياة يوجد نوعاً من القيود والأغلال التي تقف امام الانسان ، كعائق يمنعه عن رؤية الحقائق والأشياء الموضوعية الواقعية ، وتبعده عن الرشاد والهداية ، وتقربه الى حياة الميوعة والتطفل .

والترف هو نوع من الإسراف ، وهو عبارة عن مجاوزة الحد المعقول

(١) تنبيه الخواطر، ص ٣٦٢ .

عقلا ومنطقا من الضرورات والحاجات الحياتية للإنسان في حياته . والترف لا يعني فقط حب المتاع المادي والفكري فحسب، بل يتجاوز هذا الحد ويصل إلى مستوى حب التنعم والرفاهية حتى يفقد مغزى ومضمون الرفاهية والتنعم ، ولا يحس بلذات الدنيا . أي أنه يجب التنعم أو الرفاهية لذاتها دون اعتبارهما وسيلة وأداة لتحقيق رغباته وشهواته أو أهدافه وغاياته . المنشودة في حياة الدنيا .

قد تتنوع وتتباين الأساليب والوسائل المادية والفكرية التي يتنعم فيها الإنسان ، فيستخدم الأدوات الفاخرة أو المطلية بالذهب والفضة عند تناول الأكل او المشرب ، ويفضل أفضل وأفخر أنواع الأثاث والملبس والسكن والمركب ، ويقضي أوقاته في الرفاهية المفرطة ويبذل جهوده العلمية والفكرية في الثقافة المنحلة ، أمثال الكتب والمجلات ، أو الثقافات الساقطة والمنحطة، ككتب وثقافات الجنس والشهوات المادية ، التي تدفع الإنسان الى الإسترخاء والكسل في الحياة .

فما لا شك فيه ، أن هذا النمط من الحياة يشجع على إنتشار الفساد والانحطاط في المجتمع كله ، إن الترف أو الإسراف منبع ومصدر لظهور الفسق والفساد والفحشاء وإرتكاب المحرمات ، مما تؤدي في النهاية إلى تحجير القلب ، وعمي البصر والبصيرة ، وصم الأذن، وبكم لسان ، وفقدان الاحساس والشعور ، مما يقع الانسان في هاوية الظلام والجهل والباطل .

يقول عز وجل : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾^(١) .

ويقول مربي البشرية واستاذها النبي الأكرم (ص) :

« من زاد شبعه كظته البطنة ، ومن كظته البطنة ، حجبه عن

الفطنة »^(٢) .

(١) سورة غافر- الآية ٢٨ .

(٢) الشيخ الصدوق ابي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي ، علل الشرائع ، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ، النجف، العراق، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م الجزء الثاني، ص ٨٢ .

« لا فطنة مع بطنة »^(١) .

« إذا ملئ البطن من المباح ، عمي القلب عن الصلاح »^(٢) .
« لا تشبعوا فيظفي نور المعرفة من قلوبكم »^(٣) .

« ثلاثة يجبهها الله : قلة الكلام ، وقلة المنام ، وقلة الطعام ، ثلاثة ييغضها الله : كثرة الكلام ، وكثرة المنام ، وكثرة الطعام »^(٤) .

ومن الطبيعي أنه لا يمكن لمن يعجز عن قيادة نفسه في الأكل ، أن يسيطر عليها في غيره ، أو أن يصلح لكي يقود الناس .

وإن من تحكمه «بطنه» بالغه ما بلغت دعواه من العرض والطول في القضايا العامة ، لا يستطيع أن يقنع أحدا بأنه قوي الإرادة ، وأن باستطاعته أن ينجح في تحقيق الهدف الصحيح .

وذلك لأن الإفراط في المآكل يسبب لمنطقة الشعور العليا من النفس^(٥) إنحدارا أو خمولا تفقد معه كل نشاط ومرونة ، والنهم يورث التسمم لصاحبه ، وتراه مع ذلك يدهش لقلّة إنتاجه الفكري أو لرداءته ، فهو يفعل ما يهيجه ، ويكافح بعد هذا «نرفزته» ولكن ، ، عبثا! ويشير الشهوة في أوعيته الجنسية ، ويجهد أن يكون عفيفا . . . ولكن عبثا . ويترك المآكل الثقيلة آثارا ترهق جهاز الإنسان العصبي ، وتستحوذ على شاهيته ثم يشكو الأوجاع التي تقيد فعالية وهكذا ، ، يساق مع الزمن ، شيئا فشيئا إلى الرخاوات والإضطرابات والتشنجات والآلام المؤلمة التي تشل نشاط عقله وقلبه وشعوره .

(٣) غرر الحكم .

(٤) غرر الحكم .

(٥) مستند ج ٣ ، ص ٨١ .

(٦) تنبيه الخواطر ص ٣٦١ .

(١) دائرة المعارف السيكولوجية ، دار صادر - دار بيروت ، ١٩٦٤ ، المجلد الأول ، ص ١٠٨ .

فهناك معادلة رياضية دقيقة تنطبق في حال كثرة الأكل مفادها :

إن الإفراط الكمي ، أي من أكل أكثر من حاجته ، كانت الكمية الزائدة سببا في القلق والإضعاف والتكاسل والحمول والركون إلى الراحة والصدعة ، وهي حالة انحلال عضوي تأتي بعدها حالة انحلال الإرادة والشخصية والعقل والمنطق والحكمة ، ، ، الخ .

إذن ففي الحالات التي يجهد جسم الانسان أو عقله وشعوره ، يستلزم الأمر إراحة البدن والملكات العقلية والنفسية جميعها . والحكمة تقتضي أن يهادن نفسه ، الا سبق إليه الانهيار في نشاطه العقلي والنفسي والجسدي ، فعليه أن يترك أشغاله بملء إرادته وإختياره ، ويريح دماغه وأعصابه وعضلاته إراحة تامة ، ليستعيد المتعة الإنشراح والإنبساط النفسي والعقلي ، فتتاح له الفرصة الكاملة للتفكير السليم ، والتحليل الموضوعي ، والقرار الحكيم ، والرؤية الصائبة للموضوعات والأشخاص الذين يتعامل معهما في الحياة .

وخلاصة القول ، إن الترف والبذخ والإسراف يوجد في الإنسان حالة نفسية وفكرية تغير الموازين والمقاييس الإنسانية إلى موازين ومقاييس حيوانية ، وتوجب حالة من الشعور ، تعمي القلوب ، وتصم الأذان عن رؤية وسماع الحقائق . وإن هذه الأشياء توجد حالة خاصة في الإنسان ، تذيب كيانه ، وتصهر شخصيته ، وتطمس إنسانيته .

ثامناً : العوامل المادية البيولوجية واثرها في انحراف الإنسان عن الحق والحقيقة

مقدمة :

الموجود البشري ، كائن يتكون من روح وجسد ، وله أبعاد ونواحي عديدة متباينة ، يرتبط كل بعد وناحية إرتباطاً وثيقاً بسائر نواحيه فلجسمه تأثير على روحه ، وبالعكس لروحه تأثير على جسمه ، وإن

للعوامل المادية تأثيراً على العوامل المعنوية ، والعكس صحيح أيضاً، والفرد يتأثر ويؤثر في مجتمعه وظروفه المحيطة به .

وتأسيساً على هذه الحقيقة الواضحة التي أكدتها رسالات وكتب الأنبياء والمرسلين (ع) قبل أن تؤكدها الدراسات والأبحاث العلمية ، أو الإجتماعية والنفسية ، يتطلب من الإنسان أن لا يقتصر النظر والبحث على جانب أو بعد واحد من أبعاد حياته ، بل المطلوب هو النظر إليها بنظرة متعمقة شاملة ، تستوعب جميع أبعادها ونواحيها . وهذا مما لا يتأتى إلا من خلال التأمل الدقيق وبالمناظر الشامل الذي يكشف لنا القوى والعوامل العضوية والعقلية ، أو النفسية والكيمائية ، وبالشكل الذي يقرره المنهج الاسلامي في الحياة .

ولقد فطن لهذه الحقيقة الفيلسوف الكبير ديكارت ، حيث ذكر في كتابه (حديث عن الوسيلة) إنه من الضروري تقسيم الموضوع قيد الدراسة والبحث إلى أكبر عدد من الأقسام تدعو إليه الضرورة ، وذلك بغية تشكيل وإعداد جدول كامل شامل يحتوي على معظم أبعاد ودقائق الأمور المتعلقة به .

ونحن نعتقد أنه بالرغم من كون نصيحة ديكارت الحكيمة ، مفيدة وضرورية لأي باحث ، إلا أنها تبقى في إطار طريقة منطقية ملائمة في البحث . وإن الانسان سيظل غير قابل للتجزئة والرؤية الحقيقية بجميع أبعادها ونواحيها ، نظراً لكون كل شيء في حياة الإنسان الداخلية يعتبر عالماً متميزاً له أبعاده ونواحيه الخاصة ، وهو مرتبط بالعوامل الأخرى بشكل دقيق ومحكم ، مما يشكل نسقاً منتظماً متكاملًا من الحياة ، إضافة الى قصور الذهن البشري في إستيعاب وإستكشاف أو رؤية جميع هذه الأبعاد والنواحي بشكل متكامل من جانب والى العوامل النفسية التي تدخل في حذف وأهمال كثير من المفاهيم والأبعاد التي لا تنسجم مع اهوائنا ومعتقداتها في الحياة من جانب آخر .

والإسلام ينطلق من هذه الحقيقة الدامغة والمتمثلة في أن إمكانيات وقدرات أفراد النوع البشري محدودة ، بسبب عوامل عديدة ومتباينة ، ولهذا يطرح الإسلام أطروحته الإلهية الإيمانية الغيبية كركن أساسي ، وكقاعدة رئيسية يجب على الإنسان الارتكاز عليها ، والإنطلاق منها في معرفة الإنسان وأبعاده الحقيقية . ومن هنا يمكن أن تفسر فلسفة الرسائل والكتب السماوية ، أو دور الأنبياء والمرسلين والأئمة (ع) في الكشف عن الجوانب والنواحي المخفية عن الانسان والتي هي في غاية الصعوبة ، من حيث الإدراك والإستيعاب الفردي لها .

ومن هذا المنطلق ، نحن لا ننكر دور البيئة والتعلم والإرادة الحرة في نمو وتكامل الفرد جسدياً وروحياً . وإنما نرى بوجود إعتبارات وعوامل عضوية مادية ، لها تأثير كبير في كثير من الأحياء على نمط حياة الإنسان وتفكيره ، مما قد تحجب عنه الحقائق أو مصاديق الأشياء ، وذلك بسبب تلك العوامل البيولوجية والتشريحية والفسولوجية . ولذلك قيل إن الإنسان كائن بشري بيولوجي وبيوإجتماعي .

فالشواهد والقرائن اليومية التي نلمسها ونلاحظها ، هي خير دليل وشاهد على مدى أثر العوامل المادية البيولوجية على نمط تفكير وسلوك الانسان .

فلاحظ أن للتعب والإجهاد الجسدي أو للمرض العضوي أو لسوء الهضم أو غيرها من المتغيرات ، لها آثاراً فسيولوجية تترك آثاراً على سلوك الفرد ، وأسلوب تفكيره ، ونظرته الى الحياة وما تحتويها من الأمور والقضايا المادية والمعنوية والفردية والإجتماعية ، و . . . الخ .

ومن الملاحظ بشكل جلي ، إن أي خلل أو تدهور في الجهاز العصبي المركزي ، أو اضطراب في إفراز الغدد الصماء ، خاصة ، أو نقص في الغذاء ، أو تناول بعض المكيفات أو المخدرات ، أو بعض الأدوية ، قد

يؤثر في جسم الإنسان ، وبالتالي يؤثر في أدوات نقل المعلومات والصور كالبصر، والذوق، والحس، مما يشوه الحقائق ويبتز الصور المنقولة ، ويستقبل الكلمات والجمل الناقصة، فيصدر أحكام وقرارات ومواقف مخالفة وبعيدة كل البعد عن حقيقة الأمور خارج الذهن البشري .

وقد يكون تأثير العوامل العضوية والمادية على نمط حياة الإنسان وأسلوب تفكيره ورؤيته للحقائق تأثيراً غير مباشر فعندما يدرك الفرد جوانب من قصور قدراته الجسمية إدراكاً خاطئاً ، يؤثر في شخصيته ونمط تفكيره . .

ما هي العوامل البيولوجية أو المادية :

نقصد هنا من العوامل المادية بمفهومها الشامل الذي يشمل البيئة والطبيعة ، وسواء كان محور تأثيرها داخلياً كالمكيفات والمخدرات وأنواع المنبهات والأطعمة التي تترك آثاراً بيولوجية وبيوكيميائية على الخلايا والأجهزة الأخرى، فتؤثر بدورها في استيعابنا ومعرفتنا للواقع الموضوعي خارج الذهن البشري . أو كان خارجياً كظروف البيئة من الحر والبرد والرطوبة واليبوسة وسواء كان عرضياً طارئاً كالضعف المرضي أو جذرياً أصيلاً كمستوى الذكاء والفطنة عند الإنسان .

العوامل المادية التي تؤثر في عقل وشعور الإنسان بشكل مباشر أو غير

مباشر :

المتبع للأبحاث والدراسات النفسية ، والبيولوجية ، والبيوكيماوية ، (الكيمياء الحيوية) وحتى الإجتماعية والجغرافية منها ، يجد العديد من العوامل المادية المتنوعة التي تترك آثاراً سلبية سيئة مما يترتب عليها خلل وتدهور في الجهاز الهضمي ، والجهاز العصبي ، فتترك بدورها آثاراً وانعكاسات سلبية سيئة على عملية التأمل والتعقل ، أو التفاعل والشعور

- والاحساس البشري تجاه الحوادث والأشخاص والموضوعات . ويمكن
حصر هذه العوامل على النحو التالي : (١)
- ١ - الغدد وخاصة الغدة الدرقية .
 - ٢ - الأطعمة والمواد الغذائية .
 - ٣ - الاجهاد الجسمي .
 - ٤ - الظروف الجوية .
 - ٥ - المواد المخدرة .
 - ٦ - العوامل الوراثية (الفوارق العرقية)
 - ٧ - الزمن والمكان .
 - ٨ - تلف بعض الأنسجة في الجسم .
 - ٩ - طبيعة المعارف ومحدودية الذهن البشري .

تاسعاً : الحب الأعمى أو العشق والقدسية :

مما لا شك فيه ، أن الحب أو العشق صفة من الصفات التكاملية الإرتقائية التي يجب على الإنسان أن يسعى إلى تحقيقها في نفسه وقلبه ، ولكن بشرطها وشروطها ، بحيث يقع هذا العشق أو الحب في موضعه وموقعه الحقيقيين .

فالعشق والحب الإلهي لذات الله وصفاته الحميدة ، شرفاً وفخر ، وزينة ونور للمؤمن ، بينما حب الكماليات والجمادات وخسائس الحيوانات هو أخس الرذائل ، وأنزل مستوى من الحب والعشق ، هو ذل وهوان ، ووحشة وظلمة للإنسان .

فالحب الأعمى والعشق اذا وقع في غير موضعه أو موقعه الطبيعي ، يصم ويكم ويعمي قلب الانسان ، ويشل حركة تفكيره وعقله ، ويجمد

(١) لمزيد من التفصيل والشرح حول هذا الموضوع انظر الى : د . جعفر عباس حاجي « اثر العوامل المادية والبيولوجية في تحريف وتشويه الحقائق والحق عند الانسان » من سلسلة موانع المعرفة ، مطبعة كويت تايمز - الكويت - ١٩٨٥ .

شعوره وأحاسيسه . . . الخ ، ومصداقا لذلك يقول الرسول الأعظم (ص) :

«حبك للشيء يعمي ويصم»^(١).

فالعاشق يرى محبوبه القبيح جميلا ، والحقود يرى الجميل قبيحا .
يقول الشاعر المتنبي :

فما ضر أهل العشق أنهم هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تغني عيونهم دمعاً وأنفسهم في أثر كل قبيح وجه حسن
ويقول الإمام علي (ع) في نهج البلاغة: « . . . ومن عشق شيئاً أعشى
بصره . وأمراض قلبه . فهو ينظر بعين غير صحيحة ، ويسمع بإذن
سميعة ، قد خرقت الملذات والشهوات عقله ، وأماتت الدنيا قلبه ،
وولت عليها نفسه ، فهو عبد لها ولن يده شيء منها . حيثما زالت إليها .
وحيثما أقبلت أقبل عليها ، ولا ينزجر من الله بزاجر ، ولا يتعظ منه
بواعظ» .

وتأسيساً على ذلك، لكي نحصل على حقائق الأمور، سواء عند
حكمننا على أشخاص أو أفكار أو مواقف وأحداث معينة ، يستلزم الأمر أن
نحتكم بالموازين والمقاييس العقلية، والمنطقية، والشرعية ، وأن نتجرد قدر
الإمكان عن الحب الأعمى أو العشق والقدسية ، التي تعتبر حالة نفسية
مرضية تؤطرها الأهواء والشهوات والملذات، بشكل تقولب الأحداث،
وتقول الكلام ، وتصبها بقلب محدد متميز ، لبه العمى ، وأغصانه الهوى
والهيام ، وإلا أدى ذلك الحب أو العشق إلى دمار وهلاك وضلال الفرد
والمجتمع ، والخسارة في الدنيا والآخرة(*) .

(١) بحار الأنوار، الجزء ٧٧ .

* لمزيد من التفصيل والشرح راجع : د . جعفر عباس حاجي « الحب الأعمى والعشق واثرها في
تضليل وتعريف الحقائق والحق في حياة الإنسان » من سلسلة موانع المعرفة ، مطابع كويت تايمز الكويت
١٩٨٥ .

العقل الجمعي كمانع للمعرفة الصادقة

يعيش الإنسان في بيئة إجتماعية ، تحيط به آثارها من كل جانب ، يتأثر بها ويؤثر فيها ، لأنه كائن مفكر مؤمن ، وإجتماعي بطبعه وفطرته .

فهو يعيش في بيئة ، تؤطرها حياة ثقافية متنوعة ومتباينة ، تتألف من عادات وتقاليد ، واتجاهات ومعتقدات ، وعواطف ومشاعر ، وقيم وأفكار إقتصادية وإجتماعية ونفسية وتربوية وتاريخية و . . إلخ . وهذه جميعاً تتفاعل تفاعلاً ديناميكياً ، يؤثر في الفرد من خلال تواجده في المحيط الإجتماعي ، ومن خلال علاقاته الإجتماعية المتبادلة والمتباينة في مستوياتها ، إبتداءً من أسرته ومدرسته والحشد الذي ينتمي إليه ، إنتهاءً بطائفته وعشيرته ومجتمعه الكبير والعالم المحيط به .

ومن المؤكد أن البيئة أو المحيط الإجتماعي ، يترك آثاراً متباينة على الأفراد في المجتمع . وذلك تبعاً لنوعية الجنس (الذكر والأنثى) ودور كل منهما في الحياة الإجتماعية ، والسن (الطفل والمراهق والبالغ والرشيد والمسن) ، ووفقاً للبناء النفسي والتركيبية الداخلية لنفس الفرد ، حيث أن بعض الأفراد يكونون محصنين ضد التأثير ببعض الإتجاهات ، في حين يكون البعض الآخر عرضة للتأثير باتجاهات أخرى . إضافة إلى ذلك المستوى الإيماني والوعي الإجتماعي والسياسي ، فضلاً عن قوة عقله وإدراك إستيعاب وتحليل القضايا والأمور الإجتماعية ، كلها من الأمور والعوامل

التي تؤثر في درجة تأثير المجتمع والبيئة والعلائق المتبادلة بينهما في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية .

ومن الحقائق المؤكدة ، أن البيئة الاجتماعية ، لها دور كبير في عملية صقل شخصية وكيان الفرد ، وبلورة أفكاره ومفاهيمه العقائدية والحياتية ، وتوجيه سلوكياته وأفعاله ، أو تعميق مشاعره وعواطفه ، أو ترسيخ مواقفه وقراراته الفردية والاجتماعية ، وذلك عبر مسيرته وعلاقاته الاجتماعية في المجتمع .

وذلك لأن الحياة الاجتماعية ، ليست موجوداً مادياً مؤلفاً من أجسام الأفراد وآثارهم ، بل تشكل فضلاً عن ذلك موجوداً معنوياً مؤلفاً من رؤى وأفكار ، وآراء ومفاهيم ، ومعتقدات وعادات وتقاليد ، وعواطف ومشاعر مشتركة ، تشكل بحد ذاتها إطاراً وبيئة ذات سمات مشتركة ومتميزة ، حيث ينمو ويتكامل الفرد في وسطها ، فيستنشق هواءها ، ويتغذى منها كما يتغذى جسده بالوسط المادي .

وقيل إن لا حياة للنفس الفردية ، إلا داخل إطار هذه البيئة المعنوية . كما أنه لا حياة للجسد ، إلا داخل البيئة الطبيعية . وأن هذه البيئة الخارجة عن النفس الإنسانية ، تحدد بها من الخارج ، وتملأ نفس الفرد من الداخل ، إلى درجة قيل أن في كل فرد منا موجودين :

أحدهما إجتماعي يأتينا عن طريق البيئة ، والآخر فردي يرجع إلى عناصر حياتنا الذاتية . ففي كل واحد منا أثر إجتماعي . ولا معنى لوجود الفرد إلا إذا نُسب إلى الجماعة ، كما لا معنى لجهاز التنفس إلا إذا نُسب إلى الهواء الخارجي .

وتأسيساً على ذلك ، ليست علاقة الفرد بالجماعة علاقة جوار ، إنما هي علاقة تفاعل وتداخل وتبادل ، وإن كان الإنسان لا يشعر بها في بعض الأحيان ، وخاصة في الوضع الطبيعي بتأثير البيئة الاجتماعية في نفسه . كما

لا يشعر ولا يتأثر بضغط الهواء على جسمه ، ولكنه لا بد أن يشعر بذلك في أوقات وظروف خاصة (١) .

ونحن قبل أن نسهب في هذا الموضوع ، الذي سيوضح لنا كيفية تأثير العقل الجمعي (العادات والتقاليد ، والأفكار والمفاهيم والقيم الإجتماعية) في تنوير الطريق أو تضليل السبيل في حياة الإنسان ، وسواء في تحريك ودفع عجلة التفكير والتأمل الصادق العميق إلى الأمام ، أو في تقليل سرعة عجلة التفكير وشلها وتجميدها تماماً من دورها ووظيفتها الرئيسية . نرى من الأهمية بمكان ، أن نستقرئ بعض الآراء الواردة بهذا الخصوص في الفكر الغربي والشرقي ، وتبيان موقفنا تجاهها ، ثم طرح النموذج والأطروحة الإسلامية بهذا الصدد . أما توضيح كيفية علاج هذه الجرثومة المسماة بالعقل الجمعي ، التي تفتك وتشل حركة التفكير الموضوعي القويم عند الإنسان ، مما تحرفه وتضلله عن جادة الطريق المستقيم ، نتركه للقارئ أن يرجع إلى بحثنا المفصل في هذا الصدد . (١)

الأطروحات الغربية :

المتفهم والدارس للنظريات الإجتماعية والتأريخية ، وبالخصوص تلك المتعلقة بتفسير ظاهرة التغيير الإجتماعي والتحول الحضاري ، أو تطور النهضة الإنسانية بشكل عام ، يرى بكل وضوح وجللاء ، أن هناك ثمة أسئلة أساسية تثار وتطرح على ساحة البحث والدراسة منذ قرون عديدة بشكل عام ، ومنذ قرن إلى الآن بشكل خاص ، وهي تتمحور حول محور رئيسي واحد يتمثل في السؤال التالي :

ما هو الماتور (المحرك) الرئيسي للتأريخ والمجتمع ؟

أي ما هو العامل الفعّال والمؤثر في النهضات والحضارات والتحويلات

(١) جورج دوماس ، المطول في علم النفس مج - ٢ ، ص ٧٦٦ .

(١) د . جعفر عباس حاجي « العقل الجمعي وأثره في تحريف وتضليل الناس عن الحق والحقيقة »

سلسلة موانع المعرفة (٨) - مطبعة كويت تايمز الكويت ١٩٨٥ م .

التي تحدث في المجتمع الإنساني ؟ وما هو موقف الفرد منها ؟

وبناء على ذلك ، إنقسمت المدارس والمذاهب التاريخية والاجتماعية ، وتباينت الأطر والمفاهيم أو التفسيرات والإجابات على هذا السؤال .

فهناك مدارس ومذاهب متعددة ، تركز أساساً على محور أصالة الفرد المتمثلة في أن الترابط والاندماج والتفاعل بين أفراد المجتمع ، لا يشكل مركباً واقعياً حقيقياً على غرار المركبات الطبيعية ، وبالتالي يصبح تركيب المجتمع تركيباً اعتبارياً ثانوياً أو إنتزاعياً ، وليس تركيباً حقيقياً أصولياً . وبناء على ذلك ، يبقى الفرد هو المحور والرائد الرئيسي في تطوير وتغيير المجتمعات . ومنها المدرسة الرأسمالية التي تعتقد بأصالة الفرد ، مع الاعتقاد بدرجة معينة بالمركب الاجتماعي ، ودوره في حياة المجتمعات ، وإن كان تأثيره ينحصر ولا يتجاوز إطار الرابطة الفيزيائية كما هو حاصل بين أجزاء ومكونات السيارة (١) .

النموذج الجمعي :

أنصار ومؤيدو المذهب الجمعي ، يتبنون نموذجاً اجتماعياً وتاريخياً خاصاً ومتميزاً بكل واضح وجلي عن النموذج الفردي ، في تشخيص وتفسير حركة التاريخ والمجتمع . ويتمحور نموذجهم حول مفهوم أساسي ، يتجسد في الاعتقاد بأن المجتمع مركب أو عنصر أساسي أصيل ، في حين يعتبر الفرد عنصراً إنتزاعياً ثانوياً أو إعتبارياً .

وتندرج عدة مدارس تحت مظلة المذهب أو النموذج الجمعي ، وتتخذ بعضها موقفاً يتسم بأقصى اليمين أو الإفراط ، والبعض الآخر أقصى الشمال أو التفريط .

فالمدرسة المادية في التاريخ ، تعتنق وتؤمن بفكرة جبرية التاريخ أو

(١) لمزيد من التفصيل راجع - الأستاذ مرتضى المطهري - المجتمع والتاريخ ، وزارة الإرشاد الإسلامي ١٩٧٩ م ص ١٩ - ٢٧ .

الحتمية التاريخية . فهي القائلة بأن القوانين والسنن والأحكام والقواعد الاجتماعية ، لها قوة الجبر والسيطرة الحتمية على حياة الأفراد والمجتمعات ، وهي التي تسيّرُها وتحركها نحو الأمام أو الخلف ، وهي قوانين تشبه تماماً قوانين الطبيعة ، التي تخضع لها عناصر وأجزاء الطبيعة في تشكيلها وتحويلها بشكل جبري قسري .

وهم يشبهون حركة الأفراد والمجتمع من زاوية، وتبنيهم للأفكار والمفاهيم والمعتقدات من زاوية ثانية، بالشجرة التي كانت بادئ ذي بدء - بذرة صغيرة محدودة الأثر والحجم والشكل ، خضعت لقوانين وسنن وبيئة طبيعية ، فانفلقت وانشقت ، ثم فتقت التراب ، وأبرزت معالمها ومكوناتها ، وشيّدت وجودها وكيانها ، بعد ما تأصلت جذورها وأصولها ، ثم صارت لها سيقان وغصون ، وأوراق وزهور ، وثمار ورائحة ، ثم جاء الشتاء فأصبحت هزيلة عارية من الأوراق والثمار والزهور ، بسبب جفاف وتغيير البيئة المحيطة بها ، وذلك كلها وفق قوانين وسنن جبرية قسرية طبيعية ، تقف الشجرة أمامها موقف الخضوع والإنقياد التام .

ويقول أحد أبرز رواد النموذج أو المذهب الجمعي (دوركايم) ، إن المنابع الاجتماعية هي المصادر والروافد الأولية والأساسية Basic and Primary والتي تنشأ بواسطتها وتتغذى منها مدركاتنا وتصوراتنا ومشاعرنا . فالإنسان لا يعيش منفرداً في صراعه مع الطبيعة ، بل أن المجتمع يساعده على ذلك . فالمجتمع إذ يقف حاجزاً بين الإنسان والعالم . وبناء على ذلك ، تصبح عمليات الإدراك والتصور ملطخة ومشوبة بعناصر اجتماعية ، آتية من طبيعة الموقف الاجتماعي للإنسان ، ومنها تتشكل نظرة الإنسان ورؤيته إلى الكون والإنسان والمجتمع والحياة والإله والعلائق المتداخلة والمتبادلة بينها، وذلك وفقاً لمحتوى ومضمون أو إطار وشكل القوى والظروف البيئية الاجتماعية المحيطة بالإنسان . وبالتالي يتبنى الإنسان مواقفه الفردية والاجتماعية ، ويصدر أحكامه الاقتصادية والنفسية والاجتماعية ويوجه سلوكياته

وافعاله ، وفق ذلك القلب الإجتماعي الذي تقولب وتأطر به الإنسان .
وبتعبير المناطقة إن الإطارات المنطقية والفكرية والشعورية ، ما
هي إلا أشكال وإنعكاسات للإطارات الإجتماعية . وأستناداً إلى التنظيم
البنائي Structured organization للأشكال (المورفولوجية) الداخلة في البناء
القبلي ، تنبعث قوالب التنظيم المنطقي . وأن الحدود والمراتب المنطقية
والفكرية ، هي في الحقيقة تشكل آخر الحدود والمراتب الإجتماعية . وأنه
يرى أن في الوعي الجمعي تشخيصاً للعقل (١) .

فالتأمل حق التأمل ، في الفكر الإجتماعي للنموذج الجمعي ،
ستشف بكل وضوح وجلاء ، أن المنطق الجمعي يلغي دور الإنسان ككائن
حر حي ، يفكر ويؤمن ، وينمو ويتكامل ، وفق كيان وشخصية مستقلة
متميزة عن الجماعة التي يعيش معهم . وأنه مثل الريشة في مهب الريح ،
أو مثل قطرة في محيط واسع عميق ، تتلاطم بها الأمواج العالية والرياح
العاتية شمالاً ويميناً ، صعوداً وهبوطاً ، وأن الفرد مقيد بأغلال وقيود
إجتماعية ، لا يستطيع أن يفك نفسه منها ، ولا يستطيع تجاوزها ، بل هو
أسير أفكار ومفاهيم ، وعقائد ومشاعر البيئة الإجتماعية المحيطة به ، ينمو
ويضمحل معها ، فإذا ما تغيرت وتبدلت الأفكار والمفاهيم الإجتماعية ،
تغير الإنسان وتبدل موقفه ، تبعاً لشكل ومضمون التغيرات والتقلبات
الإجتماعية .

وبناء على ذلك ، ذهب كونت إلى أن منطق الإنسان (بمعنى فكره
وعقله) ، إنما يتدرج مع تدرج المجتمع وتطوره ، من حالة (غيبية أولية)
إلى حالة (ميتافيزيقية) إنتقالية ، ومن ثم يصل العقل الإنساني في النهاية إلى
مرحلة (الروح الوضعي) .

(١) جورج غورفيتش ، الإطر الإجتماعية للمعرفة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع -
بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م ، ص ١١ .

وتأسيساً على ذلك ، يتضمن حياة الفرد وفق منطق ومنظور كونت ثلاث حالات ، وكذلك منطقة (الفكري والعقلي) إلى ثلاث حالات وهي تتمثل في :

حالة الغيب المطلق ، وحالة الغيب المحدد ، وحالة العلم .

موقفنا من المذهب أو النموذج الجمعي :

خلال قراءتنا وتأملاتنا في نصوص الأحاديث النبوية الشريفة ، ومن سياق فهمنا واستيعابنا للآيات القرآنية الكريمة ، التي تشير بشكل مباشر أو غير مباشر إلى هذا الموضوع ، نستنتج ما يلي :

إن المنطق الاجتماعي الذي قمنا بشرحه في الصفحات السابقة ، قد أصاب نصف الحقيقة ، من حيث تبيان وتوضيح اثر العقل الجمعي (العادات والتقاليد والأفكار والمعتقدات والمشاعر والعواطف الاجتماعية) على منطق وفكر وشعور الفرد في المجتمع . بينما تجاهل النصف الآخر ، الذي يعتبر وفقاً لمنطق الإسلام ، جزءاً وعاملاً رئيسياً أساسياً في المنظوم الاجتماعي في حياة الفرد والأمة .

وقد أخفق النموذج الجمعي إخفاقاً كبيراً في تبيان هذا العامل ، الذي يكمن وراءه الإنسجام والتوافق ، بين سلوك وفكر وشعور الفرد ، وبين إطار ومحتوى ومضمون بيئته الاجتماعية . حيث أن العلاقة المتبادلة بين البيئة الاجتماعية وحياة الفرد ، ليست علاقة حتمية تبعية قسرية ، كتبعية الشمس للسير في مجراها المرسوم . بل هي علاقة تخضع بالدرجة الأولى ، إلى إرادة ووعي وشعور الإنسان الذاتي . وأن هذه الإرادة الحرة ، لها الخيار والإختيار ، بين أتباع المجتمع أو التوقف على هدى العقل والفطرة الإنسانية السليمة التي زودها الله سبحانه وتعالى في كل فرد منا . فعقل الإنسان واحد ، وحكمه واحد ، وفطرته السليمة واحدة ، وإن اختلفت الظروف والبيئات ، وتباينت الأهواء والشهوات .

ومن هنا نلاحظ عدداً كبيراً من المفكرين الاجتماعيين الغربيين ، قد اعترضوا على مقولات وأطروحات النموذج الجمعي ، بالشكل الذي طرحه أميل دور كايم ، وكارل ماركس وغيرهم . فعلى سبيل المثال يعترض (بيتريم سوروكين) على فكرة الأصل السيوسولوجي لمقولات الفكر الإنساني ، وهي أعم وأهم التصورات العامة في المنطق الاجتماعي ، فأنكر مزاعم دور كايم بصددها هذا الأصل ، الذي يثير الشك والريبة ، إذ يقول أن المقولات المنطقية الرئيسية ، إنما هي واحدة بذاتها في عقول الفلاسفة ، ونجدها كما هي نفسها عند (كونفوشيوس) و (أرسطو) و (كانط) و (نيوتن) و (باسكال) ، فكيف تفسر عمومية تلك المقولات وثباتها في عقول الفلاسفة ، على الرغم من إختلاف شعوبهم وحضاراتهم أو بيئاتهم وثقافتهم ؟

أما لماذا توصل الفكر الغربي إلى هذه النتائج القائمة والمظلمة ؟ وما هي الأسباب الرئيسية والعوامل الأساسية الكامنة وراء تلك الأطروحات ونتائجها ؟ هذا ما سنوضحه من خلال السطور التالية :

١ - النظرة المادية الضيقة للحياة والكون والإله والفرد والمجتمع من جانب ، والعلائق المتداخلة والمتبادلة بينها من جانب آخر . وذلك على عكس النظرة الإسلامية الإلهية ، التي تتسم بالشمولية والعمق والواقعية لتلك العلائق والموضوعات .

٢ - تأطير أطروحاتهم ونظرياتهم بإطار وسياج ، يتسم بالبعد الواحد ، أو العامل الواحد . فهم يفترضون عاملاً واحداً ، أو قالباً واحداً ، ثم يفسرون جميع الظواهر والأحداث الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية و . . إلخ . وفق ما يشكّله ذلك القالب . أي أنهم يقولون جميع ما يحيط بالإنسان والمجتمع من الظواهر والأحداث ، في ذلك القالب المصنوع سلفاً . وذلك خلافاً للفكر التحليلي في المنطق

الإسلامي ، الذي يعطي لكل بعد وعامل حقه وموقعه الطبيعي ، دون إفراط وتفريط بأي واحد منهم .

٣ - إن مثلهم الأعلى في الحياة ، هو الإنسان بما ينطوي عليه من قدرات وطاقات كامنة فيه . وبالتالي لا تتجاوز نظرياتهم وأفكارهم أو أطروحاتهم حدود هذه الطاقات والإمكانات الفردية . بل إنهم يتفوقون في إطار وحدود هذه الطاقات الفردية أو الاجتماعية ، خلافاً للأطروحة الإسلامية ، التي تستند وتنبثق عن المثل الأعلى المتجسد بالخالق العليم ، والرب العظيم ، خالق الإنسان والكون . الذي تبدأ الحياة منه وتنتهي إليه . (إنا لله وإنا إليه راجعون) .

الأطروحة الإسلامية في مدى تأثير العقل الجمعي على سلوك وفكر الفرد :
النموذج الإسلامي يؤكد على أصالة الفرد من حيث كونه كياناً مستقلاً ، وذا شخصية إنسانية ذاتية متميزة ، وله سمات وخصائص ، وفكر وشعور ، وعقيدة وإيمان ، وقلب ونفس ، متميزة عن العقل الجماعي أو الشعور الجماعي . أي أنه يرفض إنحلال وذوبان الوجود الفردي في الكلي (المجتمع) من جانب ، ومن جانب آخر يؤمن ويصدق على إن للمجتمع أصالة وكياناً ، وشخصية وشعوراً ، وروحاً وحياة ومماتا ، وعاطفة وعقلاً ، متميزاً دون أن يكون له وجودٌ مستقلٌ على غرار المركبات الكيماوية .

فالنموذج الإسلامي ، يلتزم بأصالة الفرد من جانب ، ويقر بوجود تركيب من قبيل التركيب الكيماوي بين الشؤون الروحية والفكرية والعاطفية للأفراد . ويؤكد بأن الفرد يكتسب ماهية مستقلة عن المجتمع نفسه ، بذلك فهو يلتزم ويقر بأصالة المجتمع أيضاً .

وتأسيساً على هذه الأطروحة الإسلامية ، نرى أن أفراد المجتمع ، حينما يكونون مجتمعاً ، فإنهم يولدن ظاهرة جديدة واقعية وحيّة ، من جراء

ذلك التفاعل والتأثير والتأثر المتقابل بين الأفراد ، ويتمثل هذا الكيان الجديد بالروح والوجدان الجماعي أو الشعور والإرادة الإجتماعية .

وحيثما نستنطق الآيات القرآنية الكريمة ، ونتأمل في الأحاديث النبوية الشريفة ، نستشف مصداقية وصحة هذا النموذج الشامل المتعمق في تفسير ظاهرة العقل الجمعي والشعور الجماعي - أي العلاقة بين المجتمع والفرد .

فيقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾^(١) .

تحدث هذه الآية الكريمة عن حياة الأمة (المجتمع) لها أجل لا يمكن التخلف عنه ولا يتقدم ولا يتأخر .

وقوله تعالى :

﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾^(٢) .

تشير هذه الآية الشريفة إلى أن للأمة والمجتمع صحيفة أعمال مشتركة ومصير مشترك .

وقوله تعالى :

﴿ زينا لكل أمة عملهم ﴾^(١) .

تؤكد هذه الآية الكريمة بأن للأمة وجداناً وشعوراً وعاطفة متميزة ومستقلة .

وقوله تعالى :

﴿ وهمت كل أمة برسوهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾^(٢) .

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤ .

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٨ .

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٨ .

(١) سورة غافر الآية ٥ .

تحدث هذه الآية الشريفة عن عمل وطاعة وعصيان الأمة والمجتمع .

فخلاصة القول ، نقول إنه لولا كون المجتمع والأمة ، حقيقية عينية ، لما صح الاعتقاد بأن لهما مصيراً مشتركاً ، وصحيفة أعمال مشتركة ، وحياة ومماتاً ، وشعوراً ووجداناً ، وطاعة وعصياناً^(٣) .

بل حينما نتعمق ونتأمل بكل دقة وشمولية ، نلاحظ أن هناك موارد في القرآن ، توضح أثر العقل الجمعي أو الشعور الجماعي ، إلى حد العمل الصادر من الفرد إلى مجتمعه ، والعمل الصادر من جيل إلى أجيال متأخرة . وذلك فيما كان لهم جميعاً فكراً إجتماعياً واحداً ، وإرادة إجتماعية واحدة . وبتعبير آخر لهم عقل جماعي ، وشعور إجتماعي ، وروح إجتماعية واحدة .

ولقد ورد في القرآن الكريم بخصوص قوم ثمود ما يؤكد مصداقية وصحة هذه المقولة . حيث عمد أحدهم إلى عقر ناقة صالح (ع) ، بعدما منعهم وحذرهم الله من ذلك ، فنسب القرآن هذا العمل الفردي إلى القوم بأجمعهم فقال : ﴿ فعقروها ﴾ ، فاعتبرهم جميعاً مجرمين ، كما اعتبرهم جميعاً مستحقين العقاب ، فقال تعالى :

﴿ فدمدم عليهم ربهم ﴾ .

ولقد أوضح الإمام علي عليه السلام ، ذلك في إحدى خطبه في نهج البلاغة . حين قال (ع) :

« إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد ، فعمّهم الله بالعذاب ، لما عمّوه بالرضا فقال : ﴿ فعقروها فأصبحوا نادمين ﴾ .

وفي مورد آخر من القرآن الكريم ، يبين لنا كيفية تصاعد وانتشار أثر

(٣) الشهيد مرتضى المطهري المجتمع والتاريخ ، وزارة الإرشاد الإسلامي ، جمهورية إيران الإسلامية ، أبريل ١٩٧٩ ، ص ٢٣ - ٢٧ .

العقل الجمعي والشعور الجماعي ، على العقل الفردي وشعوره وفكره
ووجدانه إلى درجة يبلغ حداً ، عبر عنه النبي نوح (ع) بقوله :
« ولن يلدوا إلا فاجراً كفاراً . . » .

إن العادات والتقاليد الإجتماعية ، لها قوة فعّالة على الأفراد في
المجتمع . فيقول الشاعر :

كل ابن آدم مقهور بعبادات لهن ينقاد في كل الإرادات
يجري عليهم فيما يبتغيه ولا ينفك عنهن حتى في الملذات

- إن الأفكار والمعتقدات ، أو العواطف والمشاعر والقيم والمعايير
الإجتماعية تلعب دوراً ضاعطاً ، ولها تأثير هائل في كثير من المجتمعات ،
على مشاعر وأفكار وتصورات وسلوكيات أفرادها .

- إن للإشاعات والإعلان والرأي العام الإجتماعي ، توجيهاً
خاصاً ، ودوراً ضاعطاً ، وأثراً فعّالاً في كثير من المواضيع والحالات الفردية ،
حتى قيل إن للرأي العام والإعلان والإشاعة ، شخصية معنوية تسيطر على
عقول وشعور أفراد المجتمع ، وأنها كثيراً ما توجه سلوكيات الأفراد (١) .
وهذه الملاحظة واضحة جداً في حياتنا العملية . فحينما نلقي نظرة عميقة
شاملة على المجتمعات الغربية بشكل خاص ، ومجتمعاتنا بشكل عام ، نرى
مدى الأموال والخطط والجهود والإمكانات المجددة للإعلان والدعاية ونشر
الإشاعة ، بغية تضليل الرأي العالمي في المجتمع .

وحينما نقلب صفحات التاريخ ونتمعن فيها ، نلاحظ إن الإشاعة
كانت تلعب دوراً كبيراً في كثير من المجتمعات في تضليل الناس وتحريفهم
عن جادة الطريق المستقيم ، فيذكر البورت ويوستمان في كتابهما عن
سيكولوجية الإشاعة ، إن أباطرة الرومان كانوا يعانون من الإشاعات التي

(١) لمزيد من التفصيل راجع :

katz, D, and others, public opinion and proganda, Halt and Rinehart, 1954.

تنتشر بين شعوب المدن والقرى ، إلى درجة قرروا في مواضع عديدة استخدام ما يسمى بحرس الإشاعات .

والإشاعة هي التي أدت بأبي الفلاسفة سقراط إلى أن يقف أمام المحكمة ، ويطلب منه القضاة أن يشرب السم ، لأنه بزعمهم أفسد عقول وأفكار شباب ذلك العصر ، وعلمهم الجدل والنقاش ، وحرصهم على الثورة والتمرد .

هذا الإتهام في أصله ، ما هو إلا إشاعة ملفقة ومدبرة قبلتها عقول وأفكار الناس حينذاك (١) .

- إن للبيئة الاجتماعية والأسرية ، تأثيراً كبيراً إلى درجة أن الأطفال يولدون وهم مسلمون ، ولكن البيئة والأباء يهودانهم أو مجسانهم . ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى :

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾ .

وتوضح لنا الآية إن الفرد إذا عاش في مجتمع فاسد ، فإنه - على الأغلب - سوف يكون فرداً فاسداً منحرفاً ، إذا استسلمت له إرادته الحرة . يقول الشاعر :

ولد الناس مطلقين ولكن قيدتهم سلاسل الإجتماع

- إن العقل الجمعي أو الشعور الجماعي في بعض الأحيان ، يشل حركة الفكر الإنساني ، ويجمد طاقاته وإمكانياته ، مما يجعل الفرد يعيش في قالب إجتماعي ضيق ، يتولد عنه تفوق حاد في أفكاره ومشاعره الواقعة تحت تأثير المجتمع .

- إن العقل الجمعي ، يبرز روح الرياء والخوف والخشية من الناس -

(١) البورت ، ويستمان ، سيكولوجية الإشاعة .

كما يوصفهم الله تعالى :

- ﴿ ولا تكونوا كاللذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء الناس ﴾ (١) .
- ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ﴾ (٢) .
- ﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ (٣) .

وخلاصة القول ، إن الإنسان في بعض الأحيان ، يتخذ قراراً أو موقفاً فردياً أو إجتماعياً ، أو يتبنى فكره أو رأياً معيناً ، أو يسلك سلوكاً ويفعل أفعالاً متميزة ، وهي بعيدة كل البعد عن منطق العقل والفترة السليمة ، وذلك بسبب الضغوط أو القوى والتأثير الإجتماعي ، الناتج من العقل الجمعي أو الشعور الجماعي ، على عقل وشعور وكيان الفرد . وبالتالي يعتبر العقل الجمعي والشعور الجماعي من موانع المعرفة الصحيحة ، ومن الأسباب والعوامل التي تضلل فكر وشعور الفرد ، وتحرفه عن جادة الطريق القويم والمستقيم .

حيث يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

- ﴿ قال يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ (١) .

ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا ، ثمة تساؤلات واستفسارات ، تتمحور حول مضمون ومحتوى السؤال التالي : هل الإنسان مخير أم مسير أمام تأثيرات العقل الجمعي أو الشعور الجماعي ؟ أو بتعبير آخر ، هل يستطيع الإنسان تجاوز حدود وقيود المجتمع أنه يبقى أسير تلك القيود ؟

وقبل أن نسهب في الإجابة على هذه التساؤلات ، نود أن ننوه مرة ثانية ، إلى أن القاعدة والأساس الذي تركز عليه طبيعة العلاقات

(١) سورة الأنفال الآية ٤٧ .

(٢) سورة النساء الآية ١٤٢ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

(١) سورة المائدة الآية ٧٧ .

والتفاعلات ، أو التأثيرات المتداخلة والمتبادلة .

ويقول عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾^(١) .

تؤكد لنا هذه الآية الشريفة ، إن الفساد الإجتماعي ، وضلال الناس ، وإنحرافهم عن جادة الحق ، لا يجبر الإنسان على الضلالة والإنحراف ، إذا كان من المهتدين .

وتجدر الإشارة إلى حقيقة هامة ، قد أشرنا إليها في موضع آخر من هذا الكتاب ، ولكن نظراً لأهميتها ، نرى إنها من المناسب ذكرها ولو بشيء من الإختصار والتركيز .

هذه الآية لا تعني البتة إنعزال وتقوقع الإنسان على نفسه ، والهروب من مسؤولياته الإجتماعية في إصلاح المجتمع من الإنحراف والضلال . فنحن حينما نفسر ونستوعب مضامين الآيات القرآنية ، يجب علينا إنتهاج المنهج الإسلامي الشمولي ، وليس التجزيئي الذي قد يضل به الإنسان في كثير من المواضع . فهناك آيات قرآنية تؤكد على أهمية وقدسسية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حيث يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ يا أيه الذين آمنوا قوا - أي صونوا - أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ .

فتلك الآية الكريمة ، تركز على إستقلالية الشخصية الإنسانية ، مقابل الشخصيات المنحرفة والمضلة في المجتمع ، وتكشف لنا أنه مهما كانت قوة وهيمنة الظروف والقوى الإجتماعية ، إلا أن الإنفلات من التبعية العمياء للمجتمع هو ديدن الإنسان ، لكونه حراً يمتلك الإرادة والنية ، وإنه

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

مسؤول عن سلوكياته وأفعاله . وسوف يوضع في قبر بمفرده ، ومحاسب
ويجازى على أعماله بمفرده . فلماذا إذن العبودية والإنقياد والإستسلام
للآخرين؟! ولماذا هذا الخوض مع الخائضين؟! .

فالنظرة المتعمقة للآيات القرآنية التالية ، تؤكد لنا تعارض مفهوم
الجبرية التاريخية أو الحتمية الإجتماعية ، مع مبدأ التكليف والمسؤولية الذي
يتبناه الإسلام بكل وضوح وجلاء .

فيقول عز وجل :

﴿ كل أمرىء بما كسب رهين ﴾ (١) .

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألوا عما كانوا

يعملون ﴾ (٢) .

﴿ وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ (٣) .

﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها

وقد خاب من دساها ﴾ .

ويقول الرسول الأكرم (ص) :

« إذا رأيت الناس قد مزجت عهودهم وخفت أماناتهم ، وكانوا

هكذا - وشبك بين أنامله - فالزم بيتك ، وأملك عليك لسانك ، وخذ ما

تعرف ، ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة أمر نفسك ، ودع عنك أمر

العامة » .

فخلاصة الكلام ، إن النظرة الواقعية المتأملة إلى فلسفة التاريخ

والإجتماع والإنسان والكون ، وإلى طبيعة البنية والتركيبية الداخلية

للإنسان ، وإلى ماهية فطرته السليمة ، وإمكانياتها الهائلة ، تؤكد لنا إن

(١) سورة الطور الآية ٢١ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٤ .

(٣) سورة النجم الآية ٣٩ .

للإنسان جانبين ، جانب الخضوع والإستسلام ، وبهذا الجانب ينسجم ويتوافق مع مجتمعه وبيئته أو العقل الإجتماعي أو الشعور الجماعي ، من والديه وأسرته وأصدقائه وأساتذته وعشيرته وطائفته إلى مجتمعه ومحيطه الكلي المحاط به .

والجانب الآخر ، هو جانب التحرر والإنفلات ، وكسر القيود والسلاسل البيئية ، والإنطلاق في رحاب الحياة الواسعة فكراً وشعوراً ، واتجاهاً وسلوكاً ، وقولاً وعملاً ، وروحاً وعقلاً ، وذلك بواسطة وقود وقوى زود بها الله هذا الإنسان من الشعور بالذاتية والإستقلالية ، والشخصية الحرة المتميزة من زاوية ، ومنحه قوة الإدراك والعقل القادر على التمييز بين الغث والسمين ، والدخيل والأصيل ، والخطأ والصواب ، والعدل والظلم ، والحق والباطل ، والنافع والضار ، والأسود والأبيض ، والصدق والكذب ، و . . إلخ . إضافة إلى كون العقل والإدراك الذهني قادران على اختيار وتبني مقاييس وموازين إنسانية فطرية ، لتقويم وتشخيص الأفكار والآراء والعواطف والمشاعر الإجتماعية الصائبة والقويمة ، التي تخدم الفرد والمجتمع معاً ، وتحقق إنسانية الإنسان ، وإجتماعية أو جماعية المجتمع من جانب آخر .

فالإنسان قادر على ترك عمل ما ، رغم أنه يوافق غريزته الطبيعية والحيوانية دون وجود أي رادع أو مانع خارجي ، إلا أنه يتركه بعد تفكير وموازنة لمصلحة في الأمر .

كما أنه قادر على القيام بعمل ، يعلم أنه مخالف لطبيعته تماماً ، دون وجود عامل يجبره عليه ، وذلك لأنه فكر ورأي المصلحة في ذلك .

فالإنسان كالحیوان يقع تحت تأثير وتفاعل ، ومؤثرات وعلاقات نفسية ، أو رغبات داخلية وضغوط إجتماعية خارجية ، ولكنه ليس مكتوف اليدين أمامها مسخراً لها ، وإنما له حرته وكيانه وشخصيته المستقلة في قبالتها . بمعنى أنه لو توفرت كل العوامل الضرورية لقيام حيوان ما بعمل ،

فسوف يتحرك إلزاماً تجاهها ، في حين لو توفرت تلك العوامل الضرورية الضاغطة في حياة إنسان ما ، فإنه بقوة عقله وإدراكه وإرادته الحرة القوية ، يمكن أن يستجيب ويخضع لها ، أو يتركها ويقف موقفاً مناهضاً ومخالفاً لها ، وما صلاح بعض الأفراد في المجتمعات الفاسدة ، وانحراف البعض الآخر في المجتمعات الصالحة ، إلا خير دليل وشاهد على ذلك .

فإن حصول هذا العمل ، مشروط بموافقة العقل ، كسلطة تشريعية عليا ، وإمضاء الإرادة ، كقوة تنفيذية مجرية . . ومن هنا يعلم الإنسان أنه ، مؤثر في مصيره كعامل مختار . بمعنى أنه بعد أن تتوفر كل الشرائط الطبيعية المؤثرة ، يبقى له إختياره وحرية في الفعل أو الترك ، أو الإستجابة أو الرفض (١) .

(١) الشهيد مرتضى المطهري ، الإنسان والقدر ، دار التبليغ الإسلامي ، دار التعارف للمطبوعات - بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ ، ص ٨٦ - ٨٨ .

الظن والشك كمانع للمعرفة اليقينية الحقيقية

الإنسان الواعي ، المؤمن والمدرك ، لمجريات الحياة ومسار تطورها ، يجد نوعاً من الخطورة في الإعتماد على أسس واهية أو قواعد هشة في تقويم الأشخاص والموضوعات ، كقاعدة الظن والشك .

والملاحظ أن الإنسان الذي يستند إلى قاعدة الشك والريبة في تعامله مع متغيرات الحياة ، يتسم بالتذبذب وعدم الإستقرار ، واتخاذ قرارات وأحكام ، إرتجالية سريعة تبتعد عن مقاييس المنطق والعقل والشرع ، مما تؤدي بحياته إلى الحيرة والتذبذب ، وتحويل حياته في بعض الأحيان إلى جحيم ونار ، تلتهب وتفتك بحياته الفردية والأسرية والاجتماعية .

فالأمر يتطلب منا الحيطة والحذر ، واليقظة والتأني قبال موضوعات الحياة . ومن هذا المنطلق سوف نستعرض موضوع الظن والشك وأثرهما في تحريف وتضليل الإنسان . أو بالأحرى منع الإنسان من رؤية الحقائق الموضوعية الصادقة .

مفهوم الظن أو الشك :

يعرف الظن أو الشك أو الحيرة بأنها حالة من حالات رداءة الكيفية . وهي عجز النفس عن تحصيل وتحقيق الحق وإبطال الباطل والضلال في

المطالب والمواضع الخفية^(١) .

الشك والحيرة أو الظن في اللغة :

في اللغة ظن الشيء ظناً ، أي اعتقده بغير يقين .

الظن في لغة الفلاسفة :

الظن في اصطلاح الفلاسفة هو : الإعتقاد الراجح مع احتمال النقيضين . ويقول ابن سينا في حق الظن واليقين : « الظن الحق هو رأي في شيء أنه كذا ، ويمكن أن لا يكون كذا ، والعلم والإعتقاد بأن الشيء كذا ، أنه لا يمكن أن لا يكون كذا^(٢) »

الملاحظ أن حالة الشك والظن ، تظهر عادة عندما توجد عدة حالات ، وعدة أدلة وحقائق ، تتسم بالتباين والتعارض بينهم ، الأمر الذي يترتب عليه صعوبة تحديد وتبيان الحقيقة ، أو الموقف الصحيح المنسجم والملتمس مع الحقيقة اليقينية الصادقة ومع حكم العقل والشرع .

فموقف الانسان الشاك أو الظان أو المتحير يتصف بالتذبذب وعدم الإستقرار على حقيقة واحدة ، أو فكرة معينة ، أو موقف واضح ، فهو ينتقل من حالة إلى حالة ، ومن فكرة إلى فكرة أخرى ، ومنموقف إلى موقف مضاد ومتباين ، وهي بلا شك حالة في غاية الأهمية والخطورة ، تهلك النفس وتفسدها ، إذا لم توضع لها نهاية صحيحة وطبيعية .

المفهوم العملي للظن :

سنبين فيما يلي المفهوم العملي للظن ، ومدى إمكانية التعويل والإعتماد عليه ، في تبني واتخاذ المواقف والقرارات العملية في حياة

(١) العلامة محمد مهدي النراقي ، جامع السعادات ، منشورات جامعة النجف الأشرف ، الجزء الأول ص ١٥٣ .

(٢) النجاة ص ١٣٧ .

الإنسان . ونعتقد أن هذه الحقيقة التي سوف نذكرها عن المفهوم العملي الحقيقي والتصديقي للظن ، هي حقيقة وفكرة مع الأسف الشديد غائبة عن أذهان عامة الناس حتى عند خاصة المثقفين والمفكرين .

فهناك من يعتقد بأن درجة الظن إذا ما تعدت ٥٠٪ إيجاباً أو سلباً ، فإن الإنسان يستطيع أن يعوّل أو يعتمد على هذه الدرجة في اتخاذ مواقف وقرارات عملية معينة أو رفضها . وهناك من يرى أنه كلما ازدادت درجة الظن سلباً أو إيجاباً ، كلما نستطيع أن نعلم ونعوّل عليه في تبني أو رفض قرارات ومواقف عملية معينة بصورة أفضل وأدق . وقبل أن نستعرض رأينا وموقفنا من هذه المقولة ، يهمننا أولاً تبيان حقيقتين أو مفهوميين يتعلقان بالموضوع وهما :

أولاً : كثيراً ما يكون الإنسان أمام موقف أو قرار ، يحمل في طياته العديد من القضايا والمسائل التي تتسم كلها بالظن والشك أو الحيرة ، ويريد أن يختار مسألة أو حقيقة واحدة كموقف عملي يقيني يفني بالسوابج والمسؤولية الملقاة على عاتقه .

في هذا الموضوع أو الجو المشحون بالمسائل والقضايا الظنية ، نعتقد أنه من الحكمة والمنطق ، أن يتم اختيار القضايا والمسائل التي تقترب بدرجة أكبر نسبياً إلى وضع الظن الإيجابي . فعلى سبيل المثال ، إذا كانت هناك مسائل وأمور لها من الظن الإيجابي بعضها ٥٠٪ أو ٦٠٪ وآخر ٩٠٪ فنختار المسألة أو الأمر الذي يتصف بـ ٩٠٪ من الظن الإيجابي ، ونعتمد عليه في اختيار قرار أو موقف عملي معين .

فحينما نكون أمام موقف لا نحصل على يقين في المسائل الظنية والمحتملة ، فإن المنطق والعقل أو الشرع يقتضي موقفاً يعتمد فيه على الظن والأخذ به في الاعتبار ، مما يلزمنا قبول الظن بدل الظن ، والإحتمال بدل الإحتمال ، وليس الإحتمال والظن بدلاً من اليقين ، لأنه يوقعنا في أخطاء

وأوهام عقلية ونفسية من الصعب التخلص منها .

ثانياً : وأحياناً نكون أمام موقف ، أو في حالة نريد المفاضلة والإعتماد لا على أساس إختيار أفضل الأمور من بين المسائل الظنية من حيث درجة الظن الإيجابي ، بل نريد المفاضلة والإعتماد على أساس اليقين أو الشك .

فهناك حالة الشك أو الظن والحيرة ، مقابل حالة اليقين أو الإستقرار والإطمئنان ، وليس مقابلهما شكوك وظنون أعلى أو أقل درجة منها . ففي حالة مقارنة الشك أو الظن باليقين ، فإن الظن مهما بلغت درجته الإيجابية وإن كانت ٩٩,٩٩٪ فهو يبقى ضمن دائرة الشك والظن ، دون اليقين القطعي

والمطلع على الآيات القرآنية الواردة بصدد الظن واليقين ، يستنتج بكل وضوح وجلاء ، أن القرآن الكريم يعتمد على اليقين المنطقي والشرعي ، بحيث تتولد عند الإنسان حالة فكرية وشعورية تبلغ التأكيد أو الدقة والإطمئنان بمقدار ١٠٠٪ . أما ما دون ذلك ، تبقى في إطار حالة الشك والظن ، وإن كانت درجة الظن أو الشك ١,٠٠٠٠١٪ والله عز وجل يقول في سورة النجم آية (٢٨) ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ لهذا سوف نعرض صور الحياة ومظاهرها المختلفة والقائمة بهذين المفهومين ، على آيات القرآن الكريم ، لتكون هي المعيار الأساسي للتقويم ، حتى نستوفي الغرض ، ونبين كيف عالج الله عز وجل نواحي القصور في المناهج الوضعية .

ومن الجدير بالذكر ، أن بعض الفلاسفة الغرب قد فطنوا لهذه الحقيقة القرآنية الثابتة . فهذا مثلاً ديكارت الفيلسوف الغربي المشهور يقول : « إنني بعد اليوم لن أقبل أية مسألة كانت ما لم أدرسها وأحقق حولها ، وإذا لم أتأكد منها مئة بالمائة ، فلن أستفيد منها ، وأهملها وإن كان احتمال الخطأ واحد في المائة .

الإعتماد على الظن والخيال مقام العلم واليقين :

من الحواجز والسدود التي يضعها الإنسان أمام بصره وسمعه ، ويشكلها بيده وقلبه ، فتحجب عنه رؤية الحقيقة ومعرفة المسائل والمواقف اليقينية الصادقة ، هي حواجز وسدود الظن . أي اتباع الظن في الحكم عند التقصي عن الحقائق ، وتبني المواقف العملية ، أو إتخاذ القرارات الهامة والمصيرية في حياة الإنسان .

والظن في المنطق والمنظار القرآني ، يعتبر من المصادر التي نستقي منها معارف ومسائل ظنية ، توقع الإنسان في موضع الخطأ والانحراف .

فاتباع البشرية منطق اليقين والإبتعاد عن الظن ، هو المقياس المنطقي السليم الذي يحفظ الإنسان من الوقوع في الأخطاء أو المواقف الانحرافية في حياته .

فالعلم والعقل ، أو الحكمة والشرع ، يحذران الإنسان من تحويل اليقين إلى ما ليس بيقين ، فهو يعتبر من الأخطاء الجسيمة التي تقع فيها البشرية . عندما يحسب الظن بمنزلة اليقين .

وبناءً على ذلك ، يُطلب من الإنسان أن يقيس مقدار اقتراب القضية أو الموضوع من الحق والصدق ، بمقدار متانة وشرعية الحجة التي تشهد لها ، وتستدل عليها . فإن كانت الحجة قاطعة دامغة ، فالقضية صحيحة وصادقة ، وإن كانت غير قاطعة ، فالقضية أو المسألة واقعة في دائرة الظن والشك .

والمتبوع للآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة (ع) ، والحكماء ، يستنتج بكل وضوح وجلاء ، مدى التركيز والتوضيح من القرآن والسنة والتأريخ على أن الظن أو الشك كان سبباً

وعاملاً في تضليل الناس ، وإفساد معتقداتهم ، وهدم حياتهم الفردية والإجتماعية .

يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس بهذا الصدد :

﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾^(١) .
وقوله تعالى :

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً . إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾^(٢) .

ويُستدل من هاتين الآيتين على أن عامة الناس وخاصة السذج منهم ، لا يتبعون إلا الظن في مواقفهم ومعتقداتهم وسلوكياتهم الفردية والإجتماعية . وأن هذا الظن الغالب والمهيمن على أفكارنا ومشاعرنا وتصوراتنا في كثير من الأحيان ، قد لا يستند ولا يرتكز على أسس وركائز متينة وصحيحة ، أو لا يستند على أدلة وبراهين منطقية عقلية ، بل يرتكز في أغلب الأحيان وخاصة عند الهمج والرعاع ، الذين ينعقون مع كل ناعق (وهم مع الأسف الشديد يمثلون الغالبية العظمى في المجتمعات) ، على أوهام وأحلام عائمة ، وتصورات ساذجة ، وطباع ذاتية ، إلى درجة تصبح قيمة الظن والشك من المنظار الإيماني أو الفلسفي ، لا تساوي شيئاً البتة في مقابل اليقين أو الإطمئنان والصدق .

وحيثما نستقرىء الأحداث والحالات المتعددة في التاريخ البشري بشكل عام ، وإلى التاريخ الفكري والحضاري أو الفلسفي عند البشرية بشكل خاص ، تتضح لنا مدى صحة ومصداقية تلك المقولة التي تجسدها الآيات القرآنية التالية :

﴿ بل إتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾^(١) .

(١) سورة الأنعام الآية (١١٦) .

(٢) سورة يونس الآية (٣٦) .

(١) سورة الروم الآية (٢٩) .

﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ (٢) .

ولقد وصل الأمر بالبشرية إلى درجة ، إعتمدت على الظن والشك المرتكزين على الأوهام والأحلام العائمة والتصورات الساذجة في بناء صرحها الفكري والحضاري ، وبلورة أفكارها الفلسفية والاجتماعية عن الكون والإله والحياة والإنسان والعلائق المتداخلة بينهم .

ومن بين هذه المذاهب والمدارس الفلسفية والاجتماعية ، هي مدرسة أو مذهب الشك والظن ، الذي لا يعتقد ولا يؤمن بإمكانية وجود معارف وحقائق يقينية تصديقية في الكون . بينما هناك مذاهب ومدارس أخرى ، تعتمد على قاعدة الظن والشك ، بشكل تتسع وتضيق دائرتها تبعاً لمقدار ودرجة الإعتماد على الشك من جانب ، وموضوعاته من جانب آخر .

تعالوا نغور في كيائنا ، في هذا البحر العميق ، لكي نتعرف على طبيعتنا وستتنا ، ومنشأ سلوكياتنا وأفكارنا ، وذلك بإلقاء نظرة عميقة متفحصة إلى تلك المقاطع والصور القائمة المظلمة من حياتنا ، التي قد تشربت بالظلم والفساد ، والتهكم والإستهزاء ، والتسرع والعجلة ، والحقد والحسد ، والريبة والشك ، . . إلخ ، والتي هي أقرب إلى الخيال والأوهام الحاملة من الحقيقة والواقع ، وهذا ما يدعونا إلى الرثاء والسخرية من واقعنا وعقولنا .

ألا ترون بشكل واضح وجلي ، أن قاعدة الظن والحيرة أو الشك والريبة هي الركيزة التي ننطلق منها ، ونستند عليها في أحكامنا ومواقفنا أو مشاعرنا وأفكارنا ! وأنها هي القالب الذي تتقوّل فيه سلوكياتنا وأفكارنا . فكم لنا من أخوة أعزاء وأصدقاء ، كانوا فيما مضى محطة إرتياحنا ، إذ احتوتهم قلوبنا وتربطنا وإياهم روابط متينة ، لكن سرعان ما انتزعت هذه

(٢) سورة الجاثية الآية (٢٤) .

المحبة ، وتهدم صرح الأخوة ، حينما وقعنا في شباك الشك والريبة في تعاملنا معهم واحتكاكنا بهم ، مما أصبحنا مصداق لقول الشاعر :

ما زلت ترجمة بظن سيء حتى أوضعت صديقك المختاراً
وعرى الوداد إذا أحسبت ريبة تحت القميص تفارق الإزراراً
وكم من أسرة تهدمت أركانها ، وتشتت أفرادها ، وتفتت أجزاءها ،
وتنافرت ذراتها ، بسبب حكم جاهل ظالم ، إستند على أساس الشك
والظن !؟

وكم من مواقف إنهازمية متذبذبة وكاذبة واهمة ، وقفناها أمام رب
العالمين ، خدعنا أنفسنا ، واحتقرنا عقولنا ، أهدرنا طاقاتنا وجهودنا ،
وظلمنا أنفسنا وغيرنا ، بسبب الظن والشك بالله العليم القدير !؟

وكم من إشاعات وأخبار كاذبة بعيدة كل البعد عن منطق العقل
والحكمة ، إعتبرناها قاعدة وركيزة أساسية في بناء أحكامنا ومشاعرنا
وأفكارنا لا لشيء ، إلا لأنها توافق غرائزنا الشيطانية والبهيمية ، وأهواءنا
الشخصية ، ورغباتنا الذاتية الآنية الواقعة تحت تأثير الشك والظن .

وكم من مرة رأينا دخاناً بدون نار !؟
وكم شاهدنا غباراً بدون تراب !؟ وسراباً بلا ماء !؟
وكم من مرة غضبنا بدون سبب !؟ وهجرنا بدون سبب !؟
وكم من مرة ضحك لنا إنسان ، ظننا أنه يتهكم بنا !؟
وكم من مرة مازحنا إنسان ، وظننا أنه يسخر منا !؟
وكم من مرة بالغ لنا أحد الأخوة المؤمنين في التحية والسلام ، وظننا
أنه يخادعنا ويداجينا ويتملق علينا !؟

موقف الإسلام * :

تعال معي أيها القارئ العزيز ، بتجول متطلعين لا في ثنايا هذا

(*) لمزيد من التفصيل والشرح راجع ١٣ د . جعفر عباس حاجي «الظن والشك وأثرهما في تحريف =

الكون الفسيح والأفق البعيد ، ولا في بواطن أنفسنا العميقة والشاهقة ، بل فيما حولنا من أفكار وسلوكيات ومشاعر من جانب ، ومقارنتها وموازنتها مع ما هو موجود في دستور حياتنا من جانب آخر .

دعونا نلقي نظرة فاحصة وعميقة ، إلى تلك الآيات القرآنية الكريمة التي نقرأها ونكررها يومياً ، بتلكك اللسان ، ولقلقته فقط من دون أن تلقي أثراً ، وتحرك ساكناً من مشاعرنا وعقولنا ، ومن دون أن نعتبر بها أو نقيس ونوازن بها الأمور والقضايا أو السلوكيات والأفعال ، إلى درجة فقدت تلك الكلمات الإلهية النورانية ، مضمونها ومحتواها ، حتى أصبح أثرها كالألة التي تدور في الفراغ ، تسمع جعجعتها ولا ترى طحناً أو دقيقاً .

دعونا نستنطق الآيات الربانية ، سواء تلك التي وردت في القرآن المجيد والأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة الأطهار عليهم السلام أو الحكماء والعقلاء من المسلمين وغيرهم ، ولنلقي الضوء على آثار الشك والظن في حياتنا ، ونبين الموقف الإسلامي الإنساني القويم تجاه هذه الحالة النفسية المرضية عند الإنسان .

يقول عز وجل في محكم كتابه المقدس :

﴿ زين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ (١) .
﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ (٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ (٣) .
﴿ لا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والفؤاد كل أولئك كان

١- وتضليل الإنسان عن الحق والحقيقة» سلسلة رقم (١٠) من مواقع المعرفة . مطابع كويت نايمز ١٢١٩٨٥ الكويت .

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٣ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١١١ .

عنه مسؤولاً ﴿ (١) .

﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ (٢) .

نستدل من هذا الطرح القرآني أن معيار اليقين هو الذي ينبغي أن يكون المحور الذي يستقطب أفعالنا وأخبارنا وحقائقنا .

ويقول الإمام علي عليه السلام بهذا الصدد :

« كم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله ، كما يزخرف الدرهم النحاس بالفضة المموهة » (٣) .

وقوله (ع) :

« أعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية ، فإن رواة العلم كثير ، ورعاته قليل » (١) .

وقوله (ع) :

« أما أنه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع . فسئل عن معنى قوله (ع) هذا ، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنيه وعينه ، ثم قال الباطل أن تقول سمعت ، والحق أن تقول رأيت » (٢) .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين (ع) في كلام له :

« ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً » .

وخلاصة القول ، أن الحكمة الإلهية ، والمنطق القرآني ، والفضيلة

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦ .

(٢) سورة النجم الآية ٢٨ .

(٣) غرر الحكم .

(١) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

(٢) بحار الأنوار ج ٧٥ ، ص ١٩٧ .

والشعور الإنساني ، أمور تؤكد لنا على ضرورة إتباع قاعدة اليقين والصدق والإطمئنان قبل صدور الأحكام ، أو تبني المواقف ، أو تلقي الأفكار والمفاهيم ، وأن لا نعتقد ولا نستند إلى ركيزة الظن أو الشك والحيرة في مسيرتنا الإرتقائية في الحياة .

وإذا ما اشتد مرض سوء الظن عند صاحبه ، يوجب حالة نقص مركب شديد وخطير ، يفتك بجميع القيم والمبادئ والمعتقدات ، ويبلغ الأمر حداً يسيء الظن بكل شيء يقع بصره عليه ، وكل أمر يفكر به ، فيسعى ليجد نقصاً وعبياً غاضاً بصره عن محاسنه ومزاياه الحسنة .

فيقول عز وجل :

- ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً . . ﴾ (١) .
- ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ (٢) .
- ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ (٣) .
- ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ (٤) .

ويصل الأمر عند هذا الإنسان المريض ، أن تنقلب الموازين ، وتبدل المقاييس ، ويرى الصور مقلوبة ، فيرى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، والأسود أبيضاً ، والأبيض أسوداً ، حتى بالنسبة لتلك الحقائق الدامغة والصورة النقية الواضحة .

(١) سورة الفتح الآية ١٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٦٦ .

(٣) سورة النجم الآية ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٥٤ .

الأفكار والدوافع اللاشعورية كمانع للمعرفة الصادقة

قد يظن الإنسان أن جميع سلوكياته وتصرفاته والأحكام الفردية والاجتماعية ، التي تصدر منه إزاء مواقف معينة في حياته ، منشأها الشعور - أي الإدراك الشعوري - حيث يعلم ويدرك الإنسان أو نفسه بأفعالها وإنفعالاتها . أي أن هذا الشعور الذي هو عبارة عن معرفة مباشرة أو حدس نفسي ، يطلع الإنسان به مباشرة على ما يجري في نفسه من عواطف وأفكار وذكريات ، التي تعتبر بدورها قاعدة لإصدار الأحكام ، وتبني المواقف في الحياة ، وأنه يدرك ألوان حياته الداخلية من غير أن يحتاج في ذلك كله إلى واسطة خارجية .

ولكن النظرة الواقعية العميقة ، إلى أنفسنا وإلى الظواهر السلوكية النابعة من تصرفاتنا وأفعالنا ، تؤكد لنا أن هناك مؤثرات وعوامل غير شعورية ، مخبئة في باطن الإنسان ، تدفعه وتسيّره في اتجاهات وقنوات معينة لا يشعر الإنسان بها ، بحيث يرى نفسه مؤطراً في هذا القلب من التفكير والشعور والفعل والإنفعال من دون علم وإرادة .

أي أن هناك حياة خفية غير ظاهرة وراء الحياة النفسية الشعورية أو الظاهرة . فرب هوى خفي مزق أحشائنا من دون أن نشعر به ، ورب ألم داخلي لم نعرف سبباً . فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هو هل ظفر الإنسان بمعرفة كل ما تنطوي عليه نفسه من الأحوال الباطنية ؟ وهل يدري

لماذا كره ذلك الشخص وأحب الآخر ؟ . ولماذا اتخذ موقفاً مغايراً ومخالفاً -
للآراء السديدة والمواقف الحكيمة ؟ . إن في أعماق نفوسنا عالماً خفياً ،
يشتمل على نزعات خفية لا نشعر بها ، إلا عند إشتدادها وظهورها . فكأن
الشعور لا يشمل جميع الأحوال النفسية، ولعله ليس إلا برهة قصيرة من حياة
النفس . وخير من شبه ووصف هذا العالم الخفي والشعور المخبوء في أعماق
نفوسنا ، هي الآيات القرآنية الشريفة وأقوال الأنبياء والأئمة عليهم السلام
وحكماء الإسلام .

فيصف العلامة الشهيد مرتضى المطهري في إحدى محاضراته . أن
النفس أو الحياة الخفية الباطنة (اللاشعور) ، والنفس أو الحياة الشعورية
الظاهرة هي مثل البطيخ في حوض من الماء ، الجزء البسيط منه هو
الظاهر ، والجزء الأعظم من البطيخ مخفي تحت الماء ، لا يرى الإنسان
حجمه ومحتواه .

وحيثما نستقرئ كتبنا الثقافية ، نرى بوضوح وجلاء ، أن موضوع
اللاشعور والحياة الخفية عند الإنسان ، لم يشبع بحثاً ودراسة . بالرغم من
كثرة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة . بينما أشبع هذا الموضوع
تحليلاً وبحثاً عميقاً من قبل رواد ومفكري الغرب وعلى رأسهم سيجموند
فرويد العالم النفساني المشهور .

وبناء على ذلك ، سنقوم بشرح مفهوم الشعور واللاشعور في الفكر
الإسلامي من جانب وإستعراض وتبيان الدراسات والأبحاث التي قام بها
الباحثون والمفكرون الغربيون بشكل عام مع التركيز على ذلك الجانب الذي
ينسجم ويتفق مع الأطروحة الإسلامية وذلك بشكل مختصر وموجز (1) .

(1) Beyond the pleasure principle, London 1932, translated from «Jenseits des Lust-
prinzips», Vienna 1920.

الفروض الرئيسية في التحليل النفسي :

الفرض الأساسي الذي يستند إليه التحليل النفسي ، هو تقسيم الحياة العقلية إلى ما هو شعوري Conxciuous وما هو لا شعوري Unconxciuous⁽¹⁾ .

وبالتالي يستند التحليل النفسي على أساس ، أن الشعور ليس هو الحياة العقلية الوحيدة ، بل أنه خاصة وجزء من الحياة العقلية المدركة . وهناك حياة عقلية أو عوامل أخرى غير مرئية وغير ظاهرة للإنسان .

ولفظ « شعوري » يرجع إلى إدراك مباشر يقيني للنفس بأفعالها وإنفعالاتها . وأن أفكارنا وذكرياتنا النفسية والفكرية قد لا تكون دائماً شعورية . حيث إنها تمتاز بكونها حالة شعورية مستمرة لفترة زمنية قصيرة جداً ، وسرعان ما تختفي عن شعور الإنسان وتختبئ في مكان معين ، هو اللاشعور أو الجزء الباطني الخفي من حياة الإنسان . وهذا ما أثبتته التجربة والخبرة العملية في حياة الإنسان .

وهناك من يقسم الحياة العقلية والنفسية للإنسان إلى حياة شعورية ولا شعورية . والحياة اللاشعورية إلى قسمين⁽¹⁾ :

أ - اللاشعور الذي يكون كامناً في نفس الإنسان . ولكنه يستطيع أن يصبح شعورياً بالطريقة الاعتيادية أو التلقائية . ويطلق عليه مصطلح ما قبل الشعور (Pre Conscius) وهو أقرب إلى الشعور من اللاشعور .

ب - اللاشعور الذي يكون دفيناً في أعماق النفس البشرية . ولا يستطيع أن يصبح شعورياً بالطريقة التلقائية الاعتيادية ، بل يحتاج الأمر إلى عوامل خارجية وظروف خاصة وجهود كبيرة جداً .

(1) سيجموند فرويد ، علم ما وراء الطبيعة ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة بيروت ١٩٨٢ .
(١) سيجموند فرويد ، الذات والغرائز ، ترجمة ، د . محمد عثمان ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦١ ص ٢٥ .

اللاشعور في الحياة العقلية :

كلنا نعلم أن هذه الكميات والمجموعات اللانهائية من الذكريات والأحداث بعد غيابها وزوالها عن دائرة وساحة الشعور ، تختفي وتظل في مكان خاص في النفس البشرية . وأن نسيان الذكريات لا يؤدي إلى زوالها ومحوها من النفس ، بل تبقى مخبوءة وراء حجرات وحجرات في اللاشعور . كما أن إنطفاء النور لا يعني غياب وفقدان الأشياء حول الإنسان ، بل أنه يعني زوال وفقدان الإحساس بها فقط .

ونلاحظ أن كثيراً من حالات إسترجاع الذكريات في حياة الإنسان ، ناشئاً من أسباب وعوامل لا شعورية .

وهناك حالات ينتقل الإنسان فيها من فكرة أو موضوع إلى فكرة وموضوع آخر تلقائي أوتوماتيكي ، من غير أن يشعر بالأفكار والحلقات المتوسطة ، التي يمر بها أو التي قادته إليها . فهي حالة لا شعورية في كثير من الأحيان ، وإن كانت شعورية سريعة متبوعة بنسيان سريع ، كما يرى (استيوارت ميل) و (ويليم جيمس) .

ويستدل سيجموند فرويد على أن الحالات التي يخطأ الإنسان فيها من غير قصد أو شعور ، بأنها حالات تدل على ميول وأفكار ومشاعر حقيقية مخبوءة في لاشعور الإنسان .

وهناك ظواهر مرضية عديدة تؤكد وجود حياة اللاشعور عند الإنسان ، أو أن عوامل وأسباب لا شعورية تتحكم به وتسيّره في الحياة . كما هو حادث في حالة الهرع والهستيريا أو إختناق الرحم والأمراض الشخصية الأخرى^(١) .

(١) د . جميل صليبا ، علم النفس ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت . الطبعة الثالثة ١٩٧٢ ، ص ١٦٧ - ١٧٠ .

ونستخلص من إستعراضنا لموضوع اللاشعور كما هو وارد في فكر علماء النفس الغربيين ، إن هناك حياة شعورية منوّرة مكشوفة واضحة في نفس الإنسان ، وهناك حياة نفسية مظلمة غير عليمه ، مؤلفة من نزعات خفية ، وأهواء ورغبات وليدة ، وأحلام مكبوتة ، وعادات وتقاليد مكتسبة . ولو أردنا أن ننسب ساحة هذه الحياة أو الجزء المظلم والخفي من حياة الإنسان ، بذل الجزء أو الساحة الشعورية المكشوفة والمميزة ، لكانت الحياة الأولى (اللاشعورية الخفية) أوسع نطاقاً وساحة ، وأغزر مادة ، وأكثر تأثيراً في مواضع عديدة من حياة الإنسان . وأن حياة الشعور حياة إبداع وإبتكار ، بينما حياة اللاشعور حياة إتباع وتعويل .

ويتجسد هذا المفهوم في قول الأستاذ الشهيد مرتضى المطهري ، حينما يقول في إحدى محاضراته ، أن اللاشعور بمثابة ذلك الجزء المخفي من البطيخ في وسط حوض مملوء بالماء ، بينما حياة الشعور والإدراك ، هي بمثابة الجزء البسيط واليسير من البطيخ البارز فوق سطح الماء في ذلك الحوض .

وجهة نظر الإسلام من حالة اللاشعور : *

بغض النظر عما قيل في الصفحات السابقة عن آراء ونظريات فلاسفة وعلماء النفس في المشرق والمغرب عن موضع اللاشعور ، وبغض النظر عما أصابوا الرأي فيه أم أخطأوا ، وعن مدى مصداقية وصحة جميع ما قيل عنه ، فإننا نعتقد بحالة اللاشعور ، ونعتقد بوجود أفكار وآراء وأحداث وذكريات ، أو عوامل وأسباب متباينة متعددة خفية ومخبوءة في باطن الشعور الإنساني ، تدفعه في بعض الأحيان إلى إصدار أحكام ، أو تبني مواقف معينة أو رفض فكرة معينة من دون أن يشعر بها الشخص ، أو من دون أن يعلم بأسبابها وعللها الظاهرية التي دفعته إلى ذلك الموقف . وبصورة أكثر دقة وشمولية ، نقول بأن هناك حالات نفسية وعقلية ، ومواقف

(*) لمزيد من التفصيل والشرح راجع د جعفر عباس حاجي . الأفكار والدوافع اللاشعورية وأثرها على تحريف الحقائق . سلسلة موانع المعرفة (٦) - كويت تايمز ١٩٨٥ .

وسلوكيات ، وآراء وأفكار ، يتخذها الإنسان من غير أن يشعر بها وبأسبابها وعللها الظاهرية التي دفعته إلى ذلك .

وهناك أمثلة عديدة يمكن أن نستشهد بها لدعم رأينا وإثبات مدى مصادقته وصحته من المنظور الإسلامي .

فمثلاً تظهر حالات الكبر أو حب الذات من دون أن يشعر الإنسان بها ، إلا حين ظهورها وانكشافها بعد فترة زمنية معينة . وتفسيرنا لهذه الظاهرة ، هو أن في داخل وباطن لا شعور الإنسان رذائل وخبائث أو قوى شيطانية متعددة ، ترسخت وتنامت ثم اختفت في باطنه ، منذ فترة سابقة من دون أن ينتبه الإنسان لها ، وبسبب إهماله للأشياء البسيطة أو الذنوب والرذائل الصغيرة ، تراكمت واختفت في لا شعوره مما تظهر في بعض الأحيان إما بصورة تلقائية ، أو عندما يصادف الإنسان وضعاً وحالة لها إرتباط وإنسجام مع تلك القوى الشيطانية أو الرذائل المذمومة .

وهناك حالات معينة من اللاشعور تظهر في حياة الإنسان ، بحيث يسلك سلوكاً أو يتخذ موقفاً إنحرافياً مخالفاً للعقل والشريعة ، بينما يعتقد أنه مصيب وعلى حق ، بل يرى إنها عملية جهاد في سبيل الله والمؤمنين ، وإنها واجبة عليه وهو لا يشعر بفداحة الموقف أو خطورة الوضع أو النهاية المؤلمة وسوء العاقبة . وهذا الشيء يعتبر من أكثر الأمراض النفسية الإنحرافية خطورة في حياة الإنسان ، ويصاب بها أحياناً المؤمنون المخلصون أيضاً .

وخطورة هذا الوضع تنشأ من أن الشخص أو المؤمن يجهل بالموقف والحكم أولاً ، ويجهل أنه جاهل ثانياً . أي أنه يعيش في حالة جهل مركب .

وهنا يستلزم الأمر من المؤمنين أن يراقبوا أنفسهم ، ويراجعوا مواقفهم وأحكامهم بشكل دقيق ومستمر ، وأن يلتفت الأخوة المؤمنون دائماً إلى مثل هؤلاء الأشخاص ويضعونهم تحت مجهر الرقابة والإشراف ، حتى لا

يؤدي الأمر إلى هلاك ودمار الشخص والمجتمع معاً ، بسبب حالة لا شعورية تبرز بدوافع وبواعث خفية غير عليمه مخبوءة في أعماق باطن الإنسان .

وما الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الأئمة (ع) والحكماء والعلماء ، في محاسبة النفس ومراقبتها بشكل دقيق ومستمر ، إلا خير دليل على أهمية هذا الدافع اللاشعوري الذي يتحكم في سلوكياتنا وأفعالنا .

فيجب على المؤمن مراقبة ومحاسبة نفسه ، وخاصة في الحالات التي يتخذ موقفاً تلقائياً من غير أن يشعر أو يفكر أو يعرف حيثيات الموضوع . أو أنه يمتنع عن أداء عمل أو واجب وهو مندفع لإتمامه ، ولكنه يقف بشكل مفاجيء ، ويمتنع عن ذلك من غير أن يشعر أو يتحسس بالعامل والسبب الذي دفعه إلى ذلك . هنا لا بد أن لا نستسلم لفكرة عدم وجود سبب أو علة لذلك ، بل يجب أن نجزم ونعتقد بأن هناك سبباً وعلة ودافعاً خفياً يجب البحث والتقصي عنه ، ومعرفة ماهيته ومعالمه .

دعونا نستنتج بعض الآيات القرآنية الشريفة التي نستدلّ منها على مواقف وحالات تصبح حياة الإنسان متشكلة ومبينة على أساس دوافع وعوامل متميزة مخبوءة في باطن الإنسان . أو أنه يعتقد على صواب ورأي سديد ، بينما هو في الواقع في الطرف النقيض تماماً من الحقيقة والواقع ، من دون أن يشعر بذلك البتة .

يقول عز وجل في سورة البقرة الآية (١١) : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ .

بالرغم من أن هذه الآية الشريفة نزلت في المنافقين ، الذين يفسدون في الأرض بعمل المعاصي وصد الناس عن الإيمان أو بموالات الكفار كما روي

عن ابن عباس . فإن فيه توهين للإسلام على ما قاله الإمام علي (ع) ، أو بتغيير الملة وتحريف الكتاب على ما قاله الضحاك . وهنا اختلف المفسرون ، فمنهم من يرى احتمال أمرين : أولهما أن هؤلاء منافقون يعلمون كل شيء ، ولكنهم يتجاهلون وينافقون . والرأي الآخر الذي يفيد بحثنا وهو أنهم يفسدون في الأرض ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وهم لا يشعرون ولا يعلمون أن ما يفعلونه هو عين الفساد والانحراف والضلال . بل يرون أعمالهم وأفكارهم تصب في دائرة الإصلاح والصلاح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولو أنهم علموا أنهم مخطئون ومتوهمون لرجعوا إلى الصلاح والإصلاح (١) . فإذا قيل لهم لا تفسدوا قالوا نحن مصلحون نقوم بأعمال خيرة ترضي الله ورسوله ، ونتقرب بواسطتها إلى الله عز وجل .

وبشأن تفسير هذه الآية يقول الشهيد آية الله مصطفى الخميني « إن الخطايا التي نشاهدها في المحسوسات ، والتسويلات ، والإشتباهات الحاصلة في المتوسطات من المدارك الإنسانية كالخيام والأوهام ، وأن التورط والتوغل في الجهل ، يبلغ إلى حد يرى الإنسان كل فساد صلاحاً ، بحيث إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض فلا يتوجهون ولا ينتبهون ، وكل ذلك لإمتلاء قلوبهم من الأباطيل والمفاسد ، ولتمركز الصور الخبيثة في هيولاهم المحجوبة بأنواع الحجب الظلمانية والمحرومة بأصناف الحرمانات الممكنة» (٢) .

يترنمون ويتشدقون بأنهم هم المصلحون ، وليس ذلك إلا لإنخراطهم في صفوف الحيوانات غير الشاعرة ، فلا يشعرون بشيء ولا يهتدون .

وهذا تأكيد بأن القوة العاقلة أي عقل الإنسان ، إذا ما أخطأ في إدراكه ، يلزم وجود الشرع والوحي حتى يخرج القوة العاقلة من الظلمات إلى النور والله هو الهادي وهو الصبور الشكور .

(١) الطبرسي - تفسير مجمع البيان - الجزء الأول ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) الشهيد آية الله مصطفى الخميني : تفسير القرآن الكريم ، الجزء الثالث ، ص ١٣٢ .

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ (١) .

والمراد هنا ، إنه إذا قيل للمنافقين صدقوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أنزل عليه كما صدَّقه أصحابه ، وقيل كما صدق عبد الله بن سلام ومن آمن معه من اليهود ، قالوا أنصدق كما صدق الجاهل ، ولكن الله سبحانه وتعالى العليم الخبير بما في النفوس ، يجيب عليهم ، بأنهم هم الجاهل ، وهم السفهاء في الحقيقة ، حيث أنهم يعصون ربهم من حيث يظنون أنهم يطيعونه ، ويكفرون به من حيث يظنون أنهم يؤمنون به (٢) .

ويقول عز وجل ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (٣) .

هنا خطاب وتبيان لموقف الكفار والضالين عن جادة الحق والصواب ، حيث أنهم يعملون ليلاً نهاراً ، ويبدلون قُصارى جهدهم ، وينفقون أموالهم في سبيل الأهداف التي ينشدونها ، ولكنهم ضلّوا السبيل والطريق إلى ذلك ، ويعتقدون أنهم يحسنون صنعا ، بل الواقع هم أخسر الناس في الآخرة ، لما يحسنون ويظنون إن أفعالهم وطاعاتهم قريبة إلى الله (رواه العياش باسناده قال ابن الكواء عن أمير المؤمنين (ع) .

فسأله عن أهل هذه الآية ، فقال أولئك أهل الكتاب ، كفروا بربهم ، وابتدعوا في دينهم ، فحبطت أعمالهم وما أهل النهر منهم يبيعد يعني الخوارج .

(١) سورة البقرة الآية ١٣ .

(٢) الطبري : تفسير البيان ، الجزء الأول ، ص ٥٠ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ١٠٣ - ١٠٤ .

الفصل الثالث عشر

العلاقة بين العلم والفلسفة :

نظراً لأهمية موضوع العلم والفلسفة والمعرفة في حياة الانسان ، ونظراً لوجود كثير من المعاني والمضامين المتداخلة بينهما ، نرى من الضروري أن نخصص بضع صفحات نتناول فيها بعض القضايا والمسائل المتعلقة بهما نبدأ إن شاء الله بتعريف العلم ودوره ، ثم توضيح العلاقة بينه وبين الفلسفة وأخيراً تبيان كيفية إنفصال العلم عن الفلسفة في وقتنا المعاصر .

أولاً : العلم :

سنستعرض هنا ولو بشكل موجز ومختصر أبرز التصورات والمفاهيم المتعلقة بالعلم ودوره وأهميته في حياة البشرية .

فهناك من يرى بأن العلم : هو ضرب أو نوع من المعرفة التي يحصلها الإنسان عن العالم الخارجي (*).

ويذكر الفيلسوف الأمريكي المعاصر نيجل Nagil أن العلوم هي الحس

(*) من الملاحظ أن هناك مجموعة من العلماء والفلاسفة يميزون بين العلم Science والمعرفة Knowledge : فمن علماء المسلمين الذين ذكروا بصراحة تامة ، الفرق بين العلم والمعرفة هو أبو حيان التوحيدي في كتابه المقاييس فيقول : «أن المعرفة أخص بالمحسوسات والمعاني الجزئية ، في حين إن العلم أخص بالمعقولات والمعاني الكلية ، انظر الى : أبو حيان التوحيدي ، المقاييس ، طبعه السندوبي ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٢٧٢ ، (المقاييس ٧٠).

المشترك نفسه ، ولكن في صورة وإطار منظم مصنف⁽¹⁾ Sciences are simply
«or» classified common sense.

نستشف من كلمات نيغل Nagel أن هناك إرتباطاً وثيقاً بين المعرفة العلمية المنظمة Scientific classified Knowledge وبين الإدراك الحسي العادي .

وبالرغم من التأكيدات الكبيرة والإلحاح الحقيقي على أن العلم عبارة عن مجموعة من معارف منظمة ومنسقة ، إلا أن هناك حالة ينعدم فيها الرضا والإطمئنان إلى هذا التعريف ، وهناك إنتقادات كثيرة حوله أهمها ما يلي :

عدم التمييز بالدقة المتناهية والتحديد الدقيق الواضح لنوعية هذا التنظيم أو التصنيف الذي يميز العلوم عما عداها من أنواع وضروب المعرفة البشرية .

وبناء على هذه الملاحظة أو الانتقاد، هناك من يرى أن الأهمية الكبرى لا تنحصر في عملية جمع وترتيب وتصنيف المعلومات والبيانات ، بل المهم هو ربطها وكيفية تفسيرها .

ولذلك عرّف العلم بأنه : «تفسير systematic explanation يقوم على تنظيم المعرفة وتصنيفها» وبالتالي يكون دور العلم في تفسير وتحقيق نوع من الارتباطات والعلائق القائمة بين الظواهر والأحداث المختلفة قيد الدراسة والبحث .

ويقول العالم الرياضي الكبير أنيشتين «Einstein أن موضوع أي علم، سواء أكان هو العلم الطبيعي أم علم النفس، إنما هو تنظيم تجاربنا والربط بينهما على صورة نسق منطقي :

E. Nagel : «The structure of science» N.Y. harcourt 1967 - P. 3.

(1)

The object of all sciences whether natural sciences or psychology, is to co-ordinate our experiences and to bring them into a logical system: the meaning of Relativity»

ويستدل من كلامه ، أن العلم عبارة عن نسق System منطقي محكم ، لتفسير العلاقات الارتباطية للظواهر قيد الدراسة والبحث .

وهناك من يرى أمثال كارل بيرسون Karl Pearson ، أن وظيفة العلم تتجلى بالدرجة الأولى في عملية تصنيف الظواهر والوقائع ، والتعرف على العلاقات والأسباب والعلل التي تربط بين متغيرات الظاهرة قيد الدراسة والبحث ، والكشف عن دلالتها النسبية .

«The classification of facts. The recognition of their sequence and relative significance is the function of science

وإضافة إلى ذلك ، يركز بيرسون على ضرورة إبراز مقياس أو عنصر الحياد والنزعة الموضوعية في عملية التصنيف والتفسير والربط .

النزعة الرياضية في تفسير العلم :

يركز بعض العلماء والمفكرين إضافة إلى أهمية التصنيف والتفسير والربط ، إلى ضرورة صياغة المعارف العلمية في نسق وإطار رياضي دقيق .

يقول سليفان J.W. Sullivan «في كتابه المشهور» أسس العلم الحديث The bases of modern Science إن الغاية الأسمى للعلم هي تقديم وصف رياضي شامل للظواهر قيد الدراسة ، وفي نسق من العبارات التي تشمل على أقل عدد ممكن من المبادئ والحقائق العقلية . أي التركيز على أهمية عامل البساطة Simplicity factor .

تطور وتقدم العلوم وخصوصاً علم الرياضيات في الآونة الأخيرة ، ترك آثاراً واحداً كبيرة في كثير من المفاهيم والأفكار البشرية . فهناك عدد

كبير من الفلاسفة والمفكرين يرون أن المشاهدة والملاحظة للظواهر والأحداث سواء الإجتماعية أو العلمية والتي كانت تحتل في صدارة سلم وظائف العلم ، وتميزه عن بقية المعارف البشرية ، قد تغير ترتيبها وأهميتها بشكل أصبحت الأرقام والمقاييس والرسوم البيانية واللوحات الفوتوغرافية التي تجعل منها مجرد رياضة تطبيقية في سلم أولويات ووظائف العلوم ، وهذا بدوره أدخل عنصرا جديدا وبعدا آخر في مضمون تعريف العلم وهو المعنى Meam- ing بدلاً من الملاحظة Observation مما وعي بعض الباحثين الى القول بأن بناء المعرفة البشرية يستند على مجموعة من التقارير الحسية المستندة على الملاحظة والمشاهدة ، إضافة إلى استنادها على وقائع هي في صميمها مجرد رموز وقوانين منها بمثابة المعاني أو الدلالات Facts that are Symbols and laws that are their Meamings .

وبذلك احتلت النزعة الرمزية Symbolisum محل النزعة التجريبية مما أصبح مفتاح العلم يتمثل ويتصف بالرمزية من حيث القوة والمتانة ، بدلا من المعطيات الحسية التي كانت توصف بالصلابة والجمود في رأس هذه المدرسة الفلسفية⁽¹⁾.

النزعة الواقعية والعقلية في تفسير العلم .

وهناك من يعرف حقيقة ووظيفة العلم وفقا لمفهوم النزعة الواقعية Realisme والنزعة العقلية Rationalisme ومنهم بشلارد Bachelard المقصود بالنزعة العقلية والواقعية في تعريف العلم ، هو التركيز على العلاقة الارتباطية بين العقل والعالم ، أو بن النظرية والتجربة . أو العلوم التجريبية والعلوم الاستنباطية ، فيقول بشلارد «إنه بمجرد ما ينظر الباحث الى جوهر النشاط العلمي ، فان النزعة العقلية والواقعية تتحققان وتتبادلان النصائح فيما بينهما الى درجة كبيرة جدا .

Susanne A. langer: «Philosophy in a new key», Mentor book, P. 29.

(1)

وتم إستنتاج العلاقة بين النزعة العقلية والواقعية ، بواسطة العلاقة بين التجربة والنظرية ، التي تتمثل في ضرورة، الاعتماد على التجربة في الاستدلال العقلي في بلورة النظريات والمعارف العلمية التجريبية .

وبناء على ذلك ، لا يفسر دور العلم على أساس الملاحظة والمشاهدة أو التجربة والتحليل فقط، بل يعبر عنه إضافة الى ذلك بالتفسير والتركيب والتعميم .

النظرة العملية في تفسير العلم :

وهناك من الفلاسفة والمفكرين الذين اعتمدوا اعتمادا كبيرا على النزعة العملية في تفسير العلم ، فانصار المذهب البرجماتي (النفعي) Pragmaticim هم الذين ركزوا على الجانب التكنيكي في العلم ، حيث كتب جون ديوي في هذا الموضوع فيقول «إنما العلم فن تطبيقي أو مشروع عملي»^(١) . والمتبع لآراء وأفكار المذهب البرجماتي في تفسير وتحديد وظيفة العلم ، يستشف بأن العلم ليس في نظر هؤلاء واكتشافاً تدريجياً للعلاقات الموضوعية الكامنة في صميم الواقع ، وإنما هو مجرد طريقة علمية ناجحة للوصول الى تحقيق بعض الأغراض البشرية النافعة .«وديوي» نفسه يفسر التقدم العلمي على أساس إنه سلسلة من البحوث التي ظهرت لحل بعض المشكلات العملية الخاصة .

وخلاصة القول، أن ديوي أو أنصار المذهب البرجماتي يعتبرون أن العلم مجرد صفقة تجارية يعقدها الانسان مع الطبيعة .

العلاقة بين العلم والفلسفة :

المتأمل حق التأمل ، في أدبيات الفكر البشري ، يستشف بوضوح وجلاء مدى الارتباط الوثيق والعضوي بين العلم والفلسفة ، إلى درجة إن

Johm dewey, Essays in experimental logic N. Y. 1916, P. 413.

(١)

نشوء العلم كان أساساً من الفلسفة ، كما أن العلم قد شب وترعرع في أحضان الفلسفة ، ولكن مع مرور الزمان وتطور الأحداث أصبح له استقلالية ذاتية .

ولتوضيح هذه الحقيقة التاريخية للعلاقة بين العلم والفلسفة ، يستلزم الأمر استقراء التاريخ ، لمعرفة كيفية إستقلال وفصل العلم عن الفلسفة . فباديء ذي بدء، نستوضح العلاقة التاريخية بينهما ثم ننتقل الى تبيان وتوضيح أهم الفروقات والتشابهات بينهما والأسباب التي ادت الى ذلك .

العلاقة التاريخية

الفلسفة والعلم عند اليونان :

المطلع على الفكر اليوناني ، لا يستطيع رؤية التمييز والتفرقة بين العالم والفيلسوف ، وبالتالي بين موضوع العلم والفلسفة، Science,Philososophy. فقد كان الفيلسوف في عصر اليونان هو العالم في نفس الوقت ، فمثلاً كان فيثاغورس Pythagoras (٥٨٢ - ٥٥٠ ق . م) عالماً في الرياضيات ، وفيلسوفاً وصاحب مدرسة فلسفية تتميز بأرائها وأفكارها النظرية المتعلقة بالكون والحياة والإله والإنسان .

وأرسطو الملقب بالمعلم الأول، كان عالماً مشهوراً في شتى أنواع المعارف العلمية مثل الرياضيات ، والسماع الطبيعي ، والسماء، والكون ، وله كتب في جميع هذه المعارف حتى في موضوع النوم واليقظة، والحيوان ، والنبات و... الخ .

في العصور الوسطى :

تتميز العصور الوسطى بسمة اللاهوت في شتى مجالات الحياة والعلم والفلسفة ، حتى كانت جميع هذه المعارف أداة طيعة وخادمة وتابعة لللاهوت ، كما قيل « Philosophia Ancilla thes logiae » وبالرغم من ذلك إلا

أن الارتباط الوثيق والعلاقة المتداخلة المترابطة بين الفلسفة والعلم ظلت كما هي في العصر اليوناني . إضافة الى ذلك اتسع مجال وميدان الفلسفة في العصور الوسطى ، حتى شملت الفلسفة كل معلومات ذلك العصر .

في العصر الحديث :

بعد عصر النهضة الحديثة ، وبالأخص والتحديد من القرن السابع عشر الميلادي فما بعد ، بدأت العلوم التي تدرس وتبحث بأسلوب وشكل تجريبي تستقل وتنفصل تدريجياً عن الفلسفة ، حتى اختفى اسم الفلسفة - شيئاً فشيئاً - بالعلم الذي تخرج مسائله عن دائرة (التجربة) وتدرس وتبحث هذه المسائل بأسلوب عقلي محض ، وكان هذا العلم علم (ما بعد الطبيعة) .

ولقد زرعت وترعرت البذور الأولى لهذا التيار الفصلي الإستقلالي بين العلم والفلسفة على يد القسيس الإنجليزي المشهور روجر بيكون «R. Bacon» . (١٢١٤ - ١٢٩٤) والذي حصر وسائل المعرفة في ثلاث طرق هي : النقل والاستدلال ، والتجربة .

وهكذا بدأت تنتشر وتتوسع معالم وأسس التيار التجريبي الجديد الى حد حصل ذلك الانفصال بين العلوم الجزئية وأم العلوم الفلسفة .

وكان أول العلوم التي انفصلت عن الفلسفة وأخذت لها طابعاً مميزاً ومستقلاً هي علم الطبيعة أو الفيزياء Physics وذلك على يد كوبرنيكس Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٢) ، وتيكوبراهي Tycho Brahe (١٥٤٦ - ١٦٠١) وكيلر Kepler (١٥٧١ - ١٦٣٠) وجاليليو Galilei (١٥٦١ - ١٦٢٦) .

ثم جاء فرنسيس بيكون الفيلسوف الانجليزي الشهير (١٥٦١ - ١٦٢٦) ليضع الأورجانون الجديد Novam organum أو الأداة الجديدة مخالفاً ومعارضاً بها أورجانون أرسطو القديم - أو الطريقة في التفكير . فعرض فيه أسس وقواعد منهجية تجريبية جديدة ، مهذا الطريق للإستقلال والانفصال

الكامل لعلم الطبيعة عن الفلسفة . وتم ذلك بشكل نهائي على يد:
اسحق نيوتن I. Newton (١٦٤٣ - ١٧٢٧)^(١).

ثم بعد ذلك ، بدأت الانفصالات والاستقلالات للعلوم التجريبية الأخرى تتوالى بشكلها التدريجي ، فانفصل علم الكيمياء Chemistry بعد إعلان كافنديش Cavendish عام ١٧٦٦ عن إكتشاف الأيدروجين ، ؛ ثم توالى بعد ذلك الاكتشافات العلمية في هذا المجال إلى أن تم ذلك الانفصال والإستقلال النهائي التام على يد العالم المشهور Lavoisier لإفوازييه (١٧٤٣ - ١٧٩٤).

وبعد ذلك تم إعلان إستقلال علم الأحياء أو علم الحياة على يد كلودبرنار Claud Bernard ١٨٧٨ . وذلك في مطلع القرن العشرين ، وبعده بدأ إنفصال علم النفس Psychology ، وعلم الاجتماع Sociology وعلم الأنثروبولوجيا Anthropologs . الخ .

وهنا تجدر الإشارة إلى ، أن الفاصل الذي ميز بين العلم والفلسفة إبان القرن السابع عشر ، كان لا يزال ضعيفاً غير ملحوظاً ، والاستدلال على ذلك واضح من تسمية العلوم الطبيعية بالفلسفة الطبيعية تمييزاً لها عن سائر صور التفكير الفلسفي^(١).

وكانت السمة البارزة لذلك العصر، هي الخلط والمزج بين العلم والفلسفة ، حتى كان ذلك واضحاً في تعبيراتهم وجملهم المستخدمة ، فكان ديكارت الفيلسوف المشهور يجمع في كتابه «مبادئ الفلسفة» بين العلم الطبيعي والفلسفة .

(١) L. T. Mez «A history of European thought in the nineteenth century : Vol IP. 89 (Not) Milliam Black wood and sons.

(٢) A wolf - Aphilosophic and scientific retrospect «in : outline of modern lenowledge», London 1953, PP. 26 - 27.

ويقول ميرز Merz^(١) إن العلماء في القرن السابع عشر والثامن عشر كانوا يطلقون الفلسفة والعلوم الفلسفية على ما نسميه اليوم بالعلوم الطبيعية . حتى إن إستخدام كلمة العلم Science بمعناها التجريبي المعاصر إستخدمت لأول مرة في الجمعية البريطانية لتقدم العلم -The British Association for the Advancement of Science.

ونستخلص من العرض السابق، إن الفلسفة إلى حد قريب من تاريخ العلوم كانت وعاءاً أو إطاراً عاماً يشمل ويستوعب تقريباً جميع المعارف البشرية المنظمة . فالرياضيات والطبيعات وغيرها من العلوم الأخرى كانت تطرح وتبحث على الصعيد الفلسفي كمسائل المينافيزيقيا تماماً . وكانت المسئولية الكاملة ملقاة على عاتق الفيلسوف والفلسفة في عملية الكشف عن الحقائق العامة في شتى مجالات الكون والوجود، وكانت أداة المعرفة المستخدمة هي القياس والطريقة العقلية الاستدلالية في التفكير الذي كان سائراً من القضايا العامة إلى القضايا الجزئية الأخص منها .

ثم بدأت عملية الفصل والإستقلال التدريجي بين العلوم والفلسفة في العصر الحديث، وذلك بعد أن غزت التجربة وشقت طريقها واستوعبت مجالات الحياة وميادينها الوسيعة ، انطلاقاً من الجزئيات إلى الكليات ، حتى تم إستيعاب معظم المعارف الجزئية في الحياة ، مما جعل الفلسفة تنكمش وتقتصر على مجالها الأصيل وتفسح مجالاً لمزاحمها (العلم) .

مجالات كل من العلم والفلسفة :

١ - للفلسفة أدوات ووسائل خاصة بها ، تتمثل بالاستدلال والاستنباط العقلي المتدرج من العام إلى الخاص . بينما تتميز أدوات ووسائل العلم بالتجربة والملاحظة والمشاهدة المتدرجة من الخاص إلى العام .

Merz, History of european thought in the 19 th century Vol. 1.P. 98.

(١)

٢ - للفلسفة موضوع خاص يتميز عن موضوع العلم ، حيث أن العلوم تتناول في مبحثها شعبة من الوجود، ولونا خاصا له يمكن إخضاعه للتجربة والبحث واستكشاف العلاقات الارتباطية المتداخلة بين الظواهر قيد الدراسة والبحث .

في الوقت الذي يكون موضوع الفلسفة هو الوجود بصورة عامة دون تحديد أو تقييد لجانب أو جزء من الوجود ، وتتناول موضوعات الوجود ولا تخضع للتجربة المباشرة .

حينما يبحث العالم الطبيعي عن قانون معين مثل قانون تمدد الفلزات بالحرارة في المختبر، وحينما يبحث العالم الرياضي في مجال النسب الرياضية بين قطر الدائرة ومحيطها ، نجد أن الفيلسوف يبحث مواضيع متباينة تماما عن تلك التي يدرسها العالم ، فهو يبحث في الوجود ومبدأ الوجود، وجوهره ، والعلاقة العلية والسببية له ، والتسلسل الممتنع ، ومحتوى الإنسان المادي والروحي (الغيبي) . . . الخ ، ويلاحظ من هذه الموضوعات إنها لا تخضع ألبتة للتجربة والاختبار والملاحظة .

وتجدر الإشارة الى ، أن هذا الانفصال أو الثنائية بين الفلسفة والعلم المستندة على أساس التباين في موضوعات وأدوات التفكير ، أصبحت مقبولة في نظر كثير من فلاسفة ومفكري المذهب العقلي . بينما الأمر مختلف تماما بالنسبة لانصار ورواد المذهب التجريبي الذين لا يرون وسيلة واداة أو مقياساً وميزاناً للمعرفة إلا بواسطة التجربة وأدواتها وفحواها ، فأنهم يعترضون على ذلك ، ولهم مواقف هجومية إنتقادية تجاه الفلسفة ككيان مستقل ومنفصل عن العلم ، حيث إنهم لا يرون ولا يقرون بأي نوع من المعارف، ما لم ترتكز وتستند إلى التجربة وما دامت موضوعات الفلسفة غيبية غير ملموسة وهي خارجه عن نطاق وحدود التجربة ، فلا أمل ولا وسيلة للتوصل اليها بشكل صحيح يقيني . وتأسيسا على ذلك ، ومن وجهة نظر هؤلاء التجريبيين، يجب على الفلسفة التخلي وترك وظيفتها ،

وفتح مجالاً للإنسان للبحث في قضايا ومسائل قابلة للتجربة فقط .

ومن هنا ، ظهرت العديد من المذاهب والمدارس الفلسفية التي تستنكر وتندد بالفلسفة المستقلة والقائمة على أساس الطريقة العقلية الاستدلالية في التفكير، ونادت بقيام فلسفة تركز وتستند على أساس المحصول الفكري التراكمي لمجموع العلوم والتجارب الحسية ، دون التمييز بين العلم في طريقته وموضوعاته . وبتعبير آخر، تنادي هذه المذاهب بتبني فلسفة علمية تكشف عن العلاقات الارتباطية المتداخلة للموضوعات قيد الدراسة والبحث، وذلك بغية كشف وتبيان نظريات ومفاهيم علمية ، تعتمد على حصيلة التجارب والاختبارات في الحقول والياديين الحياتية المختلفة، وان لكل علم فلسفته الخاصة التي تقرر أساليب البحث العلمي في مجاله الخاص . فأمثال أوجست كونت ، وهربرت سبنسر ، وبرتراندرسل ، هؤلاء الفلاسفة يريدون فلسفة علمية محضة .

والماركسية تدعي إن فلسفتها هي فلسفة علمية ، أي إن جميع مسائلها تحل على أساس العلوم التجريبية . ونحن نعتقد إنها عملية تبريرية لا يديولوجيتها المهزوزة ، وإن المسئلة هي عين التناقض الذي لا يقبله أي عالم واع يتصف بالنزعة الموضوعية .

وهناك مجموعة أخرى من الفلاسفة والمفكرين ينكرون بشدة النزعة العلمية المتطرفة Scientisme في الفلسفة ، ويرونها عاجزة كل العجز عن تبيان وتفسير واقعية العلم ، فمثلاً يعتقد برديف : إن فلسفة العلوم ، هي فلسفة أولئك الذين ليس لديهم شيء يقولونه على الاطلاق في الفلسفة (١) .

٣ - تغيب النزعة الذاتية والعاطفة الشعورية في ميدان العلم ، وتبرز النزعة الموضوعية البحتة فيه . حيث ان موضوع العلوم هو الطبيعة التي لا تدع

(١) خمسة تأملات في الوجود، ص ٢١ .

ولا تترك مجالاً للتقدير الشخصي أو الحكم الذاتي ، فعندما نقيس سرعة الأجسام ، أو درجات الحرارة ، أو النسب والمسافات بين الأشياء ، هي واحدة متماثلة غير قابلة للتقدير من وجهة نظر إنسان وإنسان آخر .

بينما في مجالات وميادين الفلسفة قد تدخل النزعة الذاتية والعاطفة الشعورية ، والمواقف النفسية لكل فرد على حدة فاكتشاف المعارف والنظريات العلمية المحضة قد لا تؤثر على سلوكيات أو أخلاقيات الإنسان في الحياة ، على العكس من قضايا التوحيد ، ووجود الله أو عدمه ، ومدى الحريات الممنوحة للإنسان من الجبر والتفويض ، والعقاب والجنة والحساب ، هي بلا شك ولا ريب حقائق وموضوعات لها بالغ التأثير والتداخل في توجيه وترشيد سلوكيات وأفعال الإنسان

٤ - إضافة إلى تباين وتغاير موضوعات كل من العلم والفلسفة ، فإن للتجربة أبعاداً وعماقاً محدودة لا نستطيع تجاوزها مهما كانت دقيقة ومتقدمة في أساليبها وأدواتها . فالتجربة تقدم معلومات وحقائق تنقصها العمومية والشمولية أي التعميم . بينما الفلسفة تبدأ وظيفتها وميادينها من موقع انتهاء التجربة ، بعد تجميع وتصنيف هذه المعلومات والحقائق المجزأة ، فيضيف العقل عليها مبادئ وأسس عقلية يقينية بديهية ثابتة ، فيقوم العقل بانتزاع وإستنباط الحقيقة الشمولية ، فتعم النظرية والنتائج المستخلصة من التجربة فالعلم يدرس العوارض الظاهرية للمادة كما هو في الفيزياء ، أو العوارض الداخلية لها وتحليل المواد وتركيبها ، دون التحدث عن موضوع العلم نفسه ومبادئه المفترضة مسبقاً . بينما الفلسفة لا ترضى بأقل من سبر أغوارها والتغلغل إلى أقصى أعماقها ، وإذا كان العلم يكتفي بتبيان وشرح الأحداث إلى نقطة وحد معين ، فإن الفلسفة لا تقبل الوقوف بأزاء ما وقف عنده العلم ، بل تقوم بتحليل وتركيب الكائن إلى أبسط أجزائه ، شارحة كل جزئية . ومبينة الصلة العميقة بينها وبين بقية الجزئيات ، بل هي تصبو إلى تبيان

وإيضاح قواعد وأسس العلم ذاته . والفلسفة تبحث عن المسائل الكلية والانتزاعية للوجود مثل العلية والمعلولية ، والثابت والمتغير المادي والمجرد ، الواجب والممكن وأمثالها ، لأنها لا تقع في مجال الحس والإدراك الحسي ، بل هي مسائل تقع في إطار وميدان العقل وتحليلاته وإستدلالاته العقلية فقط .

٥ - بعض فلاسفة العرفان أمثال برجسون H. Bergson (١٨٥٩ - ١٩٤١) يفرق بين العلم والفلسفة على أساس : إن دائرة العلم في نظره هي دائرة المادة ، دائرة الكم والامتداد والمكان ، ومنهجه هو «التحليل» والتصنيف ، وأدواته هي «العقل» بينما دائرة الفلسفة هي الروح التي تتصف بكونها دائرة الكيف والتوتر ، والزمان والديمومة ، منهجها التعاطف الروحي ، وأدواتها الحدس الذي يقوم الانسان عن طريقه بلون من ألوان «الفحص الروحي» .

والخلط بين العلم والفلسفة هو خلط بين المادة والروح ، بين الانفصال والاتصال ، بين المكان والزمان ، بين العقل والحدس ، بين الساكن والمتحرك ، بين التحليل والتعاطف الروحي^(١) ويذكر إن الفارق بينهما هو تماما نفس الفارق المتمثل في شخص يصف مدينة ما من الخارج ، وشخص آخر يعيش في قلبها وقالبا ويتجول في شوارعها العامرة وأطلالها ، أي يتصرف عليها من الداخل . فالمعرفة من الخارج هي العلم وأدواتها العقل ، بينما المعرفة من الخارج هي الفلسفة وأدواتها الحدس .

٦ - من الفروقات بين الفلسفة والعلم ، هي أن العالم يتجه في سيره التجريبي - من المرثي الى المرثي ، ومن الملحوظ الى الملحوظ من خلال

(١) د. زكريا ابراهيم في كتابه «برجسون» العدد الثالث من نوابغ الفكر الغربي ص ٣٩ - ٤٠ من الطبعة الأولى .

التجربة والملاحظة للظواهر قيد البحث والدراسة ، بينما الفيلسوف يتجه من المرثي الى اللامرثي ، أي إلى ما هو بعيد عن الملاحظة والتجربة الحسية ، حيث أن المباديء والأسس التي يركز عليها وينتهي اليها الفيلسوف هي من موضوعات العقل ، وليست من مدركات حسية أو تأملات خيالية .

٧ - تفقد المعارف والحقائق التجريبية قيمتها اليقينية التصديقية والعملية منها ، إذا ما اعتمدت على أركان وأسس الفلسفة ، التي بدورها تضيف بعدا وعمقا يقينيا وتصديقيا وعمليا لتلك المعارف والحقائق التجريبية ، حيث تصيغها من الوضع والصيغة المجزأة المفككة الى صيغة قانون ونظرية علمية ، يستفاد منها في الحياة العملية ، والعالم لا بد أن يستعين بمباديء فلسفية ، كمبدأ العلية أو عدم التناقض وذلك كمقياس ومبدأ لتعميم نظرياته . بينما الفلسفة أو المبادئ والمفاهيم الفلسفية لا تحتاج إلى تأييد وتصديق من قبل المعارف والحقائق التجريبية حتى نعتقد بصحتها ومصداقيتها ، وإن كانت المفاهيم والحقائق التجريبية تقدم خدمات كبيرة للفيلسوف الذي يبحث في قضايا فلسفية غيبية . فالاكتشافات العلمية الصحيحة كفيلة بمساعدة الفيلسوف على تحقيق قسط كبير من التقدم والتأكيد والتأييد لنظرياته ومفاهيمه الفلسفية ، كقضية الحركة الجوهرية وديناميكية ، الكون و . . . الخ .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن هذا الارتباط والعلائق بين العلم والفلسفة لا يعني ألبتة أن الفلسفة تبقى أسيرة العلوم التجريبية التجزئية في تأملاتها العليا ، ومهما حاولنا أن نربط الفلسفة بالعلم ، وجعل الفلسفة نفسها علما ، فإن الفلسفة لا بد أن تظل حكمه أو محبة للحكمة لها موضوعاتها وأساليبها ومبادئها ومبادئها ومنهجها الخاص .

صلة العلم بالفلسفة او صلة الفلسفة بالعلم :

لقد أوضحنا كثيراً من الصلات والإرتباطات الحقيقية بين الفلسفة والعلم أثناء نقاشنا لمجالات كل من العلم والفلسفة، ولا يستدعي الأمر هنا تكرار ذلك مرة ثانية ، ولكن نريد أن نقول بأن هذا التعارض الذي أشرنا اليه بين النزعة العلمية والفلسفية أو العلم والفلسفة، سواء من حيث المنهاج أو الأساليب أو الغايات أو المجالات ، ليس مغزاه ومعناه أنها ظلاً متنافرين متباعدين ، بل أوجدت هناك كثير من الصلات والارتباطات الحقيقية المتينة بينهما ، والمتتبع لحركة الفلسفة والعلم تاريخياً ، يرى أن الفلسفة كانت وحدها هي العامل النشط المحرك والجاد في إقامة مثل تلك الروابط والعلاقات وتقويتها بشكل منسجم ملتئم مع طبيعة كل من العلم والفلسفة . وتشهد لنا القرائن والشواهد التاريخية أن الفلاسفة الحقيقيين كانوا دائماً مرتبطين بالعلم أوثق وأقوى وأصدق إرتباط . وكان هذا الأمر محتوماً تتطلبه حقيقة وطبيعة موقفهم ما دام أن كل شرح عام للكون يقتضي الرجوع والاعتماد (ليس بالضرورة الحتمية قبل كل شيء على نتائج وبحوث خاصة يعالجها العلم ويؤيد نتائجها بشكل منطقي سليم .

فأمثال افلاطون ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد، وديكارت وكانت، وغيرهم من الفلاسفة والعلماء والمفكرين ، قد أهتموا وشغلوا وبحثوا في قضايا فلسفية وقضايا علمية تجريبية ، واستندوا الى نتائج التجربة في الاستدلال الفلسفي للقضايا والمسائل الفلسفية وذلك بقدر ما تسمح به ظروف بحوثهم .

ونختم هذا المبحث بتبيان أهم الأسباب والعلل التي أدت الى ايجاد نوع من التنافر والتباعد بين الفلسفة والعلم عند بعض المذاهب العلمية والفلسفية، وذلك على النحو التالي : -

١ - إنحراف الميتافيزيقيا الألمانية الناتجة من الفلسفة الكانتية عن الصراط

السوي والطريق المستقيم الذي كانت تسير عليه من قبل . والمستقري لأدبيات الفكر الفلسفي يجد أن أمثال كانت ، وفيشت ، وهيغل ، كانوا في طلائع المفكرين العقلين المتشبعين الذين كانوا يكونون كل الاحترام والتقدير للعلم ، ولكن من جهة ثانية كان شيلنج ، وشوبنهاور من المفكرين والفلاسفة الذين أفسحا في فلسفتها مجالا للا محدود والاشعور واللامتعقل ، مما أوجدا تيارا معارضا مع الفكر والعقل يوشك أن يكون التنسك الشرقي غالبا عليه ، وقد طفق هذا التيار يقوى وينتشر حتى انتهى الى فلسفة غريبة وقفت موقفا سلبيا حادا في وجه العلم ، وأعلنت عداها له بكل السبل والطرق .

٢ - ظهور المذهب أو الأفكار والمفاهيم النسبية مقابل المطلق . مما اعتبر جميع المعارف والحقائق الانسانية عن الكون والحياة ، والانسان نسبية من جانب ، وبرز من جانب آخر المعرفة البصيرية الأخلاقية أو العقل العملي .

٣ - ظهور وضعية اوجوست كونت August Conte .

المراجع باللغة الانجليزية

A

- 1- Arther. C. Dantl. what philosophy pelican Booki.
- 2- Atreatisc Concering The Princils of Human Knowledge (woks. eclitecly by frasor) Oxford U. P. 1901.

D

- 1² Diogenes Laertis- Lives of philosophers.

E

- E. Nagel: The structure of science. N.1. Harcourt.

G

George Sartion. The History of Science and New Humanium.

R

- 1- Randall and Buchler. Philosophy. An Introduction. Bames T Non-ble.

J

- 1- jeans sin hopwool. The Mysterious Universe The Mecmillan. Co. New york.
- 2- j. Lockc: Essay Conerning Human Understanding BK.N.
- 3- Joad, An Introduction to Modern philosophy.

M

- 1- Merz. History of european choughtin the igth Century Vol. I.P.98.
- 2- Montague. W. Thz stof of American Realism Realism In 20 th Century philoso. 1941

S

- 1- Schpenbauer: The World as wil and Reprejentation (Trans. by E. F. J. Payne). The falcon's Wing press. Colorado.1958.
- 2- S. Kierkegaard: Post-scriptum. Paris Callimard 1941.

K

- 1- Marx. and F. Engels: The corman 1cleology. Moscow. Progtess Publicher.

W

- 1- Will Duraut. The Story Civilization.
- 2- Webstr's New Twentieth Century Dictionary of English language.1960.

H

- 1- Herbert Spenca. Fist Principles.
- 2- Henry D. Aiken. The Age of 1 cleology. The 19 ch Centrocy philo-sophers Selected.

المراجع باللغة العربية

أ

- ١ - د. ابراهيم بيومي مذكور - الفلسفة الاسلامية - الطبعة الثانية
- ٢ - الارشاد .
- ٣ - الاحتجاج .
- ٤ - آمال الصدوق .
- ٥ - ابو حامد الغزالي معايير القلم تحقيق د. سليمان بنا .
- ٦ - ابن سينا . الاشارات .
- ٧ - ابن خلدون - المقدمة - دار الكتاب اللبناني .
- ٨ - ابن سينا - الألهيات
- ٩ - اصول الكافر .
- ١٠ - الكس كارول - الانسان ذلك المجهول .
- ١١ - د. امام عبد الفتاح امام - مدخل الى الفلسفة .

ب

- ١ - البحار ٢/ ٢٧ .
- ٢ - الشهيد د. بهشتي - اخطأ الذهن - مجلة التوحيد . العدد الرابع .
- ٣ - برجون - المدخل الى الميتافيزيقيا .

ت

- ١ - توفيق الطويل - اسس الفلسفة الطبعة الخامسة .
- ٢ - تحف العقول .
- ٣ - التاج كتاب الأخلاق .

- ٤ - تفسير الميزان .
٥ - التوراة سفر التثنية الفصل الثاني .

ح

- ١ - حول النظرة الكونية - الدار الاسلامية « الدفاع عن المواقع الايديولوجية » .
٢ - الحافظ العراقي - هامش الأحياء .

ج

- ١ - د. جميل صليبا - المعجم الفلسفي دار الكتاب اللبناني .
٢ - جون استيوارت ميل Stuart M. I كتاب المنطق الجزء الثاني .
٣ - جامع السعادات .
٤ - د. جعفر عباس - الجهل البسيط - والجهل المركب .

خ

- ١ - خمسة تأملات في الوجود .
٢ - الخصال .
٣ - خواطر باسكال .

د

- ١ - دائرة المعارف السيكولوجية - دار صادر - المجلد الأول .
٢ - ديكارات - مقالة الطريقة - القسم الأول .

ذ

- ١ - د. ذكريا إبراهيم - مشكلة الفلسفة .
٢ - د. ذكريا إبراهيم من كتابه - برجسون العدد الثالث من نوايغ الفكر العربي .

ر

- ١ - رسائل الكندي الفلسفية تقديم وإخراج وتحقيق محمود عبد الهادي .
٢ - د. رمزية الغريب - التعلم .

س

- ١ - السيوطي معترك الأفران .

ش

- ١ - الشهرستاني - الملل والنحل على هامش الفصل لإبن حزم الأندلسي .
٢ - شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد .

ص

- ١ - الصدوق - علل الشرائع .

ع

- ١ - عيون الحكمة - رسائل في الحكمة والطبيعات .
- ٢ - عمر فروخ - المنهاج الجديد في الفلسفة العربية - بيروت - دار العلم للملايين .
- ٣ - ٥ . عبد الرحمن بدوي - مدخل جديد إلى الفلسفة .
- ٤ - عيون المسائل .
- ٥ - عبد الكريم العثمان - الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص .
- ٦ - الشيخ عبد الله نعمة - عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة .

غ

- ١ - غرر الحكم .

ف

- ١ - ٥ . فؤاد ذكريا - نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان . مكتبة النهضة المصرية .
- ٢ - الفارابي آراء أهل المدينة الفاضلة .
- ٣ - فالترز ريشار - الفلسفة الإسلامية ومركزها من التفكير الإنساني .

ك

- ١ - كارادفوف ابن سينا - ترجمة عادل زعير .
- ٢ - كمال الدين .
- ٣ - الكافي .
- ٤ - الكندي - رسالة في حدود الأشياء ورسومها .
- ٥ - كارل ماركس - نقل الإقتصاد السياسي .
- ٦ - كنز العمال .

م

- ١ - العلامة السيد محمد حسين الطبطبائي - أصول الفلسفة .
- ٢ - الشهيد الإمام محمد باقر الصدر - المدرسة القرآنية .
- ٣ - الأستاذ محمد تقي مصباح اليزدي - محاضرات في الأيديولوجية المقارنة .
- ٤ - الأستاذ مرتضى مطهري - العدل الإلهي .
- ٥ - الأستاذ مرتضى مطهري - الرؤية الكونية التوحيدية .
- ٦ - محمد جواد مغنية الفلسفة الإسلامية .
- ٧ - الملا صدرا الإنسان والموسيقى من العلوم الرياضية .
- ٨ - منيه المرید .
- ٩ - محمد رضا الحكيمي - محمد علي الحكيمي - الحياة الجزء الثاني .

- ١٠ - مسند أحمد بن حنبل .
- ١١ - منتخب كثر العمال من هامش مسند الإمام أحمد .
- ١٢ - محمد باقر الصدر - فلسفتنا - دار التعارف للمطبوعات .
- ١٣ - الشيخ محمد رضا المظفر - دار التعارف للمطبوعات .
- ١٤ - المادية الديالكتيكية - تأليف جماعة من الأساتذة السوفيت .
- ١٥ - مؤلفات لينين .
- ١٦ - محمد غلاب - المعرفة عند مفكري المسلمين .
- ١٧ - ملا صدرا - الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربع .
- ١٨ - مستدرک النهج .
- ١٩ - مصطفى عبد الرزاق - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية .
- ٢٠ - مختارات ماركس وانجلز - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .
- ٢١ - المنطق الشكلي والمنطق الديالكتيكي .
- ٢٢ - المحقق - محمد بن المرتضى الكاشاني . المحجة البيضاء

ن

- ١ - نهج البلاغة .
- ٢ - نظرية المعرفة - بين الفلسفة الماركسية والفلسفة الإسلامية .
- ٣ - التهانوي - كشاف اصطلاحات الفنون الجزء الأول .

هـ

- ١ - هادي العلوي - نظرية الحركة الجوهريّة عند الشيرازي .

و

- ١ - وولف تاريخ الفلسفة الوسيطة (عن مصطفى عبد الرزاق) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية .
- ٢ - الوسائل .

ي

- ١ - يوسف القرضاوي - الناس والحق - المكتب الإسلامي .

فهرس الكتاب

٩	* الفصل الأول
١١	نشأة الفلسفة
١٩	تطول مفهوم الفلسفة
٢٣	معنى الفلسفة قديماً
٢٤	معنى الفلسفة في العصور الحديثة
٢٧	العلاقة بين العلم والفلسفة
٢٩	النظرة العملية في تفسير العلم
٣٧	* الفصل الثاني
٣٩	الايديولوجية الاسلامية
٣٩	مقدمة
٤٩	الرؤية الكونية (الايديولوجية)
٥٢	تعريف الايديولوجية
٥٥	علاقة الايديولوجية بالرؤية الكونية
٦٥	أنواع الرؤية الكونية
٦٥	الرؤية الكونية العلمية
٦٦	الرؤية الكونية الفلسفية
٦٦	الرؤية الكونية الدينية
٦٦	الرؤية الكونية العرفانية

٧٩	* الفصل الثالث
٧٩	نظرية المعرفة
٨١	مفهوم المعرفة
٨٤	الفرق بين العلم والمعرفة
٨٤	أنواع المعرفة ومراتب الفلسفة
٨٥	النوع الفطري من المعارف
٨٥	المعرفة المكتسبة
٩١	موضوعات الفلسفة
٩٥	موضوعات العلم والمعرفة الانسانية في المنظور الاسلامي
٩٥	معرفة الله
٩٧	معرفة النفس
١٠١	معرفة الأنبياء والأئمة (ع) (النبوة والامامة)
١٠٥	معرفة المعاد (يوم القيامة)
١٠٧	معرفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والطبيعة
١١٣	الوجود المادي ومعرفة الكون والطبيعة
١١٧	أدوات المعرفة الانسانية
١١٧	الحواس
١١٨	قوة التفكير والاستدلال
١١٩	تزكية النفس وتصفيتها من الشوائب
١٢٠	التعلم والقراءة
١٢١	آثار الأولين الماضين
١٢٢	دوافع المعرفة
١٢٣	الدوافع الداخلية
١٢٣	الدوافع الخارجية
١٢٧	* الفصل الرابع
١٢٩	إمكان المعرفة
١٣١	مدرسة السفسطائين والشكاكين

١٥٢	المدرسة المثالية
١٥٣	المذهب النسبي
١٥٣	المادية الماركسية
١٥٤	المذهب العقلي
١٥٤	المذهب الاسلامي
١٦١	* الفصل الخامس
١٦٣	مصادر المعرفة الانسانية
١٦٣	المذهب الحسي والتجريبي
١٧٤	نقد المذهب التجريبي
١٩١	* الفصل السادس
١٩٣	العقل كمصدر للمعرفة الانسانية
١٩٤	تعريف ومراتب العقل
١٩٩	المذاهب العقلية في التاريخ
١٩٩	المذاهب القديمة
٢٠١	المذهب العقلي التقليدي
٢٠٥	المذهب العقلي والنسبية الكانتية
٢١٠	المذهب العقلي الحديث
٢١١	المدرسة السلوكية
٢١٢	المدرسة التحليلية عند فرويد
٢١٣	المدرسة المادية التاريخية
٢١٥	العقل في الاسلام
٢٤٧	* الفصل السابع
٢٤٩	القلب كمصدر للمعرفة الانسانية
٢٥٣	تعريف القلب
٢٥٤	معنى القلب في القرآن
٢٦٠	الأدلة والبراهين القرآنية على ان القلب مصدر للمعرفة
٢٧٦	مصدر الالهام في فكر صدر المتألهين

٢٨١	* الفصل الثامن
٢٨٣	الوحي كمصدر للمعرفة البشرية
٢٨٥	تعريف الوحي
٢٨٧	الوحي في القرآن
٢٩٣	ضرورة الوحي
٣١٠	كيفية حصول الإلهام والوحي
٣١٤	اصالة العقل والنفس في الإسلام
٣٢٣	* الفصل التاسع
٣٢٥	نسبية وإطلاق الحقيقة أو المعرفة الانسانية
٣٢٨	النسبية الكانتية
٣٢٩	النسبية الذاتية (بافلوف)
٣٣٥	النسبية التطورية
٣٤٢	نظرية الحركة الجوهرية للفيلسوف الاسلامي الملا صدر الله الشيرازي
٣٥٧	* الفصل العاشر
٣٥٩	مقاييس وموازين المعارف والحقائق الحقيقية الصادقة
٣٦١	تعريف الحقيقة وأنواعها
٣٦٤	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب الواقعي
٣٦٥	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند افلاطون
٣٦٨	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب الوجودي
٣٧٠	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب الصوفي
٣٧٠	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب الوضعي
٣٧١	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب المثالي
٣٧٦	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب الاجتماعي
٣٧٧	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب الحدسي
٣٧٨	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب العقلي
٣٧٩	مقياس المعرفة الحقيقية الصادقة عند المذهب التجريبي والحسي

٣٨٧	* الفصل الحادي عشر
٣٨٩	مراتب ودرجات المعرفة البشرية
٣٨٩	المعرفة السطحية أو (الرجل العامي)
٣٩٣	المعرفة العلمية
٣٩٩	المعرفة الفلسفية
٤٠٤	المعرفة الاشرافية أو التنسكية
٤٠٥	المعرفة الايمانية (معرفة الوحي)
٤٠٧	* الفصل الثاني عشر
٤٠٩	موانع المعرفة اليقينية الصادقة
٤٠٩	المنهج وأخطاء الفكر
٤١٢	شمولية وضيق المنهج التفكيري عند الانسان
٤١٣	مناهج البعد الواحد
٤١٤	البعد الاقتصادي
٤١٤	البعد العرقي أو الدم
٤١٦	البعد الجنسي
٤١٦	البعد الجغرافي
٤١٧	المناهج الشمولية
٤١٧	منهج الجشتالتين
٤١٨	المنهج الاسلامي
٤٢٤	الجهل
٤٢٥	الجهل البسيط
٤٢٦	تعريف الجهل
٤٢٨	خصائص وسمات الجاهلين
٤٢٩	اتباع الهوى والذنوب
٤٣٥	الغفلة والنسيان عن الله
٤٣٩	الغضب والتشنج
٤٤٢	الترف الفكري